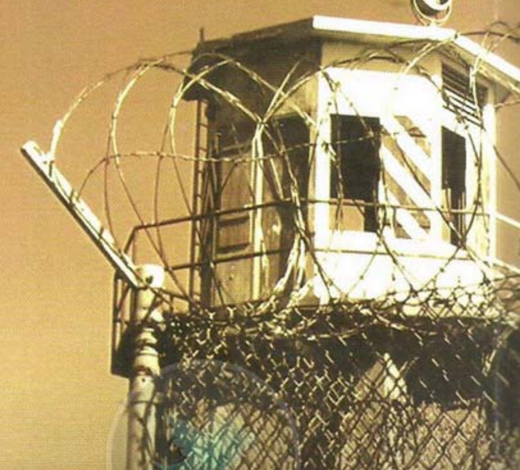
إسماعيل فهد إسماعيل



طيور التاجي

رواية





منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

نوفا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING

الطبعة الأولى



إسماعيل فهد إسماعيل





منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

إسماعيل فهد إسماعيل

طيور التاجي

العنوان

طيور التاجي

تأليف

إسماعيل فهد إسماعيل

الطبعة

الأولى 2014

تصميم وإخراج

ميرور العالمية للدعاية والإعلان

شادي أديب سركيس



نوفا

نوفا بلس للنشر والتوزيع

NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING

www.novapluskw.com

Nova Plus

Novakw

@Novakw

ردمك 978-614-02-1117-9

منشورات ضفاف

DIFAF PUBLISHING

هاتف الرياض: +966509337722

هاتف بيروت: +9613223227

editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف

Editions El-Ikhtilef

149 شارع حسيبة بن بوعلي

الجزائر العاصمة - الجزائر

هاتف/فاكس: +213 21676179

e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

طبع في لبنان

"المبدعون كثيرون،
قلُة منهم يكونون قراءً شامخين"

عبدالرحمن حلّاق

فصل أول

اليوم 2/25 عيد وطني، ولأنه كذلك آل عطلة رسمية مُطلقة، الوقت صباح مبكر، الساعة لم تتجاوز سادستها بعد، مدينة الكويت العاصمة باقية، على غير عادتها، نائمة، مناخ الهدوء يخيّم على الموجودات المحيطة كافّة، وحده دوي محرّك سيارتي يشاغل أذني، راودتني فكرة الاستعانة بالمذياع، لدى استجابة الأخير سمعت مطلع أغنية وطنيّة ذات رتم موسيقي متواتر الاتساق، عهدي بالإصغاء لمثل هذه الأغاني يعود إلى ستينات وسبعينات القرن الماضي، أيام عوض دوّخي على وجه الخصوص، سيارتي تواصل انطلاقها، الجوار خال إلّا من شاحنات جمع القمامة بعمالها ذوي البدلات الصفراء، المسافة ما بين موقع سكني في منطقة ميدان حولّي، وموقع مكتبي في منطقة الصالحية لا تتجاوز ربع ساعة إذا كانت الشوارع مقفرة كما هي الحال الآن، مزاجي العام، كلّما استيقظتُ من نومي مواجهاً نهاراً جديداً متوسط السوء، يواصل حالته المتوسطة يصادفه ما يزيده سوءاً، الفرح حالة مستثناة، أتّخذ قراري أترك سيّارتي عند منعطف قريب، الرياح الصباحية ليست عدوانية تماماً رغم هبوبها باردة، أين لي بما يُحدثُ انقلاباً داخلياً يخلخل حالة سكون أقرب للخمول، أعبر البوابة العريضة للمبنى، وقع حذائي فوق الأرض الرخامية يؤكّد خلو الجوار من بشر غيري، يطمئنني توحّدي المكان رغم مناخ الوحشة الذي يستوطن الممرات الداخلية، أمس

سَرَتْ في البلد إشاعة مفادها غداً عطلة إلزامية بحكم القانون ومن يخالف ذلك يعرّض منشأته للمساءلة، ضرورة تهيئة الأجواء العامة لاحتفالات ذات طابع شعبي جماهيري، لحظة اتخاذي مقعدي وراء طاولتي المحاذية للواجهة الزجاجية المُطلّة على فضاء مقبرة مهجورة عبر الشارع غافلتني زفرة غير محسوبة، قبل أنْ يغافلني صوتي كمن يشمت بالآخر. مرحباً. كيف لي أبادرني دون إيعاز مُسبق مني، ينفرج فمي عن ابتسامة مفارقة، مرّة أولى في حياتي أحييني بالصوت المسموع، يعن لي أسألني. ماذا لو بادرتني، أجبتني. حيّاك الله. سخرية مثل هذه موجّهة لصاحب شأن من، أتأمّلني بيني وبيني بضع ثوان، بدا لي كما لو أنّي رهن حالة شك مكثّف قائم لذاته، ولأن مثل هذا الشك لا يتأتّى عن فراغ يتداعى ذهني يستعيد تفاصيل مكالمة هاتفية صادفتني قبل أيام معدودة. صباح الخير. فوجئتُ بدءاً بالصوت الرجالي ذي القرار العميق، استجبت له. صباح الخير. أظنّك لا تعرفني. لم أردّ من فوري، بما استدعى محدّثي. أنا إبراهيم فرغلي مُحرر مجلّة العربي. أعرفك عن بُعد، سبق لي تابعت بعض كتاباتك. هذا يُسهّل مهمّتي. ما الذي يُبيّته. أبقيت تساؤلي حبيسي، أصغيت له. مجلّتنا تزمع تقديم ملف خاص بالقصة القصيرة في الكويت ضمن عدد قادم، بعد ثلاثة أشهر تحديداً، بصفتك أحد أهم الكتّاب الكويتيين نتمنّى مشاركة إبداعية من جانبك. عبر ذهني على الديباجة التي مهّد بها، أدركت المعنى المضمّن لمقولة مشاركة إبداعية. يؤسفني أنّي غير مستعد لتلبية طلبكم. لم أمهله فرصة إبداء إلحاح. تركت كتابة

القصة القصيرة منذ سنوات. أوشكت أنهي المكالمة لولا إصراره. السيد رئيس التحرير يبلغك تحياته، يصرّ على وجود مشاركة منك ضمن الملف المعني. حاججته بصوت منضبط. هذا طلب قابل للاستجابة لو توفّرت إمكانية تلبيته. حاججني من فوره. كإتب مِثلك يستطيع تحرير قصّة قصيرة خلال ساعات قليلة. لم أبيّت أُفحم أحدهم. أخالك تتحدّث عن تحرير عمود صحفي. أُصدر ضحكة قصيرة دالّة على حرج أو انزعاج موارب. أنا أنفّذ ما طُلب مني، وما على الرسول إلّا البلاغ. كما لو أنّه إزاء إخلاء ساحته، لم يترك لي فرصة الاعتراض. مع السلامة. أيّ سلامة هذه، ها هو المدعو فرغلي وُفّق، بقصد أو من غيره، لأن يثير عاصفة قلق في داخلي، أحالني مسؤولية ثقيلة الوقع خارج إرادتي، معضلتي، لمجلّة العربي دالّتها علي، ولرئيس تحريرها دالّة أكبر. لا مفرّ، والحالة هذه من قبول مبدأ المشاركة رغم كوني غير مؤهل لكي احتشد أكتب قصّة قصيرة، أعملتُ ذهني وقتها بحثاً عن موضوع يصلح لأن يصير مادة أوليّة لقصّة قصيرة، أنفقتُ ثلاث ساعات إمعان مُرهق ولا من خاطرة تصلح للغرض، الخواطر ليست مؤهلة تستجيب لنفر بعينه، لم يبق أمامي سوى احتمال وحيد، أعود أتصفح مخطوطات كتابات ناقصة، فشلتُ بإنجازها في حينه، لعلّي أصادف ما يصلح موضوع قصّة، أتحامل مللي، أتوجّه لرف حاوٍ مهملاتي، أبدأ أقلّبها تباعاً، يبدأ شعوري بالانزعاج يكبُر داخلي، هذه كتابات لا تصلح بالمرّة، يتوجّب أن أفكّر بشكل مختلف.

ضحى هذا اليوم 2001/2/25 تولّى رجال الاستخبارات العراقية تجميع عشرات أسرى كويتيين من أماكن اعتقال متفرّقة داخل أحد عنابر معسكر الوشّاش في الحارثيّة، وصلوا لهناك بزيّهم الموحّد مُقيدي الأيدي من خلاف، معصوبي الأعين، بقوا كذلك لساعات سبقت وصول وجبة طعامهم حيث بادر الجنود بفكّ أربطة عيونهم، ومن ثمّ تحرير أيديهم. في اللحظة طفق الأسرى يتفحّصون وجوه بعضهم، عسى الواحد منهم يتعرّف واحداً آخر، فكان أن حدثت عناقات عدّة وترقرقت عيون بالدمع. متى يحلّ فرجٍ ما غير محسوب. عسى الله يصبّرنا ويصبّركم. أين كنت مسجوناً. في دائرة استخبارات سامراء. وأنت. قضيت السنة الأخيرة في سجن مدينة ميسان. تواصلت أحاديثهم لحين غروب الشمس، عاد الجنود تولوا تقييدهم وربط عيونهم، توزعوهم مجموعات محدودة العدد، وضعوهم داخل حافلات صغيرة توجّهت بهم نحو أماكن مُعدّة سلفاً. لأسباب كانت مجهولة لدى كلّ من بدر وفهد وغالب وجعفر جرى جمعهم معاً، وُضعوا داخل حافلة واحدة، شاءت الصدف أن لا يعرف أيّ من الأربعة أيّاً من الأربعة ما قبل ذلك، لدى نقلهم أخضعوا لحراسة أربعة جنود منعوهم من تبادل الحديث، توجّهوا بهم لمركز أمني في حي المنصور، قضوا هناك زهاء أربع ساعات، تناوب خلالها ضابطان مهام التحقيق معهم منفردين، كما لو أنّهم أسرى جُدد، عندما تجرأ جعفر أبدى ملاحظته للضابط الذي تولاه. أنتم تعرفون كلّ الذي تسألون عنه. اختصر الضابط ردّه. تحديث معلومات. جرأة الواحد لا تسعفه دائماً. لم يقل جعفر. تحديث معلوماتنا يتمثّل بالانتقال من سجن لسجن، وتحديث ثانٍ له علاقة بالموت. حوالي الساعة العاشرة

من ليلتهم تلك، عاد الجنود لإجراءات تعصيب عيونهم، أركبوهم حافلتهم ثانية، قطعوا مسافة ساعتين، توقّفوا بهم. انزلوا. فعل أمر سبق لهم سماعه أكثر من مرّة، لكنه، كما جرت عادة عساكرهم، يسبّقون لذلك برفع عصابات العيون، أنّى لهم تلبية الأمر الصادر بغيابٍ من يُبادر. ولا خيار سوى تحسس طريق النزول استعانة بأكف أيدٍ مُشهرةٍ، وهم يبذلون جهدهم يتلمّسون سبيل نزولٍهم سمعوا صوّتاً آمراً. انتظروا. سمعوا الصوت ذاته يسأل شخصا ما. هل من الضروري إبقاء عيونهم معصوبة. سمعوا صوتاً آخر. الأمر مرهون بك ملازم أيمن، هم منذ الآن عهدتك. لم يتردد صاحب الصوت الأوّل يصدر أمره لشخص منهم. ارفع عصّابات عيونهم. لدى رفعها صافحت جفونهم نسمة هواء باردة، رأوا حالهم وسط ما يشبه المكان القفر، لولا وجود بيتين صغيرين متجاورين، أحدهما يحيطه سور أسلاك شائكة، تنبهوا لوجود برج مراقبة بأنوار كشّافة متحرّكة، لم يتبادر لأذهانهم، في البدء، أنهم داخل محيط معسكر، كانوا يعانون من قلق الجهل بالآتي. شاهدوا ضابطين شابين يقفان متواجهين، يتواجد عندهما عريف، إضافة لجنود أربعة رافقوهم طوال الرحلة. خذهم عريف ريسان للداخل. حاضر سيّدي. وهم يحثّون خطوهم بالاتجاه سمعوا الضابط ذاته. اذهب برفقتهم عريف ريسان. حاضر سيدي. فكّ قيودهم. حاضر سيّدي. اجتيازهم باب البيت وجدوا أنفسهم وسط غرفة معيشة منزل واسعة إلى حدّ ما، هل يضعونهم داخل هذا البيت مؤقّتاً لغرض أخذهم صباح غد إلى أين. رأوا كدس فرش مُلقاة على الأرض، سمعوا العريف إيّاه. هذه فرش أربعة أشخاص. تساءل جعفر. أين دورة المياه. بعد لحظات وصل

أحد الضابطين. أنا ملازم أيمن، سأكون مسؤولاً عنكم طوال فترة وجودكم هنا. سكت وهلة. هل أنتم بحاجة لشيء الآن. لم يبادر أحدهم ينبس. وهو يزمع انصرافه أضاف. ترونني غداً. ما الذي عناه بأن نراه غداً. تساؤل معبأ باحتمالات لا أوّل لها دار في أذهان الأسرى وهم يتبادلون نظراتهم بينهم، بعد انصراف الملازم متبوعاً بعريفه، اغتنم الأربعة الثواني الأولى عرّفوا أنفسهم لهم. أعقبها استكشافهم حدود المكان الذي وُضعوا فيه، عادوا للقاء في غرفة المعيشة. بعيداً عمّا ينتظرنا صباح غد. مهّد بها بدر، تابع. أحتاج أغتسل لأنام من فوري. قال غالب. ماؤهم مثلّج. ليكن. رددها بدر، غاب داخلاً. بالنسبة لي أحتاج أنام. قالها جعفر، انحنى على كدس الفرش، أخذ دثاراً. لما سألنا الضابط إنْ كنّا نحتاج شيئاً محدداً. رددها فهد استطرد متسائلاً بهامش يراوح ما بين أسف وسخرية موجّهة لمجهول. لو سألناه إن كان يسمح لنا ننام في الغرف.

اجتاز ملازم أيمن باب منزل الأسرى الكويتيين يتبعه عريفه ريسان حاملاً وعاءً جراية الطعام المقررة، ودّ لو يرفع صوته، سلام عليكم، لكنه اكتفى بأصدر غمغمة خافتة دالّة على انزعاجه، رأى ثلاثة أسرى في الجوار، انتظر إلى أن وصل رابعهم قادماً من داخل، قال مضمّناً احتجاجه. واحد منكم تسبب بإحراجي. تساءل أقرب الواقفين منه. خير إن شاء الله. لم يتردد أيمن إجابته. جنود برج المراقبة رصدوا ظهور أيّ منكم فوق سطح البيت قبل ساعتين. أنا. قالها رابعهم، أضاف. كنت أنشر الفرش هناك. حدّق فيه أيمن

مستوضحاً. لعلّ الشمس تطرد البراغيث. براغيث. رددها الملازم مستنكراً، جاءه الرد. أو ما شابه. عقد أيمن حاجبيه. ما اسمك. بدر. رتبتك. لستُ عسكريّاً، أنا قاض. حبس أيمن دهشته، تذكّر ما ورد في لوائح تحدد مهام رجل الاستخبارات. لا يسمح بتبادل الحديث مع الأسرى إلّا لأغراض التحقيق، لعلّه لم يتجاوز لوائحه عندما سأل. من منكم عسكري. سادت لحظات صمت تبادل خلالها الأسرى نظرَاتهم بينهم قبل أن يتصدّى بدر. لا أحد. تناوبوا تعريفهم بأنفسهم. فهد بيطري. غالب مفتش موانئ. جعفر صحفي. أمور هؤلاءِ الأربعة جديدة عليه، تسلّم مسؤوليتهم دون أن يعرف عنهم شيئاً، شرد ذهنه أو كاد، اغتنم جعفر فرصته سأل. هل هناك ما يمنع صعود أيّ منّا فوق السطح. لم يجد إجابته من فوره، التفت لعريف ريسان، اجتهد الأخير. هناك ما يمنع، وإلّا ما رصد جنود برج المراقبة تواجد أيّ منهم فوقٍ السطح. تبادر لذهن ملازم أيمن لا مبرر لمكوث أطول، استدار مغادراً يتبعه عريفه. يحظى ملازم أيمن برعاية خاصة من جانب آمر المعسكر. أبوك العميد ركن عبدالرزاق صديق عزيز، بمثابة أخ. أبوه يتبوأ منصب آمرٍ معسكر الرشيد، آمرو المعسكرات الكبيرة يعرفون بعضهم جيّداً، عدا كونهم أعضاء غير مرئيين في القيادة القطرية للحزب الحاكم. ما أن أنهى أيمن أربع سنوات دراسة في الكليّة العسكرية حتّى وجد حاله مُبتعثا لموسكو بقصد حضور دورة متخصصة لضباط الاستخبارات أمدها ستة أشهر، في اليوم التالي لعودته أبلغه أبوه. لك أن تتمتع بأسبوع راحة ثمّ تتوجّه لمعسكر التاجي لكي تتسلّم مهام ضابط استخبارات. الاستخبار خبرة مكتسبة مُعرضة لأن تبهت إذا لم يزاولها صاحبها، الذي

صادف أيمن منذ يوم التحاقه هنا قبل ثلاثة أشهر أنه كُلّف بعمل مكتبي يتصل بالصادر والوارد من بريد السيد عميد المعسكر. عمل روتيني كريه. شكا أمره لأبيه، صبّره الأخير. أنت مرصود لأداء مهمة خاصّة إنْ لم تكن خطيرة. أبوه لا يتكلّم عن فراغٍ، الكبار يعرفون ما لا تتاح معرفته للصغار، قبل أربعة أيام تحديداً أرسل عميد ركن مجيد بطلبه، يكره أيمن مثوله أمام المسؤولين الكبار بما يستلزمه ذلك من انضباط يكتم النَفَس. أمرك سيّدي. على غير عادته أشار العميد لمقعد يجاور مكتبه. اجلس يا أيمن. ولأنه امتثال جبري جلسٍ الأخير منتصب الظهر مدّ العميد يده لدرج قريب، تناول مغلّفا دفعه لأيمن. السلك العسكري عسكري لا مناص، هبّ ملازم أيمن واقفاً لحظة تسلّمه المغلّف. اجلس. كررها العميد بهامش نفاد صبر حاضر سيّدي. امتثال أيمن أعقبته إيماءة دالّة من جانب العميد تؤكد أهمية مضمرةً. فُضّ المغلّف. أمورهم بحتميتها، تفحّص أيمن المغلّف، بدا وزنه خفيفاً، تتوسّطه كلمتان بخط اليد. سرّي للغاية. لماذا الكتابة بالحبر الأحمر، في أعلى الزاوية اليمنى طباعة بارزة، الاستخبارات العسكرية القيادة العامة، العميد ينتظر عليه فضّ المغلّف، حاذر وهو يستجيب، ليس سوى ورقة واحدة بعبارات محدودة. نعلمكم أنّه بتأريخ 2001/2/25 يصل لطرفكم أربعة أسرى كويتيين عُهدة خاصّة جدّاً، ضرورة الالتزام بالإجراءات الاحترازية إنذار ج. لا مجال لإبداء دهشة ما، إنذار ج يعني حالة استعداد قصوى لغرض مواجهة أحداث خطيرة قاب قوسين، بينما المنصوص عليه أربعة أشخاص عُهدة خاصّة، جرى تأكيدها بكلمة جدّاً، ولا مجال أيضاً لتذكير أي مسؤول أنّ الزمن المتبقّي عن وصول العهدة ثلاثة أيام

لا غير، ولا وهلة لأن يسأل أيمن نفسه. علاقتي برسالتهم هذه. أظنّك فهمت القصد يا ملازم أيمن. ليس تماماً سيّدي. تولت كتيبة الهندسة إعادة تأهيل منزلين كانا سكناً للضباط فيما مضى، أوّلهما سيكون لإيواء العهدة المعنيّة وثانيهما لسكناك. لم يتجرأ يستوضح كيفية السكن. تستطيع تفقّد المكان الآن ومعرفة ما ينقصك. سكت العميد ثانيتين. انتدبنا عريف ريسان لكي يكون تحت أمرتك، إنْ احتجت شخصاً آخر لا تتردد تطلب. البيتان المعنيان يقعان في الجوار من سياج الأسلاك الشائكة عند الزاوية الشمالية الأبعد عن عنابر المعسكر بما يجعلهما منعزلين تماماً، لولا وجود برج المراقبة الذي أقيم حديثاً وفاءً للغرض. ما يعرفه أيمن بخصوص هذين البيتين أنهما بُنيا بالتزامن مع إنشاء معسكر التاجي بما يلبّي حاجات الجيش البريطاني أواخر ثلاثينات القرن الماضي، ما يعرفه أيضاً كتيبة الهندسة تولّت إعادة تأهيل البيتين، ما لا يعرفه من أين جاءتهم براغيثهم.

وهم يتعاملون معك بصفتك الإنسان المتفرّغ للكتابة، قصة، رواية، مقالة، بصرف النظر، يخالونك قادراً تكتب قيد الطلب، ولا يدركون إنّ مجرّد التفكير بالكتابة مصدر كآبة مؤهلة تدوم ما دمتَ تراوح ضمن مرحلة الاستعداد. ما بعد الاتصال الهاتفي لإبراهيم فرغلي تواترت فيك هواجسك، كيف لي. في الوقت ذاته أحسستك إزاء حالة أشبه بالتحدّي. أكتب أو لا أكون. ماهي الّا بضعة أيام ثمّ تواجه باتصال أحدهم. الملف متوقّف على تسلّمنا نصّك. الإلحاح مرتبة طموح، لكنّما الاستجابة مرحلة مغيّبة، لو كان الأمر مرهوناً بك

بذلتَ جهدك ناوشت فكرة شاغلتك منذ عشر سنوات، يصدف تزحم لك واجهة ذهنك أياماً أو أسابيع، ينفد بعدها صبرك تجاهها بما يضطرها تتوارى وراء لتعود إلى واجهة ذهنك بعد أمد. الفكرة الملحّة والمعذّبة لك أنْ تكتب قصّة عن أخيك بدر حيث هو في الأسر. ورود الفكرة يُخنسك من داخلك، أو في داخلك. الأسر كلمة مفردة معرّفة، تعريفها لا يعني إدراكك ما الذي تعنيه شعورياً وواقعياً حتّى لو كنت معنيّاً لأنّك أخ شقيق لأسير مُحدد، تتذكّرك أهبتَ نفسك مرّات عدّة. إحساسي الحاد والمؤلم بالفقدان كفيلزيحفزني أكتب وأواصل الكتابة لحين أن. الذي حدث في المرّات العدّة انت لم تستطع تجاوز مرحلة استذكار الألم، ومعاودة اجتراره، ولا تسعفك جرأتك تُشرك غيرك ألمك، اشهار الحزن ليس من شيم البعض، ولا تجزم إذاَ ما كانت شيم الكتّاب تسمح. تأخذك مشاغل الحياة بعيداً عنك لأيام، أسابيع، ليصادفك حدث ما، لقاء شخص اسمه بدر، الارتباط الشرطي بين كل ما له صلة بسلك القضاء أو ذكرى عائلية مشتركة. يا أنت، من أين لمشرط جرّاح، يباغتك يلامسك، ولا تشعر خلال الثواني الأولى بالذي ينتابك، لتجدك بعدها نازفاً فيك. تتذكر مقولة اعتدت ترددها على مسامعك. الزمن مؤهل يخفف حدّة الحزن، يشفّ بها، يشفّ، يصير، هو والأسباب الداعية، ذكرى يهف لها القلب دون مضاعفات خارج الإرادة. حصيلتك الحقيقية أنّ حزنك لم يخف، لم يشف، أسبابه الداعية باقية حاضرة، كأنّها الآن. بلدك تحررت من احتلال عربي دام سبعة أشهر بتحالف عالمي قادته الولايات المتحدة، والاستنتاج الذي يلحّ على وعيك. تحرير بلدٍ ما من احتلال ما يقتضي تحرير ناسه الذين علقوا

في الأسر. اليوم، شأن أمس، عطلة رسمية مُطلقة، عيد التحرير أو ذكراه العاشرة لا فرق، الفرق إنّ الأيام التي أعقبت التحرير جاءت مزدحمة لدرجة توصف بانشداه المنتصر، الحكومة التي أقامت في المملكة العربية السعودية زمن الاحتلال عادت للبلد بعد أسبوع من تحريره لتنهمك كليّاً بمواجهة معضلات وطنية ملحّة، تتمثّل بإطفاء حرائق آبار البترول التي جاوزتِ الثمانمائة أوّلاً، إزالة آلاف الألغام المبثوثة في الأرجاء الكويتية أوّلاً، ترميم أو إصلاح البنية التحتيّة من أجل تيسير أمور حياة عامّة المواطنين أوّلاً، توفير سُبل إعادة مئات آلاف كويتيين تشتتوا طوال شهور الغزو في بقاع الأرضٍ أوّلاً، النصر له متاعب لا مفرّ، الأسرى شأن يُصار لمعالجته ثانياً، الأيام أسابيع، والأسابيع أشهر والأشهر سنوات، العسكريون ممن أسروا خلال اليوم الأول للاجتياح عادوا على دفعات متفاوتة بتعاون صليب أحمر دولي وقوّات دول متحالفة. بعض الأسرى الكويتيين من غير العسكريين كانوا داخل سجون تقع في محافظات عراقية شملتها الانتفاضة الشعبيّة التي رافقت هزيمة جيش النظام العراقي، بما حفّز الجماهير المنتفضة على اقتحام السجون وإطلاق سراح الأسرى كافّة. عودوا لبلدكم مكرّمين. مئات من أسرى آخرين صادف وجود منشآت سجونهم في محافظات عراقية لم يشملها طوفان الانتفاضة الشعبية. علينا العوض. أيّاً كانت صيغة انشغال أصحاب الشأن بأمور لا تحتمل التأجيل، يبقى السكوت على الألم عامل ألم مُضاعف، تمّ إنشاء لجنة عليا لشؤون الأسرى والمفقودين الكويتيين، عسى أحدهم يحدس الحكمة المتوارية وراء إهدار الأسير باحتسابه مفقوداً ولحساب من. اللجنة العليا تبدأ نشاطها رسميّاً. تعالوا يا أولي

الأسرى زودونا بوثائق، صور، معلومات، بيانات، ولا عزاء لسجل مدني خاص بالدولة، اللجنة المعنيّة تكبر لتتعدد اختصاصاتها وتتشعّب إنجازاتها. جدارية لصور مئات الأسرى، لا بأس من تنظيم رحلة عُمرة للأولاد القاصرين من أبناء الأسرى الكويتيين، أبناء الأسرى من فئة بدون لا، الأمر الأهم حضور مؤتمرات دولية تقام بهذا الخصوص. فيما يخصّك كثيراً ما خلوت بك سألتك نيابة عن مسؤولين فعليين. أيام الاحتلال، النظام العراقي يحتجز مئات أو آلاف بشر أجانب تحت مصطلح عسكري يعيدنا لحروب المغول دروع بشرية من رعايا الدول التي تستعد لمحاربته، وسط انشغال العالم أقصاه لأقصاه وجد عشرات من ساسة هذه الدول ذرائعهم توجّهوا للعاصمة العراقية، مثلوا بين يدي أحدهم. لا نخالنا نعود لبلداننا ولا يشملنا كرمكم العربي، إطلاق سراح عدد دروع، تتكثّف زيارات الساسة، ولا مكان هنا لكرامة منتصر، أنت تتعامل مع عقلية أهيب بك سيّدي. سنوات ما بعد التحرير ولا يطرأ على بال أيّ من كبار أو صغار ساسة قائمين. أهيب بك سيّدي. الذي حدث وواصل حدوثه للسنوات العشر الآيلة إنّ مواطناً ما، في حالة ما، إذا زار عاصمة دولةٍ عدوّة سبق لها أن اعتدت، هذا المواطن يخضع لمساءلة أمنيّة غالباً ما تكون فوريّة. ما الذي دعاك. من أذن لك. جهات اتصالك. إيّاك وإلّا واجهت اتهاماً يتضمّن جريمة تخابر مع عدو.

بعد مغادرة ملازم أيمن يتبعه عريفه تولّى جعفر أمر وعاء جراية الطعام. رأى إناءين بالحجم المتوسط، بادر وضعهما فوق الطاولة،

عدّل وضع المقاعد الخيزرانية الأربعة. حيّاكم. اقترب غالب، ألقى نظرة خاطفة على الطعام، لم يُدار استغرابه. رز وعدس للمرّة الألف. قال بدر. هذا أفضل ما يمكن أنْ يقدموه لنا. أنت متأكّد. لا. استجاب فهد. المهم لا يكون طعامهم، كما هي عادتهم، كثير الملح. عقّب جعفر العراقيون يموتون بالملح. تناولهم طعامهم، تساءل بدر. هل تنبّهتم إلى أنّهم قاموا بتجميع عشرات منّا، أعادوا توزيعنا مجموعات، نقلونا لأماكن لا تخطر على البال في يوم عيدنا الوطني. أبدى فهد هامش إعجاب. ما زال بيننا مِن يهتم بحساب الأيام ومعرفة تواريخ المناسبات. نبس غالب متمنيّاً. عسانا نكون هناك في عيدنا الوطني القادم. تواتر حديث الأربعة. زمن وجودي في سجن بو غريب كان هناك وقت تريّض يومي في الأرض الفضاء بين العنابر حالنا هنا سجن في عُمق سجن أوسع. ماذا لو سألنا الملازم. لا جدوى من ذلك، لا تنسوا احتجاجه على بخصوص السطح. الكويت أكملت عشرة أعوام ما بعد التحرير تراهم يتذكّرون أمثالنا من الأسرى أم نحن بحساب المفقودين. لو كانت حكومتنا جادّة في. ما أدراك إنّها غير جادّة. ماذا عن أهلنا هناك. تركت ابني في الخامسة من عمره، هلٍ واصل دراسته. ابني كان في الرابعة، ما أدراني إن كان يظنني حيّاً. لو تتوفّر لنا فرصة معرفة. لو نتوقّف عن ذرّ الملح فوق جراحنا ننهي تناول طعامهم المالح. معك حق. بعدما فرغوا من الأكل رفع جعفر الأواني توجّه بها صوب المطبخ، تساءل فهد مضمّناً احتجاجا. لماذا يغسل أواني الطعام ولا يتركها لهم. قال بدر. الكويتيون، كما هو مُفترض، منظمون. لسنا في مجال إثبات أفضليّة. ما الذي يمنع. أنت قاضٍ. رددها فهد بهامش عتب، هبّ واقفاً، أكمل جملته لدى

ابتعاده. القضاة ينشدون الكمال. خلا المكان لغالب وبدر. قال الأوّل. لم يصدف لنا رأينا بعضنا أيام سجن بو غريب. كنّت عنبر 7. أنا عنبر 23. كذلك لم يصدف لنا التقينا في الكويت. لم يسبق لي المثول أمام أحد القضاة. استدرك. لكنّي التقيت أخاك ربيع عام 1989. سكت وهلة. عملي الوظيفي مُفتش جمارك، لكن عملي الذي أحبّه وأحترمه فنان تشكيلي. خلال السنوات الأولى لغوايته بالرسم شارك غالب فنانين هواة مثله معارض عديدة قبل أن يحضّر لأوّل معرض شخصي له، كلّفه ذلك سنتي رسم ومواصلة رسم، في اليوم الذي حُدّد للافتتاح حضر عدد من الأصدقاء وبعض زملاء المهنة، في اليوم الثاني جاء أشخاص قلائل، بدا وكأنهم وفدوا مصادفة. مساء اليوم الثالث فوجئت بزيارة أخيك، وجهه معروف لي سبق رأيت صوره في الصحف، كانت صالة العرض خالية إلّا منّي، أظنّه لم يتنبّه لوجودي، بدأ جولته بخطوات متباطئة، تصرّفه أكّد اهتماماً مضمراً. مرّ على عدد من اللوحات، توقّف أمام واحدة مدّة دقيقتين، ابتعد عنها ثم عاد يتأمّلها. تصرّفه لِفت اهتمامي، لأنّنا كنا وحدنا تجرأت اقتربت منه. سألته إنْ كان أعجب باللوحة. لم يُجب سؤالي، قال. هذه اللوحة مغايرة للأخريات. لماذا. لأنّها تُعبّر عن حالة. في أحد أيامه هناك بكّر غالب بالذهاب لمركز عمله داخل ميناء الشويخ، لدى مروره وسط عنابر التخزين سمع ثغاء أغنام، الأمر الذي يدعو للاستغرابٍ كان حشد أصوات حيوانية هائلة العدد يواصل بعضه بعضاً، حفّزه فضوله لأن يرى، بادر عالج الباب الصفيح العملاق، فتحه قليلاً، أطلّ، عنبر التخزين بمساحة ملعب كرة قدم صغير، رأى أرضه مزدحمة بآلاف الخراف، المدهش أنّ

الخراف كافّة كانت رافعة رؤوسها نحو السقف العالي للعنبر تواصل الثغاء، لبث غالب واقفاً مأخوذاً بالمشهد. كما لو أن تلك الخراف اتفقت على أداء صوتي موحّد. تلك هي قصة اللوحة، لأن أخاك قال عنها تمثّل حالة. أردت استدراجه للحديث أكثر. سألته. حالة ماذا. كفّ غالب عن مواصلة حديثه، لسبب يخصّه شرد ذهنه منه، استحثّه بدر بفضول يداري توقاً. ماذا أجابك. قطع غالب شروده. أجاب السؤال بسؤال. عقّب بدر بمحبّة مُضمرة لغائب. تلك عادته يستدرجك للإفصاح عن مكنوناتك. لم يتريّث غالب عند تعقيب بدر، قال. سألني عمّا أردتُ قوله، واتتني فكرة أن أعيد صياغة سؤاله، كأن أقول. ما الذي تريد قوله خراف اللوحة. خشيت يخالني أسخر منه، بحثت عن إجابة تناسب فكرة اللوحة. لعلّ هذه الخراف أرادت إعلان احتجاجها تجاه مصيرها المنتظر. فاجأني أخوك بسؤال ثان. هل أنت من الشباب الديموقراطي. حتّى لا أخيب ظنه كلّه قلت له. لست ناشطاً سياسياً لكنّي مع المواقف العامة للمعارضة. لا أجزم ما إذا كانت إجابتي قد أرضته أم لا، أبقى عينيه على اللوحة برهة، انسحب بعدها صامتاً. شعّت عينا بدر بحسّ اكتشافه. الآن عرفتُ مصدر لوحة الخراف المعلّقة على جدار صالة بيت أخي.

لم يتخلّص ملازم أيمن بعد من شعوره بالارتباك لدى تعامله مع العريف ريسان جرّاء فارق السن الكبير بينهما. إذ إنّ عمر أيمن لم يتجاوز الثالثة والعشرين، في حين بدا الآخر وكأنّه تجاوز الستين، لو أنّ آمر المعسكر انتدب له عريفاً غير هذا أو جندياً في مثل سنّه لما

عانى حرجاً وهو يصدر أوامره لرجل يكبُر أباه. إن احتجتني للبقاء معك سيّدي. جملة ناقصة قالها الآخر بعد تأمين وضع الأسرى الكويتيين الأربعة ليلتهم الأولى، نبرة صوته تداري توقه أنْ لا يرفض أيمن. لن أحتاجك الليلة. في الليلة التي تلت عاد ريسان ردد جملته ذاتها بحسّه إيّاه، حكم فارق السن أضطر أيمن. لن أحتاجك الآن. استطرد مشترطاً. تتواجد هنا قبل السادسة صباحاً. حاضر سيّدي. البيتٍ الذي خُصص لسكنى أيمن والآخر، حيث العهدة، متشابهان تماماً، جرى تصميمهما على الطراز الإنجليزي القديم، سور بارتفاع مترين ببوابة حديدية ثقيلة، ثمّ ممر مرصوف وسط أرض فضاء كانت في الماضي حديقة أمامية داخل السور، تواجه بعدها سلّماً رخامياً من ثلاث درجات، تعلوه مظلّة مثلثة الشكل تعلو باباً مهيباً منحوتاً من خشب الأبنوس، ينفتح على غرفة معيشة فارهة المساحة لها نوافذ ست، ثلاث على يمين الباب ومثلها على يساره، ومدفأة حطب في تجويف الحائط المقابل. على جانبي المدفأة بابان، أحدهما يؤدي لغرف النوم ومرافقها، ينفتح الثاني على مطبخ وسيع بنافذتين وباب جانبي يفضي لما كان حديقة خلفية، الأمر الملفت إنّ البيتين المتجاورين يتشاركان أرضهما الخلفية ما قبل تدخّل كتيبة الهندسة حيث فصلت مساحة الأرض، أقامت سور أسلاك شائكة بارتفاع ثلاثة أمتار. في الليلتين اللتين قضاهما ملازم أيمن هنا اختار الأريكة القريبة من الباب، مستعيناً بدثاره الصوفي، وما دار في باله إنّ النوم سيجافيه بشكل معذّب لليلتيه، لأنّها جدّة المكان، أو انشغال البال تجاه مهمّة بدت بسيطة بقدر ما هي غامضة، لو أنّه تذكّر وفّر لنفسه كتاباً يقرأ منه، ولا يجزم متى استغرقه نومه، ليستيقظ على صوت

حركة في المطبخ، أصاخ أذنيه قلقاً برهة، اتسع وعيه لدى تذكّره، وحده عريف ريسان يمتلك نسخة لمفتاح البيت، الساعة، جاوزت العاشرة، راوده خجله، اعتدل جالساً، منذ متى والآخر هنا. صباح الخير سيّدي. رددها ريسان بحيوية يشوبها ما يشبه التعاطف الأبوي. أظنّك لم تنم جيّداً سيّدي. لم تتوفر لأيمن فرصة الرد بعد، استطرد ريسان بالحيوية ذاتها. أعددت لك طعام إفطار عساه يعجبك سيّدي. اجلس ريسان. حاضر سيّدي. ليتك تكفّ عن ترديد كلمة سيّدي عندما نكون وحدنا. شاع احتفاء ريسان في وجهه. حاضر. نوّه أيمن. يلزمني أذهب لبيتي عصراً. سأكون موجوداً هنا لحين عودتك. لاذ أيمن بصمته لوقت قصير ما الذي يتوجّب علينا فعله الآن. نمّ فم ريسانٍ عن ابتسامة رضا. أذهب لمراقبة التوريدات، أرى إنْ كانت وصلتهم متعلّقات السجناء الأربعة. تريّث ذهن أيمن عند كلمة سجناء. أومأ برأسه دلالة الموافقة. نهض ريسان من فوره. لن أغيب طويلاً. لدى لقاء أيمن آمر المعسكر جرى الحديث حول رجال البيت الثاني بصفتهم أسرى، هناك فارق كبير بين سجين لجريمة سبق ارتكابها وأسير حرب يعود بمواطنيته لبلد ثان، استخدام ريسان كلمة سجناء يؤكّد محدودية معرفته. كانت السّاعة جاوزت الحادية عشرة. اتخذ أيمن قرار مغادرة المنزل لاستطلاع الجوار، هبّت رياح رخيّة. السماء بنتف غيوم رمادية، تطلّع صوب برج المراقبة، تذكر ملاحظة أبداها عريف وحدة البرج. أحدهم صعد سطح المنزل المحاط بالأسلاك. وفاءً لمسؤولية مُفترضة نقل أيمن ملاحظة السطح للأسرى. قبل مغادرته مساء أمس استأذنه ريسان يصعد سطح البيت الثاني يُنزل فرش الأربعة، طرأ لأيمن يتساءل مع نفسه، مادام

منزلهم مؤمّناً تماماً داخل منشأة عسكرية، ما الذي يمنع صعودهم فوق سطح البيت المخصص لهم. خطف نظرة ثانيةً لبرج المراقبة. لعلّهم مخططين باجتهادهم. تنبّه إلى أنّه مشى بعيداً بمحاذاة سور الأسلاك الشائكة الموازي للطريق السريعة الموصلة لبغداد، بعد ساعات سيغادر لبيته في مدينة الضباط، يرى أباه، عساه يجيب عن عديد أسئلة مُحيرة باقية تشغله.

لمّا أجرى إبراهيم فرغلي اتصاله الهاتفي قبل أيام شملك انزعاجك. تكره أنْ تتفاجأ من شخص أو جهة بطلب. اكتب. فعلٍ أمر كريهِ غير قابلٍ لأي شيء. لكن انفرادك بنفسك أحالك تحدياً معذّباً غامضاً، شيء ما أقرب لمحاولة إثبات الذات، وإلّا ماذا تُجديك عودتك بذاكرتك لزمن الاحتلال مع علمك المسبق إن عودةً مثل هذه مؤهّلة تُصيبك بالسقم ولا مناص، الاحتلال الحدث، ردّ فعل الكويتيين عامّة، ذهول أو انشداه، أعقبه سؤال أين أنا، أعقبه سؤال ماذا يتوجّب عليّ أفعل. تعددت الاتجاهات كما تنوّعت الاجتهادات. أنت اخترت بدءاً مقاومة كتابية، مشاركة في تحرير منشور يدعو للتظاهر ، مساهمة بصياغة دعوة للعصيان المدني. أخوك بدر اختار المقاومة المسلّحة. يا بدر أنت كنت قاضياً، والقاضي، كما هو مُفترض، يفصل في الأمور الخلافية حسب القانون لا أن يحسمها بقوّة السلاح. ما الذي تريد قوله. عودة للعقل. كنتما شقيقين قريبين إليكما كصديقين، رغم فارق العمر بينكما، تكبره بعشرين سنة. يا بدر أنت بمثابة ابن لي. تقولها بدافع المسؤولية رغم

كونك لم تتزوج فتنجب، يطلق ضحكة قصيرة دالّة على ثقة، يُصغي. أنت تخاطر بحياتك بشكل مُقلق. ضياع الكويت يعني ما عاد هناك ما يستحق القلق بشأنه. أتفهّم واعز فعل المقاومة لديك. إذن. ليتك تجد مشاركة من خلال ما لا يمثّل مخاطرة جسيمة. كأن أنظمَّ لإحدى الجمعيات الخيرية التي تُعنى باحتياجات الأسر. هذا أو غيره. لا أنت تصرّ علي. أنت كاتب، والكاتب، كما صرّحتَ مرّات عدّة، يجد ذاته في الكتابة. سكت ثانيتين. أنا لا أجد ذاتي في العمل التطوّعي الذي أشرت إليه. جد لنفسك. قاطعني. وجدت. أحسستني أمارس جدلاً بلا طائل، طفقت أتنصّت حالات مشاركته مهامه القتالية، ألتمّ على جزعي نهب توقّعي. يا بدر. يناورني. من وهب لنا حياتنا وحده القادر على استعادتها. المعادلة بالصيغة التي يفرض تعامله بها. لم أقل له لسنا إزاء نهج عطاء واستعادة، اكتفيت بأن قلت له. كن حذراً. يضحك. أمر مفروغ منه. هل كان الاحتلال أمراً مفروغاً فيه لمّا وقّت لاستباحة الكويت يوم خميس، المقاومة الكويتيّة وقّتت لعملياتها النوعيّة أيام الخميس من كلّ أسبوع، يوم خميس 1990/11/15 خرج بدر لأداء فعل قتالي ولم يعُد، مرافقوه، بعد عودتهم، أفادوا. كنّا بصدد مداهمة موقع لجنود العدو، وجدنا حالنا محاصرين، أصرّ بدر على تأمين عملية انسحابنا. شعورهم بالفجيعة يتشرّب خبرهم. مع لحظات ابتعادنا ع الخطر بادر العدو استعان بعشرات الآليات والمئات من الجنود لتطويق الموقع. ما الذي بقي. هو الخرس الشعوري، ولا وقت لتقبّل عزاء أو مواساة، الخسارة حينها ليست فرديّة، بعدما أخلى العدو رجاله وآلياته من موقع المواجهة ذاك تولّت مجموعة شباب مقاومة استطلاع المكان،

لا أثر لقتلى، ليس سوى أغلفة طلقات، على افتراض إصابة أو استشهاد، مستشفيات الكويت التي كانت عاملة أيامها خالية من بدر، لا أثر له في ثلاجات حفظ جثث. هل اعتقلوك يا بدر لتخضع لاستجوابات تقترن انتزاعاً قسريّاً لمعلوماتٍ يطلبونها، لا خبر، جهل مصير عزيز خلل ظرف انتحاري أشدّ وقعاً على ناسه من خبر فاجع مُعلن، الاحتلال بالأشهر القليلة المتبقية، التحرير بأسابيع أولى مزدحمة مفاجآت، التقاك شاب لبناني كان من بين أسرى سجن محافظة البصرة، قال لك بحسّ فقدان يتوق لنفيه. التقيت بأخيك بدر، وصل منتصف شهر ديسمبر مع مجموعة شباب كويتيين، المسؤولون من العسكر العراقيين كانوا يعاملونهم بشكل خاصٍ، في اليوم الأوّل لبدء الحرب الجويّة أخذوهم بعيداً. الكلمة بعيداً رديفة لشبيهتها أبداً. الشاب اللبناني تحرر من أسره أيام انتفاضة الجنوب العراقي أوائل شهر مارس، لقاؤكما ذاك، الأسير وأنت، بالكيفيّة الأشبه بالمصادفة العابرة لحدود أو حروب لا فرق، الفرق أنّك لم تفهم معنى المعاملة الخاصة التي وفّرها عسكر عراقي لبدر ورفاقه، مرور أعوامكم العشرة والنيّف والتساؤلات الحاضرة في واجهة مخيّلتك. لو أنه امتثل لطلبي، لو أنّي كنت قاسياً أكثر، لماذا لم أصغ لحدسي الغامض، كنت، في لحظاتنا الأخيرة معاً أعاني ضيق تنفّسَ لم أعهده، كمن يحوّطه هواء ثقيل يصعب عليه استنشاقه. كان بدر جاوز الثلاثين بأشهر، لو أنّه ما زال حيّاً، لو أنّه لسبب يمتّ للمعجزات بصلة عاد لهنا، هل تخالك قادراً تتعرّفه، تدري عن وجوه الرجال، ما بين سن الثلاثين والخامسة والأربعين، تُبقي على ملامحها دون تغيير يُذكر، إلّا إذا صادفها طارئ ما، ظروف الأسر

من جهة، وحالة الحصار الدولي المفروضة علي العراق، انسحاب آثارها على الخدمات والناس الهناك عامّة، لعلّ غير الموالين للنظام يعيشون حياةً يفضلها موت. ما أدراك، فيما لو عاد بدر، أنّك لن تنفجع برؤية وجهه، ولا تجزم ببقاء قامته رياضية منتصبة، القهر والذل بالآثار المترتّبة، عدا عن العطب الذي يصيب بناءه العصبي والسلوكي، عشرات الأسرى ممن عادوا اضطروا لمراجعة مستشفى الأمراض العصبية، بعضهم شُفي، وبعضٌ حاول التعايش مع إعاقته. تخلو لنفسك. أمرك غريب، تفكيرك بالحدث شأن معايشتك له، أنت عُرضة للتفاعل والانفعال، على افتراضك أخوك حيّ في الأسر ينقبض صدرك ليتواتر خفقان قلبك، أين وكيف وحتّى متى والحرب قد، يتحلّب ريقك مرارة مُقطّرة. فإن تحوّلت لافتراضك الثاني، مات في الأسر، هو الحضور الطاغي لفجيعة لا قبل للوعي إلّا برفضها جُملة.

يومهم الثاني في منزل لم يتمكّنوا من معرفة موقعه لولا معلومة ناقصة أدلى بها بدر لدى صعوده أمس فوق السطح. يقع هذا البيت في الطرف الأبعد لفضاء أحد معسكراتهم. هل لاحظت وجود مُدرج طائرات. لا، رأيت مجموعة عنابر قديمة متوازية، وسطها مبنى مِن طابقين. تذكّر أضاف. هناك بضع آليات صغيرة. قال فهد مضمّناً روح مفارقة. تقرير موجز، لكنه واف. حدجه بدر نظرةٍ تأنيب. لو أفهم الكيفيّة التي يفكرون بها. رددهاً جعفرٍ متسائلاً بدافع تمن. بادره فهد. لماذا يجب أن تفهم. لكي أجد تبريراً لتصرفاتهم. تدخّل

غالب. أكثر من عشر سنواتٍ من دون محاكمة. أطلق زفرة أسى. لا حكم بالسجن لمدّة ما، كلّ الذي صادفته جلسات استجواب. لست وحدك. رحل صوت جعفر وراء تمنّيه. لو قيّض لي أطلقوا سراحي عدت للكويت خصصت سنتي الأولى لكتابة سلسلة مقالات يوميات فلان في الأسر. استغربه فهد. لماذا فلان. حتّى لا أقصرني علي. بدأ جعفرٍ خبرته الصحفية أيام كان طالب سنة رابعة ثانوي ، التحق متدرّباً في جريدة الوطن الكويتية بنصف دوام مسائي، كان ذلك خلال خريف عام 1978، انتقل منها إلى جريدة القبس، بقي فيها لحين الاحتلال. لأنّي غير مؤهّلٍ لحمل السلاح آثرت المقاومة الصحفية. قاطعه فهد مشاكساً. تعبير غير دقيق. أدري. رددها جعفر لامبالياً واصل. أنا وزملاء لي تولينا إصدار مطبوعات تندد بالاحتلال، بعدما وضعوا أيديهم على المنشآت الصحفية واتخذوا قرار إصدار صحيفة باسم النداء، إحالة على الاسمِ المستحدث للكويت اختاروا مبنى جريدة القبس ومطبعتها تنفيذاً لذلك. يوم سبت من أوائل شهر سبتمبر احتلال، ساعة الظهيرة، فوجئت بوقوف جيب عسكرية أمام بيتنا في منطقة الجهراء. تعال معنا. هل هناك ما يستدعي. جئناك مكلفين. ممكن أعرف. لا مبرر لخوفك. ولأنّه لا خيار ركبت سيارتهم الجيب، أخذوني لشارع الصحافة في الشويخ، مبنى جريدتي، وجّهوني لدخول مكتب رئيس التحرير، شاهدت ضابطاً رتبة نقيب، نهض عن مقعد رئيس التحرير لحظة دخولي. أهلاً أستاذ جعفر مدّ يده، معرفته للاسم والحفاوة التي. نعم. نتمنى تعاونك معنا نُصدر جريدتكم النداء. هل أخفي استغرابي. جريدتنا. أجاب تساؤلي بتساؤل. ألستَ

أحد مواطني محافظة النداء. هل استغربه ثانية مواطني أين. سألته. طلبكم. مشاركتك في التحرير. أنا موظف إداري أجهل الكتابة الصحفية. تناول واحداً من سجلّات الجريدة، فتحه على صفحة مُحددة، اسمي الكامل وعنوان المنزل وتوصيف الوظيفة، مسؤول المحليات، قال لي. مسمّاك هذا لا يعني أنّك مجرّد موظف إداري. هو كذلك. حدّق إلي في عيني. لدي معرفة كافية بالعمل الصحفي. لم أفهم قصده، تابع. لو بحثت في أعداد سابقة لجريدتكم سأجد مقالات لك أم لا ستجد. لماذا اخترت تغيير مسمّاك من كاتب صحفي لموظف إداري. ضمّنتُ صوتي رجائي. صدّقني أخي أنا عاجز عن الكتابة الآن. انفرجت زاوية فمه بابتسامة مراوغة. جميل منك استخدامك كلمة أخي. ناشدته بما يقرب من توسّل. عندما أجد نفسي قادراً. لم يمهلني أكمل جملتي. شكراً أخي. المعنى المقصود، يمكنك الانصراف، غادرت مبنى الجريدة يتملّكني قلقي، لا أخالهم يتركون واحداً لشأنه، كنت أوشك أجتاز باب بيتي عائداً عندما عادتْ سيارتهم الجيب تتبعها ناقلة جند، الله يستر. تعال. تولّاني جنديان ببندقيتين مشهرتين، في حين اقتحم الباقون البيت. لا تخف، مجرّد إجراء احترازي. ما الذي أفهمه، إجراؤهم الاحترازي أسفر عن مصادفة نسخة منشور يندد بهم، يومي ذاك، لم يأخذوني لمبنى جريدة القبس، لم ألتقِ نقيبهم إيّاه. أخذوك لمنشأة المشاتل. رددها بدر كأنّها أمر مفروغ منه. رفع جعفر حاجبيه. كيف عرفت. تصدّى فهد للرد. لأنّهم اتخذوا من منشأة المشاتل مقراً لاستجوابات استخباراتهم. تدخّل غالب. حيث يحتفظون بالأدوات اللازمة لانتزاع معلومات. شهر جعفر كفّه بأصابع

مفتوحة. في أيامي الأولى انتزعوا أظافري، أمعنوا في إذلالي بذريعة أني من فئة بدون بما يعني يجب يكون ولائي لعراق العروبة. سأله بدر. هل اعترفتَ. بدرت عن جعفر ضحكة قصيرة مشبعة مرارة. كنتُ مرتبطاً بشخص واحد، سميّته لهم بعد يومين. هل اعتقلوه. بلغني من أحد رفاق المشاتل انه عرف أمر اعتقالي منذ اليوم الأوّل سارع اختفى. ما المدّة التي. ثلاثة أسابيع، نقلوني بعدها لمبنى سجن الأحداث، أبقوني شهرين، ومنه لسجن محافظة صلاح الدين، ثمّ معتقل استخبارات بغداد. نقّل نظراته على وجوه الثلاثة، صوته باقٍ يلامس أساه. أسئلة أخرى. لم يكملوا يوم تواجدهم الثاني معاً. يحتاجون وقتاً يعرفون خلاله بعضهم بالشكل الوافي دون أن يتطفّل أيّ على أيّ بأسئلة تُثقل الروح. زمن أسرهمٍ علمهم الكثير بخصوص التعامل مع رفاق بلا سابق معرفة. بدءاً كانوا يعتمدون مبدأ الشك بكل وافد جديد لا سابق معرفة لهمٍ به، ما أدراهم إنّه ليس مندسّاً وُظّف لغرض اكتساب الثقة طموحاً لانكشافه عليهم، توالت الأشهر، ومن ثمّ نشوب حرب تحرير الكويت بما انتهت إليه، وها هم رهن مجهول عليهم، تراكم زمني لا حدود ولا نهاية منظورة، ما عاد لديهم ما يخافون عليه، ما عادوا ملزمين بأخذ حيطة مفترضة خشية ماذا، خوف واحد واصل تربّصه بهم أن ينفقوا أعمارهم ولا ولي أمر من وطنهم يهتم بمعرفة مصيرهم.

دأب أيمن يختار لجلوسه مقعداً يواجه إحدى نوافذ الصالة، الإضاءة النهارية كافية رغم السحب الرمادية التي أخذت تزحم سماء التاجي

أكثر فأكثر، وضعٍ صالة البيت الثاني غيرها عن هنا، كتيبة الهندسة إيّاها سترت أربعاً من النوافذ الست لغرفة المعيشة بصفائح معدنية، وعززت الاثنتين الباقيتين بقضبان حديدية صلبة، إجراءات أمنية احترازية لا مبرر لها ما دام المنزل محاطاً بالأسلاك الشائكة من جوانبه كافة، عدا عن وجوده داخل معسكر، وانتصاب برج المراقبة بنقطة حراسة ملحقة به في الجوار، هل كان أيمن محقاً حين أبدى ملاحظته. أنتم سببتم لي، جنود برج المراقبة رصدوا صعود شخص منكم، كمن حضره وعي الحالة فجأة، ليس من حق عريف وحدة برج المراقبة أن يجتهد خارج نطاق مسؤولياته، استغرقه تأمّله لحظات، ليحضره قراره، أستشير السيّد العميد آمر المعسكر، هبّ واقفاً. عنابر المعسكر مسيرة دقيقتين بالسيّارة الجيب، الطريق الإسفلتية الضيقة تتغلغل بين صفّين من أشجار أثل هرمة تتخللها أشجار أكاسيا عملاقة زرعها الإنجليز قبل ثمانين سنة، لو كان أمر التشجير مرهوناً بأحد أبناء التاجي لبادر زرع نخيلاً الاستئذان يعقبه أداء التحية. سيّدي العميد هل هناك ما يمنع صعود أحد رجال العهدة سطح منزلهم. يسمح له إذا كان بسبب مُقنع. معنى خلص إليه أيمن، وحدي مسؤول عن، وليس من حق عريف وحدة برج المراقبة أنْ. سبقه عريف ريسان بالعودة للمنزل. جئت بمتعلقات السجناء وجرايتهم لهذا اليوم. لفت انتباه أيمن وجود أربع حقائب صغيرة أقرب لأن تكون بالية، فكّر، لعلّ الملابس التي تحتويها بالية أيضاً، حزم أمره. نأخذها إليهم. السلام عليكم. رفع أيمن صوته لدى عبوره باب المنزل. تفاجأ بوجود الأسرى الأربعة حالة انتظار. عليكم السلام. لحظتها همس أيمن لنفسه. هم يترصدون وصولنا. جئناكم بحقائب عائدة لكم. كما لو أنّه أزمع انصرافه فتذكر

أمراً يتوجّب توضيحه، قال لهم. استأذنت لكم بخصوص صعود أيّ منكم فوق سطح البيت إذا استدعته الضرورة. التفت لريسان. راجع مراقبة التوريدات إنْ كان لديهم مضادّات تصلح لمكافحة البراغيث. حاضر سيّدي. عاد وجّه خطابه للأربعة. إن كنتم تحتاجون شيئاً على وجه السرعة. ترك جملته مفتوحة، تبادل الأربعة نظرات استشارة، قال جعفر. مطبخ البيت يطلّ على أرض خلفيّة، لو سمحتم لنا بالخروج إليها ساعة في اليوم. واصل أيمن إصغاءه، أضاف جعفر. الباب الخلفي للمطبخ مقفل. أعمل أيمن ذهنه، مثل هذا الطلب لم يخطر له ببال، على افتراض مبادرته بنقل طلبهم لآمر المعسكر ما أدراه إنّ الأخير لن ينزعج لدرجة الغضب أو الاستهانة به شخصياً. هناك لوائح. مهّد بها. لابُدّ من موافقة جهات عليا. قبل انصرافه من أمامهم سمع جملة صدرت عن أحدهم. بارك الله بك. وصلوا منذ ليلتين لا غير، رغم كونه لم يعرف عنهم سوى أسمائهم إلّا أنّهم حققوا لهم فسحة احترام عنده، ليس جرّاء معرفته بمهنهم في بلدهم ما قبل أسْرِهم، هم، كما يجزم، يحتمون وراء كرامتهم، يتحدّثون بصوت خفيض يهدف لاستماحة الآخر قبل إعلان الرغبة بالشيء، منحى التعامل السائد، كما خبره في حياته العملية هنا في بلده، يراوح بين حالين، أن تتذلل للآخر بصفته منزلة أعلى كي يتفضل يصغي لك، أو يتذلل ثان لك لأنّه مرتبة أدنى، لو واجهه من يقول له، سُنّة الحياة العسكريّة، يَضع ذلك باعتباره، لكنّه في الوقت ذاته يستذكر ما ورد في كتاب الاستخبارات العسكريّة، القيادة العامّة، يصل لطرفكم أربعة أسرى كويتيين عهدة خاصّة، الأمر بالغموض المستعصي، لكنّ لقاءه المرتقب بأبيه بعد ساعة من الآن كفيل بإجابة أسئلته. سأغيب

حتّى حلول الليل. قالها صيغة إخبار وهو يركب سيارته الجيب. شحن عريف ريسان صوته بثقته. لا تشغل بالك. رفع أيمن يده ردّاً على تحية جنود البوابة المؤدية للطريق السريعة باتجاه بغداد. مسافة معسكر التاجي عن مدينة الضباط، حيث بيت العائلة، حوالي ساعة قيادة. تناول غداءك ثمّ اصعد لغرفتك كي ترتاح. تلك هي طريقة أمّه للترحيب به، تخاله جاء لغرض البقاء حتى الغد، توجّه نحو غرفة المعيشة، رأى أباه بزيّه الرٍسمي يستعد للجلوس عند المائدة. أوامر أمّك تقضي بأن نأكل أوّلا. هل أنت مرتاح لمهمّتك. ها هو أبوه يسهّل عليه مشقّة السؤال. يبدو أنّ الأربعة العهدة يمثّلون أهميةٍ فوقٍ العادة. جرّاء حضور أمّه بينهما آثر ألّا يجري الحديث صريحا تماما، للأسرار العسكريّة حُرمتها، انفرج فم أبيه بابتسامة واثقة. هذا أمر مؤكّد وإلّا ما رسا اختيارهم عليك. المفردة الفعل رسا تعني مفاضلة خُصّ بها أيمنٍ من بين عديدين، الكبار يعرفون ما لا يعرفه الصغار. سألتهم مصادفة إنْ كانوا من العسكر، عرّف أحدهم بنفسه قاضي، الثاني بنفسه بيطري. تدخّلت الأم فجأة بعدما تنبّهت إلى استبعادهما مشاركتها الحديث. من هم هؤلاء الذين. قاطعها الأب. لجنة تقصّي حقائق جديدة. صدرتْ عنها همهمة لامبالاة، عادت شغلت عٍينيها بإناء طعامها. أومأ الأب لابنه بما يعني. تأجيل الحديث خضوعاً للظرف.

لا الرغبة ولا النية بإمكانية تحقيق مناخ مؤهّل يجعلك تبدأ كتابة قصّة، الكتابة أشبه باحتدام كيمياوي داخلي، يفعل بصمت أو ضجيج، حتى يحلّ نضج غير مدرك لا يمكنك المراهنة على

نتائجه، فإنْ عُدت لفكرة كتابة قصة أخيك بدر في الأسر عاودكَ ترددك، يصعب عليك تمثّل حالة من خلال معايشتها شعورياً، عدا ذلك أنت غير قادر تتصوّر خبرات لم تسبق لك مصادفتها بصيغة خبرة شخصية، الوقوع في الأسر مُصادرة داخل سجن من نوع خاص، مع فارق إنّ السجن، أي سجن، منشأة قائمة يُستدل عليها. وحال أسرى الكويت مبدأ إنكار مُطلق من جانب القائمين على النظام العراقي، لأسباب غامضة لا يكفّون يصرّحون لا أسرى لدينا، سجوننا خالية من أجانب مُحددين، ومن يتقوّل عكس ذلك عليه إثبات دعاواه. خلال لقاء بين ناشط في حقوق الإنسان وأحد أقطاب المعارضة العراقية من المغتربين في بريطانيا فهم الأوّل عن الأخير، النظام العراقي يتعامل، في مكاتباته وسجلاته الرسمية، مع أي فرد كويتي داخل معتقلاته بصفته عراقياً خارجاً على القانون من بين مواطني محافظة سليبة تُدعى النداء، بناءً على قناعة مثل هذه لا أسرى أجانب من مواطني دولة غير موجودة على الخارطة المعتمدة لدى أولي أمر الدولة المعنيّة. بناءً يجدر بك، أو بالأحرى يتحتّم عليك، أنْ تجد فكرة ما، موضوعاً ليست له علاقة مباشرة بأخيك الأسير، تتفرّغ وقتك تختلي بك، تحتشد بهدف الكتابة فيه أو عنه، وبعكسه ستكون مخزيّاً أمام نفسك لأنّك لست بمستوى تحدّيك لك، عدا عن خيبة ظن رئيس تحرير مجلّة. وأنت تجهد ذهنك منذ كم، تتذكّر جانباً من تفاصيل كابوس أصابك قبل شهرين وبقيت تفاصيله تشاغلك بين الحين والحين، ماذا لو أخذته كما هو، أو عدّلت فيه، عدا عن توافر عامل آخر يُحسب لصالح الفكرة الكابوس، إنّ النص الحداثي يحتمل تجريباً خارجاً عن أساليب

أدبية سائدة، توجّه أمرك للكاتب فيك، احتشد، أبدأ يا أنت ، حاول المواصلة، وقِسْ مداك أين. الافتراض يتطلّب حالة والحالة أنت أو الشخصَ الذي يلزمه يكون أنت، المكان غامض، الزمان مثله، وكذلك الحدث، يُقال، وهذا مرهون بكابوس قائمٍ أو مُفترض، أنّك تواجدتَ خلل مكان متشرّف لا هو بالعالي فعلاً ولا هو بالمتدني موقعاً، زمن الرِوي من زمنِ الحدث، حضوره، يعادل حضورك فيه، ليس ليلياً ولا نهارياً، هو بين بين، بما يحتمل الحالين، الأرض الممتدة تحت ناظريك مغطاة برمل أبيض ناعم، فجأة تزدحم المساحة الرمليّة تحت مستوى ناظريك بآلاف الأقدام الهزيلة الحافية، فجأة أخرى يُلفت انتباهك وجه صديق لك يعيش هناك بامتداد زمنه كلّه، هو ينشغل بالزحمة التي يتواجد فيها دون أن يراك، يتسارعٍ خفقان قلبك جزعاً وأنت ترى شعره الذي عهدته أسود كثيفاً ما عاد باللون والكثافة، وإنّ جلدة رأسه بانت لعينيك صفراء فاقعة، حاله يشابه من يخضعون لجلسات علاج كيمياوي، تحضرك فكرتك هو من مواطني الجارة الشمالية، العراق، من أقصى جنوبه، مصادفته للعلاجِ إيّاه واردة وسط تكهّنات باستخدام الجيش الأمريكي سلاحا باليورانيوم المخصّب أيام حرب تحرير الكويت، ترتّبتْ عنه إصابات لا تحصى بأمراض كانت غريبة، ثمّ باتت مستوطنة معروفة، يُضاف لذلك ما أُشيع عن استعانة وحدات من حرسهم الجمهوري العائد بالأسلحة الكيمياوية لغرض قمع انتفاضة جنوبهم ووسطهم بشكل وحشي أوائل شهر مارس الذي أعقب تحرير الكويت، التساؤل وسط متاهة التكهّنات تسبب لك بشرود ذهن خارج إرادة الفكرة ذات العلاقة، تنبهّت إلى الخلو المطلق للمشهد من حشوده

البشريّة التي كانت تشغله، بما فيهم صديقك إيّاه، لا ترى سوى آثار آلاف الأقدام الحافية مطبوعة في الرمل على امتداد الرؤية، يعلن ذهنك عجز استيعابه. أين اختفوا. سؤالك، بحد ذاته، صار أداةً نزوع عبر المكان، وجدتك تنزلق بنعومة ما بعدها، تنتقل محمولاً بفعل سحر خارق عصي على التفسير نحو أراض فضاء منبسطة مترامية مدّ النظر، وسطها هضبة متوحّدة، بدت وكأنّها قائمة على حالها لسبب غير معلوم، لا هي بالشرقية ولا بالغربية، كلّما اقتربت منها أكثر توضّحت صورتها أجلى، قمّتها مكسوّة حرش نخيل كثيف السعف داكن الخضرة، يشتبك بعضه بعضاً بما يؤلف مشروع غابة، تجزم هو العراق بلد النخيل بلا مُنازع، ولا تجزم بالسبب الذي حدا بصديقك مار الذكر لكي يكون هناك في الوقت. ما الذي جاء بك. أنت ما الذي. لندع كل الذي. ندع كلّ الذي. أسألك ماذا عن أخبار تلك التي. موجودة في البيت. أردف. اذهب أنت أوّلاً ما أدراني أنّك قادم فعلاً. قادم حتماً، أردف. بعدما أتسلّم الجراية المعتادة. هل هي مقررة لك. مقررة لأربعة أشخاص. عساها لا تكون رزّاً وعدساً. مثلما صدفة متوقّعة يُجري إبراهيم فرغلي اتصاله الهاتفي. تحيّات السيد رئيس التحرير. تلتقط أذنك صوت سعلة خافتة صادرة عنه يسألك إذا كنتَ وافقت من حيث المبدأ على المشاركة في الملف الموعود. متى يتوجّب تسليمكم النص. تهلل صوته، أو هذا ما ظننته. معنى هذا أنّك. بدأت أكتب ولا أدري هل سيكون الموضوع مقبولاً لديكم. من أين مصدر الشك. النصّ المزمع جاء غرائبي الهوى. سمعت ضحكته رائقة، أو هذا ما ظننته. توصيف جديد. سكتَ برهة. إنّما لماذا نعتّه بالمزمع. لأنّه قيد التخلّق

ولستُ واثقاً من مواصلة كتابته حتى إتمامه. حيرته تراود صوته. ما الذي أقوله لرئيس التحرير. لا شيء. كيف. لا تتعجّل الأمور. لم أفهم. سأبعث لك بالجزء الذي اعتمدته حتّى الآن وأريد سماع رأيك الشخصي ما إذا كان لا يتعارض مع نهج مجلة العربي. دهشته تستحوذ صوته. لماذا يتعارض. حساسيّة الموضوع. دهشته باقية. حساسيّة. قوس الكتابة ينفتح على بلد بحكم العدو، في حين يجري التعامل مع مجلّتكم بصفتها مطبوعة شبه حكومية. هي حكومية تماماً. هل لديك استعداد إبداء رأي رقابي.

ليس من العدل أن نواصل استغلالنا هذه الصالة لنومنا وجلوسنا مع وجود أربع غرف نوم خالية. قالها جعفر، تدخّل فهد. تستعين بكلمة عدل في سياق حديثك كأننا عرفنا المعنى الحقيقي لكلمة عدل في يوم من الأيام. حاججه غالب. ولا أيامنا هناك. أراد فهد إفحام محدثه. لماذا قلت هناك ولم تذكر الكويت. حسن نيّة. لكن سؤالك لي حمل سوء النيّة. استدرك مضمّناً ما يشبه هاجس تحد. رغم هذا أقول لك ولا على أيامنا في الكويت. تعميم غير عادلٍ. ها أنت تعود للاستعانة بالتعبير ذاته. تدخّل بدر بصوت راج منهياً حواراً ثنائياً مواربًا حدّة. ليتنا نكفّ عن جدل يسببً لنا الكدر. أيّده غالب. فعلاً. ليتنا نحاول البحث عن إجابة لسؤال أراه مهمّاً جدّاً. سكت ثانيتين نقّل خلالها عينيه بين وجوه رفاقه. ما سبب جمعهم لنا نحن الأربعة في هذا البيت الذي لا علاقة له بما يمكن أنْ يكون سجناً أو مُعتقلاً. سادت لحظات صمت أعمل خلالها الباقون

أذهانهم، قال غالب. أنا شخصيّاً استبعد عامل المصادفة. أؤيدك في هذا. أوّل الأمر أحلتُ سبب تواجدنا هنا معاً إلى أننا، كلّنا، كنّا نزلاء سجن بو غريب، ولم تتوفّر لنا فرص لقاء بعضنا البعض جرّاء اختلاف العنابر التي توزّعنا عليها، لولا إفادة جعفر إنّه كان نزيل معتقل استخبارات بغداد لسنوات. عاد صمتهم خيّم عليهم، حسمه فهد بتساؤل وجهه لبدر. لعلّك توصّلت لاستنتاج مُحدد. فاجأه بدر لمّا قال. الاستنتاجٍ هو اسم فهد. بدا الأخير مُستفزّاً. إسمي أنا. تدخّل غالب موجها طلبه لبدر. وضّح. قال بدر. نسمع اسماءنا الثلاثية، أنا بدر فهد الفهد، غالب أحمد بن فهد. جعفر فهد موسى. فهد صالح العبدالله، لكنّ أيّاً منا لا يمتّ لآخر بصلة قرابة عائلية. هناك قاسم مشترك. إنْ كان استنتاجك هذا مصيبا فهو يدل على سذاجة تفكير. إلّا إذا توصلتم لاستنتاج مغاير. على افتراض انت مُحق، ما السبب الذي حدا بهم. سبب واحد على ما أعتقد. أجاب بدر، أكمل. نحن، بشكل وبآخر، نتشارك الاسم الأوّل للشهيد الشيخ فهد الأحمد. أطلق فهد ضحكة مفارقة خافتة. استنتاج غبر قابل للتصديق. قال جعفر. أحتاج وقتاً كي أستوعب معقولية الفكرة. شارك غالب. أنا بالمثل. عاد فهد قال. لو أخذنا الفكرة على محمل الجد معنى هذا هم يفكرون بمنحى لا يمتّ لأيّما آليّة تفكير معروفة بصلة. أيّاً كان تفسيرنا للحالة. لفت بدر اهتمام رفاقه الثلاثة، تابع. أمر ثان يتوجّب علينا أخذه بنظر اعتبارنا. أحاط المكان بإشارة يده. هذا البيت، تواجده في الطرف الأبعد داخل معسكر، إلى جانب إيكال أمرنا لأحد ضباطهم. سكت ثانيتين. هم، على الأغلب، يخططون يحتفظون بنا هنا مدّة طويلة. احتجّ فهد. لماذا الاستعانة

بكلمة يحتفظون. لأننا معزولون مقطوعون عن أسرى أو سجناء أو عساكر آخرين. تدخّل غالب. إلّا إذا ثبتٍ عكس ذلك. خلال الجزء الأخير من حديثهم بقي جعفر صامتاً يتأمّل ما يدلون به. أمر قد لا يتبادر لذهن أيّ منكم. انشدّ الباقون باهتمامهم إليه، استطرد. خلال الأسابيع الأخيرة من وجودي في معتقل استخبارات بغداد هرّب لي أحد رجالهم إشاعة ترقى لدرجة خبر متداول في أوساط مسؤوليهم، أنّ جهات من أعلى هرم السلطة عندهم تسعى لإبرام صفقة أو أكثر مع الجانب الكويتي لغرض إطلاق أسرى مُعينين. ما المقصود بكلمة مُعينين. العنصر الاستخباري الذي خصّني بهذه المعلومة لا يعرف أكثر من ذلك. لعلّه أراد العبث بمشاعرك. ذاكِ العنصر صادقٍ في كلامه. تجزم. أجزم. من أين لك. هو ملتزم دينيّاً. أمر غير كافٍ. خشيته من انحراف موضوع الحديث تدخّل بدر. احتمال وارد. قالها إحالة على ما أفاد به جعفر، أضاف. لهذا السبب تولّوا توزيعنا مجموعات صغيرة معزولة عن غيرها تسهيلاً لإبرام صفقاتهم. لهج غالب. الله يسمع منّك. عقّب جعفر الأيام القادمة كفيلة بكشف المستور. الأسر صيغة عربية تختلف عن غيرها عبر العصور. أنت مُنبَت، مقطوع عن العالم كله، وليس عن وطنك فقط، نمط مُصادرة غير مسؤولة أمام لا أحد، لا حقوق إنسان، لا جمعيّة هلال، أو صليب أحمر، لا جهة في المطلق، لا شيء يُستعان به على عبور زمن مهدور لحساب مجهول، الخلاص شأن مغيّب خلل غموض موصول بالأين، يبقى طموح مصادفة قشّة أمل تشدّ أزر ماذا. يا بدر، أنت كنت قاضياً والقاضي كما هو مُفترض يفصل بالأمور الخلافية استناداً للقانون، لا أن يحسمها بقوّة السلاح.

كلمات قيلت لك، كانت أيام احتلال أولى ولم تُصغ أنت كاتب تجد نفسك في الكتابة. ها أنت وجدت نفسك في مجهول. هناك من يحدس الآتي وهناك من يحصد المرار. يستطيع شخص ما أن يتغلّب على يأسه أو قنوطه وتسميات كثيرة تناسب المأزومين من وطنهم، التضحية واردة، مثلما هي مُحتملة، شرط وجود المعادل المقابل، وبعكسه تكون فعلاً مجانيا ساذجاً للدرجة الغفل، يحز فيك لمّا تقوم بمراجعة نتائج حروب قامت وانتهت، سواء بهزيمة طرف، أو بهدنة بين متحاربين، بند أساسي أوّل أو عاشر، لا فرق، الفرق أنّه في كلّ حروب القرن العشرين، عالمية أو إقليمية، درج الجميع يطلقون سراح أسرى الحروب بعد وضع أوزار ما، إذ لا حكمة ولا جدوى ولا كيف. يا بدر.

اغتنم أبوه فرصة انشغال الأم داخل المطبخ. لا مجال للشك إنّ القيادة وضعت ثقتها فيك. الملاحظة التي أبداها أبوه لم تكن بحجمٍ طموحه للمعرفة. يولوني مسؤولية أشخاص لا أعرف عنهم شيئاً. ما الذي تريد معرفته. لماذا هم أسرى، هل هم خطرون لدرجة تستحق كلّ هذه الإجراءات الاحترازية. حدّق لأبيه في عينيه. إنذار ج. ما الذي تراه أنت. أراهم رجالاً يستحقون الاحترام. القاعدة الذهبية في مبادئ الاستخبارات تفيد، حين تتعامل مع سجنائك ضع مشاعرك جانباً. بدرت عن أيمن ضحكة قصيرة. أنا أتحدث عن رأي الواحد بآخر، لا عن مشاعر شخصيّة. ابتسم أبوه. لدي ثقة كبيرة بأنّك أهلٌ لتنكّب مسؤولياتك. أرجو أنْ أظلّ عند حسن

ظنّك. بدا للأب وكأنّ حديثهما يقترب من نهايته. حتّى تخفف من أعبائك اطلب من العميد مجيد انتداب ضابط ثان أهل للثقة يتولى مسؤولياتك في حالة غيابك عن المعسكر. سأفعل، بعدما أكون واثقاً من فهم الأشخاص الأربعة. احتدّ صوت أبيه فجأة. لستَ مُطالباً أن تفهم طبائع بشر أوكلت لك مسؤوليتهم. هُم صنف بشر غير. بمعنى ماذا. احتار أيمن إجابته وهلة. بمعنى إنّهم أبعد ما يكونون عن سلوك سجناء رغم كلّ السنوات التي. لهذا السبب اتخذت القيادة قرار حجزهم داخل المعسكر وأوكلت أمرهم لك. هل هناك مجموعة أو أكثر داخل معسكرك. استنكره أبوه. لماذا السؤال. أحسّ أيمن بأنّه عرف الإجابة. آسف. تلاشى انزعاج أبيه. لا بأس عليك. لاذ بصمته وهلة وجيزة. السيد الرئيس حفظه الله يستشرف المستقبل كما لا يفعل غيره. لاذ بصمته وهلة وجيزة أخرى. هناك حكمة من وراء عزل أسرى. تريّث بعد تلفّظه كلمة أسرى، ختم. هم، كما يبدو، من علية قومهم. هل يجزم أيمن باتساع أفق معرفته تجاه أشخاصه العهدة. انفق ساعة باختيار مجموعة كتب يستعين بها على استجلاب النوم في بيت المعسكر، قرر شراء مصباح منضدة للقراءة من الباعة الطارئين في محيط ساحة التحرير. الحصار الاقتصادي الذي فُرض على العراق منذ وضعت أمّ المعارك أوزارها قبل عشر سنوات تسبب في تدنّي مستوى معيشة عامّة الناس، لتنشط بالمقابل أسواق طيّارة مؤقتة، اتخذت من الأرصفة مواقع لها، تعتمد على توفير منتجات مُهرّبة. وهو يفاوض البائع على ثمن المصباح قال له الأخير. صناعة سورية مضمونة. المفارقة أنّ سوريا بلد عدو بامتياز كما نصّتْ مقررات الكليّة العسكريّة، وقفتْ إلى جانب إيران خلال

سنوات حرب الخليج الأولى، وفي الثانية شاركت بوحدات قتالية، المؤلم كما فهم أيمن من أبيه أيامها إنّ الحزب الحاكم في سوريا هو حزب بعث كذلك، لكنّه بإجماع القيادة القومية هنا مارق عميل للرجعية والاستعمار والامبريالية ولا أمل يُرجّى منه. أيمن بدوره يكاد يجزم إنه شخص لا أمل يُرجّى منه رغم جهوده المكثّفة بقراءة أدبيات الحزب وحضوره العديد من المؤتمرات التنظيمية أيام كان طالباً، إلّا إنّ ذهنه أبى استيعاب ما أريد له، الحال واقع قائم ولا مناص من التظاهر بالفهم وإبداء الحماس المناسب ما دام المعني ابن أحد كبار قادة الجيش. لمّا نشبت أمّ المعارك كان ما يزال صغير السن غير مؤهّل لأن يفهم ما الذي يعنيه خوض حرب ما بإمكانيات محدودة لدرجةٍ حسبانها محسومة لصالح الطرف الآخر، وما واتته مناسبة إعمال خياله بالتفكير بعيداً، ما دامت القناعة العامة تقول. بعد أنْ عجز أعداء العراق عن دحر العراق اضطرّوا فرضوا حصارهم الاقتصادي عليه. خلال دورته التدريبية في موسكو صادفه من حَرَف له مسار تفكيره، مارلين مدرّسة مادة العلوم السياسية، كانت رغم صغر سنّها مقارنة بزملائها المدرسين ذات اطلاع واسع بطبيعة أنظمة دول شرق أوسطيّة، النظام العراقي والنظام السوري على وجه الخصوص جرّاء الارتباط الاستراتيجي بين هذين النظامين ونظام بلدها روسيا. الرجل الذي يقود سوريا يتمتّع بذكاء وحنكة سياسية يفتقدها قائدكم. سمعها من مارلين خلال لقاء ثنائي بعدما وثقت بتوقه لمعرفة ماذا وراء عداء بلدين عربيين جارين تحكمهما آيديولوجية واحدة. وإلّا ما الذي تقوله عن الدراما المثيرة للشفقة لما تدعونه أمّ المعارك. دراما مثيرة للشفقة. والرثاء أيضاً. حدّقتْ

مارلين لأيمن في عينيه، استطردت بصيغة تساؤل. كيف يتأتّى لدولة ضعيفة خرجت لتوّها من حرب طاحنة دامت ثمانية أعوام مع جارة لها أن تقدم على احتلال دولة جارة أخرى ولا تريد الإصغاء لصوت العقل فتسحب جيشها دون خسائر هائلة لا يمكن تعويضها في المستقبل المنظور، لتقدم على رهان خوض معركة ضد جيوش دول كثيرة. لم يجد أيمن وقتها ما يعقّب به. حاكمكم أهوج. هل كان للآنسة مارلين دور أساس بتغيير منحى تفكير أيمن. وما وجد مبرراً لمشاركة غيره بقناعات لا تُقدّم ولا تؤخر إزاء أوضاع راسخة، ليس ازدواج شخصيّة بمعناه، لكنّه وهو يجادل أباه بين الحين والحين ينتابه هاجس مفاده أبوه يعي ما يدور ولا يملك إلّا مواصلة وجوده ترساً في آلة عملاقة يتحكم بها السيد الرئيس حفظه الله، ولا عزاء. قبل بلوغه الطريق السريعة انحرف أيمن بالسيارة الجيب يساراً، هناك بضعة مشاتل للزراعات الداخلية، منذ خلوته نفسه بيته الفيكتوري الطراز وهو يفكر باستئناس نبتة غاردينيا.

بورك جهدك. تحية لا ينقصها الحماس، عَنَتْ لي أنت فعلت حسناً، لكنّها، بصدورها عن فرغلي مجلّة العربي، تؤكّد رضاً أو قبولاً مشروطاً بجزء من نصّ قصصي سبق أرسلته له قبل ساعات. حفّزني فضولي. أعجبك. كلمة إعجاب وحدها لا تكفي. ها أنا أتلقّى تحية تفوق سابقتها. تنوي نشره. ضحك. ليس بالإمكان إصدار حكم نهائي إلّا بعد إنجازك له. حددت قصدي. هل أيتعارض مع سياسة النشر المعتمدة لدى مجلّة العربي. لا يتعارض مادام يتناول موضوعاً

عربياً. أنت واثق. واثق جدّاً تجاه جزء قرأته. أنهي مكالمتنا، أبذل ذهني متأمّلاً. الكتابة مغامرة قائمة بذاتها لها متعتها الخاصّة بها، وهذا ثمن مجز سواء جاءت الحصيلة عند مستوى الطموح أم لم. النص الذي بدأته بمشهد حشودٍ آلاف أقدام هزيلة حافية، تريّثا عند حرش نخيل. اذهب أنت أوّلا قصده أسبقه لبيته، في الكوابيس بصفتها أحلاماً ذات طابع عدواني لا ضرورة لمعرفة خارطة طريق أو استعانة بوسيلة نقل، أمري لا يعدو كونه تبييت نيّة. أنا في المكان القصد، داخل غرفة محدودة المساحة، ضلع ثلاثة أمتار، رأيت زوجة صديقي جالسة القرفصاء فوق حصير من خوص النخيل متآكل الحواف. سلام. سلام. مرّ زمن طويل. طويل جدّاً. المسافات لا ترحم. معك حق. أجاملها، تجاملني، ينتابني هاجس مفاده أنا مسؤول عن ماذا رغم أنّي أدري أو لا أريد أدري، لذتُ بصمتي، لاذت بصمتها قبل أن تشرد عيناها. سنحت لي فرصة تفحّص وجهها، غياب عشرين سنة، ملامحها باقية مثلما هي، عدا ضمور الخدين وبروز عظام الفكّين. عساه لا يتأخّر. صوتها مثله سابقاً عدا هبوط ملحوظ، تصاحبه رعشة خفيّة دالّة على ضعف بدني عام وتسليم يائس لمقدور جبري، تشاغلتُ عن وجهها بالتطلّع للجوار كمن يبحث عن شيء يجلس عليه، تنبّهت لي، افسحت جانبا من حصيرها. أضافت مشيرة نحو سقف الغرفة. الفرش الخاصّة بنا منشورة فوق السطح، لعلّ الشمس تطرد البراغيث. يلزمني أندهش فأتساءل. براغيث. أخالها ابتسمت أو أنّها أزمعت، قالت. أو ما شابه يُقال عن المصابين بأحد أنواع الصرع إنّ إشارة بدء نوبة الصرع تتمثّل بإحساس يشارف اليقين ينتاب المصروع سبق لي رأيت هذا.

سبق لي عشته. ومن ثمّ انهيار الجسد تحت وقع النوبة، وأنا جالس على طرف الحصير هناك انتابني إحساس يقيني. سبق رأيت بل عشت، ليس هنا حسب، أنا وحشود الأقدام الحافية الهزيلة، جلدة الرأس الصفراء من أثرٍ الكيمياوي، ولا من توقّع باقتراب نوبة صرع. أشاغل عيني بعيداً عن وجهها، أردتُ ألّا أحرجها أو أحرجني جرّاء نسياني اسمها، لأنّه غياب العشرين سنة أم هو انمحاء. لا تحمل همّاً. تهيب بي، تراها عرفت ما يدور في رأسي. يخالجني خجلي. أردت أشاغلني، سألتها. لا أحد منهم. أنا أرسلتهم خارجاً. إلى أين. إلى المكان إيّاه. لم أفهم رغم استطرادها. هم بأمسّ الحاجة لأن ينسوا. ما الذي يتوجّب عليهم نسيانه. تطلّعتْ في مستنكرة، تثاقلتْ على هزال جسدها، نهضتْ. أنت تُكثر من توجيه أسئلة عصيّة الإجابات. المرأة، بصرف النظر عن ظرف جائر قائم، تبقى على حق، لم أجد ما أردّ به، لم أجدني في المكان عينه، لا أدري إن كان تثاقلها نهوضها من حصيرتها السعف عني إيذاناً بصرفي بعيداً أم أنها طبيعة الزمن البرزخي لكوابيس دون غيرها أخذتني خارج إرادتي، كنت وسط أراض بور مترامية، أمشي فوق تراب ناعم يوحي بملمس لحمي. ما هذا الذي يحدث لي. هبّتْ رياح، بدأت مسالمة طيّعة أخذت تشتدّ تدريجياً، خنست لها أحدس فعلها، صارت تهبّ عبر الجهات كافّة، لا مثيل لما أراه، هل أنا إزاء امتحان خبرة. تطاير التراب الناعم دوامات تداخلت بعضها شكّلت سحابة تلامس الأرض، ترتفع عنها قليلاً لما فوق حزامٍ الواحد. ها أنا، انطلاقاً من النصف الأعلى لجسدي، أرى سحباً بيضاء دانية مثلما هي ممتدّة من الأفق حتّى الأفق، قبل أنْ يغافلني أنفي يشمّ

رائحة شواء، شيء ما يُشوى في الخفاء، أمورهم غرابة مُستحكمة، ولا مناص من مغادرة المكان، الاستجابة لحظة ورود الفكرة في الذهن، صرتُ أقف خارج باب المنزل حيث المرأة، لا داخل غرفتها كما هي حال المرّة السابقة، سمعتها تكلّم نفسها. إذا كان الموت مكتوباً على أيّ منّا ما الذي يمنع حدوثه. فهمت مما سمعته أنّ الحياة آلت استحالة متحققة، الأفكار لا تكف تتوارد ذهني، حريّ بي أعتذر لها، أعود أتساءلني. لماذا أعتذر. أمر جللٍ حدث في زمن ماض بعيد، فيما يخصّني لست مسؤولاً ولا ملوماً، هناك مسؤول أوّل أخير يتربّع على سدّته، حفظه الله، ينظر من عَلٍ للملايين أقدام هزيلة حافية. يكفينا إصرارنا على الصمود أمام حصارهم المقيت ذي الأهداف المعروفة حتّى لو استمر قرناً، نموت ولا ننحني. الخطاب الآخذ برقاب المآذن. إنّ الله مع الصابرين. عبر زجاج واجهة مكتبيٍ الكائن في منطقة الصالحية يصلني نداء آذان العشاء. الله أكبر. قادما من مآذن مساجد قريبة. ليل أواخر فبراير2001 لا يمت بأيّ صلة قريبة أو بعيدة لليل أواخر فبراير1991. الناس بزخم فرحة التحرير، والناس تتحرّك تحت سماء محجوبة بدخان أسود مترتّب عن حرق آبار بترول، والناس ممن فقدوا عزيزاً، أو على شفا قلق انتظار عودة أسرى، عشرة أعوام مرّت ولا من خبر يؤكّد أو ينفي، كيف لي بنصّ قصّة يرقى لحسن الظن وأنا أسير احتدامٍ داخلي.

أيام تواجدهم في سجون حقيقية وليس داخل منزل صغير في النأي من أي عمران صادفتهم مناسبات، وإن كانت قليلة، وفرت

لهمٍ فرص معرفة ما يدور في وطنهم، طبيعة السجن ليست راكدة كلّيا، هناك وجوه قادمة لتوّها تعرف أخباراً جديدة، لا يخلو بعضها من مفارقة، الكويت الآن صارتٍ ولاية أمريكية بعدما تقدّمتْ حكومتها بطلب اتحاد تمّ قبوله فوراً، الكويت مزدحمة بمعسكرات الجيش الأمريكي وجيوش دول أجنبية أخرى. ديناركم يخوض معركة لئيمة غير متكافئة ضد دينارنا، بمساندة الامبريالية العالمية صار ديناركم يُعادل عِشرة آلاف من دنانيرنا بعدما كان سعر صرف الواحد منهما مساوياً للثاني، سمعنا إنّ حكومتكم بدأت محادثات رسميّة مباشرة مع القادة الانفصاليين الأكراد في الشمال لغرض بدء تبادل دُبلوماسي على مستوى سفراء. الأخبار القادمة مع نزلاء جدد، بصرف النظر عن محتواها، تُؤكّد ما مفاده الكويت مستقرّة بهذا الشكل أو ذاك، وأهلها بخير، تبقى مسألة النقمة التي توجّه للأسرى الكويتيين بتأثير قناعة تتصل بتعويضات إلزامية الدفع عن أضرار حرب تُقدّر بعشرات مليارات دولارات من جانب طرف خاضع لحصار عالمي جائر في واحدة من هذه المصادفات تواجه سجين جديد مع غالب. أنتم تسيطرون على إنتاجنا النفطي كله استعانة بعملاء لكم وأنتم تبيعونه لصالحكم. كيف. اسأل نفسك. سواء سأل غالب نفسه أو لم، شيء ما في داخله يقول له. الحق بهذا الخصوص آخذ مجراه. الزمنٍ الآن، ولا يقينية تجاه المدّة التي سيبقونهٍا هنا، المعرفة بالشيء، أيّاً كان مصدرها، تمنح شعوٍراً ولو هامشيّاً باستقرار مطلوب لتحقيق عامل توازن يبدو غامضاٍ لكنّه ضروري. من أين لك القبض على إنسانيتك، تبقى متماسكاً أمام آسريك، أمام رفاق يشاركونك المكان على الأقل، فإنْ خلوت بك

مع نفسك اترك لك ولها العنان إلى ما شاء من ينام في وطنك ملء جفنيه. على افتراض قبول ما سمعه أحدهم من أحد رجال استخبارات، إشاعة ترقي لمستوى خبر متداول جهات من أعلى هرم السلطة، لا بأس أن يتعلق أيٌّ بأيّ أمل باشتراط التحقق بعد شهر، ستة أشهر، سنة. باشتراط ألّا يكون القنوط بديلاً لأمل مجاني، الزمن حركة مراوحة بلا أثر لتغير ملموس، يبقي تعويضك الإنساني الوحيد والبسيط إلى جانب كونه ضروريا جدّا لعبور زمنك المحل أن تتآلف والآخر الذي يقاسمك المكان. في بالي أقول لك. نظرا لتواجدهم جميعهم طوال الوقت في غرفة المعيشة غالباً ما تكون أحاديثهم بعيدة عمّا هو ذاتي تماما، الطبيعة البشرية تحتاج إصغاءً ينحو مكاشفة ثنائية. تصادف غياب كل من فهد وغالب داخل المنزل اقترب جعفر، رحّب به بدر. حيّاك. سبق لي لقاء أخيك. لم يجد بدر ما يُعقّب به. طبيعة عملي الصحفي وفّرت لي أكثر من فرصة. بدأ ذهن بدر مناوشته. غالب أوّلاً، جعفر ثانيا، لم يبق سوى فهد، هل سيتولى أخوه، وهو في الأبعد المستحيل، هناك في الكويت، مهمّة تأكيد شكل ارتباطه برفاق أسرى المكان هنا. أرجو ألّا تنزعج منّي. إطلاقاً. أنت متأكّد. لم يُدار بدر اندهاشه. لم أفهم قصدك. لأنّي لم أصرّح به بعد. صرّح. تردد جعفر ثانيتين. هل تتفق معي، أخاك يعاني اعتداداً واضحا بالنفس. السؤال الصيغة بالتضمين المفاجئ، لفت اهتمامه توظيف جعفر لفعل المعاناة، في حين جاء الاعتداد بالنفس معادلاً للغرور. لا أظنّك تتوقّع منّي التصدّي للدفاع عن أخي. خنس جعفر برهة. أردت معرفة ما إذا كنتُ مصيباً باستنتاجي. ما دمت غير واثق من حكمك إذن أنت

مخطئ. احتجّ جعفر. حكم سريع جداً. أنا الآن ألعب دور القاضي. ابتسم، أضاف. خُذ حكمي الثاني على شخصيّتك. جعفر حالة توقّع، استطرد بدر بما يشبه الاستنتاج. أنت كما أظن غير متزوج. استغراب جعفر ينازع استنكاره. كيف عرفت. فراسة. هل آخذ كلامك على محمل الجد. قليلاً. تابع. لِي أصدقاء فئة بدون من أيام الدراسة الثانوية. حصر ذهنه مستذكرا. كانوا أربعة، ثلاثة منهم رغم تجاوزهم سن الثلاثين لم تراودهم فكرة الزواج، كانوا يقولون إن لم نؤمن حالنا أوّلاً كيف نرتكب جناية إنجاب أطفال يجدون حالهم في مهب المجهول. اختلجت عضلات وجه جعفر، محدثه لامس حساسيّة متوارية وراء ما هو يومي، غافلتْ بدر زفرة أخرى. أنا متزوج. تهدّج صوته لحظة استطراده. لدي ولد وابنتان. المشاركة شأن المغلوبين على ماذا، ودّ جعفر لو يواسي محدّثه، سبقه بدر. بهذا الشكل أو ذاك نحن مسؤولون. أكّد. الساكت عن الظلم كافر برضاه. سادت لحظات صمت وجد جعفر بعدها سانحة مشاركة، سأل. ما اسم ولدك. فهد.

على الرغم من إحساس الألفة المرتبط بوجود نبتة الغاردينيا في الجوار انتاب أيمن ما يشبه القنوط، هل هو انعكاس الحالة العامة للناس، معايشته لهم عن قرب لمّا قام بجولته وسط باعة الأرصفة لغرض شراء مصباح طاولة، خنوع لا حدود له، تسليم يائس لمقدور لا قبل لأحد بدفعه ولا جرأة بالحديث عن الأسباب الداعية، الإعلام الرسمي يردد أنت في عراق العزّة والسؤدد والمجد والكرامة،

مترادفات لغوية تفقد معانيها عندما لا يجد الفرد ما يطمئن به لعبور يومه، هو زمن المشي على الحافّة، كنتَ بدخل شهري يراوح حول المائة دينار يكفيك مدى ثلاثين يوماً، عشرات آلاف الدنانير الآن لا تكفيك لأسبوع واحد، عدا ندرة وسائل إدامة الحياة ذاتها، الحصار الدولي المفروض منذ متى، امتدت آثاره لتشمل كلّ الذي له صلة بما هو إنساني، الهدف الأساس المعلنٍ معاقبة النظام، ولا تفهم كيف تتم معاقبة نظام يلقي لومه خارجا. هرم السلطة، البطانة، كبار الضباط، القيادات الحزبية، هؤلاء جميعهم ينعمون بخيرات الحصار الدولي. لهم أسواق مقفلة عليهم، السلع حسب الطلبٍ بسعر الصرف القديم للعملة، الدينار ثلاثة دولارات وثلاثين سنتاً، بينما سعر صرف الدولار الواحد خارج تلك الأسواق ثلاثة آلاف دينارٍ، أيمن لا يعاني مما ورد ذكره ما دام أبوه بالمكانة والنفوذ، كان مؤهلا يواصل حياته بقناعات سابقة مُريحة ما دامت سنّة الحياة ناس تُسعد وناس تعاني، لولا مصادفته مارلين. عدا عن فهمها لدور الأحزاب القومية في حركة التحرر العربية يتذكّرها قالت. حزب البعث الذي يحكم بلدكم اسم على لا مسمّى. صعب عليه فهمه، حقيقة النظام أنه شمولي بالمعنى الأضيق للكلمة، صفوة أعضاء الحزب وضعوا أيديهم عليه حوّلوه شركة مقفلة قبل انفراد الرئيس برأيه منحّياً كلّ من تسوّل له نفسه. لم تكمل جملتها. واصلت. دَرَجَ قادة الأنظمة الشموليّة على تصفية معارضيهم. مارلين شابّة ذات جاذبية غامضة بملامح شرق أوسطية، في البدء استغرب إجادتها العربية بلكنة بغدادية لذيذة، ليعرف أنّ أمّها عراقية مسيحية سبق عملت مترجمة في المكتب الرئيسي لإدارة شركة نفط العراق، تزوجت من خبير

روسي عمل في بغداد. يتذكّرها ضحكتْ. أبي يجيد العربية قبل زواجه من أمي، في بيتنا عشرات الكتبِ العربية. توطدت علاقتهما لدرجة الصداقة، تعدّتها، عرفها لا تفكر بالعيش في العراق. عزّى نفسه بلا إمكانية ارتباطهما، كونها مسيحية، أبوه التكريتي لا ولن يوافق، إضافة لما يسببه زواج ضابط جيش بامرأة أجنبية. وهي تودّعه داخل صالة المغادرين في مطار موسكو. أعرف صعوبة الحصار الدولي المفروض عليكم. لم تكمل جملتها، مدّت يدها عدّلت ياقة قميصه. لو رُفِع الحصار الدولي. أطلقت ضحكة قصيرة لا تخلو من شعور بالخجلِ. نفذ لي طلبي هذا. دست له قصاصة ورق في جيب صداره، آثر ألّا يتسبب بإثارة خجلها أكثر، لم يبادر يقرأ قصاصتها إلى أن استقر به جلوسه في مقعد الطائرة. روايتان لفؤاد التكرلي، الرجع البعيد، المسرّات والأوجاع. مجموعاتٍ قصصية لمحمد خضيّر، دواوين شعر بدر شاكر السيّاب. وما خَطَرَ له أن التساؤلات التي أثارتها مارلين حول نظام حكم ما مع الكتب التي أوصته عليها ستلعب دوراً في قلب مزاجه النفسي من لامبالاة تجاه حالة عامة قائمة. اقترب عريف ريسان. إذا لم تمانِع. فهم أيمن المطلوب. اذهب، على أن تكون هنا في الثامنة صباحاً. أمرك. امتنانه جاء مصحوباً بتحيّة استعداد. الظلام يخيّم، بعد قليل تبدأ الأنوار الكاشفة لبرج المراقبة، أبوه اقترح. يطلب من العميد مجيد انتداب ضابط ثانٍ يتولى مسؤولياتك في حالة غيابك عن المعسكر. غيابه عن المعسكر يعني تواجده في البيت، وهذا ليس طموحاً يستحق الجهد، هو يؤثر الوحدة شرط لا وحشة المكان، هنا حيث الطرف الأبعد لمحيط معسكر، وجود بيتين متجاورين يشتركان مساحة أرض خلفية، لو

كان الظرف غيره، لو أنّ جيران أحد المنزلين ليسوا أسرى عُهدة خاصّة، أبوه أبلغه رسالة مفادها إنّ أهمية المعنيين تتأتّى عن كونهم علية قومهم، أيمن من جانبه استطاع التوصّل لاستنتاج. مجموعات عدّة من علية قومهم يتواجدون داخل محيط معسكرات أخرى.

إبراهيم فرغلي لم يتصل هاتفياً، عساك أنهيتِ نصّك القصصي، لعلّه حاذر إحراجك، تبقى مسؤوليتيك أنْ، ولا تُجادل في أنّ الكتابة فعل تراكمي. مشهد أول، حتّى رابع، ثمّ توقّف كتابة مترتّب عنٍ عدوىٍ قنوط، كان هدفك تكتب عن أخيك. لكن تناولك موضوعا بديلاً ذا صلة، بافتراض تواجد أخيك في المكان البلد، أخذك لحقل ألغام شعوري، وجدتك في المهبّ، تقول هو الحصار الدولي الذي هدف يُضعف نظام حكم عرف بشموليته فأفقر شعباً مغلوباً على أرضه لدرجة ماذا، تقول، كنت واقفا أمام بابها، وصلك صوتها تشكو مجهولاً لمجهول. إذا كان الموت مكتوباً. رغم طلب صديقك إيّاه تسبقه فيلقاك حال قدومه، نازعني شعور حاد يقضي بلا جدوى ملازمة المكان. أطبقتُ جفني ، فعلُ أمر بانتقال، فتحتهما، أنا وسط تفاصيل مشهد بغرابة موقع مخصص لتصوير فيلم خيال علمي مستقبلي يمُتُّ لماض ضارب في ماضٍ آخر، تجاور غير مُدرك لتضاريس طبيعية جغرافية متآلفة بقدر ما هيّ متنافرة، جبل بالجوار من غابة بالجوار من بحر، ينابيع فوّارة عند مسقط شلال، على مسافة خطوة من بركانٍ محتدم لا يني ينفث حممه، بقايا صروح أو آثار لحضارات بادت تحيل رائيها لما مفاده أنّها الأمس القريب، الأمر الداعي لغرابة

مضاعفة إنّ مكوّنات المشهد كافّة مُسربلة بلون ينتمي لما هو دموي بتدرّجات متفاوتة، بدءاً من البني الفاتح انتهاءً بالقرمزي، أمر لاحق يؤكّد هذه الغرابة هو الانعدام الكلّي للصوت، حيث لا نأمة ولا صدى ولا برغم احتشاد الموقع ببشر شتّى كلّ ينشغل بتأدية عمل يخصّه، باغتني أنفي بِدأ يشمّ رائحةً زنخة سرعان ما أحالتني لموادّ كيمياوية محرّمة دوليّا، أتفحّص الأرض حيث أقف، كانت مغطاة بأوحال لزجة لونها بني يميل لخضرة آيلة، الرائحة تنبعث هنا، أو لعلّه الجوار، أتنصّتني من داخل أذني، ما أدراني أنّي أصبتُ بالصمم دون إشعاري لي. أسمع وجيب قلبي في العمق مني، لا بأس عليّ، ولا مناصٍ من مغادرة. في تداول مشاهد سابقة كان إزماعي يكفيني، كأنْ أضمر نيّة الانتقال فأنتقل فوراً، وأنا وسط المكان ذي التدرّجات اللونيّة الدمويّة فقدتُ خاصيّتي تلك، تذكّرت أنّ لي سيّارة سبق أوقفتها في مكان قريب، تلفّت، رأيتها على مبعدة بضع خطوات، حشود الناس حولي تنشغل بأداءٍ أعمالها، الصمت باق حالة خرس كليّ، تحسستُ جيوبي بحثاً عن مفاتيحي، لا مفاتيح. أين أضعتها. لفتَ اهتمامي وجود طفل لم يبلغ العاشرة من عمره يقف بمواجهتي، مبعدة مترين، رأيت سلسلة مفاتيحي عالقة بأصابع يده. سلمْها لي. فعل أمر لا معنى له، مددت يدي مفتوحة الكفّ. هذه مفاتيحي. لا أنا سمعتُ صوتي ولا هو سمعني، شاهدته يرخي أصابعه عن سلسلتي، انزلقت الأخيرة، هوت نحو الأرض الموحلة. لماذا. الصمت وحده، ولأنّي حالة اضطرار خطوت، وقفت أمامه، تفحّصته، وجه ضامرٍ وجسد هزيل، بدا لي قميصه الذي لا يكاد يصل لركبتيه فائضا عليه. كيف لسوء التغذية أنْ. مفاتيحي عالقة

في الوحل، أنحني قاصداً التقاطها، ينزكم أنفي بالرائحة الزنخة المتكاثفة أكثر للوحل، أخاله متشبّعاً بما هو كيمياوي، مسألة الوقت تحكمني، يلزمني ألّا آبه، رغم محاولتي تحييدي تقع عيناي على ساقيه الأشبه بقصبتين. كيف لسوء التغذية أن يفتك لدرجة. رأيت ساقيه باتصالهما بقدميه الحافيتين، رأيت قدميه مزروعتين راسختين بالأرض الموحلة كما لو أنّهما منذ الأزل، التقطتُ مفاتيحي، التقت عيناي بعينيه، لم ألمس تحدّياً، حدستُ مكابرة يخالطها هامش عتب، وددتُ أصرّح. لست مسؤولاً ولا ملوماً. استدرتُ حاثّاً خطوي باتجاه سيارتي، عهدي بها زرقاء باهتة، فاجأني لونها البني الغامق، مادام الجوار كلّه، وصلتها، تنبّهت لوجود فتحة متشظية في سقفها، تذكرت إصابة طارئة من دانة مدفع أيام حرب الخليج الأولى، الملفت هو حواف الفتحة، كانت متّجهة للخارج، بما يؤكّد انطلاق دانة المدفع من داخل السيارة، حراجة الموقف ولا وقت كي أمعن التفكير بماض لا صلة مباشرة له بي، فتحت باب سيارتي، جلست وراء المقود، تحسستُ جيوبي، أحتاج مبلغاً محدداً ادفعه رسوم عبورٍ حدود. أحبطتني جيوبي الفارغة. ماذا بخصوص وثيقة سفري. لعلها في درج السيارة، يخيّل إلي إنّ نسبة الأوحال المحيطة آخذة تزداد، خشيت محاصرتها لي، أتحرّك حذراً، سيّارتي تدب، تتسارع قليلاً، لحظة انطلاقها سريعاً تطلّعتُ في مرآة السائق أمامي، رأيت صديقي إيّاه في عمق المرآة يلوح بامتداد ذراعه، حركة يده عَنتْ. أراك لاحقا. ماذا لو استدرتُ عائداً. اهتزّ جسد السيارة قوياً، قيام حرب خليج ثالثة أمر مستبعد في المستقبل المنظور، عدتُ حدّقتُ في مرآة السائق، جسم ملفوف بالسواد يعترض الطريق، لو وقفتُ كي أتحقق من كونه ماذا، الأمر

يحتاج تفكيراً ينحو تأمّلاً، لا علاقة لي بجسم ملفوف أو غير، بما يؤكّد لا صلتي ولا مسؤوليتي، الاستنتاج الأخير يُحيلني تساؤلا هل أنا كذلك حقا. كما بلوغ غاية مبهمة أتوقّف عن الكتابة، النص، بقراءتي له لا يحتمل إضافة، عدا جملة تبريرية تتصدّره أو أذيّله بها مفادها، حين يُصاب أحدهم بحلم يراوح ما بين الخلسة والخلسة يُفاجأ بنفسه متأخّراً. ولن أقدم على مراجعة النص توقاً لجعله أفضل خشية انبثاق نقمة شخصية من لدُني تجهز عليه.

غالباً ما تتوارد لبال فهد ذكرى لاهفة بقدر ما هي معذبة تجعله يقف ساهماً لوهلة تطول أو تقصر قبل أن يخلص لمناشدة نفسه، ليس هكذا، وفي حالات أخرى يؤنّبها، يكفيني ما فيني. رائحة متخمّرة لغبار قديم تندس في زوايا غرف هذا البيت الكائن داخلٍ معسكر مجهول له لا تكفّ تحيله، دون وعي منه، لبيت كان سكنا لعائلته أيام صباه في منطقة شرقٍ أواخر ستينات الكويت. كفاية نوم. صوتِ أبيه يلحّ عليه محمّلا تأنيباً صباح كلّ يوم، يعقبه صوت أمّه مُحذراً. انهض لئلا تُغضب أباك. تضيف. إخوتك سبقوك. هو غير أيّ من أخوته، يكره إصرار أبويه. قم نم. رغم أنّ الساعة لم تتجاوز التاسعة ليلاً، أو. هيا انهض. يعقبها وعيدهم. وراك مدرسة. على أيامه تلك كره المدرسة وكلّ الذي يتصل بها، ولولا إلزامهم له لم يكمل دراسته الثانوية. الجامعة. لا أُريد. ماذا عن مستقبلك. أنا مسؤول. اختر بينٍ مواصلة الدراسة في الجامعة أو مغادرة البيت. المغادرة تعني تشرّدا، تشرّد لثلاث سنوات، حتى أشار عليه أحد

معارفه. هناك فرصة لكيٍ تكون بيطرياً بعد دراسة مدّة سنة. أبدى فهد تذمّره. دراسة أيضاً. دراسة بسيطة تتصل بالحيوانات. حرن فهد، حثّه الآخر. يدفعون لك مائة دينار مكافأة شهرية خلال مدّة الدراسة. المكافأة وحدها كانت سبباً وراء انتظامه سنة دراسة. تسلّم عام 1982 مركز بيطرة جزيرة فيلكا يساعده معالج فلسطيني، وبقي هناك حتّى حدث احتلال، فيلكا منذ يوم ثاني أغسطس ذاك منطقة عسكرية عراقية محرّمة على المدنيين، الجنود الذين انتشروا في أنحاء فيلكا انذروه. يتوجّب عليك المغادرة خلال أربع وعشرين ساعة. ماذا عن الحيوانات قيد الملاحظة. دع ملاحظة حيواناتك لنا. البعض لا يأخذ أمور غيره على محمل الجد، تغاضى فهد عن مهانة مضمرة. أحتاج مهلة ثلاثة أيام. لا تُجادل وإلّا. لو أنهم أغفلوا احتلال جزيرة فيلكا. هل أفهم من هذا أنّك كنت غير مهتم باحتلالهم بقيّة أرجاء وطنك. تساءل غالب مُضمّناً نبرة استهجان، كانا يقفان أمام القضبان الحديدية الخاصّة نافذة للمطبخ تطلّ على فسحة الأرض الخلفيّة. تساءل فهد. ما الفرق. صُدم غالب إزاء تصريح محدثه، تابع الأوّل. المقاومة الكويتية لم تُحرر الكويت من الاحتلال، جيوش الدول المتحالفة هي التي فعلت. لا اعتراض على استنتاجك. هذه حقيقة لا استنتاج. أوافقك رأيك في جانب منه، إنّما ما كان لدول العالم أن تقف مع الحق الكويتي لو لم يقف الإنسان الكويتي مع نفسه. تقصد أنْ يقاوم. فعلاً. أطلق فهد زفرة أسى. ما الذي فعلته بنا المقاومة سوى ها إنّا هنا ولا أحد ممن قاومنا لأجلهم اهتمّ بمصيرنا. هذا أمر آخر. لم أفهم. لأنّك ترفضٍ تفهم. شكراً. رددها فهد دالّة على انزعاجه، سكت برهة محاولاً لم شتاته، تذكّر بعدها أشار

للأرض الفضاء أمامه. متى يسمحون لنا بالخروج داخل أسوارهم الشائكة نشمّ هواء الخارج بدلاً من الهواء المكتوم داخل البيت. حتّى يأذن لنا الضابط. هل تتوقّع موافقته. على الأغلب. أومأ غالب برأسه موافقاً. قال. يخيّل لي هو عنصر طيّب. هذا حكم متسرّع. ربّما يكون حكمي متسرّعاً لكنّه لن يضيرني إلى أن يأتيه ما يغيّره. أنا شخصيّاً لا أستطيع منح ثقتي لأي عراقي. واضح. ماذا تعني. أنت حدّي أكثر من المطلوب. بدرت عن فهد ضحكة خافتة. في العادة أسمع من يقول لي أنت متشائم. ضحك غالب بدوره. لعلّي أقولها في وقت لاحق. يتذكّر فهد مغادرته المهينة لجزيرة فيلكا ضحى ثاني يوم احتلال، الزورق الذي أقلّهم، هو وزوجته وولده ابن الخمس سنوات، أقلّ بالإضافة لهم عوائل عديدة من أهالي فيلكا، لجوء من جزيرة عائدة لبلد باتجاه داخله، عند مرسى السفن الصغيرة في رأس السالميّة استقبله شباب كويتيون، عملوا على تأمين مساكن مؤقّتة لهم، مستغلين توفّر منازل خالية عائدة لكويتيين متواجدين في الخارج. امهلونا بعض وقت نوفر لكم لوازم أساسيّة. ليس الإحساس بالمهانة لكنّه اللجوء النشاز خلال ظرف قهري لم يشهد له التأريخ الحديث مثيلاً، أن تغادر بيتك بحقيبة ثياب لا غير، يراودك أملك بأن يكون الحدث أزمة طارئة تدوم أياماً قليلة، تعود أمور الديرة لنصابها السابق، وساطات الزعامات العربية والضغوط الدولية، ولا بُدّ من إيجاد حلول لخلافات دولتين شقيقتين، تعيش يومك بناءً على ما هو مؤقّت، تناور جزعك الآخذ خناقك. انسحاب القوّات العراقيّة آت حتماً. القوّات العراقيّة لم، مرّ حوالي شهر ولم، اعتاد فهد طوال سنواته الأخيرة على تعامل يومي مع الحيوانات، رأيه أنّها لا تعرف

مكر الإنسان أو غدره، بات حنينه لنمط حياته السابقة يأخذ عليه مشاعره، نمط العسكر بالمصادرة المصاحبة، النقمة تبدأ من داخل الصدر، احتجاج يرتبط بلا معقولية ما يمارسه الآخر عليك، بطيئاً أو سريعاً ينحو احتجاجك كراهية عاتية تطمح لأن ترد الصاع، المقاومة الكويتية أخبار متداولة، ولا اعتبار لمواطنين مهجرين من فيلكا، وإلّا لماذا لا وسيلة اتصال. كنت مسكوناً بهاجس ارتكاب فعل انتقامي يحقق لدي توازناً ما دامت عساكرهم سلبت حريّتي واطمئناني وغيّرت نهج حياتي يحقّ لي أنْ. هل وُفّقت للالتحاق بالمقاومة في حينه. احتدّ صوت فهد قليلاً. لماذا لجأت لكلمة وُفّقت. ما المانع. قل هل ساقك سوء حظّك للالتحاق بالمقاومة. ضحك غالب. لم تمهلني وقتاً كي أقولها. ماذا. أنت متشائم جدّاً.

من أجل التحاقه بدورة استخبارات تدريبية في موسكو اضطر أيمن يسافر برّاً حتّى العاصمة الأردنية عمّان كي يركب طائرة الخطوط الجوّية الروسيّة من هناك، مطار بغداد الدولي مُغلق أمام حركة الطيران انصياعاً لبنود الحصار الدولي، سفره البرّي استغرق نهاراً كاملاً، لكنّ تعبه المترتّب زايله حال وصوله بيتهم الكائن في جبل الحسين. حمداً لله على سلامتك يا ابن العم. استقبله الرجل الكهل الحاج عارف المسؤول عن رعاية البيت والحديقة التابعة، يعرف أيمن عن أبيه أنّه إضافة لهذا البيت يمتلك شقّة فاخرة وسط بيروت، قضى ليلة واحدة هناك، توجّه ضحى اليوم التالي لمطار الملكة علياء الدولي، لدى عودته اتخذ قرار البقاء في عمّان بضعة

أيام، ليس ما يدعوه للعودة إلى بغدادٍ سريعاً. خلال أيام قضاها هناك قام بجولات شملتْ أسواقاً عصرية لم يجد فيها ضالته ما يلفت اهتمامه، صادف دخوله سوق البخارية، تملّكه إحساسه أنّه يرتاد سوق الشورجة، المكان والروائح والبضائع المعروضة، اشترى مسبحة لأبيه، وخشب بخور لأمّه، غير بعيد عن مدخل البخارية رأى مكتبة، تذكّر طلب مارلين، ناوله البائع روايتين لفؤاد التكرلي، قال له. العراقيون المتواجدون هنا يطلبون هذه. أشار للرجع البعيد، معرض حديثه مع حاج عارف سأله الأخير إن كان مرّ بالساحة الهاشميّة. هل هناك ما يستدعي. تساءل أيمن بفضول، انفرج فم حاج عارف بابتسامة مراوغة. سترى عراقيين كثيرين. لا حاجة لي. ألح الرجل حاج عارف. ليتك تسمح لي أرافقك لهناك. فكّر أيمن. يتحتّم وجود شيء ما غير اعتيادي، انصياعه يحفزه فضوله، تفاجأ لدى وصوله، رأى الساحة مزدحمة بمئات الباعة الذين يفترشون الأرض أو يقفون وراء بسطات متواضعة، بما أحاله للأسواق الطيّارة في بغدادٍ. عراقيون. رددها حاج عارف مجرّدة، تطلّع أيمن رآهم خليطاً من رجال ونساء، أحسّ وخزة ألم في الجزء الأيسر من صدره. رأى عشرات عباءات عراقية سوداء. ما الذي يبيعونه. سجائر. سكت ثانيتين. بينهم مهندسين وأساتذة، دفعهم عوزهم. فجأة عمّت الفوضى المكان، تراكض الباعة نحو الشوارع التي تنفتح على الساحة، البعض منهم سنحت لهم فرصتهم حملوا محتويات بسطاتهم، بعض آخر فرّ بجلده تاركاً أشياءه وراءه. بين اليوم والثاني يقوم مفتشو بلدية عمّان بمداهمة الساحة ومن يلقون عليه القبض من الباعة. ترك جملته معلّقة. أعرف أستاذ علم الكيمياء في جامعة

المستنصرية، وصل لهنا قبل ستة أشهر. دار بعينيه على بقايا البضائع المنثورة في الساحة حيث لا أحد من الباعة، هناك عدد من رجال أمن أردنيين. تعال. تابعا طريقهما مبتعدين. كان في بالٍي أعرّفك به. لم يتبادر لذهن أيمن يسأل. ما الهدف. بات ليلته قلقاً. منظر النسوة العراقيات وهن يتراكضن هاربات متمسكات بعباءاتهن كما الإهانة الموجّهة لمن، اتخذ قراره ينهي أيام إجازة منحها لنفسه، عاد لبغداد، الحصار الدولي وحده أم أنّها الطبيعة الاستبدادية لنظام حاكم كما أفادت مارلين. قبل أن يبدأ البحث عن بقيّة كتب طلبتها الأخيرة من أجل إرسالها لها تذكّر أيمن ما قاله بائع كتب سوق البخارية. العراقيون يطلبون هذه الرواية. تبادر لذهن أيمن. لابُدّ من وجود سرّ ما. انفرد بكتاب الرجع البعيد، وجده يستحوذ على اهتمامه، تملّكته رغبة ارتياد الأزقّة البغداديّة التي ورد ذكرها في الكتاب، أدرك سبب تعلّق العراقيين المغتربين به، الحنين للوطن والبديل الذي يشفّ عنه.

الكتابة مهنة من لا مهنة له، أو هي مهنة الكسالى عبر التأريخ، كلمات قالها بعضهم، وبعض آخر قال. على الكاتب أنْ يكون موضوعياً متجرّداً من مشاعره وانفعالاته حين يتعرض لموضوع ما. لدى تمثّلي كابوس الحصار الدولي على بلد يُفترض به يكون عدوّا، أو مناوشتي للوحة سريالية إنْ لم تكن كيمياوية تمتّ لقمع انتفاضة شعب بصلة، وجدتني الهشُ انفعالاً، مثلما قُيّض لأنفي يشمّ، ولم أجدً تبريراً لحالة صمم لازمتني طوال مشهد أخير من كابوس وارد. حصيلة المباشرة والانفعالية. ليس بهذا المعنى. قالها فرغلي

مُنحازاً للنص. يتحتّم حضور شيء من المباشرة في سياق الأعمال الابداعية المسؤولة. هل أنت راض عن العمل ككل. تقريباً. سكت برهة. كابوس مزدوج عنوان مباشّر يؤذي النص. تريّث ذهني عند الفعل يؤذي، كما لو أنّ محدّثي تقصّد إيقاع أذاه بي. أقترح حذف ملاحظتك التي أردتَ التصدير أو التذييل بها، حين يصاب أحدهم بحلم. كما لو أنّه يهدف لحذف النص كله. قال. بودّي اقتراح اسم ما لا يراه نائم، هو يفي بالغرض. ما دمت تصرّ. هل لمس انزعاجي. لو كانت لديك. قاطعته. لديك مقترحات أو محذوفات أخرى. ضحك. لا بعد أيام من عاد فرغلي هاتفني. نحتاج صورة حديثة لك. لا أرتاح لصوري. نظراً لأهميتها ستكون قصتك في صدارة الملف. شحنتني كلماته غروراً. لك ما شئت.أحسستني بعدها كما لو أنّ أموري خرجت عن السيطرة، صرت أشبه بشخصٍ معطّل الفعلٍ، آل أمر نصّي الغرائبي لأيد لا سلطان لي عليها، محال أجري اتصالا لأقول، أزمع استعادة ما سلّمتكم إيّاه، تملكني هاجس معذب اتخذ شقّين، الأول له علاقة بالبعض هنا، حيث لا أضمن ردّ فعل كويتيين عديدين إزاء انحياز كاتب مواطن لقضايا تمتّ لبلد عدو، لأجله لن أعدم من يعيد تصنيف بصفتي صاحب ولاء مزدوج، أو بلا ولاء، الثاني يتصل بآخرين هناك، ما أدراني أنّ أيّاً من كتّابهم لن يتصدّى لي في مطبوعة تصدر خارج العراق، من هذا الشخص الذي تخفّى وراء تعاطف مفتعل في حين بقي هدفه يدور في فلك الشماتة الرخيصة، بقيت نهب قلقي لأسبوع كامل، شاغلتني بعده فكرة لقاء فرغلي، محاولة اشراكه المعاناة عساه يفعل شيئاً قبل فوات أوان. يقع مبنى مجلة العربي على ضفة طريق جانبية موازية لشارع

الاستقلال من منطقة بنيد القار، مبانيها القديمة المتجاورة تتخللها أشجار صفصاف هرمة وهدوء مترتّب عن لا زحمة السيارات بما يحيلك إلى كويت ستينات القرن الماضي. ما هذه المناسبة السعيدة. تهلل وجه فرغلي لدى رؤيتي. شدّ على يدي. شاي أم قهوة. قلت. مكاتبكم تقع في منطقة هادئة. قال. لن تصلني بروقة ملف القصّة قبلٍ شهر مِن الآن. لم أزرك لهذا السبب. حاول مداراة فضوله. أهلاً وسهلاً. لم أدارِ شعوري بالحرج. طبيعة النص. ما به. أخشى يتسبب بإثارة نقمة البعض هنا. لن يحدث. ثقته تستوطن صوته، تابع. كتابة مثل هذه لا تلفت انتباه الذين يزايدون على ولائهم. ابتسم. لا يجدون وقتاً لقراءة مجلّة العربي. لو وافقتك اجتهادك، ما أدراني أنّي لن استعدي كتّاباً عراقيين أو عرباً يخالونني أردت الشماتة من. قاطعني. هل أردت ذلك. نفيتُ صادقاً. كذلك الحال معي بصفتي أحد المتلقين العرب المحايدين، إحساسك الذي انتقل إلي كان مشاركة إنسانيّة خالصة. تعتقد. أومأ برأسه موافقاً. أمر هامٍ يجب لا يغيب عن بالك. أصغيت له. نصّك يصنّفك حداثيا متطرّفاً. لم أميّز ما إذا كان يهدف يمدح أو يقدح. قارئ نصّك يتعاملٍ معه انطباعياً. لم أفهم قصده. سيأخذه بصفته كابوساً مزدوجا. سكت متأمّلاً برهة. النظام الفاشي الذي يحكم العراق كابوس أوّل، الحصار الدولي كابوس ثان. حدّق إلي في عيني. هذا ما أردت قوله في نصّك، أليس كذلك. لا أدري. تبدّى استغرابه في وجهه. لم تكن تفاصيل الفكرةٍ واضحةٍ في ذهني. يُصادفك مثل هذا في الكتابة الإبداعية أحيانا. دائماً. بذل جهده يداري استنكاره، لعله هدف لتغيير مجرى الحديث. العديد من الكتّاب هنا تناولوا قضيّة

أسرى كويتيين ما زال النظام العراقي يحتفظ بهم. تريّث ذهني عند الكلمة يحتفظ. سمعته. إدارة تحرير المجلة تُفكر بعمل تحقيق موسّع. لعلّه توقّع تعقيباً مني، لم أفعل. ليس قبل سنة من الآن. لعلّه توقّع تعقيبي، لم أستجب. هل لديك نيّة المساهمة كتابة. لا عقد حاجبيه، قال مراوحا بين التساؤل والإقرار. عرفتُ من رئيس التحرير لديك أخ أسير.

قصّة أغرب من الخيال. شرد بصره نحو السماء البعيدة. لا أحد سواي صادفه. خنس غالب فجأة، خذله صوته، إحساسه بقبضة عاتية أطبقت على حنجرته، مدّ بدر كفّه لامس كتف غالب، كانا يقفان عند نافذة غرفة المعيشة. اسمها رباب. سحب شهيقاً لصدره. اسم زوجتي رباب. أومأ بدر برأسه يشجع الآخر يواصل إفضاءه. لأسباب تتصل بطموحي لأن أكون فنانا تشكيلياً أوّلاً بقيتُ عزباً حتّى سن الثلاثين، تزوجتُ صيف عام 89. غافلته زفرته. أوائل عام 90 اكتشفت رباب كونها حاملاً، لعلّه شهرها الأول أو الثاني، رباب لا تُحسن العدّ، ثقلتْ حركتها في الأسبوع الأخير من يوليو أذهبُ بك لمستشفى الولادة. عندما يحين الوقت. ما أدراك أنّه لم. أنا الحامل لا أنت. يتذكّرها قالت. تُفكر تبعدني عنك سريعاً. ثقلت حركتها أكثر يوم الأربعاء الأول من أغسطس، آخذك لمستشفى. قاطعته وهي تحتوي بطنها بكفّيها. غداً. ليلتهم تلك، استيقظ غالب على صيحات ألم صادرة عن رباب. خذني للمستشفى. ليل الصيف، الحر والرطوبة ودوي وحدة التكييف، ما الذي يحدث،

هناك دوي غريب متواتر كنّا نسكن منطقة العُمَريَّة، شقّة طابق أوّل مستأجرة تطلّ على طريق الدائري الخامس. قال أنّه بادر ارتدى ثيابه، تذكّر تطلّع لساعته، رآها تجاوزت الرابعة والنصف فجراً، الشمس، على ما يعتقد، سوف تُشرق قريباً، عاد الدوي بأعلى، شيء ما غير عادي يدور في الخارج، اقترب للنافذة، فتحها، هجم هدير محركات عدد طائرات تحوّم على ارتفاع منخفض، الدوي العالي والمفاجئ في الوقت ذاته يسبب صمماً وقتياً. ماذا يحدث. تسأله رباب صارخة، ما أدراه ماذا. يعرف عن الأوضاع الحدوديّة المتأزّمة بين الكويت والعراق. احتمال مناورات للطيران الحربي الكويتي. عندنا طيران حربي. استغرب منها تساؤلها وهي في حالة مخاض. عندنا طيران حربي ويتحتم عليك الاستعداد كي آخذك الآن لمستشفى الولادة. أيّاً كانت طبيعة احتمالات تواردت ذهن غالب فجر يومهم ذاك بخصوص ما يحدث، احتمال واحد لم يشغله بالمرّة أن تكون مئات آليات جيش النظام العراقي اجتاحت الحدود الشمالية للكويت، تجاوزت الجهراء، شارفت منطقة صليبيخات. كان غالب وقتها يتولّى قيادة سيّارته الصغيرة، رباب تحتل المقعد المجاور له، انطلق باتجاه مستشفى الولادة في منطقة الشويخ، لدى تقدّمه بدأ يلمّ بالذي يدور، أصوات دانات مدافع الهاون وإطلاقات المدافع الرشاشة، عدا عن زحمة سماء الفجر بالطائرات الحربية، سيأتي عليه يوم يعرف أنّ طائرات سلاح الجو الكويتي باشرت قصفت الوحدات العسكرية العراقية المتقدّمة، لتُحرم، من ثمّ، فرصة الهبوط داخل حدود الوطن جرّاء الهيمنة الكليّة للجيوش الغازية على الأرض. كانت الأنوار الصباحية انتشرت ما فيه الكفاية، كان غالب يقترب بسيّارته

الصغيرة من مستشفى الولادة ليقع وسط نيران صادرة عن معسكر جيوانٍ الكويتي وطلائع آليات الجيش العراقي الآخذة بالتقدّم حثيثاً. اضطررتُ أركن السيّارة جانباً عسى أنْ. احتُبستْ كلماته في حنجرته، الذكرى بالحضور الطاغي، لاذ بصمته وهلة. تواتَرَنا رصاصهم أو رصاصنا، لا أعرف، أعرف أنّ بدن السيارة تعرّض لعدد من الثقوب، معدن أبواب السيارات الصغيرة لا يوفّر حماية لراكبيها، صراخ ألم المخاض غيره عن صرخة فزع مباغت، انتفضت رباب بقوة، صاحت تُلفتُ انتباهي. نار. أين. يدها تضغط خاصرتها. هنا. تطلّعتُ، دماؤها تنز من بين أصابعها الضاغطة خاصرتها، إحدى رصاصاتهم أو رصاصاتنا بعدما اخترقت بدن السيّارة اخترقت جسد رباب. كلاب. حدّقتْ إليّ رباب بنظرة عاتبة، كمن يقول ليس وقتها، أو يقول لماذا كلاب. ما كانت أدركت كونها أصيبت في مقتل، قالت. الولد يا غالب. لم أفهم لماذا قالت الولد ولم تقُل الطفل أو الجنين. تنبّه استدرك. هذه التساؤلات لم تخطر ببالي في حينه لا وقت أعمل ذهني بخصوص ما الذي يتوجّب فعله، كنت بفعل وحيد، بلوغ المستشفى، علهم يسعفون، البوّابة الرئيسية لمستشفى الولادة قيد مسافة بسيطة في الظروف العادية، أمّا والحال، تحركت بسيارتي. قطع استرساله حديثه فجأة، التفت لبدر. عندما أستعيد تفاصيل صباح يومي ذاك أدرك إلى أيٍ مدى كنتُ أعيش غرائبية اللحظة. غرائبية. رددها بدر مستفهماً. أطلق غالب ضحكة خافتة مريرة. أو كابوسيّتها، سمّها ما شئت، المهم تعرّضت السيّارة لإصابات عدّة، تهشّم زجاجها الخلفي، لدى اجتيازنا البوّابة تلقيت رصاصة في كتفي الأيسر. عاد اطلق ضحكته المريرة ذاتها. لو أنّ

رصاصتهم أو رصاصتنا أخطأت الكتف أصابت الرأس. التمنّي السلبي، سمّه ما شئت. هل وصلت مستشفى الولادة. وصلته بكتف نازف، تفاجأتُ بآليات الجيش العراقي تزحم الطريق الداخلية المؤدّية للمستشفى، رأيت رجالهم يتراكضون مشهرين أسلحتهم تسبقهم صرخاتهم القتالية. سكت وهلة. لوحة سريالية هائلة المساحة نابضة بحياة دالّة على موت. أبدى بدر ملاحظته. تستخدم مفردات تشكيلية. لا أحد يستطيع ينزع جلده. انفرج فم بدر عن ابتسامة دالة. كأنّك تتكلّم بلسان أخي.

يتذكّر أيمن طلباً تقدّم به أحد الأسرى إنْ كان يُسمح خروجهم لمساحة أرض خلفية ملحقة ببيتهم، ما الذي يمنع، سؤاله هذا شاغل ذهنه لدرجة الحيرة، والحيرة الأكبر أنْ يتوجّه لمكتب آمر المعسكر، سيّدي هل يُسمح. خشيته يصادف احتجاجاً ينحو انزعاجاً، رضينا بصعود أيّ منهم سطحهم لو اقتضتهم ضرورتهم، ما الضرورة التي استدعت الآن. بعد مرور أسبوع استدعاه العميد. أمرك سيّدي. اجلس يا أيمن. يده تشير لمقعد يجاور المكتب. جلس أيمن منتصب الظهر قبل قليل تحدثنا أنا والسيّد العميد والدك هاتفيّاً، اقترح ننتدب ضابطاً آخر يكون معك يخفف عنك. أعمل أيمن ذهنه سريعاً، انتداب ضابط ثانٍ يعني مشاركته المكان، تجرأ سأل. هل هناك ضرورة ملحّة سيّدي. أنت تحدد. يكفيني وجود عريف ريسان معي. أنت شاب جاد أهل للثقة. حسن ظنّكم سيّدي. أحس بنفاد وقت اللقاء، نهض. عساكم تسمحون لي بالانصراف سيّدي. لا

بأس. رددها العميد دالّة ارتياحاً. لحظتها تجرأ أيمن. سؤال واحد سيّدي. قال العميد ما مفاده، يحق لرجال العهدة استغلال الموقع ما دام مشوّناً. ليس أجمل من الرضا تجاه النفس، الخبرات

لا تأتي اعتباطاً، المعلومة التي عرفها أيمن بدتْ بديهية، لكنّه أحسن صنعاً بتقصّيه حدود مسؤوليته. بقيتْ كلمة مشوّن عالقة في مخيلته، للقادة الكبار مفردات يختصون بها. حصلتُ لكم على موافقة خروج للأرض الخلفيّة. سمع همهمات امتنان، قبل انصرافه استمهله أحدهم. عسانا لا نثقل بطلباتنا. صوته يتضمّن استماحة، تذكّره أيمن، هو المدعو جعفر. نعرف الطلب أوّلاً المنزل يحوي العديد من الغرف الخالية، هل يتوجّب ننام جميعنا في غرفة المعيشة هنا. تذكّر أيمن كلمة مشوّن، بيتهم كلّه مشوّن بما يفيد لا مانع. قال. لا مانع. ودّ يضيف. البيت تحت تصرّفكم أنتم أحرار فيه، تنبّه أن لا مكان لمفردة حريّة. سؤال وجهه أيمن لنفسه بعدما اختلى بها مساءً هل يقدّر لإدراك الواحد ما حوله يكون حافزاً لتعميق وعيه ذاته، أم مدعاة غمّ لا فكاك منه إلّا بماذا. أيامه قبل سفره لموسكو ومعرفته مارلين كان يواصل حياته سلسة طيّعة. إدراكك الأشياء يعني تماهيك بها دون تُخطيط مسبق، هكذا هي الحال لمّا يأتيك وعيك من حيث لا تحتسب، مارلين بفهمها لأنظمة الحكم الشمولية وقصاصة ورق بأسماء بعض الكتب، ثمّ حارس فيلّا جبل الحسين باقتراحه الساحة الهاشمية. مهما تقادم زمن ذكرياته يبقى مشهد النسوة العراقيات وهن يتراكضن هاربات وعباءاتهن السود تواجه هواء الغربة والمهانة، إنّ عراق العزّة والكرامة والسؤدد، يا سيّدي القائد غادر أيّاً مِن قصورك وانظر حال من، أين، كيف، وإلى متى.

لمّا قال له العريف ريسان. إنْ شئت بقيت هذه الليلة معك. حضره سؤال نشاز. لماذا. حار عريف ريسان إجابته، ابتسم مُحرجاً، قال. حسبت حساب مبيتي هنا. سارع أضاف بصيغة اقتراح. إن شئتَ قضاء الليل في بيتكم. لا. فاجأه ردّ أيمن. الأمر لكم سيّدي. ابتسم أيمن. نحن الآن وحدنا. حكم العادة. أهل بيتك ينتظرونك، اذهب إليهم، تعال صباحاً. حاضر. لدى عريفٍ ريسان أهل ينتظرونه، ما الذي لدى أيمن. ليس موقفاً سالباً تجاه أبيه أو أمّه، يعرفهما يحبّانه كفاية، أمر ثان يحتاجه أيمن لدرجة الشعور بفراغ داخلي، الألفة، تأمّل لحظته، ساعته جاوزت عاشرتها، يخاله أحوج يحتاج كوب شاي، توجّه للمطبخ، هناك بضعة مصابيح كهربائية مثبتة على جوانب المنزلين المتجاورين توفر إضاءة باهتة وفاءً للغرض، انشغاله إعداد الشاي أحسّ بحركة أحدهم خارجاً، تطلّع من النافذة، أحد الرجال العهدة يقعي وراء سورِ الأسلاك الذي يفصل الأرض المشتركة للبيتين، حدّق مليّاً، المدعو فهد، ينكب على الأرض، ينبشها بعصا قصيرة.

النص الذي انتهك إبراهيم فرغلي اسمه، حوّره من كابوس مزدوج إلى ما لا يراه نائم باقٍ يقلقك، ليس الجزع إزاء ردود أفعال مُقلقة فقط، لكنّه خوفك يتصدّى أحدهم أو من المتحزبين لهم. ما أدراه بواقع حالِ العراق من داخل وهو الذي يحتمي داخل برجه العاجي محروساً بقواعد عسكريّة أمريكية. يتريّث ذهنك عند ما أدراه. الاتهام، في حالة توجيهه، مؤلم. تخنس داخلياً متأمّلاً

كيف، تعود تقول لك بمحاولة منك لإقناعك قبلِ غيرك. أنا لم أضرب فيٍ مجهول أو أكتب من فراغ، وتدّعي أنّ كابوسك مار الذكر يمتٌ، لواقع حقيقي مُعاش، تستعيد آخر مناسبة زرت فيها العراق، كان ذلك قبلِ القطيعة التاريخية التي رافقت الاحتلال واعقبته، تتذكرّها أياماً أولى من أبريل 1990، ما لا يمكنك نسيانه البتّة أنت سافرت لهناك برّاً برفقة أخيك بدر. تُسافر معي. أسافر معك. بسيّارتي. بسيّارتك. أنا أتولّى القيادة. تنصاع محبّة، حتّى إذا ما استوتْ سيارته فوق الطريق المتجهة للعبدلي. يا بدر. عهدي بك أنّك لا تخاف السرعة. أخاف غير المتوقّع. مثل ماذا. يا بدر. تكف عن مواصلة جدلك لسبب يتصل برهافة مشاعره، لا تريد له يحزن، حزنه يؤدّي لقنوطه، اجتزتما حدودكما المشتركة، بدأتْ طريق السفر تضيق نسبياً، أضطرٍ لتخفيفٍ سرعةٍ سيّارته، تنفست صعداءك، استرعاك صوته مضمّناً استغراباً رافضاً. كُلّ هذا من أثر الحرب. ليس غيرها. رحلتكما تلك، واصل بدر إبداء استنكاره وهو يتطلّع نحو مكوّنات مشاهد عراقيّة على الجانبين، كنتما قطعتما الطريق الصحراوية داخل الحدود العراقية، بلغتما مشارف مدينة البصرة، اجتهدت تُفسّر. آثار حربٍ استمرتْ ثمانية أعوام. أساه يتشرّب صوته. كأنّ العراق رجع قرناً إلى وراء. لماذا التشبيه بكأنّ. لا يجيب تساؤلك، يقول. ما عادت الأشياء تتمايز عن بعضها بألوانها، لون التراب يغلّف البيوت والأشجار ولا يستثني. أبقى جملته مبتورة. نبرة صوته تؤكد ألمه. حتّى وجوه الناس صارت ترابية، الحال غيرها عندما جئنا قبل عشر سنواتٍ. لم تجد ما تعقّب به. هل آلت طباع الناس صارت ترابية أيضاً. كلماته باقية تتردد في

خلفية ذاكرتك، تقول لأشخاص افتراضيين تخالهم بصدد إبداء اعتراض على ما ورد في نصّك المزمع نشره. إنْ كانت الآثار المترتّبة عن أوزار حرب عراقيّة إيرانيّة من السوء لدرجة محو كافّة ألوان المكان بما فيها سحنات بشر المكان، مع احتسابنا أشهر سلام معدودة صادف وقوعها بين أوزار حرب مذكورة وأوزار حرب أقرب لأن تكون كونيّة، خلال هذه الأشهر القليلة لم يمهل نظام حكم مقصود أبناء شعبه وهلة التقاطهم أنفاسهم، أو جلوهم ألوانهم الترابية، بادر اجتاح، من موقع تصدّره بهم، بلداً صغيراً جاراً، تستعدي المجتمع الدولي بغالبيته العظمى عليك. أيّها الغرّ النشامى الميامين هي أم المعارك سنخوضها بعون الله وسيكون النصر المؤزّر حليفنا بلا شك. مؤزّر علاقة ارتباط بأوزار. توقيع وثيقة تسليم غير مشروط في خيمة سفوان، تعويض الهزيمة بانتفاضة. تقويض الانتفاضة يعني سحقها عن بكرة الجنوب والوسط العراقيين، ما الذي آل إليه لونهم الترابي في حال استعانة نظامهم بسلاحه الكيمياوي ما دام الهدف الأساس إحكام القبضة على الأرض. تحضرك كلمات بدر وأنتما في طريق عودتكما رحلتكما تلك. أنت كاتب يجدر بك ملاحظة الظواهر. تطمئنه. لاحظتها لدرجة التشرّب بها. ليتك تكتب عنها. استجبت. سأفعل. اشترطت. إذا دعت الحاجة. متى تدعوك حاجتك. لماذا اهتمامك بموضوع الكتابة عن. ضرورة الكشف. تابع. الكتّاب العراقيون ممنوعون يكتبون، وإنْ تجرأ أحدهم تعرّض لعقوبات من بينها التصفية الجسدية. لم أجد ما أعارضه به. تابع. وجودك في الكويت يحميك من بطش متوقّع. القضاة، في العادة، ليسوا معنيين بقراءات سياسية لأحداث لا تخصّهم. الذي يحدث هنا ينسحب

بآثاره على هناك. الهناك، وأنتما في الأراضي العراقية أيامها، تعني الكويت، لا بأس تسمعه، لا مانع تتأمّل كلماته، تغبط فيه قوسٍ وعيه بانفتاحه أكبر مما تستلزمه مهنته، وتغبطك نفسك كونك أخا أكبر له. يا بدر، وهو فيٍ الغياب أو الفقد أو لا تدري أين، تحضرك مواقف عديدة كان طرفاً بها، يعزّيك أنّه مثّل لك ضميراً غفلت عنه، أنت كاتب والكاتب كما هو مُفترض. لو كنتَ كففتَ متواليات افتراضاتك تلك يا بدر لما صارت ذكراك معذّبة لدرجة البحث في الزوايا الأبعد للروح.

لمّا يزدحم يوم شخص ما بأحداث جسام تفوق الطاقة يسري عليه المثل الدارج يومه يعادل سنة، غالب عاش دقائق قليلة مثّلت له ضياع العمر بسنواته الماضية واللاحقة، دقائق لا علاقة لها بزمن يعيشه غيره. لو أنّ مخاض زوجتي رباب بكّر عن موعده أو تأخّر قليلاً. لماذا رباب. تطلّع غالب في وجه بدر مستغرباً سؤاله. اسم رباب غير شائع لدى الكويتيين. هي من أهالي قضاء الزبير في البصرة. رقّ صوته. تربطنا علاقات عائليّة، بعض العوائل الكويتية، كما تعرف، لها ارتداد زبيري بامتدادها لنجد. صمت مستذكراً. لم أكن وقتها أملك خياراً. ترك جملته مفتوحة. على الرغم من زحمة آلياتهم وجنودهم اقتربت بسيارتي من المدخل الرئيسي لمستشفى الولادة، لعلّ الساعة قاربت السادسة أو تجاوزتها، أتذكر شمس صباح ذلك اليوم، كانت صفراء زيادة، لم أعُد أسمع صوت رباب، تراها فقدت وعيها، أم بلغ فزعها مداه، كنت أوشك أوقف

السيّارة أطلق أحد جنودهم زخّة رصاص من بندقيته الرشاش، إلى أين، صيحة الجندي من عدمها، سمعت تهشم زجاج، طلقاته أصابت المصابيح الأمامية للسيارة، لو أفهم، أعدادهم آخذة تتزايد حولي، هنا مستشفى ولادة، يتراكضون يتصارخون كما لو أنّ حربهم ستحسم لصالح من. يحوّطون السيّارة مُشهرين أسلحتهم، أرى فوّهات بنادقهم موجّهة إلي، هنا حالة ولادة، الفضول أو محاولة معرفة ما يدور، اقترب ضابط شابٍ أطلٍ، لم ير أسلحة ولا ما يدلّ على عدائية، رأى كتفي النازفة أولاً، تطلّع ناحية رباب. هي متوفاة. تساءل بما يشبه تحصيل حاصل. لا أتذكّر كيف أجبته. أتذكر. لعنة الله عليكم. رغم كونه عقد حاجبيه غاضباً أو مستنكراً أشار بيده لجنوده، خفّضوا فوّهات بنادقهم، مدّ يده فتح بابٍ سيارتي. انزل. نزلت، ركضت للباب الثاني، فتحته، أخذتها إلي، كانت تتنفّس بالكاد، دمها الذي نزف منّ إصابتها بالخاصرة أغرق مقعد السيّارة، تلفّت حولي، أخالني كنت انشد مساعدة أحدهم، الجميع كانوا يتطلّعون بفضول عسكري. لم يخف بدر دهشته. فضول عسكري. لا وجود لتفسير ثانٍ، كانوا يتطلّعون صوبي، يكتفون بالتطلّع، ربّما انتظروا سماع أمر منْ. سحب جسد رباب خارجاً، كانت ثقيلة جدّاً، في وقت لاحق ًأدرك سبب معاناته ثقل رباب، الضعف المترتّب عن، فقدان الدم، كان، بدوره، نزف الكثير. غامت عيناه وراء غلالة شفيفة. وأنا أحاول إسناد جسدها قيد خطوات منٍ بوابة الدخول انتفضتْ بقوة فاجأتني بها، تداعت، تداعينا معاً أرضاً. رباب. صرخ بها علّها تنتبه ولا تفارق، ارتجّتْ للمرّة الثانية، شخرتْ، ثمّ همدت نهائياً. رباب. لحظتها اقترب ضابط رتبة، وقف يتطلّع لمنظرنا بفضول،

قبلٍ أنْ يقول. كيف جئت لهنا. صوته صيغة إحالة مسؤولية، كنت باقيا، وسط انشداهي، أسند الجسد الهامد، سمعته. تصرّفك المتهوّر كان السبب وراء. هو لا يعرفني، لإ يعرف الظرف، ويتجرأ يطلق أحكاماً، أتذكّرني صرخت به شاتماً أمّه بكلمات بذيئة قبل أنْ أقفز عليه، لا أذكر تفاصيل أحداث تلت. بعد شهر، تمّت خلاله معالجة إصابة كتفه في مستشفى الصباح تحت حراسة مشددة، مثل أمام محكمة خاصّة بهم، ثلاثة من ضباطهم. لعلّك لا تعرف عقوبة من يتعرّض للمقام السامي بالإساءة. لم يستوعب القصد. السيّد الرئيس حفظه اللهُ. أنا لم. أنت بدأت تشتم الضابط آمر الفوج الذي كان هناك محاولاً الاعتداء عليه بالضرب قبل أن توجّه شتائمك للمقام السامي. أنا بالمرّة لم. عقوبتك المنصوصٍ عليها قانوناً حسب الفقرة كذا من المادة كذا هي الإعدام رميا. اليأس شأن التسليم بالمصير ، أنا لا أملك ما يستحق العيش لأجله. حسبي اللهُ وهو نعم الوٍكيل. دفاعك. جماعتكم تقوّلوا علي لأسباب أجهلها. كنتُ صادقاً معهمٍ، الانهيار العصبي الذي تملّكني لحظة وفاة رباب كان وراء. لم يوفّ جملته ذاتها، تابع. ضباطهم الثلاثة، على ما يبدو، اقتنعوا أنّي كنت نهب حالة عصبية قاهرة، أو هذا ما أفادوا به بعد جلسات استجوابهم. لهذا السبب اكتفوا من إيقاع العقاب بك بأسرك. ابتسم غالب، صحح لبدر. لم يأسروني في حينه. خسارته وقتها فاقت احتماله، رباب والجنين الذي لم يعرف جنسه، يتأكّد مصاب الواحد بفقدان الواحد بشكل مُضاعف من خلال حساسيّة الظرف، بعدما اقتنعت هيأة محكمتهم العسكرية من لا قصديّته الإساءة لمن حفظه اللهُ أطلقوا سراحه. لو لم يطلقوه أجدى، إطلاقي

وعودتي لشقّة العُمَريَّة، وجدتني وحدةً منبتّة عن كلّ ما عداها، محاطاً بصمت أجوف. أجوف. تساءل بدر، أجابه غالب. الأجوف يعني قابليةً ما، كنت بين اللحظة واللحظة أسمع صوت رباب تسألني شيئاً لا أعرفه، أو تنادي علي، غالب. خنس ثانيتين. أحسستني، في بعض الأحيان، مُصاباً بالهلوَسة، أكثر من مرّة تناهى لسمعي صوت بكاء طفل وُلِدَ توّه، ماتت رباب عراقية، الأصح قُتلت وهي مازالت عراقية. سادت لحظات صمت. منذ فجر يوم الاحتلال وحتى هذه اللحظة شاغلني سؤال واحد لم أجد له إجابة مُقنعة، ما الذي هدف له حفظه الله من اجتياحه الكويت.

ليلة أيمن تلك، تواجده داخل مطبخه، رؤيته لفهد مُنكبّاً أرضاً ينبش التراب مستعيناً بقصاصة عصا، تنبّه للآخر يرفع يده، رفع، بدوره، يده عفويّاً، شاغله سؤاله، ما الذي يفعله الآخر، يعرفه بيطرياً، لا يخال مهنة البيطري تتضمّن تفحّص التربة، حمل كوب الشاي، خرج لساحة منزله الخلفية، تقصّفت أعشاب جافة تحت نعله، تنبّه فهد لظهوره، هبّ واقفاً. مرحباً. سور الأسلاك الشائكة يفصل الاثنين. لاحظ انشداد نظرات فهد لكوب الشاي، جرايتهم المعتادة بلا شاي، لو كانت مارلين هنا. شيء أقرب لمعاناة إحساس طارئ بالذنب، من أين، أعقبته فكرة شروع ببادرة، خطا، صار عند سور الأسلاك الفاصل، مدّ ذراعه بالكوب عبر فتحة فيه، اقترب فهد، وقف مسافة ذراع من الكوب. هذا كثير. رددها فهد بصوت هامس قبل تسلّمه الكوب، ردّ أيمن راضياً. هناك كوب ثانٍ. استدار

عائداً لمطبخه، نشط ذهنه. اللوائح المنظمة لعلاقة السجّان بمسجونيه، الافتراض بالصيغة غير وارد، أنا لست سجّاناً وهم ليسوا مساجينٍ متعارفاً عليهم، شتّان بين عهدة وبين. بعد دقيقتين عاد حاضناً كوباً ثانياً، رأى الآخر مُنكبّاً أرضاً ينبش، رأى كوبه الأوّل موضوعاً على الأرض داخل السياج ناحيته، اقترب، تفاجأ بكمية الشاي باقية لم تُمسّ. حزّ في نفسه أن. رأى الآخرِ ينهض، يقترب. آسف لم أستطع أشرب. لاذ أيمن بصمته، تسلّم الشيء يعني قبوله، تابع فهد بصوت يلامس استماحة شاكية. تملّكني إحساس بالذنب، أشرب الشاي وجماعتي لا ارتجٍ وعي أيمن عليه، وجد حاله يردد. صار معلوم. هل يستدير منصرفا لغرفة معيشته. مثل وجه مارلين في مقدمة مخيلته. لماذا في الوقت. الساحة الهاشمية بديل عادل بحق من. حفّزه فضول لا مكان له، تساءل مومئاً برأسه حيث كان يقعي فهد. لماذا تنبش الأرض. التمعت عينا فهد باستجابته. منذ ثلاثة أيام. استدرك مشيراً لوراء حيث مبنى المنزل. رأيت برعم نبتة قرنفل بدأ يشقّ التربة. لم يخفَ أيمن استغرابه. نبتة قرنفل. وحيدة، اغتنمت الفرصة، أردت تمهيدَ الأرض المحيطة بالبرعم. أنوار برج المراقبة تتحرّك بالجوار، تلامس أعلى الجدار المقابل. فكر أيمن. أمرٍ جيّد أن لا يبلغ مسقط ضوء برج المراقبة مكانهما حيث يقفان، وإلّا أسمعه عريف وحدة برج المراقبة ملاحظته غداً. رأينا ظلال شخصين يقفان متواجهين في الأرض الكائنة. ودّ أيمن يقول للواقف أمامه. لديّ في غرفة المعيشة نبتة غاردينيا بأزهار متفتّحة ذات رائحة أخّاذة. تابع فهد حديثه. القرنفل نبتة عشبية رقيقة معرّضة تموت إنْ لم تلق رعاية مناسبة. وجد أيمن نفسه يدلي بمداخلة تنحو تساؤلاً

أنت طبيب بيطري. هل دارى فهد ابتسامته. لم أبلغ مرتبة طبيب، أنا ممارس بيطري. تريّث ذهن أيمن عند كلمة ممارس. أنت تفهم بأمور الزراعة. هل دارى فهد ابتسامته ثانية. كان لدي ما يشبه مزرعة صغيرة حيث كنت أعيش. الكويت بلد صحراوي. غالبيّة أراضينا صالحة للزراعة أذا توفّرت لها مياه ري. لم يتبادر لأيمن يقول، لدينا كميّات مياه ري هائلة، تبادر له يسأل. ماذا ستفعل لبرعم القرنفل. حوض صغير لسقي الماء. الماء بالأهمية التي. ولا يكاد أيمن يدرك سبب إلحاح مارلين على مثولها عنده. قالت له مرّة. قائدكم المستبد جفف مياه أهواركم لغرض فرض الأمن، وكأن أمن بلد ما لا يستتب إلّا بتدمير أحد أهم مصادر ثرواته الطبيعية، الأهوار بيئة حاضنة لآلاف أنواع الطيور والأسماك، مصدر رزق ملايين، عدا ارتباطها بالموروثات التاريخية منذ ما قبل زمن جلجامش، تذكّره يخلّف شعوراً هجيناً بالذنب، وإلّا ما هيٍ علاقة أيمن بآثار مترتّبة عن قرارات قيادة عليا. لحظة انسحابه داخلاً قال له فهد. آسف لأنّي عجزتُ أشرب الشايٍ. لم يجد أيمن ما يقوله سوى. لا تهتم. نمط مشاعر لم يألفها قبلا، بما فيها اعتلاجه منٍ داخله إزاء حدود مسؤوليته تجاه رجاله العهدة، إذا كانوا مهمّين جدّاً كما توحيٍ تدابير تأمينهم لم لا يُضاف الشاي لجرايتهم اليوميّة. خنس متأمّلا، أيّاً كان الظرفَ لن يتجرأ يتوجّه لمكتب آمر المعسكر. شاي لرجال العهدة سيّدي.

توفر لك هامش اطمئنان بعد اطّلاعك عليٍ الصيغة الاخراجيّةٍ لنص قصتك. العنوان الذي نفرت منه بدءاً بدا لك مُناسباً تماماً

مُلفتاً للذهن بدلالته المفارقة، للطباعة بالحرف البارز تأثيرها، شعورك بإنجاز عمل استثنائي، لا أحد يجزم كيف ومتى يستطيع كتابة قصّة قصيرةٍ مستوفية شروطاً فنيّة أساسيّة، وما طرأ لك وقتها أنك تسببت، عن غير قصد، بإثارة فوضاك الداخلية لدرجة انعدام وزنك خلال ساعات الليل. صرت كلّما استغرقك نومك رأيت تفاصيل معتمدة لنص ما لا يراه نائم معايشة شعورية نابضة، إضافة لتفاصيل جديدة كانت غائبة عن نسخة أوّليّة، دون إغفال إعادة تأثيث الأماكنٍ بمفردات تؤكّد واقعيتها المستحيلة. أمر آخر سبب لك قلقاً مضاعفا، أنت عند توقك للحظات استرخاء، إطباقك جفنيك هادفا لتأمّلك من داخلك، ينتابك على الفور صنف دوار يعرفه المصابون باختلال ضغط الدم، تصاحبه دلائل دخول حالة هلوَسة، تجد حالك مضطراً فوراً تصرف ذهنك عن فكرة الراحة، صرفه باتجاه انشغالات يومية مستحقّة، وعسى. لكنّ استمرار ظاهرتك الغريبة ألزمك اللجوء لطبيب مختص، الأخير شخّصك. تحتاج راحة ذهنيّة بالدرجة الأولى. ما أخاله هلوَسة لا ينتابني إلّا إذا أزمعت الخلود للراحة. أدلي باستنتاجه. خفف من تناول المنبّهات. لا أتعاطي غير الشاي. تطلع إليك في عينيك متشككاً، أومأت رأسك مؤمّناً على ما أفدته به. لا شيء غير الشاي. سمعت غمغمة غامضة، سكت برهة مُفكّراً، عقد حاجبيه، سألك. هل تتناول عقاقير تُطيل ساعات اليقظة لغرض الكتابة. لا أنت سليم مُعافى. أشار بإصبعه لصدغه. الخلل يكمن هنا. ابتسم بمشاركة. تحتاج إجازة بضعة أسابيع تقضيها خارج الكويت. وددت تقول. معضلتي خارج الكويت، وراء حدودها الشماليّة. حتى يطيّب خاطرك كتب لك وصفة طبية. حبّة

قبل النوم. أحسستك مضطرّاً تخوض معركتك معك أو ضدّك، لا مجال لدخول مستشفى أمراض نفسيّة، تدري أنّ عديداً من الكتّاب عانوا توتّرات صاحبتها أعراض مرضية، بعضهم بدوا كأنّهم أصيبوا بعاهات نفسيّة، الكتابة مهنة المعقّدين، يجدر بك لا تكون ضحيّتك، صراع مع الداخل، في الروح، أو في العمق من تلافيف الدماغ، الطبيب أفاد بالدور السلبي للمنبّهات، أنت لا تعرف منها سوى الشاي الأسود، تتناول منه يوميّاً ما يقارب عشرة أكواب، من هنا نبدأ، لأيام أولى قللت عدد الأكواب جعلتها خمسة، لم يحدث تغييرٍ، تفترضك سجيناً أو أسيراً حيث لا شاي بالمرّة، تتوقّف تشرب نهائيا، هل تفاقمتْ حالتك، أم تنوّعت هلوساتك، تعود للشاي، تنصرف عن تعاطي حبّة قبل النوم، أنت وعدوك الخفي شخصك، تتوجّب مجابهة، معالجة المرض بالمرض، تتخذ قرارك تنتهج منحىٍ مواجهة كوابيسك أو هلوساتك لغرض تدوينها، لعلّك بتثبيتها ورقا تتخلّص منها، أو تتوصّل لمعرفة دوافع خفيّة باعثة لها. في أوّل كابوس رصدته ظهرت لك الشخصيّة المحوريّة لما لا يراه نائم، صديقك الكائن هناك، جميل. يا جميل ما الذي تريده مني. لا ردّ. لماذا تُطاردني نائماً. سمَعَك أم لم، من جانبك سمعته. تعال. أين. مآلك تعرف. انقدتُ له. أخذني من يدي، كنّا نتحرّك وسط أرض مربعة، طول ضلعها لا يتجاوز خمسين متراً في أحسن الحالات، أو هكذا جاء استنتاجي حينه، المدهش حدّ الذهول أنّ تلك الأرض، رغم محدوديّة مساحتها، منحتها آليّة الحلم إمكانية احتوائها نموذج مدينة، أو حاضرة حديثة مصغّرة، سوق مركزي، دار سينما، صالة مسرح، معرض لبيع سيارات صغيرة، سوق شعبي لبيع الملابس

المستعملة. تعال. دكّان لبيع حقائب السفر. أشتري حقيبة. تسافر وتترك عائلتك في ظرف الحصار الدولي. سفري وجهة واحدة. أين. إليك. هل أنت جادّ. القادر وحده يستطيع أن يكون جادّاً. يا جميل. لا اعتراض على المقولة المتداولة أو المثل السائر، الصبر جميلٌ، تصبر لكي، أمّا أن تصبر لتموت جوعاً، غيظاً، أو يأساً. تتكلّم ناقما. ما الفرق. كيف أستطيع مدّ يد العون. تعال. يأخذني من يدي، يمشي بي نحو البوابة الرئيسية لمبنى ضخم. ما هذا. دار عبادة. لمن. لأيٍّ. كله. كأننا استعراض أحجيات. سحبني أقوى. ارتقينا عتبة رخامية مهيبة، صرنا في الداخل، وطأنا سجّاداً باهظ الثمن، رفعتُ رأسي، معلقات كرستال مُذهّبة تتدلى من السقف، جلتُ المكان بعيني، تنبّهتُ لازدحام الأرض بمئات الأجساد. كلّهم نيام. هو وقت القيلولة. سيماء الراحة بادية على وجوههم. يبدون لا يعانون من كوابيس. أنت لا تدري. فجأة انمحت الصورة، صرنا وسط مزاد لبيع التلفزيونات، تعلو أصوات السماسرة. تلفزيون صناعة سوريّة كفالة بضمان مدى الاستخدام. مذياع أردني لا تجد له مثيلاً إلا في الساحة الهاشميّة أو سوق البخاريّة. يلزمنا نمشي. دعنا نشتري جهازاً بكفالة الاستخدام. تعال. قالها متخذاً قراراً، قرّب فمه لأذني. نبتعد. لماذا. المكان يعجّ بالمخبرين. كيف تميّزهم. بحاسّة الشم. جميل. تعال. اجتزنا طريقاً ترابية، رأيت بيتين قديمين صغيرين متجاورين ببابين من خشب الأبنوس وعتبة سلّم ثلاث درجات مع مظلّة مثلثة الشكل، البيتان بطرازهما الفيكتوري ينتميان لأوائل القرن الماضي، رأيت شجرةً أثل هرمة تقابلها شجرة أكاسيا عملاقة، قلت. لماذا لم يزرعوا نخلاً. قال. أنظر. رجلان بالزي الوطني. ما

بهما. أشش. خرستُ، مرّ الرجلان من جانبنا. والآن. نلحق بهما. ما عُدتُ أفهم الكيفيّة التي تتصرّف بها. تجاوز استنكاري، أشار حيث غاب الرجلان. نرى مدى إمكانية استدراجهما للحديث. جميل. أمسكني من كتفي، هزّها قويّاً. أنت تعترض في الوقت الضائع. أنا. أجاب مضمّناً نفاد صبر. ألستَ مهتمّاً بسماع أخبار أخيك بدر.

أظنّك تدري. قالها فهد بصيغة تساؤلٍ بدا وكأنّه يهدف يمهّد يقول ماذا. فهد. ردد بدر اسم محدّثه مضمّناً استغراباً، تابع. ماذا تريد أن تقول. ابتسم فهد. عساك لا تنزعج. انزعج من لا شيءٍ. وجهك نسخة مُحسّنة عن وجه أخيك. تعرفه. لا أعرفه شخصيّاً. أراد بدر توجيه سؤال ما، عاجله فهد باستطراده. أعرف وجهه من خلال صوره في الصحف الكويتيّة قبل الاحتلال. كان الوقت ساعة فجر أولى. الإضاءة الفضيّة الباهتة السابقة لظهور قرص الشمس من وراء الأفق باقية تحتفظ بالظلال الليلية في زوايا المكان، فهد وبدر يجلسان على عتبة الباب الجانبي للمطبخ، على مبعدة أمتار منهما ينتصب سور الأسلاك الشائكة. شاعت ابتسامة مُصالحة مع الذاتِ في دخيلة بدرٍ، كما لو أنّ أخاه وفّى وعده، بدءاً من غالب، مروراً، بجعفر، أخيراً فهد يُعلن عن معرفة مسبقة أيضاً. لو كانت الغربة وحدها بصفتها موقوتة بزمن محدود لكان عبورها هيّناً، لكنّها غربة مؤبّدة بالأسر، لهذا تتبدّى الوشيجة، أيّاً كان نوعها، طوق نجاة من قنوط قاس تُدلل عليه كآبة لا فكاك منها. أخوه، وهو هناك، لعب دور الوشيجة حتّى يأتي جديد ما، تبادر له يسأل. لماذا قلت نسخة

مُحسّنة. لأن وجه أخيك كان شاحباً ذا تجاعيد عميقة سابقة لأوانها. عامّة الكتّاب يبدون هكذا، عدا عن كونه يكبرني عشرين سنة. فاجأه ردّ فهد. أدري. تابع. لأنّي أعجبت بكتاباته حرصتُ أتتبّع أخباره. ما الكتب التي قرأتها له. لم أقرأ له. استنكره بدر. قلت أنت مُعجب بكتاباته. تمثيلياته التلفزيونية. لسنوات أولى من حياته في جزيرة فيلكا عاش فهد حالة أقرب للعزلة، سكان الجزيرة يعرفون كلّهم، فهد غريب بينهم، لا تربطه بأيٍّ منهم علاقة سوى حيواناتهم في حالة مرضها أو تعسّر ولادة بقرة، حمارة، حيث يضطرّهم الظرف. عزلته تلك جعلته ينشئ في المساحة الخلفيّة التابعة لبيت الحكومة الذي يسكنه عيّنة حديقةِ حيوانات محليّة إلى جانب ما يشبه غابة صغيرة مُلحقة، يقضي جلّ ساعات نهاره، في حين خصص ساعات الليل لإدمان التلفزيون. لماذا إدمان. مُرابطتك أمام الشيء لسنوات تُدمنك عليه، واحدة من مرابطاته الليلية أمام شاشة التلفزيون لفت اهتمامه وجود حصان وسط تمثيلية باللهجة المحليّة، ليكتشف بعد ثوانٍ من المتابعة أن الحصان هو محور القصّة، طوال حياته لم يهتم بدر بمشاهدة دراما محلية أو عربية، كان غاوي مشاهدة أفلام أجنبية، خيال علمي أو أكشن، يفضّل حضورها داخل دار سينما، الآن فجر يوم عراقي أمام أسلاك شائكة، تبادله الحديث بخصوص. أخوه، كمّا يعرفه، يكره الكتابة للتلفزيون، يسمّيها مدعاة تبلّد الكاتب صاحب القضيّة، يتذكّره يرضخ يكتب دراما تلفزيونية عندما يعاني ضائقة مالية، فلوسها، على حدّ تعبيره، مجزية، لكنها سريعة التلف مثل مال حرام. يواصل فهد حديثه. عنوان التمثيلية خارج الحظيرة، اسم مُلفت للانتباه، أخوك صاحب القصّة، شاركه مهدي

الصائغ كتابة السيناريو، الإخراج من نصيب فيصل الياسري. أبدى بدر ملاحظته. أحسدك قدرتك حفظ الأسماء. لم احفظها خلال مشاهدتي الأولى، لكنّي اشتريت شريط ڤيديو لها، كانت طويلة، بحدود 90 دقيقة، رغم طولها بدتْ لي مشوّقة، صرت أشاهدها بين الحين والحين، ضحك بدر. كلّ هذا بسبب الحصان. أنا بيطري، مرّة أولى بتاريخ الكويت والعالم العربي أشاهد عملاً تلفزيونياً يهتم بمشاعر الحيوان. مشاعر الحيوان. تلك هي ميّزة أخيك ككاتب. سكت وهلة. حصان سباقات أصيلٍ اشتراه أحد الموسرين الكويتيين من الخارج، يصل لميناء الشويخ ليلاً، يضيع وهو في طريقه لإسطبل صاحبه. عجز بدر عن لجم استغرابه. حصان سباقات باهظ الثمن يضيّع. هذا ما أراده أخوك. تابع. خلال الأيام التي فُقد فيها الحصان تولى رعايته رجل عجوز يعيش مع حفيده الطفل، داخل عشّة في بر الصليبية، لتقوم بين الطفل والحصان علاقة صداقة حميمة، تأكّدت لمّا رفض الحصان الانقياد لمالكه، بعد مجيء الأخير لاستعادته، مقرراً البقاء إلى جانب الطفل، شدّني أداء الفنان إبراهيم الصلال لدور الجد، ودور الحفيد الذي لعبه الطفل فهد عبدالرحمن النجّار. اسم الطفل فهد. شفّ صوته، لامس حزنه لدى استطراده. كان حصان التمثيلية مملوكاً للشيخ فهد الأحمد. هل هدف بدر لتبديد أسى يوشك يستبدّ بمحدثه قال. تكرر اسم فهد للمرّة الثانية. لم يبادر الآخر يُعقّب، تساءل بدر بروح دعابة. لم يبق إلّا أنْ يُطلقوا اسم فهد عليّ الحصان. فاجأه الرد الجاهز. ذلك هو الاسم الذي تعارف عليه كلٌ من الطفل وجدّه. ساد صمت متوقّع، هم أسرى هنا، عندما يستحضرون ناسهم هناك يصلونهم بالهيأة التي كانوا عليها في حينه،

لا التقدّم سنّاً ولا تغيّر الملامح يطال البعيدين، كذلك حالهم حتّى في أحلام هؤلاء.

باستثناء وجود أشجار الأثل الهرمة وكذلك الأكاسيا تبقى غالبية أرض معسكر التاجي والأراضي المحيطة أشبه بالصحراء طوال تسعة أشهر من السنة، عدا أشهر شباط ومارس وأبريل حيث تكتسي الأرض بساطاً عشبيّاً أخضر تتخلله أزهار النوير الصفراء ما وراء سور الأسلاك الشائكة المحيط بالمعسكر، بما يجتذب مئات رؤوس الأغنام والمعيز مصحوبة برعيانها. لفصل الربيع شفافيّته المصاحبة. اعتاد أيمن الجلوس ضحىً كلّ يوم أمام إحدى نوافذ الواجهة الغربية لغرفة المعيشة مولياً ظهره للشمس الداخلة من نوافذ الواجهة الشرقيّة، ليفعل عكس ذلك عصراً، اعتياده جلوسه ساعتين ما بين العاشرة والثانية عشرة صباحاً، إضافة لساعتين ما بين الثالثة والخامسة مساءً، وقته ذاك خصصه كلّه للقراءة ما دام لم يستسغ فكرة الاستعانة بجهاز تلفزيون. أنهى قراءة المسرّات والأوجاع لفؤاد التكرلي، أتى على المجموعات القصصيّة لمحمد خضيّر، أدهشته قصيدة أنشودة المطر لبدر شاكر السيّاب، لفتت قصيدة غريب على الخليج اهتمامه، أصيح بالخليج يا خليج، بدر شاكر السياب بعدما طاف بمرضه الخبيث مستشفيات بريطانيا وإيطاليا وقبلها مستشفيات العراق، اتخذ قراره ينهي علاجه أو حياته داخل مستشفى كويتي يُدعى الأميري. محاولته إشباع فضوله، معرفة المزيد عن شاعره بدر ارتاد أيمن شارع المتنبي. في الكويت وجد السيّاب عديدين

اهتموا به، دأبوا يتواصلون به يوميّاً، ليست الصلة القومية وحدها، ليست جيرة البلدين وحدها، هناك الصلة الإبداعية أيضاً، عندما توفّي الشاعر العراقي تولاه شاعر كويتي يُدعى علي السبتي، اعتنى بجثمانه، رافقه رحلة سيّارة حتّى قرية جيكور، جنوب محافظة البصرة، مسقط رأسه. ودّ أيمن لو يقرأ شعر هذا السبتي، المكتبات بلا، نظامنا يحدد ما تتوجّب قراءته، من بين ما قالته له مارلين عندما تتأزم الأوضاع الداخلية للنظام الشمولي يلجأ لافتعال خلافات خارجية، أكثر دماراً أنْ يشن حرباً ضدّ جيرانه. الآن، أزماتنا الداخليّة حدّها، الحصار الدولي يكتم أنفاس الناس، ولا فرصة للنظام كي يشن حرباً بأيّ اتجاه عدا الداخل. في مسرّاته وأوجاعه يلامس فؤاد التكرلي الكثير من مصائب الإنسان العراقي، قصص الكاتب البصري محمد خضيّر تسلك المنحى ذاته، الأدب المسؤول لا يُعدم وسائل تعبيره، صاحب إحدى المكتبات بعدما تردد عليه أيمن مرّات عدة وثق به صار يخصّه بكتب ممنوعة التداول. للإعارة فقط، ليتك تعيد الكتاب خلال أيام. ساره صاحب المكتبة، تابعٍ. لولا ثقتي الوطيدة بك. يحتاج أيمن يثق بنفسه أوّلاً، قراءته كتباً مُعيّنة وسّعت أفقه المعرفي، جعلته يُدرك، بالحد الأدنى، ما يدور، ترافق ذلك مع إحساس مشاركة خفي موجّه للجيرة العهدة. يا عريف ريسان ما الذي تقوله عن الشاي. نحن العامة، ابتسم بدلالة. ممن لا يعرفون أنواع شرب أخرى لدينا مثل حول إكرام الضيف يقول، شرّبه الشاي ولا تغدّيه. ابتسم أيمن. لماذا يحرمونٍ السجناء من الشاي. لأنّهم، حسب علمي، يرون الشاي شيئا غيرٍ مهم. لكنّه مهم. قالها أيمن عفوية. ضحك ريسان، نهض قاصداً الذهاب

للمطبخ. أعدّه لك حالاً اجلس. دارى ريسان حيرته، عاد جلس. كنت أفكّر بسجنائنا. وظّف ضمير الجمع في سجنائنا دلالة إشراكه عريفه مسؤوليّته، استجاب الآخر بأريحيّة. هم طيبون. استطرد. وإنْ بدوا غير عراقيين. لا تغيب عن بالٍ أيمن فطنة ريسان. كلماتهم، رغم ندرتها، تتضمّن عدداً، ولو قليلاً، من مفردات تختلف عمّا نتداوله. لم تتبادر لذهن أيمن فكرة مُكاشفة آنيّة، آثر الإصغاء لعلّ عريفه، استناداً لخبرته، يُساهم. إنْ شئت سألنا مراقبة التوريدات. ريسان، بدوره، وظّف ضمير الجمع في سألنا دلالة مسؤولية مشتركة. مراقبة التوريدات لا تملك صلاحية. سكت ثانيتين. لوكان موضوعاً هامّاً قصدتُ آمر المعسكر. التمعت عينا ريسان بقراره. لا تشغل بالك. الغاردينيا باقية تبث أريجها المنعشٍ، الملفت لأيمن أنّه يشمّها واضحة قوية إذا دخل غرفة المعيشة قادماً من خارج. برعم القرنفلة الكائن في أرضهمٍ يبذل جهده يقوى، فهد، على ما يبدو، يعشق يتواجد هناك ليلاً، عدا قرنفلته تنبّه لوجود نبتتي دُفلى أسفل سور الأسلاك الفاصل، كانتا شبه جافّتين جرّاء الإهمال، كيف له يعتني بهما. سبقٍ لعريف ريسان تدخّل وفّر مستلزمات إعداد شاي، ليته يكون مؤهّلاً يتدخّل.

أتذكّر قولاً مأثوراً. صاحب القضيّة أعمى لا يرى إلّا قضاءها. ذووٍ الأسرى أصحاب قضايا، تراهم، شاءوا أم أبوا، لاهفين يسمعون خبراً، لا يتوانون يتوجّهون بلهفتهم لمن، يتراكضون وراء بصيص أيّما أمل موحٍ، لهذا هم عُرضة للاستغلال من جانب صنّاع الأمل

أو بائعيه، في حين ترى المسؤولين من أولي الشأن يتحلّون بالصبر والروية، وبعد النظر، ولا يفتؤون يرددون. اتركوا الأمر لنا، نحن نتكفّل بما لا طاقة لكم به، إيّاكم والوقوع ببراثن مستغلين محتالين. رغم هذا واصلني صديق أثق به. هل تؤمن بالتخاطر. هل هو نوعٍ من خطابٍ. عاتبني. أنا جاد. لأنّي أثق به انقدتُ له. قال مُضمنًا تعاطفاً حميماً. أنا أتولّى كلّ شيء. لا اعتراض. أنت لن تدفع فلساً. مسألة دفع. ليس سوى مبلغ رمزي لقاء استشارة لا تُقدر بثمن. استشارة بخصوص ماذا. بخصوص أخيك الأسير. هفت روحي. كيف. ابتسم بدلالة الثقة. لهذا السبب سألتك إنْ كنت تؤمن بالتخاطر. فإن آمنت. عرفت معلومات تتصل بمكان وجود أخيك. أشكّ بكونك تتكلّم جادّاً. اسمع. أصغيت له. تعرفني لست ممنٍ ينساقون وراء الخزعبلات ولا أعمال السحر والشعوذة. إشباعا لفضولي حدّثني. وصل للكويت قبل أسابيع عالم جليل له مكانته المعترف بها عالميا، متخصص بالتخاطر عن بعد، حاصل على ثلاث شهادات دكتوراه، الأولى من الولايات المتحدة والثانية من المانيا والثالثة الهند. لم أسأله مصدر معلوماته، سألته. عساه لا يكون نيجيريّاً. ضحك. الرجل إيراني. أضاف. هو، كما يقول المقرّبون منه، أحد أقطاب المعارضة الإيرانية. من مجاهدي خلق. جماعة مجاهدي خلق ماركسيّون، والرجل الذي نحن بصدده عالم جليل يتمتع بمهابة واضحة للعيان. هل سبق لك رأيته. في إحدى ديوانيّات الضاحية. مدعاة ثقّة. حتّى كبار تجّار الأسهم يلجؤون إليه. لأي غرض. تجاوز الرد على تساؤلي. وزراء لا يستغنونٍ عن استشارته. لم يبق سوى أعضاء مجلس. لو ذهبنا لهناك ليلا وجدت عديدين

منهم. لديه عيادة أو مقر لاستقبال مراجعيه. بادر أوضح. يستضيفه أحد الوجهاء. سبقني استنتاجي. ديوانيّة الضاحية. بلوغنا الديوانية المعنية، كان الوقت بعد آذان العصر. رأينا شاباً يرتدي الزي الافرنجي جالساً في أقصى المكان فاره المساحة، هبّ واقفا لدى دخولنا. الجماعة يؤدّون فرض الصلاة. أشار لنا بالجلوس. همس لي مرافقي مومئاً صوب الشاب. هو المترجم. ما الحاجة له. يترجم من الفارسية للعربية وبالعكس. ما دام عالمنا حاصل على إحدى شهاداته من أميركا نستطيع التحدّث معه باللغة الإنجليزية. لم يخفِ مرافقي إعجابه للغائب. رغم كونه يجيد خمس لغات إلّا أنّه يرفض تبادل الحديث بغير الفارسيّة. دخل سبعة أشخاص من باب جانبي، سارع الشاب وقف احتراما، وقفنا بدورنا. حيّا الله الحبيب. رحّب المضيف بصاحبي، أكمل مومئاً صوبي. ومن معه. لهجنا، صاحبي وأنا، ردّاً على الترحيب، قبل أن يتوجّه إلينا المضيف. شاي أم قهوة. منذ الثواني الأولى ميّزت العالم إيّاه وسط مرافقيه، رغم كونه يلبس الزي الكويتي أيضا، لم ألحظ مهابة موصوفة، لاحظتُ ادعاءً بها، مع مبالغة تبجيل يسبغها عليه من يحيطون به، ليسود ما يشبه التفاهم المشترك. حيّاك. أنا المقصود هذه المرّة بنداء المضيف، اقتادني لغرفة صغيرة مُلحقة، رأيت ثلاثة مقاعد، اثنان متواضعان، والثالث جلدي وثير، أشار نحو أحد المقعدين. حيّاك. سبقه الشاب المترجم، نفض جلد الكرسي بمنديله، دخل المعني، جلس متربّعاً فوق مقعده الوثير، لعلّها إجراءات لا بُدّ منها لاستكمال غرض في نفسه، باشر طقوسه بالتحديق إلي في عيني لما يزيد على عشر ثوانٍ دون أن يطرف جفنيه، عساه يظنني ماذا. رفع حاجبيه بحركات سريعة، شهر كفّه اليمنى،

لوّحها بحركة دائرية، بدءاً كان لدي فضول للمعرفة، أمّا والأداء الساذج، زايلني فضولي، انتظرتُ عليه ماذا، سحب سلسلة من جيب صداره تنتهي بحلية فضيّة كرويّة، طفق يحركها كما البندول، تذكّرت مشهداً من فيلم مصري قديم بالأبيض والأسود يتولى فيه نصّاب محترف تنويم الممثل الكوميدي اسماعيل ياسين مغناطيسيا، ابتسمتُ لا إراديّاً. عقد الرجل حاجبيه، تحدّث بالفارسية، انفعاله في نبرة صوته، تولى الشاب الترجمة. أنا رافضٍ تنويمي مغناطيسياً. لم يتبادر لذهني هناك خطّة لتنويمي مغناطيسيا. لا تقول خطّة. آسف لم أقصد الإساءة. أنت تتعمّدها. أبداً. يبدو أنّك مارست مثل هذا سابقاً. مثل ماذا. زاد انفعال الرجل، احتدّ صوته أكثر. تردد الشاب المترجم، لكنّ الآخر أصرّ. فهمتُ أنّي شيطان. لا مكان لردّ مُحدد من جانبي، ما زلت في سياق مشهد فيلم اسماعيل ياسين، نهضتُ هادفاً أغادر الغرفة، استمهلتني رطانته السريعة، تولّاها الشاب المترجم. رغم نكراني جميل السيّد الدكتور سيفصح لي عن معلومة تهمّني فعلا، شقيقي الأسير موجود في مكان ناء يستظل بشجرة نبق. تردد في داخلي، لأنّها شجرة مباركة، لم أشأ خوض جدل ذي منحى استفزازي، اخترت أسئلة محايدة. وحده. معه رفاق ثلاثة. ما العمران القريب. لا عمران. يعني صحراء. أشبه بموقع عسكري وسط ما يشبه صحراء. أين يوجد. غير بعيد عن مركز عاصمة بلد عربي مُجاور. بعد مغادرتنا ديوانيّة الضاحية سألت صاحبي. ما الذي قلته لهم عني. لا شيء. متأكّد. ذكرتُ لهم سبب مجيئك معي. كم دفعت لهم.

وفي الليلة الظلماء، درج أخوه يرددها منقوصة على مسامعه لكي يستجيب يُكملها، يُفتقد البدر، كان بدر أيامها طالب سنة أولى متوسّط، وما كانت قصيدة أبي فراس الحمداني التي اجتزأ أخوه أحد أبياتها مقررة ضمن المنهج المدرسي، لكنّه منحاه في المداعبة أو المشاكسة، لا فرق، الفرق أنّه كفّ يرددها بعد التحاق بدر طالباً بالجامعة، بناءً تحين فرصته مرّة. ما الذي دعاك تكف. لم يتردد أخوه يضمّن إجابته روح مشاكسته. ما دمتَ تُعدّ نفسك تكون محامياً يتوجّب أخذ الحيطة منك. اطمئن لن أصير محامياً. تطلّع فيه أخوه مستفهماً. المحامون ملزمون يتولون الدفاع عن من يدفع لهم، مسؤولون يحفظون أسرار موكليهم حتّى لو ثبت ارتكابهم جرائمهم. إذن. ليس أجمل من فرض العدل. ضحك الآخر. أنا واثق من توخّيك العدالة لو صرتَ قاضياً. بعد أيام من حديثهما ذاك. وفي الليلة الظلماء. جاءت الاستجابة مسبوقة ضحكة. يُفتقد البدر. أردف متسائلا. لم تنس. وهل يُنسى القمر. طوال سنوات لحقت، يُضاف سنوات أسره لم يسمعها بدر، الليلة دون غيرها. وفي الليلة الظلماء. لم يستجب بدر يكمل، تولّى قائلها جعفر إكمالها لدى إشارته للقمر مُكتملا متوسطاً سماءً عراقية. الوقت قارب منتصف الليل عندما ترك بدر غرفته متوجّهاً نحو فسحة الأرض الخلفية، تفاجأ بوجود جعفر، لم ترد ذهنه فكرة يفيد، اعتاد أخي يُسمعني إيّاها، اغتنم فرصته. تحفظ قصيدة أبي فراس الحمداني، أراك عصيّ الدمع. أعشقُ سماعها بصوت أم كلثوم. تنبّه أبدى دهشة. جميل أنْ يعرف القاضي الشعر. ليست معرفة، أنا أقرأ الشعر أومأ جعفر برأسه نحو مبنى المنزل المجاور. ضابطهم يقضي جُلّ وقته بالقراءة.

رغم صغر سنّه. بدرت عن جعفر ضحكة خافتة. المسؤولية الموكلة له صغيرة بالمثل. تظن. إلّا إذا كان لديك تفسير ثان. حتّى الآن لا سكت وهلة. هو متعاون. لماذا لا يسمحون لنا بصعود السطح. لماذا نصعد. واتتك فرصة صعوده. تطلّع فيه بدر هادفاً يستوضحه قصده، قال الآخر. أعني رأيتَ منشآت المعسكر الذي نُحتجز وسطه. صحح له بدر. في الطرف الأبعد منه. سادت لحظات صمت، خفت نور القمر مُحتجباً وراء نتف سحب رمادية، تساءل جعفر. لا أظنهم جادّين. في ماذا. في موضوع صفقة إطلاق أسرى كويتيين مُحددين. ترك جملته معلّقة، تعثّرت بعدها كلماته بفمه. كيف أنسى أنّي فئة بدون لا تشملني صفقاتهم. جعفر. رددها بدر بهامشٍ عتب، تابع. بحكم كونك من أسرى الكويت أنت كويتي شرعاً. بدرت عن جعفر حركة عفوية، لامس ذراع بدرٍ، صوته عند حدود التوقّع. لأنّك رجل قانون لا بُد أن تكون مُصيباً في حكمك. نهض. حُكم النعاس. استطرد حزيناً. هذا لو عرفتُ أنام. بدر بدوره لوكان سيّد نفسه ووقته لآثر يقسّم يومه مثلما فعل غالبية الكويتيين المرابطين خلال أشهر الاحتلال حيث خصّوا نُهرهم بالنوم واعتمدوا لياليهم لممارسة نشاطاتهم الحياتية، لأسباب تندرج ضمن تحاشي الاحتكاك المباشر بالعسكر نهاراً والاستعداد لمباغتته إذا حلك الظلام، الحال مع حياة الأسْر غيرها، النهار نهار إجباري، خاضع لمتطلبات لا يد له فيها، وعليه توقّع مباغتة خزينه الشعوري لمّا يجنّ الليل، ساعتها يجد نفسه وجهاً لوجه مع أرقه، يجده عذاباً عصي الاحتمال. أيامٍ أولى في هذا البيت كانوا يتعايشون معاً وسط غرفة المعيشة، نهاراً وكذلك ليلاً، بما يبدد احتمال استفراد الوحدة بأيّ منهم، يوفّر

فرص تبادلهم أحاديثهم بعضهم البعض، هذا التواجد الجماعي كان، بصيغته القائمة دون تخطيط مُسبق، وسيلة ناجعة لقتل الليل، بعد توزّعهم غرف النوم الأربع صار بدر يتحين ليله، يغافل لحظة فراغٍ ذهنه، عساه ينام، فإن استغرقه نومه دقائق قليلة، فزّ، كما لو أنّ أحداً طلبه، ماذا، ولا من مجيب، ولا من سبب مُدرك، عدا انفراد داخله به، أينه منه، أينه من زمنٍ ما قبل، أينها حياته، ناسه، يأخذه نومه لوقت ما، يصحو متنصّتاً، هو النداء المعتاد لزوجته، بدر، يتردد صداه في خلفية الذاكرة، يحسّه التو، يحسّها انسحبت من فورها، في نداءاتها له يستطيع تحديد طبيعة ما تريده بتمييز نبرة صوتها، يعرفها متى تريده لسبب يتصل باحتياجات منزلية أو عائلية، لكنّها إذا أرادته لها وفرتْ لصوتها بحّة استثارة تفهمها دماؤه تستجيب تسخن تتدافع فيه، مغادرته الأخيرة لمنزله، حيث لا عودة تلتها، جاءت يوم خميس، كان عمر ولده فهد خمس سنوات، الملفت من فهد أنّه درج على مناداة أبيه باسمه، يتذكّرها زوجته تبذل جهدها تُلقّن ولدهما نطق مُفردة بابا، لكنّ الصغير يصرّ يردد. بدر. كان بدر يضحك ملء الفم، تتطلّع إليه هدى تعتبه. يتوجّب عليك تعويد ولدك يناديك بابا. يناكفها. لماذا. تؤنّبه متلفّظة اسمه. بدر. يجاريها ابنهما. بدر. ألم الواحد باعتصاره له، تراه وهذا الغياب المفتوح على المجهول، ما الاسم الذي يُطلقه عليه ابنه الآن.

قبل يومين جاءه ريسان بإناء مُغطّى. ما هذا. رشوة من أم العيال. ضحك أيمن للمفارقة. رشوة. بدرت عن ريسان ضحكة خافتة تؤكد

واعز مكاشفة. أرادتْ التعبير عن امتنانها الكبير لك. اندهاش أيمن يلامس صوته. امتنان. فاجأته إجابة الآخر. لأنّي منذ التحاقي بالعمل تحت أمرتك صرتُ أبيت عندها ليليًّا. لم يخطر مثل هذا على بال أيمن البتّة. أجمل ما في أم العيال هي تجيد طبخ الدولمة. عندما يأتيك عرفان الآخر ببساطته الإنسانيّة من حيث لا تتوقّع، مدّ يده، كشف غطاء الإناء، صافحت أنفه رائحة أخّاذة تضاهي طبيخ أمّه. مقبولة. قالها دالة رضا، أكمل بصيغة اشتراط. نأكلها معا. وهما يجلسان متقابلين خبّره ريسان. مساء يوم الجمعة القادم لدينا احتفال صغير. تساءل أيمن. لدينا. ابتسم ريسان، صحح. أقصد لدي في بيتي. سكت ثانيتين، تابع. مناسبة تعيين ابنتي الكبرى هيا في وزارة الدفاع. لم يحبس أيمن استغرابه. وزارة الدفاع. شاب صوت ريسان اعتداده رغم حرصه على مداراته. هيا من بين قلائل، تفوّقت في هذا العلم الجديد الذي يدعونه الحاسوب. ابتسم أيمن. هيا اسم بدوي. تلوّن صوت ريسان بإكبار مضمر لغائب. جدّتي بدويّة من شمّر، توفيت قبل ولادة ابنتي الكبرى بأشهرٍ، تخليدًا لذكراها أطلقتُ اسمها على ابنتي. ودّ أيمن يّبدي اهتماماً مناسباً. كم عدد أولادك. ضحك ريسان. ولا واحد. واصل. لدي هيا وأختها جنى، طالبة جامعيّة، سنة ثانية أدب عربي، أشار لصف كتب أيمن فوق طرف الطاولة. جنى مغرمة بقراءة الكتب. أضاف. تكتب أحيانا، تراسل مجلة تصدر بالعربية في استراليا، عمّها يشغل موقع رئيس تحرير المجلّة. لديك أخ يعمل في أستراليا. يكبرني خمس سنوات، هاجر لهناك منذ منتصف الستينات، نال المواطنية الاسترالية. شردت عيناه وراء ذكراه. كان عمري وقتها ست عشرة

سنة. لم يمنع أيمن نفسه. هل راودتك فكرة اللحاق بأخيك. أمّي رحمها الله كانت غير راضية عن رحيل أخي، كانت تقول نعيش ونموت في بلدنا. أمام شخصيّة عصاميّة مثل ريسان، عريف، يفترض به يكون متواضع الدخل والتعليم، إلّا أنّه وفّر لابنتيه فرص تعليمٍ جامعي. أنت جدير بالتقدير. جاءت كلمات أيمن مشحونةً إعزازا، أحنى ريسان رأسه خجلاً. هذا كثير. سبق لأيمن سمعها ليلاً صادرة عن بيطري كويتي. للكلمات قدرة هائلة على صنع وشائج بشريّة، استطرد ريسان متمنياً. لو توفّرت لك فرصة حضور احتفالنا العائلي الصغير. صمت ثانيتين. سيكون ذلك مدعاة سعادة كبيرة لنا. لم يجد أيمن ما يقوله. لا تمرّ علينا ليلة في بيتنا إلّا كنتَ مدار حديثنا. كاد أيمن يرفع حاجبيه. أنا. ما يزيد على ثلاثين سنة خدمة جيش، لم يصادفني أعمل تحت إمرة ضابط نبيل مثلك. هل يبادر أيمن يبدي استغرابه، في حين تابع محدّثه. ليس معي فقط. حانت عنه إيماءة نحو النافذة حيث البيت الثاني. حتّى مع الأسرى الكويتيين. ارتفع حاجبا أيمن استغرابا. أنت تعرف.

في أيام لا أتعمّد اختيارها أغادر منزلي متوجهاً لمكتبي في منطقة الصالحية فجراً، ليس جرّاء نشاط مرتبط بسن الستين، لكنه هاجس غامض يداهم الواحد دون أن يجد له تبريراً منطقياً، إحساسك بحصار منزلك لك ولا فكاك إلّا المغادرة لمكان ثان. نحن شهر أبريل، يُفترض به يكون الأجمل بين شهور السنة، هنا الكويت، في أبريل تشتد حركة الطوز، يدلهم الجو باللون الرملي، فإنْ ضاعف

طوزنا نشاطه أدّى لتعذر الرؤية، لانعدامها أحياناً، مما يؤدّي لمضاعفة أعداد مراجعي مستشفياتنا من مرضى مصابين بالربو أو أمراض حساسية الجهاز التنفسي، قبل أسبوعين من الآن، في اليوم الأوّل للشهر تملّكني هاجس حاد بسماع خبر مؤثّر يتصل بمصير الأسرى الكويتيين، مرّ يومي ذاك تحت وطأة الانتظار اللاهف، عند منتصف الليل حضرني وعيي على حين انتباه، اليوم الأوّل أبريل، وفاتني أنّ سحابة مسؤولينا من المختصّين بإدلاء تصريحات مطمئنة يحرصون على لا كذبهم في هذا اليوم تحديداً، تحاشياً لارتكاب بدعة مستوردة من الغرب. ساعات الصباح الأولى تخلو شوارع الكويت من السيارات، تحلو القيادة المتأنّية توقاً لحالة تأمّل. استعدتُ حديثاً من جانب واحد خصّني به صديق. كنتُ البارحة في ديوانية الربع. لم يُحدد مكان الديوانيّة ولا الأشخاص الربع. استذكرَ البعض أيّام الاحتلال قبل أن ينشأ خلاف حول مدى مصداقية موضوع الأسرى. شابتْ نقمته صوته. أمر يرفضه العقل ولا يقبله الضمير أن تجد بين الكويتيين من يشكك بمصداقيّة قضيّة الأسرى. استرعى اهتمامي إليه. انفرد أحد الحاضرين بالكلام، خلص لاستنتاجه. أسرى الكويت الموثوق من أمرهم هم أفراد الجيش الكويتي الذين تصدّوا للقوّات الغازية صبيحة يوم الاحتلال، أسروا بعد محاصرتهم أو نفاد ذخيرتهم، تمّ إطلاق سراحهم جميعهم بإشراف قيادة قوات متحالفة وممثلي صليب أحمر دولي، نُقلوا بعدها جوّاً إلى أحد مطارات حفر الباطن في المملكة العربية السعوديّة ومنها إلى الكويت. نمّ فمٍ الصديق عن ابتسامة هيّنة، تابع روايته. أحد الحاضرين أبدى إعجابا. تحفظ تفاصيل وافية ما شاء الله عليك، أظنّك كنتَ في حفر الباطن.

كنتُ في الطائف. أجاب بها، واصل متحمّساً. شهداء الكويت الذين نعرفهم بالأسماء والعوائل يستحقون منّا تخليد ذكراهم. نقّل بصره على وجوه روّاد الديوانيّة، استطرد. أمّا أولئك الذين يُقال عنهم أنّهم ما زالوا أسرى، أنا شخصيّاً، أشكّ بمصداقيّة موضوعهم. حاججه أحد الحاضرين. رأي خطير. فاجأه الأوّل مُتلفّظاً مثلاً دارجاً منقوصاً. حدّثْ العاقل بما لا يليق. أبدى الثاني امتعاضه. ماذا تعني. يفترض بنا أنْ نحتكم لعقولنا. وضّح من فضلك. دعني أتوجّه لك بسؤال، ما هو سبب أسر أولئك الذين لم يُفرج عنهم حتى يومنا هذا. كانوا من نشطاء المقاومة الكويتية حاربوا جيش الاحتلال بضراوة وأوقعوا. قاطعه الأوّل ضاحكاً قبل أنْ يعود لترديد مثله إيّاه ناقصاً أكثر حدّث العاقل. لا حول ولا قوّة إلا بالله. دعني أسألك سؤالاً ثانياً، كم كان تعداد جنود جيش النظام العراقي داخل الكويت. حوالي نصف مليون. تحمّس الأوّل. كيف تسنّى لناس مدنيين مزوّدين بأسلحة بدائية أن يتصدّوا لمقاومة كلّ هذا العدد من العسكر. نفد صبر الثاني. الزبدة. شحن الأوّل صوته بثقته. أجزم بوجود قصّة وراء اختفاء أو وفاة أيّ من هؤلاء يعرفها أهله تمام المعرفة ولا يريدون الكشف عنها. لماذا. كلّنا نعرف ما لذوي أولئك الذين يُقال عنهم أسرى من امتيازات لا تقلّ عمّا لذوي الشهداء. هذا كلام أكثر خطورة. ابتسم الأول واثقا من موقفه. لو وافقتك قناعتك على أنّهم أسرى، لا يغيب عن بالك أعدادهم بالمئات، كيف يتأتّى لمسؤولي النظام العراقي إخفاء هذا العدد الكبير عن أعين أعضاء فرق التفتيش الدولية التي ترتاد الأراضي العراقية طولاً وعرضاً. أطلق ضحكة استهانة قصيرة. حدّث العاقل.

بعد إنهائه روايته تطلّع إلي الصديق في عيني يشهدني. ما دام بعض الكويتيين بذمة معطوبة علينا العوض. استطرد. المصيبة هو قريب من أصحاب القرار. المرارة في فمي، هوّنت عليه. المهم أن لا يكون منهم. المرارة عالقة في فمي، وصلت المكتب قبل شروق الشمس بقليل، بقايا الطوز عالقة في الجو، هو لم يباشر نشاطه الاعتيادي بعد، الإضاءة النهارية باقية فضية باهتة، جلست عند الواجهة الزجاجية المطلّة على آخر مقابرنا داخل ما كان سوراً، أدقق النظر بالاتجاه، لون بني فاتح يرسم خطوطاً متواترة بين بقايا القبور، الأمطار القليلة التي سقطت في ديسمبر الفائت شجّعت بعض بذور الأعشاب المتوارية تحت سطح التربة على الاستنبات، حتّى إذا ما اخضرّت في فبراير جاءت عليها شمس مارس، أحالتها هشيماً ذا لون بُنّي. قيل هذه المقبرة تضمُّ رفات شاعر الكويت فهد العسكر، قيل أنّه مات منبوذاً من أبناء جلدته، ثمّ أنصفه مسؤولون من أصحاب القرار بالطريقة التي تكلّفهم لا شيء، سمّوا باسمه إحدى المدارس الابتدائية الحكوميّة. عدد الأسرى الكويتيين يفوق ستمائة، بما يتجاوز عدد المدارس الابتدائية الحكوميّة.

قبل أنْ يلتقيها وجهاً لوجه نفر من اسمها، بدا له اسم رباب كأنّه موروث غجري، بعد لقاء تعارف أوّل تمّ بينهما في رحلة عائليّة خلويّة وسط غابات نخيل أبي الخصيب احتلتْ رباب جانباً من اهتمامه، لم تكن جميلة بشكل ظاهر، كانت أنثى بجاذبيّة حسيّة لافتة، حين تُطيل نظرك فيها تحضرك فكرة السرير، بعد ليلتين من لقائهما الأول

زارته في الحلم، اتخذ قراره، الأمر الذي استغربه منها بدءاً كانت تحبّ الرسم. هلّا علّمتني. الفن موهبة أوّلاً قبل صقلها بالممارسة. تضحك. ما أدراك إنّي غير موهوبة. أنت موهوبة جدّاً في الأمر الأهم. أنتَ حبيبي. بحث عن معنى اسمهاَ في المعاجم العربيّة، تعددت المعاني، تريّث ذهنه عند كلمة ربابة تعني سحابة بيضاء، تجَمّع رباب، رسمها كما لو أنّها حشد سحب بيضاء. الفرح بامتلاك الجديد يدوم أياماً، أو أسابيع في أحسن الأحوال، يصبح جزءاً مما هو يومي، اعتاد غالب وجود رباب عنده لدرجة الاطمئنان، لحين توالي الأحداث بما لا يُصدّق، الذهول أو عجز الإدراك يتعامل منطقيّاً مع حال قائمة، ليكتشف لدى استعادته بعض توازنه هو بلا رباب، داهمه إحساسه بالخسارة، فراغ داخلي مترامِ موحش، رباب، للصمت صداه، كما للغياب نصله الذي يحزّ الخاصرة، رباب ماتت نزفاً من إصابة طلق ناري في الخاصرة، الظرف بانفصاله عن أيّما مسار اعتيادي لزمن متعارف عليه، جزيرة منعزلة لذاتها، وما توفّرت له فرصة سؤال، جنينهما كيف، هل فاته يقول لهم هي عراقيّة منكم، قال أو لم يقل أنت مُطلق سراح اذهب. بعد شهر من تاريخه قضاه مُقيّداً لسرير أحد أجنحة مستشفى الصباح. عسى الله يرد الكويت مثلما كانت. اعتاد المضمّد الفلسطيني الذي كان يُغيّر له ضماداته يهمسها في أذنه متمنّياً قبل أن يستحثّه. قُل إن شاء الله. تطوّع يتسكّع حوله، ينقل له أخبار ما يدور خارج المستشفى. رجل مجنون يظن الكويت لقمة سائغة قرر إلحاقها بالعراق سمّاها نداء. شيء أشبه بسيادة شريعة الغاب. القيادة الكويتية موجودة في المملكة العربية السعودية، هم يبذلون جهدهم لإعادة الأوضاع إلى ما كانت، لكنّ الرئيس العراقي

راكب راسه، يُقال هناك مقاومة كويتية، يؤكد ذلك سماعنا تبادل إطلاق نار كلّ ليلة، غيّروا اسم المستشفى. تلوّن صوته استهانة. صار المستشفى الصدّامي. لحظة مغادرة غالب، سارره مناضل. إن احتجت شيئا تعرف مكاني. عودته بيته تعني عودته بيتهما رباب وهو، تغي إحاطة كلّية بكل ما يُذكّره بها، يعني الإنصات عفويّاً لسماع نداء متوقّع، يصادفك على الفور هبوط حاد داخل الصدر، يتواتر فك خفقان قلبك، الآخر غياب مطلق. يُفترض بك تتوجّه لمكان ثن. قالها فهد منحى تعاطف. بقاؤك وحدك يعمّق شعورك الفقدان. كانا يقتعدان درجات الباب الجانبي إيّاها، الساعة تجاوزت الواحد ليلاً. وافقه غالب. معك حق. غافلته زفرته. عانيت بشدّة طوال ثلاثة أيام أولى لعودتي، شاركني السكن بعدها ضيف ولا كلّ الضيوف. أطلق ضحكة مفارقة. أيّاً كانت الأسباب التي تدفع الواحد كي ينفرد بحزنه، هناك احتياجات أساسية تضطرّه لمغادرة المكان، مساء يومي الثالث غادرت بيتي للتزود بما آكله، لأسباب تتعلّق بشرود الذهن أغفلتُ إغلاق نافذة المطبخ الذي يطلّ على زقاق خفي قريب من موقع حديقة الحيوان. انشدّ فهد باهتمامه كلّه. عُدتُ ليتي، سمعت جلبة داخل المطبخ. قاطعه فهد. رأيت قرداً. كيف عفت. الاحتلال بالفوضى المصاحبة، لم تجد الحيوانات من يتولّاها يعليها تولّي شؤونها، القرود كانت سبّاقة، شَنّت عمليات سرقة لمنزل منطقة العُمَريَّة القريبة من الحديقة. لأنّك بيطري أنت منحاز لحيوانات. تجاوز فهد مداخلة غالب. لعلّك فزعت منه. كلانا فزعنا في البدء. لم يستطع فهد إخفاء لهفته. ما هو نوعه. شمبانزي. يسهل تعامل معه إنْ أحسنت التمهيد لذلك. التمهيد بالغريزة

وحدها. ضحك فهد للإجابة. كان وحيد ينقّل بصره بين النافذة بصفتها سبيل نجاة وبين الكيس حاوي الطعام بين يدي. أبدى فهد إعجابه. أطلقتَ عليه اسم وحيد. المضمّد الفلسطيني مناضل هو صاحب التسمية. تتحدث بما يشبه الألغاز. لحظة وقعت عينا غالب على وحيد تذكّر مشهد خراف ميناء الشويخ، للحيوانات مشاعرها التي ترقى درجات مقارنة بمشاعر إنسانيّة، فكرة أخذت عليه اهتمامه وهو يتبادل النظر مع الآخر، هذا الحيوان يحتاج ما يأكل، مطبخه يعرفه، كان، ما قبل مغادرته، خالياً، ليس من العدل لا يكرم ضيفه. انحنى إلى الأرض بهدوء دون أن يرفع عينيه عن عيني القرد، قال له، أنت جائع بإمكانك تأكل، وضع الكيس، انسحب خارجاً. فغر فهد فاه دهشة. عرفتَ تتحدّث مع قرد. لماذا لا أتحدّث. مغادرة غالب المطبخ، أرهف أذنيه بالاتجاه، سمع حركة فضّ الكيس، القردة التي عاشرت الإنسان ردحاً تعرف، تذكر غالب، ضيفه يحتاج ماءً يشرب، لصّص خطواته نحو الحمّام، ملأ طاسة بالماء، وهو يزمع الاقتراب لباب المطبخ أصدر سعلة تنبيه، تأهّب وحيد للفرار، خاطبه غالب، لا تخف جئتك بماء تشربه، لم يدخل المطبخ، انحنى، وضع الطاسة أمام الباب، توجّه لمقعده المعتاد، جلس، هناك مجلة قديمة ملقاة على طاولة قريبة، أخذها، دفن رأسه كمن ينشغل يقرأ. أضيئتْ نافذة مطبخ البيت الثاني. تطلّع كلّ من فهد وغالب بالاتجاه.

هل يستغرب أيمن على هؤلاء الأسرى الكويتيين خروجهم ليلا لهذه الأرض المقفرة إلّا من شجرتي دفلى هزيلتين وما يُظن أنّه نبتة

قرنفل. شاهد اثنين منهم، رفع يده. مرحباً. تفاجأ بهما يقتربان من وراء سور الأسلاك الفاصلٍ أراد إبداء مجاملة ما، قال. الأرق، على ما يبدو، لا يستثني أحداً. رأى الاثنين يتبادلان نظريهما، منحى استشارة أو توزيع أدوار. قال فهد مضمّناً حسّ مفارقة. عملنا الوحيد هو النوم. استطرد. أرقنا يصاحبنا في الليل أو النهار. تملّك أيمن بدءاً ردّ فعل بالاستنكار، لكنّه سرعان ما استوعب المعنى. معك حق. قال غالب منحى إخبار. أعدّ الشاي. استجاب فهد. ليكن لثلاثة. أدرك أيمن أنّه الثالث، اختفى غالب داخلٍ مطبخهم، قال فهد. رفاقي الثلاثة وأنا نشكرك. أزمع أيمن يقول شيئاً، واصله صوت فهد. الشاي وملحقاته، والأهم أدوات الزراعة التي سلّمها لنا العريف عصر اليوم. تبادر لأيمن يعقّب. لولا استطراد مُحدّثه. أنت إنسان نبيل. مرّة ثانية يسمعها أيمن، الأولى من ريسان، للامتنان قدرة إشاعة السلام داخل الواحد، لوهلة قصيرة حار أيمن ماذا يقول. أنتم ناس محترمون. ضحك فهد بدلالة، حدّق فيه أيمن، تحرّكت الأنوار الكاشفة لبرج المراقبة لامست أعلى جدار البيت الثاني، قال فهد. لم أسمع كلمة محترمين منذ ما يزيد على عشرةٍ أعوامٍ. حاول أيمن إيجاد ردّ مناسب. لعلّها الظروف. عاد غالب حاملاً إبريقاً للشاي وثلاثة أكواب فارغة، اقترب عند السور، جلس متربّعا أرضاً، فكّر أيمن برهة، ثمّ اتخذ قراره أقعى بدوره، حذا فهد حذوهما جلس إلى جانب غالب، سور الأسلاك الشائكة يفصلهم، لكنه لم يمنع يد غالب تجد فسحة تمتدّ حاملة كوب شاي. أراد أيمن يجد مادّة حديث. قال. يبدو أن نبتة القرنفل بدأت تصير أقوى. قال فهد. ارتفعت ما يقربٍ من عشرة سنتمترات فوق الأرض. واصل. نبتات الدفلى تحتاج وقتاً كي تستعيد حيويّتها. فكر

أيمن. الحيويّة توصيف بشري. أضاف فهد بحس الاكتشاف. المفاجأة الجميلة تكمن في أنّي صادفت برعم نبتة شمّام هناك. أشار بامتداد ذراعه نحو جدار السور. سقيتُ أرضها ماءً لكي يشتدّ عودها قليلاً فأنقلها لمكان مناسب. توارد لذهن أيمن، هذا الاحتفال بالعثور على برعم نبتة ينمّ عن مشاعر مرهفة. التفت غالب لفهد سأله متشككا. هل أنت متأكد أنّه برعم نبتة شمام. ردّ فهد. ربّما هو كذلك. ماذا لو كان برعم عبّاد شمس. برعم عباد الشمس يشقّ التربة بعنفوان لا تخطئه العين. كلماتهم وهم يتبادلونها مدعاة تأمّل، لمّا كان أيمن يتلقى دروس استراتيجيا سنة أولى كليّة عسكريّة قيل له ما معناه، في أقصى الجنوب العراقي تقع محافظة النداء السليبة، أرضها صحراء قاحلة يقطنها بدو لا ولاء لهم تجاه وطنهم أو حسّهم القومي. مارلين قالت الكثير بخصوص نظام حكم قائم يفتقر لرؤية موضوعية لدى تعامله مع واقع الحال، يحكم قبضته على شعبه، يكتم أنفاس معارضيه، وحدة حريّة اشتراكية، كلمات جميلة، لكنّهم أفرغوها من معانيها، صارت شعارات جوفاء تستدعي الرثاء. يستلقي على أريكته في غرفة المعيشة. الساعة الثالثة فجراً، ليس أرقاً بمعناه. الآخر فهد يقول. عملنا الوحيد هو النوم أرقنا يصاحبنا في الليل أو النهار. تبادله الحديث مع رجال عهدة، تذكّر ما قاله أبوه أبّان تسلمه مهمّته. القاعدة الذهبيّة في المبادئ المعتمدة للاستخبارات تفيد، حين تتعامل مع سجنائك ضع مشاعرك جانباً، مارلين قالت، فؤاد التكرلي قال، محمد خضيّر أيضا، لو وضعنا بدر شاكر السيّاب جانباً، ولا يستطيع أيمن إغفال حقيقة إنّ أباه، برضاه أو بتعاميه، أحد أعمدة نظامه، وإلا ما صار آمر معسكر رشيد. تراه أين تحديداً. الآن فجر يوم أربعاء، أمر جديد مدعاة استثارة

قيد الحدوث مساء يوم الجمعة، دعوة ريسان له يحضر احتفالهم العائلي بمناسبة تعيين ابنته الكبرى هيا في وزارة دفاع.

قال إبراهيم فرغلي. استكمالاً لإظهار ملف القصة القصيرة في الكويت بالشكل المطلوب كتب أستاذ النقد في كليّة الآداب الدكتور مرسل العجمي تقديماً تناول فيه الملامح الأساسيّة للنصوص. ابتسم بدلالة الغبطة، تابع. ألمح للجرأة التجريبيّة في ما لا يراه نائم. عساني أطلع على الملف كاملا. ابتسم فرغلي بدلالة لا أحبّها. أبذل جهدي. آثرت لا ألح، لكنه جاءني بنسخة مصوّرة عن الملف بأسرع مما توقعت. أتصفّح هنا، أتريّث هنا، ورد في السياق العام للتقديم ما معناه أنّ ظاهرة سلبيّة سادتْ مناخات القصص القصيرة الكويتيّة خلال سنوات أعقبت التحرير، انفعاليّة النصوص لدرجة غياب الموضوعية، يقول نص وحيد أراد له كاتبه مغايرة السائد، تُحسب له جرأته ويُحسب عليه غموضه. أطبقتُ الملف، خلصتُ لمقولة متداولة، لكل شيخ طريقته. أن تكتبٍ عن حالة لم ترتكبٍ معايشتك لها، تلجأ لخزين ملاحظات ارتباطاً بمشاهدات سابقة، توقاً لأن تكون مماثلة، واقع حالك ذاك لم ولن، يبقى رهان الكابوس، بودّك لو تستشهد بكونستانتان جورجيو لما كتب رواية الساعة 25، كابوس متصل في ظل نظام شمولي ذي قبضة حديدية، نصوص كافكا بالسوداويّة التي سادتها لا ترقى لواقع ممارسات أجهزة قمعية أمنية تحكم قبضتها. لما كان الاحتلال خبرتَ الذي يعنيه أنْ تكون قيد المصادرة لسبب تعلمه أو تجهله، فإنْ صدف حدث إلقاء قبض أنت مفقود. الاحتلال دام سبعة أشهر، الخسارات خسارات، ثمّ

توفرت للكويتيين، مكلومين لدرجة الفجيعة أو نصف مكلومين، فرصة بدء جديد، آخرون، وراء حدودنا الشمالية، مازالوا محكومين من رقابهم، لما يفوق كتم الأنفاس أو الموت اختناقا، منذ نصف قرن، أنت مواطن إذن أنت متهم ولو ثبتتْ براءتكٍ، حتّى إذا ما أخضعوا للحصار الدولي صار الكابوس مزدوجا. بعيداً عن محاولتك اختراق الحدود في الحلم أو في الخيال باتجاه أين، تَراكَ ناقماً لسبب أساس، أنتَ ببدرٍ أسير، لا تستطيع الجزم هل هو حي أم، البروفيسور صاحب شهاداتٍ الدكتوراه الثلاث أو النصّاب الدولي بالثلاثة كاشفك قبل مفارقتك شقيقك الأسير في مكان ناء يستظلّ شجرة نبق. تستفزّك كلمة نبق، هل سبق للمترجم عاشَ في العراق أم إنّها كلمة دارجة لدى عرب الأهواز، لو قال شجرة سدر، عدا هذا اختلق قصّة وجود ثلاثة أسرى يشاركونه مكانهٍ الأسطوري، عداه، توصيفه لتواجد شجرة نبقه وسطِ ما يشبه موقعاً عسكريا، وسط ما يشبه صحراء، قبل أنْ يختم خالصاً لاستنتاجه، غير بعيد عن مركز عاصمة بلد عربي مجاور. أمره خبط عشواء مفضوح لك، أمثاله من المحتالين، كما تتوجّب عليك معرفتهم، يحسنون الإحتماء بالكلمات ذات المعنى العائم. المشهدِ الدرامي الفج الذي أقحمتَ وسطه تضمّن افتعال معلومات لا تُمت لحقيقة بصلة، اعتمد عبر توظيفه المفتعل لمترجم ترديدِ تعبيرٍ ما يشبه. كان قادراً، وقد عرف من صاحبك أنّ لك أخاً أسيرا. اللعبة واللاعب ولا تجزم ما إذا كان المعني يعرف بعض قصص أسرى من مواطنيه قابعين حتّى اليوم داخل سجون عراقيّة، إحداها تتصل بوزير نفطهم الذي كان بزيارة تفقديّة لمنشآت نفطية في مدينة قصر شيرين المتاخمة للحدود مع العراق، عندما اجتاحت

قوّات النظام العراقي الأراضي الإيرانيّة فجر أحد أيام شهر سبتمبر عام 1980 بلغت تلك المدينة خلال ساعات، وزير نفطهم صيد ثمين، أسروه، احتجزوه في مكان ما، بعد ثمانية أعوام شعواء وضعت حرب البلدين الجارين أوزارها وتمّ الصلح بينهما، توفّرت فرصتهما لهما. تعالوا نصفّي الأمور العالقة بأسرع وقت نبدأ بالقضية الإنسانيّة الأكثر أهمية. نبدأ بها. نتبادل الأسرى. خير البر. تمّ إطلاق سراح عشرات آلاف جنود أسرى من الجانبين تحت إشراف منظمة صليب أحمر دولي. تساءل الإيرانيون في حينه. أنتم لم تعيدوا لنا وزيرٍ نفطنا الأسير لديكم مُنذ اليوم الأوُل لقيام الحرب. لم نأسر وزيرا أبداً، الأمر الأهم لم يبق لدينا أي أسير من طرفكم. هل استنتج الإيرانيون، وزيرنا مات في الأسر دون أن تُكتشف هويته، ليس من سبب يدعو الطرف الإيراني لأن يتشكك بمصداقيّة الآخر. بعد مرور إحدى عشرة سنة على إبرام الصلح وحلّ القضايا العالقة كافّة بما فيها إعادة التمثيل الدبلوماسي مستوى سفراء بادرت السفّارة العراقيّة في طهران خاطبت وزارة الخارجيّة الإيرانية، إنْ شئتم تسلّمتم جثمان وزير نفطكم الذي مات داخل أحد سجوننا يوم أمس. لا أحد، مهما بلغ ذكاؤه السياسي أو إحاطته بعلم نفس البعض، يستطيع فهم الأسباب الباعثة وراء الاحتفاظ بالأسير الفلاني بعد انتهاء حرب أو إبرام صلح، إنْ كانوا احتفظوا بوزير نفط إيراني زهاء عشرين سنة، أعادوه في تابوت، أسرى الكويت كيف.

ضحى أحد أيامهم هناك، كان فهد يعمل على رعاية النبتة الصغيرة بعدما نقلها من موقعها الأوّل عند جدار السور لمكان يتوسط

الساحة الخلفية، البرعم الذي كان ارتفع بضعة سنتمترات ثمّ مال جانباً، ناوياً الزحف. هل تأكّدت من كونه نبتة شمام. سأله غالب. الشمام لا ينمو بهذه السرعة. ما هو إذن. شيء هجين سيضطر للكشف عن هويته لاحقاً. تتكلم عن النبتة وكأنّها تفكر. النباتات، شأن الحيوانات، كائنات حيّة تبذل جهدها كي تتدبّر أمورها بمساعدة خارجية ومن دونها. تذكّر أضاف بروح دعابة. قردك وحيد نموذجاً. لو عاد بنا الزمن وراء، كان وقتنا مساءً، الشمس بسبيلها تغرب، شاغلتني، أو تظاهرتِ بانشغالي أقرأ مجلّة، اقترب القرد لطاسة الماء، رفعها لفمه مستعينا بكفيه الاثنتين، تَراه وهو يكرع الماء فتتساءل ما الفرق بينك وبينه، تنبّهت لوجود سلخ دام في كتفه الأيسر، أظنّه نتج عن جرح لم يلق رعاية بلغ مرحلة حرجةً. وجه المفارقة إنّ الطلق الناري الذي يوم رباب كتفي الأيسرٍ. هذا يعني نحن أخوة. خاطبته بصوت خفيض حاولت أشحنه تفهّماً دون أن أرفع رأسي عن المجلة، تابعت بنبرة الصوت ذاتها. أنت مصاب، وإصابتك بلغت مرحلة تتهدد حياتك. رأيته يصغي متطلّعاً ناحيتي، جازفتُ رفعت رأسي عن المجلة، استدار بنصف جسده متأهّباً للهرب داخل المطبخ، لو شاء يذهب لا اعتراض، نافذة المطبخ باقية مفتوحة. أنت أحوج ما تكون لعلاج إصابتك. واصل تحديقه صوبي، رفعتُ يدي اليمنى بحركة بطيئة، قفز مسافة خطوة داخل المطبخ متطلّعاً لي، تابعتُ رفع يدي اليمنى بحركتي البطيئة، لامستُ كتفي الأيسرٍ. أنت تتألّم هنا. المناورة والوقت الذي استغرقته، بقي القرد مراوحاً عند باب المطبخ، تعب غالب، تظاهر بالنوم، أطبق جفنيه دقائق، أحس حركة قريبة، فتح عينيه، رأى القرد بسبيله لأن يمدّ كفّه يلامس له كتفه اليسرى.

تعال. استسلم له القرد، حمله على ذراعه، اتجه للحمام، دولاب صغير بواجهة مرآة، الدولاب من اختيارات رباب لأثاث البيت، صيدلية منزلية، لم يفزع القرد لمّا رأى انعكاس صورته في المرآة، فزع لحظة رأى قناني الأدوية، للقردة جانب من طباع الأطفال، تملص من ذراع غالب، قفز أرضا، أسرع للباب، وقف خارجه مترقّباً، لم يجد غالب ما يفي بالغرض بين محتويات دولابه ذاك سوى قنينة يود، صرف ذهنه عن فكرة الاستعانة بها، يدري باليود يسبب لسعة حادّة، لو تعرّض لها القرد قفز من فوره لنافذة المطبخ، طرأ المضمّد الفلسطيني مناضل على باله، ليس بمقدوره اصطحاب القرد حتّى المستشفى في الشويخ، ذهابه وعودته وقد حلّ الليل ولا ضمانة ملازمة القرد البيت خلال غيابه، ليس سوى محاولة تنظيف الجرح استعانة بالماء وحده، وحتّى يحلّ الغد، إنْ ارتأى القرد البقاء. اضطرّ غالب يخلع قميصه، يأتي بطاسة ماء فاتر بعدما أضاف له قطرات من قنينة خل، استعان بخرقة قماش، بلّها ماءً، طفق يمسح أثر الجرح المترتّب عن إصابة كتفه، راقبه القرد مهتمّاً حوالي دقيقتين، اقترب بعدها، مدّ يده أخذ خرقة القماش من يد غالب. صباح اليوم التالي قلت له أنا ذاهب لجلب طعام، أشرت لفمي مؤدّيا عملية المضغ، قلت له ليتني آتيه بدواء يعجّل شفاء جرحه، أشرت لكتفي ثمّ لكتفه المصابة. أبقيت نافذة المطبخ مفتوحة، تاركاً له حريّة الذهاب متى شاء، لاكتشف بعد ذلك أنّه كان يعبرها خارجاً مرّات عدّة يومياً لقضاء حاجاته الجسدية. عشرة أيامٍ على مغادرتي المستشفى استقبلني مناضل كما لو أنّي غبتُ ردحا، حيّا الله المناضل. تمنحني اسمك. انفرج فمه بابتسامة عريضة. بسبب تلقيك رصاصتك. أحتاجك لأمر يتصل بتطبيب قرد. ارتفع حاجباه

استنكاراً. لستِ بيطرياً. القرد لا يعاني مرضاً باطنياً بما يقتضي فحصاً طبيّا متخصصاً، هو مصاب بجرح سطحي في كتفه. استوعب مناضل الحالة، سأل. من أين جئت لك بقرد. التقيت به في مطبخ بيتي. هل قرأ مناضل أفكاري، وهو يُعدّ حقيبة إسعافات صغيرة، قال. نعقّم له جرحه بما لا يسبب حرقة. مناضل مواليد الكويت، يصغرني ست سنوات، التحق ما بعد الثانويّة معهد تمريض كويتي، مارس مهنته خمسة أعوام، سافر للأردن منتصف شهر يوليو، خطب ابنة خالته، الزواج، كما جاء اتفاقهم عليه، أوائل سبتمبر، حدث الاحتلال. عندما قال غالب. بإمكانك تسافر تتزوج. اشتراط مناضل يستوطن صوته لدى إجابته. تتحرر الكويت أوّلاً من بين معلومات أسرّ بها مناضل. أنا جبهة شعبية، لا علاقة لغالبية الفلسطينيين المقيمين هنا بتصريحات أو إعلان مواقف قيادات منظمة تحرير نفر القرد لحظة عبورهما باب الشقة، أسرع لنافذة المطبخ، جلس على قاعدتها. بمحاولة لإقناعه خلعتُ قميصي، أسلمتُ كتفي إياها لمناضل كي. أداء درامي لا بُدّ منه، وهو يبدأ علاجه للقرد أطلق عليه اسمه. وحيد. لماذا وحيد. لعلّ بقيّة القردة لم ينجوا بعد اجتياح الكويت. وحيد، وقد عايشني أسبوعين، لم ينجُ أيضاً. لاذ غالب بصمته برهة، رحل صوته وراء أساه. كنّا أواخر شهر سبتمبر، الوقت ضحى، تفاجأت بطرقات ملحاحة على الباب، الله يستر. من. افتح. بلغتني صيحة آمرة. فتحت. تدافع عشرة جنود مُدججين بأسلحتهم داخلين يلحق بهم ضابط شاب. تفتيش. ما الذي أردّ به، وحيد تفاجأ لدرجة الفزعٍ الشديدٍ، كان أحد جنودهم يعترض باب المطبخ، بدأ وحيد صراخا مجنونا، لعّله مرّ بتجربة يوم ثاني آغسطس، كان يقفز بكلّ الاتجاهات

مُصدراً صرخاته، هل صدم الضابط، أو أنّ أحدهما فزع دفاعاً عن النفس، سحب مسدسه.

قبل مغادرته المعسكر ظهر يوم الجمعة تريّث أيمن عند خيمة جنود برج المراقبة، أوصى العريف المسؤول. عينك على الموقع. لا تشغل بالك سيّدي. انتظمت سيّارته الجيب فوق الطريق السريعة، ليس ما يدعوه للعجلة، لديه فائض وقت، بعد وصوله بيته في مدينة الضباط لن يمكث أكثر من ساعتين، يستعد بعدها لأمرين، زيارة شارع المتنبي لتسلّم كتاب وعده به أحد الباعة، يليه وفاء وعده لريسان، حضوره حفلهم العائلي. يتذكّر أيمن أيام موسكو، مارلين لا تُعدم اختلاق مناسبات صغيرة للاحتفال، ما قبل رحلة موسكو بسنوات وما بعد عودته من هناك لم يحضر مناسبة احتفالية ما، لعلّها طبيعة منصب أبيه، آمر معسكر، لعلّه التضامن المعنوي من جانب أعمدة النظام مع معاناة عامّة الشعب جرّاء حصار دولي، لعلّها ماذا. تبقى حيرة أيمن، هل يذهب لبيت ريسان خالي اليدين، أم أنّ العرف البغدادي يقتضي هديّة مناسَبة. طلباً للمشورة سأل أمّه. سألته بدورها عن مواصفات الفتاة. ضحك. أنا لم أرها يا أمّي. عيناها تكذبانه. اشتر لها حلية ذهبية. لم يجبها. الذهب دالّة لا مكان لها هنا. صرف نفسه من أمامها، تسكعه في شارع المتنبي، ماذا لو اشترى كتاباً، تأمّل فكرته. هيا ليست مارلين، انطلق بسيارته نحو الشارع الموازي لقناة الجيش، واتته فكرة شراء نبتة داخلية يضعها إلى جانب الغاردينيا، وهو يتجوّل داخل سقيفة زجاجيّة للنباتات الداخلية وقف مشدوهاً

أمام شجيرة برتقال قزمة مُثقلة الأغصان بثمار صفراء بحجمٍ النبق. أجمل ما يُمكن. أريد هذه. غالية. قالها البائع أضاف ناصحاً. تستطيع شراء مجموعة نباتات داخليّة كثيرة بثمنها. أريد هذه. نشط البائع. يعدّ الشجيرة القزمة. معها كُتيب تعليمات يوضّح كيفيّة العناية بها وسقيها. تابع مُخبّراً. صاحب المشتل استورد ثلاثاً منها، سلّم اثنتين للأستاذ ابن السيّد الرئيس حفظه الله. يقترب أيمن بسيارته من المكان المحدد للقاء ريسان. أسكن محلّة السنك، بيت قديم، في زقاق ضيّق لا تدخله السيارات، سأكون بانتظارك أمام البوابة الرئيسيّة لجامع الخلّاني، القريب من المنزل. مراقبة أيمن للطريق، ترك ساحة التحرير وراءه، لو تابع سيره إلى الأمام قليلا وصل مدخل سوق الشورجة من ناحية شارع الجمهورية، تلك هي القبّة الخضراء لجامع الخلّاني، مضيفه ريسان يقف منتظراً. وصلت على الموعد. ركب إلى جانبه، وجّه له طريقه، بضع مئات أمتار. نتوقّف عند الرصيف. كانا أمام مدخل أحد أزقّة السنك، نظر أيمن بالاتجاه، عرض الزقاق لا يكاد يتجاوز مترين، تعترضه عتبات بيوت قديمة قائمة على جانبيه. ترجّلا من السيارة، قال ريسان وهو يحضن أصيص الشجرة القزمة. جميلة. سار في المقدّمة، لحق به أيمن. معظم البيوت من طابق واحد، أبواب ونوافذ خشبية تعود لأربعينات، ربّما ثلاثينات القرن الماضي، كما لو أنّ التاريخ حاضر في المكان، عبق أصالة يفتقدها أيمن في بيوت مدينة الضباط، المتباعدة عن بعضها، البيوت هنا تشترك بالجدران والأسطح، توقّف ريسان. هذا بيتي. دهليز ينفتح على غرفة استقبال بجلسة سدو. أحبّ أن أكون على الأرض. قالها ريسان مبرراً. أمور أيمن هنا غيرها، حميمية اللقاء وعفويته، بدا له كأنّ النسوة الثلاث

يعرفنه منذ زمن، هيا الابنة الكبرى في الخامسة والعشرين، جميلة جريئة، جنى في العشرين، حيية تتمتع بجاذبيّة محببة. أنتَ حسبة ابني. قالتها الأم وهي تحضن كفّ أيمن بيديها الاثنتين، رغم تجاوزها الأربعين بسنوات إلاّ أنّها بدتْ متينة البُنية. الاحتفاء الذي حظيت به نبتة البرتقال القزمة من جانب هيا ولّد إحساساً بالذنب لدى أيمن تجاه جنى، كان حريّاً به أنْ. عديدة هي أصناف المعاناة خارج المنزل، تعوّضها أو تخفف وطأتها حميميّة الارتباط العائلي بين جدرانه. ثلاث سنوات من مراجعة وزارة الدفاع وانتظار صدور قرار التعيين. قالتها هيا بحس من اعتداد بالنفس. واصلت. قبل شهر فقط تمّ قبولي موظّفة حاسوب. قال ريسان. أنا شخصياً لم أكن متحمّساً لوظيفتها هذه. ضحكت هيا. لكنّك تحمّست أخيراً. لأنّه لا خيار أمامي. انحازت الأم لزوجها. الحق مع أبيك. تدخّلت هيا أوضحت لأيمن. من بين شروط تسلّمي الوظيفة طالبوني بتعهد مكتوب. أطلقتْ ضحكة مفارقة قصيرة. أنْ لا أتزوّج إلاّ من رجل يرضون عنه استخباراتيّاً. سكتت برهة. شرط غير قابل للإلغاء في أيّ وقت، حساسيّة الوظيفة ألزمتهم يفرضون مثل هذا الشرط. تبادر لذهن أيمن، هم يعرفونه أحد أبناء النظام وإلاّ ما تحدّثوا بهذا الانكشاف، تبادر لذهنه أيضاً، هيا عضوة متقدّمة في الحزب الحاكم.

فيما قد يراه نائم أنّ الأنظمة الشمولية حول العالم، تتهاوى معاً أو تناوباً، وتتولى الشعوب المغلوبة على أمرها إدارة شؤونها بنفسها أو بمساعدة خارجيّة، لو حدث مثل هذا في العراق الآن، كيف سيتم

إطلاق سراح الأسرى الكويتيين. لو تسلّمت الجماهير العراقية الزمام، لو اقتحمت سجوناً قائمة، لن يكون هناك أسرى لكي يتمّ إطلاق سراحهم كما حدث مع انتفاضة مارس 1991. أمس التقيت أستاذ العلوم السياسية في جامعة الكويت الدكتور غانم النجّار. جلسة تجاوز أمدها ساعتين خُصص نصفها الأخير لما يشبه الاستجواب. النتائج المتحصّلة. أطلق ضحكته القصيرة الودودة. إجابة سؤالك تعتمد على ماذا تريد أن تسمع. أعرفه منذ ما قبل الاحتلال بصفته أحد أهم الناشطين بميادين حقوق الإنسان، ولأنّه لا انفصال بين الإنساني والديموقراطي حورب النجّار بصفته معارضاً شرساً لنظام بعينه. أيام الاحتلال تصدّى النجّار لقضيّة أسرى الجيش الكويتي الذين أخذهم المحتل إلى ما وراء الحدود، كدّس الغالبية العظمى منهم في سجن الموصل بصفتها المحافظة الشمالية الأكثر بُعداً عن الكويت، تولى النجّار تنظيم رحلات جماعية لذوي الأسرى الكويتيين الموجودين داخل سجن الموصل أو في سجون أخرى، مستعيناً بدالّة الصليب الأحمر الدولي وجهات دولية ناشطة في هذا المجال، قبل أن يتمّ أسره يوم نشوب الحرب الجويّة، يُنقل إلى أحد سجون محافظة البصرة، يبقى هناك لأكثر من شهرين، لحين تسليم النظام العراقي بالهزيمة، حدوث الانتفاضة الشعبية وإطلاق السراح، عاد النجّار للكويت المحررة حديثاً، ليتابع نشاطه إيّاه سعياً وراء تحرير بقيّة الأسرى. إنْ لم تكن مع نظام بلد مُعيّن فأنت ضدّه. منْ منحك صلاحية العمل، أنت مخالف للقانون، قُيّد نشاط النجار، وفي الوقت ذاته أعلن مسؤولون عن إقامة هيئة رسميّة تتولّى مهاماً مُدرجة على جدول أعمال مكتبي، مُنذ وحتّى حينه لم توفق الهيئة المعنيّة تُطلق

أسيراً واحداً. التقييد المفروض على النجار لم يمنعه عن التواصل مع مهتمين من هيئات دوليّة تُعنى بشؤون الأسرى حول العالم. هل هناك رؤيا لعمل محدد. لا أجابها غانم النجّار حاسمة، تابع. ولن تكون، ما دام موضوع الأسرى ليسٍ من أولويات مسؤوليك. آلمتني كلمته الأخيرة، أحسستني مسؤولا بشكل ما. أين بيت القصيد. أسئلتك تنكأ الجرحِ. شردت عيناه في البعيد، وصلني صوته أسيان. كلّما التقيت واحداً من ذوي أسرانا شعرتُ بالتقصير. سكت وهلة. أنْ تتحرّك في سياق ما هو إنساني ديموقراطي، أنْ تتوجّه بخطابك أو جهدك لمسؤول غير منزوع القيم. استعاد عينيه من البعيد. لمّا فاز بيل كلنتون بانتخابات الرئاسة الأمريكية على جورج بوش رقص الرئيس العراقي فرحاً بانتصاره مُطلقاً النار في الهواء، ها هو أحد أعدائه يغادر المسرح السياسي العالمي، المسألة بالنسبة إليه شخصيّة، كلّ المسائل، بالنسبة لقادة الأنظمة الدكتاتوريّة، شخصيّة، يقول أحد الفلاسفة أنا أفكّر إذن أنا موجود، القادة المعنيون يقولون أنا على سدّة الحكم إذن أنا مُنتصر. أيّها العزيز. استمهلت مُحدّثي. سؤالي كان مُحدداً بأسرانا لا غير. فاجأني ردّه. أنا أحاول إجابة سؤالك. حصر ذهنه لثانيتين. في تسريبات لأخبار مؤكّدة. أصغيت له. الضغوط الدولية المتوالية من خلال جملة قرارات صادرة عن مجلس الأمن الدولي والقاضية بضرورة إخضاع منشآت عراقية لجهات رقابية مختصّة عبر زيارات دورية وأخرى مفاجئة يقوم بها مُفتشون دوليّون لغرض التأكّد من لا تصنيع أو تخزين أسلحة دمار شامل، الأمر المقلق للنظام العراقي أنّ هذه الفرق، كما هو مُفترض، تمتلك صلاحيّة دخول أي مكان، عسكري أو مؤسسي يعود لقادة النظام، عدا عن عشرات القصور

الرئاسية المنبثّة في طول العراق وعرضه. الزبدة. تسريبات لأخبار مؤكدة. ما دامت القيادة العراقيّة في موقف لا يؤهلها لغير التسليم. تعالوا فتّشوا ونحن نتحداكم إن عثرتم على ما يُثبتْ دعاواكم الهزيلة. شحن النجار صوته بحسّ الأهمية. الأمر الذي يتصل بموضوعنا، القيادة العراقية تدري أنّ سجونها منشآت عرضة للتفتيش، في الماضي تنفي وجود مواطنين لدولة منزوعة عن الخارطة، الجولات الميدانية المتوقعة للمفتشين داخل السجون، احتمال مصادفة. أحد الأسرى الكويتيين، الأمر يؤخذ على محملين، الأوّل، الموقف المُحرج للقيادة العراقية بعدما دأبت تنفي وجود أسرى مُحددين، الأمر الثاني. ضياع متعة لي أعناق الكويتيين، مواصلة الاحتفاظ بأعداد من أسراهم. هل شرد ذهني. أنتَ معي. أجبت. معك. خبر مؤكّد من جانب جهة استخباريّة تركية موثوقة، قبل أشهر قليلة تولّت القيادة العراقية تجميع الأسرى الكويتيين من داخل سجونها العديدة وضعتهم داخل موقع واحد في محيط بغداد، ثم تولت توزيعهم مجموعات صغيرة نقلتهم إلى أماكن متفرقة يستحيل الاستدلال عليها. آخرتها. أنْ يتصدّع النظام تتفكك أجهزته، بما يُسَهّل مساومات على نطاق محدود. أو. يتخذ النظام من قضية الأسرى إحدى أوراق أخيرة يلوّح بها عند الضرورة. كأنّك تقول لا أمل. اختصر ردّه. في المستقبل المنظور.

لا أحد يستطيع إجابة سؤال يحزّ لنا دواخلنا، حتّى متىٍ نبقى هنا. لا أستبعد أنْ يكون ضابطنا المسؤول جاهلاً ذلك أيضاً. أنت تسمّيه سجناً وأحياناً مكان اعتقال. هو في حقيقته لا هذا ولا ذاك.

اجتهد جعفر مرّة وصّف حالتنا، يخصّون بها رؤساء معزولين، أو قادة سياسيين مغضوباً عليهم، يدعونه إقامة جبريّة. الحال هنا انقطاع كلّي عن أيّ عالمٍ خارج هذا البيت. أيامنا في الكويت، منتصف السبعينات تحديدا، كنت طالباً في المرحلة الثانوية، وكان أخي مهموماً بتأليف رواية تدور أحداثها داخل سج، أتذكّره يقول. بودّي لو تتوفّر لي فرصة معايشة سجن. الأمنية فيٍ لا محلّها. أنْ تكون صادقاً في نقل وقائع معيّنة يعني تختبرها واقعيّا. الاختبار غيره عن أن تنسجن. الأمور في نصابها يا بدر، كلماته عالقة في البال مازالت. احتساباً لمرور عشرة أعوام وسبعة أشهر أسر، بعد معايشة العديد من معتقلات وسجون وأساليب استجواب عراقيّة، الآن وسط هذا البيت حيث لا تسمع سوى أصوات رفاق ثلاثة إذا طاب لهم تحدّثوا، وإلّا أنت نهب صمتك الذي قد يمتدّ لساعات لا تٍسمع سوى جدلك الداخلي، تراودك نفسك لو تكتب، ليس مهماً نوع المادة التي تُكتب، لست بصدد إنشاء رواية لكنّه حوار الذات، تبقى المعضلة، أنت سجين ولا يحقّ لك الانشغال بما لا يُراد لك. في حديث لكما، غالب وأنت، شكا لك معاناته شعور البطالة. الإنسان، في حقيقته، آلة بيولوجيّة إن أبقيتها دون جهد تشغيلي لفترة طويلة فقدتْ لياقتها. تشبيه أدلى به مُحدّثك، توافقه إلى حدٍّ ما، إذا عرفت قصده. قال. وفّر لي قماش رسم وعبوات ألوان زيتية، ساعتها أحسّني استعدتُ لياقتي. جعفر يحلم بمنحى ثان. لو أطلق سراحي كتبت سلسلة مقالات يوميات فلان في الأسرٍ. فهد مع نبتة القرنفلِ وما يسمّيه بالشمّام الهجين. البيطري مسؤول يرعى حيوانات، فإنْ لم يجدها. ذات مساء واتته فكرة اتخذت صيغة سؤال. هل نستطيع استئناس طيورهم. فكرته

بالاستحالة الواردة، عدا عن توظيفه ضمير الجمع بمحاولة واضحة لإشراكنا معه. كيف. سأله جعفر، قال. لن نُعدم وسيلة. إصراره يستوطن صوته. يجب أنْ نجد وسيلة تحقق لنا فكرتنا. توظيفه ضمير الجمع، قاطعته. على افتراض أننا عرفنا استأنسنا طيورهم ما أدراك طبيعة ردّ فعلهم. حضره ردّه. إنْ شاءوا منعوا طيورهم. النقاش يكون مُجدياً إن لم يكن ذا موضوع محكوم بالاستحالة، التزمت صمتي. واصل فهد إعمال ذهنه، هداه تفكيره يقتصد أكله، إذا كانت الجراية رزّاً احتفظ بحفنة، وإذا صادف رغيف خبز اقتطع جزءاً منه، حوّله فتاتاً ناعماً، اختار مكاناً من الأرض الخلفيّة عند زاوية سور الأسلاك الشائكة، مهّدها، نَثَرَ حبّات الأرز وفتات الخبز فوقها، استحدث إلى جانبها حفرة صغيرة سمّاها البِرْكة، ملأها ماءً. لعلّها روح التضامن أو التعاطف أو ماذا، في الأيام الأوّلى بدأ فهد يستغني عن نزر يسير من جرايته، بعد يومين حذا جعفر حذوه، بقينا غالب وأنا في موقع المراقب، جدوى الجهد. الطيور متواجدة في الجوار حيث أشجار أثل و أكاسيا، سماؤهم لا تخلو من طيور عابرة، بإمكانك رصد مرور بعض العصافير رملية اللون، غالباً ما تطير بمجموعات صغيرة، أربعة أو ستة، إضافة للبلابل، التي تطير فرادى، تميّزها بالزغب الأسود عند رقابها، أصناف طيور أخرى لم تكن تُرى من قبل. ضحى اليوم السادس حطّ بلبل على سور الأسلاك الشائكة غير بعيد عن موقع المائدة المعدّة، بقي يتلفّت بحركات متوتّرة لبضع ثوان طار إثرها بعيداً، في ذلك الوقت كان فهد يتخذ من سلّم الباب الجانبي مجلساً له، لا بأس من زيارة استطلاعية، رددها صابراً، زهاء ربع ساعة عاد البلبل أو شبيه له قبل أن يلحق به ثانٍ، وقفا متواجهين

أعلى سور الأسلاك، تريّثا برهة، ثمّ حلّقا عمودياً، أدّيا دورة طيران في الأعلى، حطّا عند طرف نثار الطعام، في الدقائق السابقة لغروب شمس اليوم إيّاه زاد عدد الطيور الصغيرة صار ستة، بلبلان وأربعة عصافير، ما عاد أمامنا غالب وأنا إلّا أنْ نُخصص نزراً من جرايتنا لضيوفنا الآخذين بالازدياد، الأمر أشبه بالمعجزة، عشرات الطيور بما فيه نوعٍ حمامٍ بري ترابي اللون وطائر الهدهد أيضاً، صرنا نسمع تغريداً سيمفونيّاً لجحفل الطيور في الصباح الباكر وعزفاً مماثلاً مصاحباً لمغيب الشمس. معجزة الطبيعة لم تتوقف عند توافد الطيور، مساحة الأرض الخلفية طفقت تساهم بنصيبها، عناية فهد أو الجيرة البشرية، لعلّ استئناس طيورهم انسحب على أرضهم، نبتة القرنفل لم تعُد وحدها، الأرض أنبتت العديد، طفق فهدٍ يوليها رعايته، الأعشاب بدورها غطّت مساحاتٍ متفاوتة، في حين أصيبت نبتة الشمام الهجين بجنون الانتشارِ أفقياً، بلغت سيقانها الزاحفة سور الأسلاك الشائكة بدأت تتسلّق، الظاهرة الملفتة أنّ الطيور، على كثرتها، لم تقرب البراعم الطرية للنبتة، في وقت لاحق أخبرنا العريف ريسان. هذه نبتة حنظلة، الطيور لا تقربها لأسباب تعرفها، انتظروا حلول موعد إثمارها.

اليوم هو الخامس والعشرين من شهر حزيران. هذا يعني انقضاء أربعة أشهر منذ تولينا عهدة. مرّت كأنّها أربعة أسابيع. معك حق. أيمن وريسان يتبادلان حديثهما. الساعة قاربت الخامسة عصراً، لم يبق طويل وقت عن سماع أيمن لسؤال اعتاد ريسان يوجهه في مثل

هذه الساعة يومياً. هل تحتاجني في شيء. بما يفيد إزماعه المغادرة. لكنّ الأخير قال. أم العيال مصرّة تعشّينا كبّة برغل. تطلّع فيه أيمن مستغرباً. أضاف. مرّ شهر على زيارتك بيتنا. لأنّ أيمن لم يستجب بعد تابع ريسان مُسبّقاً بضحكة قصيرة خافتة. هيا تسأل إنْ كنت ستأتي لتتفقّد شجيرة البرتقال. علاقة الاثنين، أيمن وريسان، ما عادت تتحدد ضمن إطار علاقة ضابط بعريف، واعز الصحبة إضافة لعامل الثقة، عدا توق أيمن أن يكون الآخر على سجيّته، تحقيقاً لمناخ ألفة أقرب لصداقة ثنائيّة بين ندّين، لم يفكّر أيمن طويلاً. لا بأس أن نأكل كبّة أم هيا. تهلل وجه ريسان، تابع أيمن. ليتك تشتري بذور فجل من المشاتل قبل مجيئك لهنا صباحاً. التمعت عينا ريسان بفهمه، البذور المعنيّة ستكون من نصيب العهدة. حاضر. لم يردْ لذهن أيمن أنْ يوطّد أو يؤكّد نمط علاقة ما بالأسرى رغم قناعته هم يستحقون الاحترام، رآهم ينظّمون شؤونهم بينهم، نمط تآلف يندر وجوده وسط محتجزين في مكان محدود المساحة يعانون انقطاعاً عن بلدهم وعوائلهم منذ كم، أربعة رجال لا يكادون يتشابهون إلّا بتواتر اسم فهد بينهم، يتقدّم أحدهم بطلب ما لا يعود مردوده عليه، يتذكر أيام موسكو، كانا، مارلين وهو، في سياق موضوع الحصار الدولي المفروض على العراق، دور الكويت في تكريسه، يتذكّرها أشارت إلى لا مسؤولية نظامهم هناك. لماذا. لأنّ الكويت بلد يتمتّع بهامش ديمقراطيّة برلمانيّة. ارتجّ على أيمن فهمه. لماذا هامش. لأنّه هكذا. هدف أيمن لمناكفتها. شأن حالكم في موسكو. احتدّ صوتها. هنا هامش مُحكم. هنا الآن، في الطرف الأبعد لمعسكر التاجي، بيتان متجاوران أحدهما أربعة عُهدة، يتساءل أيمن، تراه هامشهم ذاك هو

الذي يوجّه تعاملهم بعضهم البعض. حزيران شهر صيفي، نهاراته حرٌّ شديد يشارف 50 درجة مئوّية مع جفاف هواء لا يُحتمل، لكنّ لياليه، التاجيّة تحديداً، شأن ثان، نسمات طريّة جرّاء ملامستها مسطح مياه نهر دجلة إن جاءت شرقيّة، أو مرورها فوق مياه بحيرة الثرثار إذا كانت غربية. جيرانه الأربعة اعتادوا التواجد عند عتبة باب مطبخهم حتى ساعة متأخّرة ينسحبون بعدها داخلين، تمرّ نصف ساعة، أكثر أو أقل، يظهر فهد. ثلاثة أيام أخيرة رصد أيمن تواجد فهد لحين شروق الشمس. تحتاج النباتاتِ لرعاية لا يمكن توفيرها نهاراً بسبب شدّة الحرارة. وافقه أيمن. فعلاً. لمّا يستعيد أياماً أولى لوصولهم، طابع رسمي للتعامل تؤطره فوقيّة لا مقصودة من جانبه، مرور الأيام، حكم جيرة رؤية العين ووضوح السماع حيث لا حاجزٍ سوى الأسلاك الشائكة، مرحباً، ليحضر فضول الواحد يوجّه سؤالاً الأربعة، كما لاحظهم أيمن، لم يسبق وجّه أيٍّ منهم سؤالاً يتصلٍ بأيمن أو بالمكان المعسكر أو عمّا يدور خارجاً، هم يحترمون حدوداً ضمنيّة ترسم علاقة السجّان بمسجونيه. وحده أيمن يغافله فضوله يسأل. ولم يعتذر أحدهم. آسف هذا شأن شخصي. مرور الأيام، حكم اعتياد المكان وروتينية المهمة المُناطة، درج أيمن، إذا جنّ الليل، يستعين بمقعد بلاستيكي خفيف الوزن، يجلس عليه وسط أرضه الفضاء، البارحة نشط فهد أصلح جانباً من الأرض، ولمّا تعب، أو هكذا بدا لأيمن، جلس أرضاً غير بعيدٍ عن السور، شعر أيمن كأنّها دعوة تبادل حديث، حمل مقعده مقترباً به. سمع الآخر. حيّاه الله. صوته يُضمر ودّه. بدرت عن أيمن ضحكة خافتة، تحيّة فهد بضمير الغائب. قال. الله يحييك. أومأ فهد برأسه لمساحة الأرض وراء أيمن.

لو أصلحتها زرعتها خضاراً ورقيّة كَفَتْ لك حاجتك. مثل ماذا. رويد. رويد. تساءل أيمن مستفهماً، أجابه فهد. تُسمّونه الفجل.

لا تدري ما إذا كنتَ مؤهّلاً للقيام بأعمال بحث ذات صلة أم أنّك لا تصلح لغير الكتابة. بعد لقائك الدكتور غانم النجار انشغل ذهنك بمعلومات محددة، النظام العراقي، خشيته انكشاف مسألة أسرى كويتيين لفرق تفتيش دوليّة قام بتجميعهم قبل أشهر في موقع عسكري داخل حدود العاصمة بغداد بقصد إعادة توزيعهم مجموعات قليلة العدد على أماكن لا يَستدلّ عليها. استجابة لإلحاح تملّكك وفرّت خرائط تفصيلية للعراق، انكببت عليها، هنا بغداد، يخترقها نهر دجلة، تعثر على موقعين لمعسكرين، معسكر الرشيد الكائن في منطقة الزعفرانيّة جنوباً، ومعسكر الوَشّاش في قاطعها الشمالي قربٍ الحارثيّة، الخارطة ذاتها تكشف موقعين لمعسكرين لا يبعدان كثيراً، معسكر المنصوريّة داخل حدود محافظة ديالٍي شرقاً، معسكر التاجي ضمن حدود محافظة صلاح الدين شمالا، تنفق وقتاً تتأمّل خارطتك، تتساءلك. لو كنت أحد أعمدة نظامهم وجرى تكليفك بتوزيع مجموعات أسرى عليٍ أماكن يٍصعُب استدلال أيّ كان عليها أين تذهب بهم. تنفق وقتا آخر بحثا يقودك لاحتمالات أكثر من أخذك لإجابات، تتوصل لما يشبه بَلوَرة أفكار، الأماكن المختارة يتوجّب لا تكون بعيدة عن المعسكرات مارّة الذكر، حبّذا لو كانت في محيطها، لكي تَسهل مهمّات حراستها وتموينها، تُفاضل ما بين المعسكرات الأربعة، توجّه توقعاتك نحو اثنين، معسكر الرشيد

لأنّه في قلب العاصمة، تكثر حوله بيوت العاملين فيه، بما يسهّل وضع اليد على بعض هذه البيوت، الثاني معسكر التاجي جراء كونه داخل منطقة سنيّة خالصة مادام النظام المعني نزع ثقته من مناطق ذات أغلبيّة كردية أو شيعية. في معرض حديثكما، الدكتور غانم النجّار وأنت، جاء الأوّل على ذكر جهة استخباريّة تركيّة، أكّد على كونها موثوقة. تهاتفه، تسأله. لماذا تركيّة. لأنّها على صلة بأخرى من داخل النظام العراقي. استطرد. سبق سافرتُ لتركيا برفقة أحد ذوي الأسرى. سمّى مرافقه، محمد اشكناني، سفرتهما تلك أوصلتهما لأقصى الجنوب التركي، قضيا ليلتين في أحد فنادق مدينة ديار بكر، بناءً على توصية من صديق تركي متنفّذ التقيا مسؤول استخبارات من هناك، تولى الترتيب لرحلة تأخذهما مسافة بضعة كيلومترات داخل الحدود العراقية للقاء عنصر استخباري عراقي في مزرعة خارج مدينة زاخو، استعدادهما، حينه، لخوض المغامرة، رغم علمهما بأنّها مخاطرة جسيمة، لقاءٍ وعد بتسليمهما شريط ڤيديو يرصد تواجد أكثر من عشرين أسيراً كويتيّاً في مركز اعتقال داخل مدينة بغداد. الطريق السريعة التي أخذتهما باتجاه المركز الحدودي التركي المواجه للآخر العراقي مزدحمة بشاحنات عملاقة تصطف وراء بعضها على الجانب الأيمن للطريق مسافة مئات الأمتار انتظاراً لإجراءات العبور، السائق الكردي الذي يقود السيّارة، انحرف بها نحو درب زراعيّة تتغلغل عبر حقول ذرة نامية بطول القامة. يتحتم علينا اجتياز هذه الحقول. اهتز جسد السيارة بفعل وعورة الدرب الزراعيّة. لن نجتاز الحدود بشكل رسمي. سبق لرجل الاستخبارات التركي عهد بهما لهذا السائق. إنسان أمين طيّب خبير بالمنطقة الحدودية جرّبناه أكثر

من مرّة. أنت في المكان الخطر ولا تملك إلّا أنْ تثق، قرص الشمس بدأ يميل وراء الجبال الغربيّة البعيدة، في حين زحفت غيوم سوداء من ناحية الشرق، العتمة المسائيّة آخذة تفرض حضورها كما مُتابعة السير في جو من غبارٍ فضي. أشار السائق صوب مبنى صغير بسقف قرميدي يلوح مُضببا وسط الحقول. نرتاح في بيت المزرعة العائدة لأحد أبناء عمومتي. حين يكون سائقك هو دليلك إضافة لكونك ائتمنته حياتك لا تملك إلّا أنْ تومئ برأسك موافقا. يلزمنا ننتظر حلول الظلام ثمّ نجتاز الحدود مشيا. يتحدّث باطمئنان شخصٍ يؤدّي عملاً روتينياً. لا داعي للخوف. ظلمة ليلهم الحدودي، لما تكون السماء مدلهمّة بغيوم سوداء مُنخفضة، غيرها عن ظلمة أماكن أخرى، تشهر كفّك أمام عينيك المفتوحتين سعتهما ولا تراها. نبدأ سيرنا الساعة الحادية عشرة. لا يجدر بك تقول لا علاقة بين حلول الظلامٍ والوقتِ المقترح للسير. حوالي العاشرة سمعوا إطلاق نار متفرقاً صادراً عن جهة بعيدة بدت كأنّها شرقيّة، خنس إطلاق النار لدقيقتين أو ثلاث، اشتدّ بعدها، أخذ يقترب. كان طلقات بندقية رشاش منفردة، صار زخّات تخللتها إطلاقات مدفع هاون. اشتباكات بين ثوار حزب العمال الكردستاني وبين درك الحدود التركي. قالها السائق دون قلق باد أبّان سماع تبادل إطلاق، عندما اشتدّ مقترباً هبّ السائق متأهّباً. هذا اشتباك فصيل لحزب. ترك جملته مبتورة. معٍ جيش تركي. لحظتها لا خيار أمام النجّار ومرافقه إلّا أنْ يتأهّبا أيضا، هرول الثلاثة نحو السيّارة. احتمال قطع الطرق بحواجز تفتيش. تابع السائق حديثه منطلقا بسيارته دون الاستعانة بالأنوار الأماميّة. احتمال ظهورهم فجأة، ما الذي جاء بكم غادر الطريق

الزراعية الضيّقة إلى الرئيسيّة. بإمكاننا الابتعاد عن المنطقة قبل انتشار وحدات جيش تركي. مدّ يده إلى مفتاح الأنوار الأماميّة، هدأ روع غانم النجّار ومحمد اشكناني، رحلتهما التي باءت بلا شريط ڤيديو لأسرى كويتيين، كانت قبل خمس سنوات من تأريخه.

استطرد غالب. بعد وفاة القرد. قاطعه فهد. لماذا قلتَ وفاة ولم تَقل موت. عانده غالب. بعد استشهاد القرد رمياً بالرصاص على يد ضابط شاب. لأنّه استوعب درس اشتباكه إثر انفعاله مع ضابط سابق عند مدخل مستشفى ولادة كظم غالب غيظه، اكتفى ضغط على فكّيه قوياً لدرجة الألم. مفرزة الجنود بالضابط القاتل غادرت المنزل بعدما أنهت تفتيشها. لا يوجد سلاح سيّدي. لا توجد منشورات سيّدي. توجد رسومات سيّدي. أنت ترسم. أحياناً. قبل مغادرتهم سأله الضابط مُشيراً لجثّة قرد غارقة بدماء قانية. إنْ لم تمانع أخذنا القرد الميت بعيداً. شُده غالب أمام العرض، غمغم. كما تريدون. أومأ الضابط لأحد جنوده، اقترب ذاك الجندي للجثّة، رفعها من الرقبة، مشى بها. عينا غالب تابعتا خيط دماء، سمع صوت ضابطهم يهمس. لم أقصد. نصف ساعة بعد ذهابهم، تنبّه غالب إلى أنّه يعاني ألماً حادّاً عند اتصال الفك السفلي بالرقبة، بدأ ينتشر، يصعد أعلى الرأس. هل تتسبب ضغطة فكّ قويه بمثل هذا الصداع الغريب. أجابه المضمّد مناضل. وارد. أعطاه دواءً مسكناً. عليك احتمال الألم ما يقرب من ساعة، يبدأ الدواء مفعوله. تابع. اجلس مسترخياً هكذا. ترك غالب كتفيه لمناضل يوجّه له جلسة استرخائه قبل أن يعمل على تدليك رقبته. لا أستطيع البقاء مُتفرّجاً. أفضى بها غالب. أتمنى ألتحق بالمقاومة، لكنّي أجهل كيف. يجدر بك

معرفة أحد الأشخاص. قال مناضل، قاطعه غالب. مشكلتي إنّي لا أعرف أحداً بهذا الخصوص. للجبهة الشعبيّة خلايا مقاومة تعمل بالتنسيق مع فصائل المقاومة الكويتية في منطقتي الفنطاس وساحل بحر السالمية. ذاك كلّ الذي يعرفه مناضل، وإن شاء غالب أخذه لرفيق مسؤول. التقى غالب برجل فلسطيني أربعيني، شقّة من مبنى سكني في منطقة الجابريّة. ستكون أوّل كويتي ينضم لمجموعاتنا، هل تجيد استخدام السلاح. سبق لي خدمة إلزامية في جيش كويتي قبل سبع سنوات. معك سلاح. من أين. نتدبّر لك مسدساً. لم يرد في بال غالب يستوضح أمر المسدس. سأل متى نبدأ. ثمّ عاد صحح سؤاله. كيف نبدأ. لم يجبه الرجل الأربعيني على سؤاله بشكل مباشر. عملياتنا عادة ما تكون محدودة لكنها نوعية. ابتسم مُضمراً ما يشبه الاعتذار. نعتمد في تنفيذها على ما هو متوفّر من سلاح وذخيرة، سكت متأمّلاً وهلة توجّه بعدها بسؤاله لغالب. هل لديك خبرة باستخدام القنابل اليدوية. من الناحية النظريّة. عمليات المقاومة التي ننفّذها هذه الأيام تعتمد عنصر المباغتة، هناك نقاط استحكامات دفاعية على طول الشواطئ البحرية الكويتية، خنادق بدائية مستورة من ناحية البحر، مكشوفة لقائدي السيارات في الطريق الساحلي الموازي. التخطيط لتنفيذ العمليات ليلاً، بين الحادية عشرة والثانية عشرة استعانة بالقنابل اليدوية، ضرورة مراعاة مدّة الثواني الخمس المقدّرة لانفجار الرمّانة بعد سحب مسمار الأمان الخاص بها. ينطلق مقاومان اثنان في سيّارة صغيرة من مكان قريب للساحل تحاشياً للمرور بنقاط سيطرة للجيش الشعبي، يختاران أحد الخنادق، يوقّتان لوجود عسكر العدو

في داخله، يتوقّفان بسيارتهما على مسافة لا تقلّ عن ثلاثين إلى أربعين متراً، على الذي يتصدّى لرمي القنبلة أن يُجيد تقدير المسافة ويحسن التصويب، بحيث يأتي سقوط الرمّانة داخل الخندق أو قرب مدخله، الاثنان مسؤولان عن التوقيت لهربهما لحظة الانفجار. لاذ غالب بصمته، استحثّه فهد. لم تُكمل. بدرت عن الأوّل ضحكة مفارقة مشوبة مرارة. المنحوس يبقى منحوسا. لامس صوته شعور الفجيعة. في اليوم الأوّل لاحتلاهم فقدتٍ زوجتي، بعد أسابيع قُتل وحيد أمام عيني، كأنّ هذا لم يكن كافياً، حضرت استشهادٍ رفيقي الفلسطيني خلال عملية مقاومة أولى. لأنّك جديد ستتولى قيادة السيارة. قالها شريف لغالب، أضاف مقرراً. أنا أقوم برمي القنبلة. لك ذلك. تنفيذهما عمليّتهما يلزمهما استكشاف المكان قبل غروب الشمس، معرفة وضعٍ نقاط السيطرة في الجوار، وقع اختيارهما على الخندق الأكثر قُرباً لدوّارِ البدع، وجود الدوار يساعد على الانطلاق بالاتجاه الذي يوفّر أمانا إزاءٍ مُطاردة مُحتملة. الخندق المستهدف يبعد ما يقرب ثلاثين مترا عن الشارع، قصدا هناك بعد الساعة الحادية عشرة بقليل، شارع البلاجات حيث هدفهما كان خالياً من سيّارات عابرة، أقرب نقطة سيطرة تقع وراء منعطف شارع مبعدة أمان كافية. الوضع الآن مناسب للتنفيذ. أفادها شريف، سيارتهما آخذة تقترب، أشار نحو زاوية الرصيف. نتوقّف هناك. وجيب القلب في حالات مثلِ هذه يتسارع يعلو تسمعه عبر طبلة الأذن، أضاف شريف محذّراً لحظة توقّف غالب بالسيارة. لا تُطفئ المحرّك. فتح الباب، ترجّل، كفّه اليمنى تحضن قنبلته، ابتعد خطوتين، أصابع يده اليسرى تسحب مسمار القنبلة، طوّح بها باتجاه الخندق، لحظتها

دوي محرّك سيّارة عسكرية آخذة تقترب، انفجار القنبلة في الخندق، عودة شريف للسيّارة، غالب يبدأ الانطلاقٍ، ترددت إطلاقات مدفع رشاش، أصيبت عجلات السيارة أوّلاً، اختلّ توازنها، صدمت الرصيف، تهشم الزجاجٍ الخلفي، إحدى رصاصاتهم أصابت رأس شريف من وراء، هشمت جمجمته. ما الذي أستطيع فعله. سكت غالب وهلة، لمّا يُطبق حزن الواحد على حنجرته. لم يتبادر لفهد يستحثّ محدّثه، تابع غالب. اندفع جسد شريف إلى الأمام ثمّ مال عليَّ دون أنْ يُصدر صوتاً كما لو أنّه مات غفلة.

الليلة، دون غيرها، بقيت ساحتهم الخلفيّة خالية من أيّهم، نافذة مطبخهم تشفّ، بين الفينةِ والفينة، عن حركة أحدهم، شيء ما يحدث عندهم، بقي يتسكّع غير بعيد عن باب مطبخ بيته حتّى الحادية عشرة، عانى الملل بعدها، احتمى في الداخل، حاول الخلود للنوم لكن ذهنه انصرف صوب البيت الثاني، حوالي الساعة الواحدة خامره حدسه، أطلّ، أحدهم يتواجد ساحتهم الخلفية، تحرّك لهناك. مرحباً. كان بدر يقف خطوة وراء السور. لديكم ما يقلقكم. انفرجَ فم الآخر بابتسامة امتنان. جعفر مريض. عقد أيمن حاجبيه مهتما، استطرد الآخر يعاني قرحة بالجهاز الهضمي. الخبر، استقباله. خطيرة. مُزمنة. هل نمّ وجه أيمن عن حيرته. خبّره بدر. يحتاج دواءً يُدعى زانتاك. فكّر أيمن ما الذي يمكنه فعله والوقت بعد منتصف ليل. كيف حاله الآن. نام بعد ساعات من معاناة ألم حاد. ضمّن أيمن صوته هامش عتب. أنتم لم تخبروني في حينه.

منعنا جعفر. لماذا. لم يشأ يزعجك. لو كان ريسان في الجوار، لو توفرت إمكانية اتصال هاتفي، وجهٍ المفارقة، قال له ريسان لحظة مغادرته مساءً، قبل مجيئه لهنا غداً صباحا يتوجه للإدارة الهندسية يصحب فني اتصالات لزوم تركيب هاتف. أخيراً. رددها أيمن نافذة الصبر. ماذا عن صبر من يشغلون البيت الثاني، مدى خطورة مرضٍ أحدهم. لا يجزم أيمن إنْ كان أغفى لساعةٍ أم لا. غادر مبكراً تاركا لريسان قصاصة ورق، لن يغيب طويلاً، توجّه لمستوصف المعسكر. أبدى المسؤولٍ الصحي حيرته. لا يعرف شيئاً عن هذا الدواء. تطوّع أجرى اتصالا. تجده في واحدةٍ من صيدليات شارع السعدون. لدى عودته استقبله ريسان مشوّقاً. هل هناك ما. لم يمهله أيمن يكمل تساؤله، دفع له عبوة زنتاك. خذها لهم. أدركَ الآخر حساسية الظرف، انطلق من فوره، سحب أيمن لصدره شهيقاً عميقاً، المهمّة بأدائها، تنبّه لوجود جهاز الهاتف فوق الطاولة. جرّبته. نفى ريسان بحركة رأسه. جرّبه. رفع ريسان سماعة الهاتف. بمن أتصل. بمن تشاء. تردد برهة، أجرى اتصاله. أهلاً جنى، مجرّد التأكّد، لا عليك، في المعسكر، تلعثم قليلاً، هو هنا، تردد محرجا لثانيتين، مدّ يده بسماعة الهاتف لأيمن. تصرّ جنى تحادثك. عانى أيمن، بدوره، حرجه. أهلاً. لا يدري أيمن لماذا بدأت جنى حديثها، هيا ليست هنا، كما لو دالّة أيمن على الأخرى، قالت له بودّها تستعير منه كتاب الحرب والسلم. لا يعرف شيئاً عن الكتاب. أهم رواية عبر التاريخ، تقع في أربع مجلّدات. لا يعرف. سمع ضحكة رائقة، كيف لا يعرف والكاتب روسي، لأنّه كان هناك يتوجّب يعرف، وعدها يحصل على الرواية ويعيرها إيّاها. إثر إنهائه المكالمة شرد ذهن أيمن، بيته في مدينة الضباط يفتقد لمثل

هذه العفوية، أشياؤهم هناك تخضع لما يشبه لوائح عسكريّة، انتهجها أبوه لكي يحتمي بها من ماذا.

آخر مرّة جئت بها مدينة اسطنبول كانت صيف عام 1971، المرّة الآن صيف 2001، في ذلك الزمن لم يكن جسرهم خارق الارتفاع والمهابة موجوداً كي يربط قارتين، كانت العبّارة العملاقة الحاملة للناس والمركبات تؤدّي دور الجسر بالجدارةٍ السياحية المطلوبة، الفندق الذي سكنته حينها لم يعد موجوداً، صارت أرضه مرآب سيّارات، ناطحات السحاب بالكثرة، آثرت اللجوء لسوق قبقلي بصفته تركة تاريخيّة، بحثتُ عن نزل هناك، هداني أحد الباعة لنزل يتألّف من طابقين، يقع في ظهر السوق، تستطيع الوصول إليه عبر طريق ضيّقة تشبه النفق. حيّاك الله. استقبلني صاحب النزل، كان عربياً، ربّما سوريّاً، من أهالي مدينة اسكندرونة، خصّني غرفة في الطابق الأوّل عالية السقف متباعدة الجدران، أحسستني كمن يعيش داخل صحن مسجد. أعجبتك الغرفة. جدّاً. أطبقت باب غرفتي، هناك مقعد صوفا، أحتاج صفاء ذهن، الوقت الآن ضحى وموعدي مع المسؤول التركي يحلّ بعد ساعتين، لقاؤنا في إحدى المقاهي المطلة على ساحة تقسيم. قبل اتخاذي قرار اسطنبول سألت الدكتور غانم النجّار. مدى إمكانيّة لقائي بصديقك المسؤول التركي الذي له معرفة بآخر من داخل النظام العراقي. انفرج فم النجّار بابتسامة واسعة. رائع أن تجد إنساناً لم ييأس من مسألة الأسرى رغم مرور أكثر من عشر سنوات. ما دام الأمل قائماً. لولا تكليفي

بمهمة تخص الأمم المتحدة أمدها ثلاثة أشهر في جمهورية أرض الصومال لكنّا ذهبنا معاً. تكفيني توصيتك. بناءً أجرى النجّار اتصالاته بالمعني، رتّب لهذا اللقاء في الزمان والمكان. لأنّك صديق للبروفيسور النجّار فأنت صديق لي. بدأ السيد أورهان ترحيبه بي، عرفتُ منه. حتّى أمس كنتُ في أنقرة. لكنّه اقترح أن يكون اللقاء في اسطنبول لسبب أساسي، رجل الاستخبارات العراقي متواجد هنا منذ يومين، باستطاعتنا عقد لقاء ثلاثي. تملّكني الشكّ، ما أدراني أنّي لن أتعرّض لعملية نصب تبدأ بتمهيد أوّلي، توفير مبلغ كذا من الدولارات لكي نتسلّم وثائق أو أشرطة ڤيديو لأسرى عدد كذا، رغم شكوك راودتني لا مجال وسط الظرف الاسطنبولي للتردد، قلت للسيد أورهان. أفعل ما تراه مناسباً. استعان الآخر بهاتفه النقّال، أجرى مكالمة قصيرة جداً، مفادها. سنكون عندك في تمام الساعة الثانية عشرة. سألت. أين نلتقيه. الفندق الذي يسكنه قريب من هنا. أردف. ننهي لقاءنا ثمّ نتناول غداءنا. كان فندقاً متواضعاً، ثلاث نجوم، التقانا رجل طويل القامة حاد القسمات بشكل ملفت. شدّ على يدي. أهلاً ابن العم. اتخذنا من زاوية في أقصى اللوبي مجلساً لنا، كان الجوار خالياً عدا طفل في السابعة اقترب من الرجل، حدّثه همساً، نهره الرجل. لا تبتعد عن أمّك. هذا ابني زياد. قال، أضاف. جئنا نحن الثلاثة أنا وزوجتي وهو. تابعتْ عيناه ابتعاد ولده نحو ركن المصعد. نأمل أنْ لا نعود للعراق ثانية. التفت إلي. الأمر يعتمد عليك. شُدهت لكلماته، التقيته قبل دقيقتين ولم أعرف عنه عدا تصريحه باسم ولده، وجدتني أتساءل. أنا. استنكاري يغالب اندهاشي جاءني ردّه مضمّناً صيغة اشتراطيّة. إذا توصلنا لاتفاق

يناسب الطرفين. دار في ذهني، كأننا بصدد خطاب إعلامي، ولا خيار لدي غير الإصغاء. قال. أعرف أربعة أماكن تضمّ أربع مجموعات أسرى منكم. يتراوح عدد أفراد المجموعة الواحدة بين أربعة وخمسة. كلّها في محيط العاصمة بغداد. قال. هو يعرف عناوين الأماكن، بما يُسهّل وصول فرق الصليب الأحمر الدولي، أو بتدخّل الأمم المتحدة. قال هو يعرف بوجود عشرات مجموعات أسرى كويتيين آخرين، لكنّه لا يدّعي استدلاله أماكن احتجازهم، لأنّها مسألة ضمير. قال. لا أريد مقابلاً مالياً، أريد وعداً رسميًّا من حكومتكم بضمان حق لجوء سياسي أو إنساني يشملنا نحن الثلاثة أنا وزوجتي والولد. دسّ يده في جيبه. هذه صور ضوئيّة لوثائق سفرنا. سلمني إيّاها، واصل. سأكون موجوداً هنا لثلاثة أسابيع. تطلّع إلي في عيني، قال ما مفاده. إنْ استطعتُ إقناع حكومتي بضمان لجوئه السياسي ذاك زوّدني بعناوين الأماكن الأربعة المعروفة له، ساعتها لن يكون مضطرًا يعود للعراق بما يجعله بمأمن من انتقام معروف، وبعكسه لا اتفاق. يقول قوله هذا استنادا لثقته المطلقة بالرفيق أورهان. بعدما أصغى لك طويلاً قال لك الدكتور غانم النجار مواسيا. يجدر بك لا تضيّع وقتك مع مسؤوليك. كنتَ خبّرته عن محاولاتك المتعددة مع أصحاب قرار عديدين. اليوم هو الأخير لمهلة ثلاثة أسابيع رجل استخبارات نظام عراقي. قال لك أحد مسؤولي ملفّات الأسرى. نُقدّر الجهد الذي بذلته، لكنّ بادرتك هذه تحتمل مخاطرة كبيرة، بدءاً لا يمكن الجزم بمصداقية صاحب البلاغ بما يؤدّي لفضيحة سياسية، تعزز ادعاءات النظام العراقي. تطلّع فيك يزن وقع كلماته عليك، تابع. وإنْ صدق مخبرك. وددت تقاطعه. ليس مُخبري. في

حين واصل مفجّراً استنتاجه. ستكون المصيبة أعظم، أنْ تلوي عنق قادة النظام العراقي تضع يدك على عدد أسرى لا يتجاوز العشرين في وقت يدّعي لا أحد، احتمال طمسهم معالم مئات أسرى لا نعرف أماكن احتجازهم. تُمعن تفكيرك فيما قال، احتمالاتهم واردة. تلتمّ على قنوطك. للحظة عابرة خطر لك تهاتف اسطنبول. مساعينا باءت. قنوطك صرف فكرة اتصالك من واجهة مخيّلتك.

صرت أفضل على ما يبدو. تساءل بدر باحتفاء باد. إلى حدٍّ كبير. ردّ جعفر وهو يتحامل واقفاً، شحوب وجهه لم يزايله بعد، وهذان الخطّان اللذان يؤطران فمه بانا واضحين أكثر قرحة الاثني عشر حقيرة غادرة. ابتسم بدر أمام توصيف جعفر لمرضه. كنتَ في الليلة الأولى تتلوّى حاضناً بطنك وأنينك يُدمي القلب. أضاف. أثرت فزعنا في وقت لا نستطيع مدّ يد مساعدة. في حالاتنا يضطر الواحد لكتمان ما يعانيه من أمراض بإمكانه التآلف معها إلّا إذا خرجت عن السيطرة. وهو يصغي لمحدّثه تريث ذهن بدر عند كلمتي تآلف وسيطرة. كتمانك ألمك يعني قدرتك على المواصلة وسط الآخرين من غير أنْ تُثقل كاهلهم بما لا يعنيهم، أو يقينك المترسخ فيك أنْ لا جدوى حديث عن قدر لا خلاص منه. استغلق فهم بدر عليه. ما الذي تقوله جعفر خلص الآخر لإجابته. يجدر بي أطلعكم على وضعي الصحي قبل استفحال حالتي لدرجة الانهيار لكيلا أتسبب لكم بجزع لا أسكتته إشارة من يد بدر. نحن شركاء مصير، تعال للصالة، من حقّ غالب وفهد أنْ يطمئنا عليك. قرحة الاثني عشر

رحلة عمر، يتذكّر جعفر أيام مراهقة أولى، بدأ الأمر معه كما الإصابة بنوبات مغصٍ تتحرّك بين أعلى السرّة وموقع التقاءٍ الأضلاع، أزعجه منها إنّ المغص المترتب كثيراً ما يوقظه من نومه ليلاً، اكتشف أنّ تواتر نوباتها يكون بعد ثلاث ساعات لتناوله وجبات طعامه، صار يعالج ألمه يكثر من وجبات طعام خفيفة، يخنس عند ألمه دقائق، تخفّ حدّة المغص، يتلاشى بعد مرور نصف ساعة على الوجبة، أنْ تأكل لكي تتخلّص من الألم يعني تولّد كراهية بينكما أنت والطعام، تحشره داخل فمك دون إحساس فعلي بالجوع، مع توالي الأيام تصبح كراهيتك موجّهة إليك من داخلك بصفتك. لماذا يشنّ جسدك حربه التافهة عليك دون ذنب سبق لك اقترفته بحقّه، تحسّك مُحاصراً داخل حلقة مُقفلة. يُقال. الانفعال يسبب زيادة إفرازات الأحماض في الجهاز الهضمي، الأمر الكريه أنّ هذه الزيادة تتسبب بتهييج القرحة أكثر فأكثر، لأنّه ليس من علاج ناجع ونهائي، لأنك فئة بدون، لا يحقّ له تلقّي العلاج الصحّي المجّاني شأن مواطنين كويتيين، مطلوب منك تتأقلم مع قرحتك، لا بأس من علاقة تفاهم تتعاونان بها على الحياة. اجتياز جعفر سن المراهقة محاولاته المكثّفة للتعامل مع معاناته من خلال منظور فلسفي. يلزمك تقبّل حياتك كما هي وإلّا لست جديراً تعيشها. تسلمه، في وقت لاحق، عمله الصحفي بدخل شهري معقول، صار قادراً يشتري أدوية، هي في حقيقتها تنظّم إفرازات الأحماض المعديّة بما يُقيم نوعاً من توازن قلق عند خط الألم. تساؤلاته وقتها. لو نلتُ حقّ المواطنة، نلتُ وثيقة سفر، صرتُ قادراً أسافر لبلد أوروبي أتلقّى رعاية صحيّة حديثة تُنهي. جاء الاحتلال، على افتراض أنّه لم يشتغل بالصحافة، على

افتراض لم يعثر عسكر احتلال على نسخة منشور، على افتراضاته كلّها، أهمّها في باله ينام ذات ليلةٍ، يغفو عميقاً يصحو من دون قرحة تمسخ فيه إنسانيته، تحوّله كائناً عدوانيّاً هشّاً لدرجة الانهيار أرضاً بمواجهة ألم عات لا طاقة لأيّ على احتماله واقفاً على قدمين. ها هو الدواء الذي سمّيته لي جاء به الضابط أيمن. قالها له بدر قبل يومين، سلّمه العبوة. أمل جعفر، لحظتها، عمّر روحه، أخذ حبّة دواء لفمه. ستبدأ صحتي تتحسن بعد اثنتي عشرة ساعة. هذا الكائن البشري اللغز. حالة مُحددة، نادرة الحدوث، تُفاجأ بجسدك يتحالف معك ضدّ ظرف استثنائي قاهر كما كان أمر جعفر أيام الاحتلال، حيث لم تتسبب له قرحته بانهياره. سنة أسر أولى وثانية تلتهما ثالثة. تراني شفيت تماماً. لكنّه سرعان ما يبادر ينفي استنتاجه. لو أنّه شُفي فعلا لما أيقظه ألم أحشائه ليلاً من نومه أحياناً. سنوات احتجازه في مُعتقل الإدارة العامة لاستخبارات بغداد صادفه انهياره الكامل. لمّا تجدك بسكاكين توالي تمزيقك من داخلك لا تملك إلّا أنْ تناطح جدران زنزانتك. الرحمة ممن ولمن. تئن أو تصرخ أو. خُذ أمانتك يا رب. لعلّ أحد مسؤوليهم رقّ لك، لعله خشي موتك والإزعاج المترتب عن محاولة التخلص من جثّة ما، ضحى اليوم التالي لنوبته أخذوه لغرفة ضابط لهم، رأى طبيباً شابّاً بانتظاره، ترك ضابطهم مكتبه مواربا الباب من ورائه. ما الذي تشكو منه يا أخ. صوته رسالة ألفة. عرّفه جعفر بمرضه، تعدّى ذلك سمّى له الأدوية التي كان يتعاطاها لمّا هناك. قال له الطبيب. مُفيد أنْ تشخص مرضك وتعرف علاجك. سأله إن كان طبيباً أيضاً. رغم المغص المستبد به ابتسم جعفر. أنا صحفي. قال له الآخر من باب العلم بالشيء توفّر علاج

قرحة أكثر فاعلية مقارنة بالأدوية التي سمّيتها، تحمّل ألمك ساعة إضافية لحين إحضاري الدواء. وفّر له عبوة. قال له. أمر للاطمئنان عليك بعد أسبوع. كما السحر ، يوم أوّل علاج ولا أثر للألم. جاء الطبيب الشابٍ حسب موعده. حالك الآن. جيّدة. تذكّر. رددها الطبيب لافتاً انتباه جعفر إليه، واصل. هذا لا يعالج القرحة بشكل نهائي لكنّه يوازن فرز الأحماض. ابتسم جعفر. فاعليّته أسرع. لأنّك ارتحت للدواء آتيتك بثلاث عبوات احتفظ بها لوقت الحاجة. يصادفك من ينافس فيك إنسانيتك لزمن قادم، بعدما دأب آخرون على امتهانها بنهج يومي آني.

ابتسم ريسان، قال. تعافى جعفر من مرضه تماماً. هم الذين طلبوا الدواء بالاسم، حال مثل هذه لا تجدها لدى عامّة الناس. جماعتنا ليسوا عامّة ناس. فكّر أيمن بمفردة محدّثه، جماعتنا. الإحالة بمعنى مشاركة المسؤوليّة، وإحالة أخرى بمعنى الانتماء لفريق، يجزم أيمن أنّه لولا عامل الثقة لما اتسم حديث ريسان بطابع المكاشفة، وبعكسه ستبقى لازمة سيّدي، والحذر المفرط إزاء اختيار الكلمات، مثلما هو حرصه لدى مواجهته آمر المعسكر، أيام موسكو قالت له مارلين مرّة. القائمون على الأنظمة الشمولية لا يصغون إلّا لأنفسهم وبطاناتهم أحياناً، يواصلون انفرادهم بآرائهم وقناعاتهم بصوابها، ولا يراودهم أدنى شك بوجود رأي آخر مغاير تمثّله الأغلبية الصامتة. لماذا صامتة. لأنّها لا تملك سوى خيار الصمت. لماذا. يتذكّرها ضحكت. أنتَ لا تملك سوى سؤال لماذا. يتذكّره قرر إغلاق فمه، لولا متابعتها

بمنحى الاعتذار. يصعب عليك فهم ما أقول لأنّك بعيد عن نبض الشارع عندكم. استغلقٍ عليه فهمه أكثر، قالت له مرّة بعدما توطّدت علاقتهما بلغتْ مُنعطفاً سريرياً. يتملّكني إحساس بالذنب تجاهك. واصلت. وعيك بالحالة السياسية لبلدك من منظور متقدّم سوف يسبب لك متاعب أنت في غنى عنها. بعفويته إيّاها غافله تساؤله. لماذا. لم تأخذه منحى مُفارقة. ستجد نفسك في موقع المعارضة بما يجلب عليك نقمة لا تعرف تبعاتها، أنت أحد أبناء قادة النظام، إذا شكّوا بكونك معارضاً كان حسابك عسيراً، إلّا إذا. سكتت فجأة، لم يشأ يستحثّها وقتها، بعد أيام قالت. أتمنّى لا تأخذ كلامي كلّه على محمل الجد. مارلين. ردد اسمها عاتباً، قالت. لا أريد أن أكون سببا. بترت جملتها. مارلين. تلوّن صوتها أسى. القادة المتفرّدون بالحكم تترسّخ لديهم بمرور الأعوام قناعة كُنْ فيكون. تشبيهاتك غريبة. ليست تشبيهات، هناك من لم يكتف برش شمال بلده بالكيمياوي ولا بقتل عشرات الآلاف من الجنوب والوسط قمعاً لانتفاضة ما، هو لم يتورع عن قطع رؤوس أزواج بناته لأنّهم خرقوا قدسية الأب القائد رغم عودتهم لأحضانه نادمين على عصيانهم له. يتذكّرها مدّتْ كفّها لرأسه مسّدتْ شعره، قالت. عدني تنسى ما ذكرناه. كلمتها الأخيرة جمعته بها. كانت تحدّق إليه في عمق عينيه، لا بأس من تطمينه لها. أعدك. الوعد بنسيان موضوع ما شيء، والوعي به شيء آخر. في العلوم السياسية هناك إيلاء أهميّة للديموقراطيّة، المعنى التطبيقي للكلمة الأخيرة هو الأخذ بمبدأ حُكمِ الأغلبيّة، لا الحكم على الأغلبيّة بالخرس المطلق. تقول هيا. شَغَل الحاسوبٍ في البدء بضعة مكاتب من أحد أجنحة وزارة الدفاع بصفته قسما

مُلحقاً بمديريّة الاتصالات سرعان ما توسّع، أخذ يتمتع باستقلال نسبي، توسّع أكثر صار مديرية قائمة بذاتها مرتبطة بمكتب السيّد الوزير. صوتها يتلوّن باعتدادها وهي تتحدّث عن عملها الوظيفي. الحاسوب بارتباطه بالإنترنت يوفر لك إمكانيّة الوصول لأيّة معلومة حول العالم حتّى لو كان مكتبة الكونغرس الأمريكي. طرأ لأيمن يسأل. ماذا عن مبنى البنتاغون. ضحكت. حاولنا، واجهتنا عبارة غير مسموحٍ. يدريها يُمنع عليها الحديث بخصوص عملها مع إيّ كان، لكنّها تُفضي له قناعةً منها هو من الصفوة. لم يسألها موقعها في الحزب حتّى لا تسأله بدورها، حدّثته مرّة، رئيسها كلّفها تجري اتصالاً عن طريق الإنترنت مع السفارة العراقيّة بموسكو. تابعت مُستنتجة. معنى هذا هناك إنترنت لدى سفاراتنا في الخارج. وجد أيمن نفسه يقول. هناك إنترنت في غالبية الدول بما فيها دول العالم الثالث. فتحتْ هيا عينيها عليه، ما دامت وثقت به لم لا يفضي ولو بحذر. روسيا دخلت عالم الإنترنت متأخّرة مقارنة بعشرات الدول. ما السبب. ذات السبب. لعلّه أراد انتقاء مفرداته، استطرد. مُقتضيات إحكام القبضة. لم أفهم. تجاوز مداخلتها. في الأردن على سبيل المثال تستطيعين التعامل بالإنترنت من خلال مراكز تجارية خاصة بذلك، عدا عن إمكانية رؤيتك لناس في الشارع حاملين هواتف نقالة بحجم علبة الدخان. امتدت يد هيا بحركة بدت عفوية ضغطت ذراعه، بادرتها تلك مرة أولى، قالت. أريد اعرف أكثر. دار في خلد أيمن. مارلين قالت ما مفاده المعرفة وبال على صاحبها. لماذا أنت ساكت أيمن.

غالبيّة المواطنين، هنا، يطمحون للهرب من صيف الكويت إلى بلدان أخرى أقل حرارة، عامّة الوافدين ليس أمامهم سوى ملازمة المكان، فيما يخصّك تفضل البقاء هنا، حالة هدوء نسبي تعمّ البلد، تقلّ الاتصالات الهاتفية، وكذلك المسؤوليات العائليّة، عدا لا زحمة الشوارع بالسيارات، تنعم بهذا الهدوء أكثر في المبنى الذي يضمّ مكتبك، جرّاء سفر أصحاب المكاتب الكويتيين، وسط هدوئك ذاك يرن جرس هاتفك. نعم. مبروكٍ. تتلقّاها مرحة حميمة في الوقت ذاته، تكاد تعتب، لم تقل مرحباً. تتجاوز ذلك. مبروك على ماذا. عدد مجلّة العربي الحاوي ملف القصّة صار في الأسواق. هو إبراهيم فرغلي، فات أوان ترحيبك به اسماً، تحرص على تضمين استنكارك صوتك. لم أره. أطلق ضحكة قصيرة. فاتني أقول صار العدد متواجداً في الأسواق خارج الكويت. لم يمهلك فرصة التعقيب واصل. تدري أنّ مجلة العربي لا تُوزّع، بشكل عام، على المكتبات هنا. لم تسأله السبب، استطرد من جانبه. لعدم وجود قرّاء مهتمين بمتابعة ما يُنشر فيها. أبديت مشاركة متشككة. قلائل يهتمون بمتابعتها. أنا أحدهم. لهذا أصرّ على لقائك. متى. مسافة الطريق. أجلس وراء الواجهة الزجاجية لمكتبيٍ، بإطلالتي على المقبرة المترامية المساحة، أرفع بصري إلى أعلى قليلا، أرى مبنى وزارة الإعلام بطوابقه المتعددة، مجلة العربي بتبعيّتها، بعد خمس سنوات من الآن تكمل نصف قرن صدور، تظنّها أقدم مجلة عربية بقيت حيّة طوال عقود، وتظنّها وحدها لم يضمحل وجودها تدريجيّاً تمهيداً لزوالها، إن لم يكن العكس، حيث تجاوزت أرقام توزيعها حول العالم ربع مليون نسخة، تتساءل أحياناً لماذا سُمّيت بالمذكر العربي

كما لو أنّها كتاب، ولم تنل اسمها بالمؤنّث لكونها مجلّة، تتساءل عن سر عدم إقبال الكويتيين على قراءتها، هي لا تُوزّع داخل الكويت إلّا صفة هدايا تصل لأيدي من يتصفّحها لقراءة العناوين، لعلّ مرد ذلك هم الاكتفاء أو الترفع عن مُنتجٍ وطني. دخل بخطوات واثقة، حيويّته تتشرّب صوته. جئتك بها فورا من المطبعة. أقف باستقبالهما هو والعربي، أتسلم، أتصفّح، أصل لملف القصّة القصيرة في الكويت. عرض أسماء الكتّاب المشاركين. اسمي يتصدّر. يزعجك ذلك. لم أجزم بعد. من حيث البدء أرى صورة مُحدثة لي. بياض الشعر أمر فاضح. فاجأني فرغلي بأن أعاد عليّ لازمتي. لم أجزم بعد. ضحكتُ، سوادُ شعره يشفع له، مررتُ بعينيٍ على فقرة أولى من النص. الله يستر عقد فرغلي حاجبيه مستغربا. لماذا. لا أحد يحدس ردود أفعال قادمة. أنت متفائل. تقصد العكس. أصر على أنّك متفائل. أردف. وهذا أمر جيّد يدلّ على ثقتك بدور للكتابة. لم أفهم. لديك يقين بوجود قراء مهتمينٍ لدرجة القلق. وددتُ لو أقول له. لا فرق في أنْ يكون أحدنا مُحقّاً. طفقتُ أنتظر ردود أفعال مُحتملة. مفاجأة أولى جاءت من أحد كتّاب الأعمدة اليومية في صحيفة محليّة تُولي اهتماماً لما هو كويتي جدّاً. كاتبٌ يخال حاله مشهوراً أو مؤثّراً يُبدي تعاطفاً رخيصا تجاه عدو شرس تجرأ على استباحة بلده باذلا جهده لكي يوهمنا بأهميّة التفريق بين الناس هناك وبين نظامها الذي يحكمها متناسيا حقيقة تاريخيّة أوليّة قائلة إنّ الشعوب على دين ملوكها، ونحن إذ نُنبّه لمحاولة خلط الأوراق بسوء نيّة أو عن غفلة، نُذكّر الجميع بضرورة مراعاة الحذر خلال التعرض لمسائل وطنيّة مصيريّة. بعد مرور أسبوع تصدّى كاتب

عمود يومي آخر في الصحيفة ذاتها. مطبوعة شهريّة واسعة الانتشار تُعتبر الأكثر عراقة في الكويت والخليج، ترتكب خطأً فادحاً، تنشر ما قيل عنه قصّة لكاتب بدا مُتعاطفا مع عدو شماليّ جائر، الأمر المُلفت أنّ خوف الكاتب من انكشاف دوره المشبوه أوحى له بمحاولة خلط الواقعي بالغرائبي، لكنّه افتقر للحبكة الفنيّة المطلوبة فظهر نصّه ركيكاً مُفتعلاً خالياً من لمحات فنيّة ضروريّة يُوجبها فن صياغة القصة المعاصرة. الأمر الذي أراه إيجابياً أنّ الكاتبين لم يتعرّضا لي أو لمجلّة العربي بالأسماء الصريحة. هاتفني إبراهيم فرغلي. هل في نيّتك الرد على ما كُتب. هل في نيّة المجلة الرد. لا. هذا هو الرد. بعد مرور شهر من تأريخه وردني اتصال من جريدة السياسة. تسلّمنا نيابة عنك رسالة مصدرها الصليب الأحمر الدولي.

لكي يُبقي ذهنه بعيداً عن استعادة حوادث أو تفاصيل مواقف تتآكل روحه توقظ عنده حنينه لدرجة تشظّيه تجاه حياة سابقة عاشها في الكويت ليس أمام فهد سوى مواصلته انشغاله بعمل ما خلال الساعات المتأخّرة من الليل بالذات، لأنّ الأوقات الأخرى تحتمل إمكانيّة تبادل الحديث مع رفاق ثلاثة يشاطرونه المكان. أنت إنْ خلوت بنفسك استفردتك الأخيرة أخذتك للغَم. لمّا كان مسؤول مركز بيطرة فيلكا، رغم عدم مخالطته الكاملة لأهالي الجزيرة إلّا أنّ وقته كان موزّعاً بين عمله على الحيوانات وبيته حيث زوجته وولده، زمن أسره طالما تواجد داخل عنابر مترامية تضمّ عشرات مساجين تتعدّاها أحياناً تصير مئات، ناس شتّى، غالبيتهم مواطنين عراقيين

صدرت بحقهم أحكام سجن، تنقلّه بين سجون عدّة، بما فيها سجن الكوت حيث مكث لخمسة أعوام، لم يصدف له لقاء أسير كويتي، كان وحيد نوعه، يلزمه مراعاة أقصى درجات الحذر بالتعامل مع الجميع، لا خيار أمامك حين يستفزّك أحدهم غير أنْ تضبط ردّة فعلك، خشية يُفهم الأمر عكس ما هو عليه تتلقّى حكماً زنزانة انفراديّة. يتذكّرها أيام تلقّاها في سجن البصرة القديم، مبنى متهالك تُلفتك إليه أعمدته الحجرية المنتصبة على جانبي ردهاته الطويلة بما يحيلك لإحدى قلاع مدينة اسطنبول. حال وصول فهد لسجن البصرة عامله باقي السجناء، مُنذ يومه الأوّل، على أنّه جاسوس دسّته إدارة السجن وسطهم. لا أخالني أحمل وجهاً يوحي. ودّ يصرخ. أنا بيطري من أبناء محافظة النداء. عيونهم وهم يتطلعون إليه تنضح احتقاراً، شأنهم بينهم، لا مفر له من تحاشيهم. لكنّهم، مع تحاشيه لهم، صاروا يستفزّونه، مرّة وثانية وثالثة، لينفجر بهم شاتماً، تصدّى له أربعة منهم، معركة غير متكافئة، أحد الأربعة يقارب المترين طولاً، ألقاه أرضاً برك فوقه، هل يموت فهد مكتوم الأنفاس، الثلاثة الآخرون لا ينون يركلون أجزاء جسده الظاهرة لهم، الموت لمس اليد، استعان في اللحظة الأخيرة بإحدى يديه، حشرها بين جسده وجسد السجين العملاق، تحسست أصابع يده طريقها لهدفها، صادفت بيضتين، أطبقت عليهما بالقوة التي تنحو خلاصاً من موت مُحقق، دوّت في أذنيه صرخة مشروخة، لم يرخ أصابعه، فَقَدَ الرجل الجاثم فوقه وعيه، تباعد صحبه الثلاثة مفزوعين. لا يدري إن كان هناك من تلقّى عقاباً بالسجن الانفرادي غيره، يدري أنّ أسبوعين الانفرادي كادا يأخذانه للجنون، محال أنْ تقضي

ساعات قليلة في مكان مربع المساحة، طول ضلعه أربعة أقدام، عالي السقف من غير نافذة، باب حديدي مصمت له كوّة تفتح من خارج لدى تسليم الطعام. لا وجود لمصدر إضاءة، أنت وسط ظلام دامس، تسند ظهرك للجدار أو للباب، تخطو للأمام خطوة واحدة، مع الثانية تصدم الحائط المواجه. زنزانات سجن البصرة غيرها عن. أنا أتحدث عن سجن البصرة القديم بالذات. قال جعفر. لم أزره من قبل. أنبه فهد. أنت لا تزور السجن أنت تُساق إليه. ساد الصمت لحظات، كانا يجلسان في المطبخ، أشعة شمس التاجي المائلة للغروب تتسلل عبر النافذة. عندما رحّلوني من الكويت في أوائل شهر ديسمبر سنة 1990 أخذوني. تنبّه صحح. ساقوني لسجن الزبير. استطرد. لم تصادفني خبرة سجن زنزانة انفرادية. لو صادفتك بصفتك المصاب بقرحتك. لم يكمل جملته. هل كان الظلام شديداً. يوم أوّل تجدك مُحاطاً بظلام لدرجة التلامس، بعد ساعات أو يوم، ربّما أكثر، لأنّك تفقد القدرة على تمييز الوقت أو معرفة النهار من الليل، عيناك تعتادان التحديق في الظلام، تبدأ تتكشف لك بعض تفاصيل المكان، تكتشف وجود شرخ عرضه أقلّ من نصف سنتمتر يُسرّب خيط ضوء قادم من مصباح الممر، هذا الخيط الضوء، بمرور الوقت، يمنحك أمل رؤية ما يحيط، وعليك الاستعانة بخيالك لتصوّر ما لا تراه. ماذا تقول. هذا ما أقول. عاد الصمت ساد لحظات، انسحبت بقايا أشعة شمس التاجي الغاربة، حلّت العتمة. كيف كنت تقضي حاجتك. ستكتشف وجود صنبور ماء أثري في الزاوية المقابلة للباب، يعلن عن وجوده بصوت خريره الضعيف، له حفرة صغيرة تنسرب تحت الجدار، الرائحة، والرطوبة، تنام جالساً مُسنداً ظهرك

للباب، فإنْ أرحت قدميك على طولٍهما صارتا وسط الحفرة، وإنْ غافلك جسدك وأنت نائم مال جانبا. كف فهد استرساله حديثه، قال. دعك من هذا كلّه. يهمني أسمع. لماذا. تدري عنّي أنّي أفكّر لو أطلقوا سراحي أخصص سنة أولى لكتابة مُذكّرات فلان في الأسر. ما دمت تصرّ يحسن بك معرفة حرب الصراصير، ساعات وجود أولى لا تكتشف وجود الصراصير، لعلّها خشيتها من الطارئ على المكان، بعدها تحسّها تتسلل إليك، تحسّ دبيبها فوق ذراعك أو تتسلّق ثيابك وأنت في الظلام ريثما تصل رقبتك، هي من الكثرة بما يضطرّك في النهاية لاعتيادها، تكفّ تتفاجأ أو تشمئز أو تجفل، أنت وجيرانك شركاء المكان. سكت ثانيتين. رب ضارة نافعة. ماذا تعني. لما هناك، ظلام وصمت تسمعه داخل أذنيك، أن تفكّر كيف ولماذا وأين وحتّى متّى، ينتابك يأسك أو قنوطك، لولا إحاطتك بآلاف مؤلفة من صراصير محترفة ذات سلوك مُحيّر. أنت بيطري يُفترض بك تعرف. أعرف عن سلوكِ أغنام ماعز بقر خيول جمال كلاب قطط، أمّا صراصيرهم. لم يوفّ جملته ساد الصمت، بدأت العتمة المسائيّة تعمّ المطبخ، بدا على جعفر كأنّه تنبّه لأمر غاب عن ذهنه. أنت حتّى الآن لم تخبرني كيف وقعتَ في الأسر. غافلت فهد زفرته، أجاب دون حماس. معك حق، أنا حتّى الآن لم أخبرك كيف وقعتُ في الأسر.

أشهر الصيف بحرارة الجو المعروفة، إعتاد أيمن يرى الأربعة بعد مغيب الشمس في الأرض الخلفيّة لمنزلهم، فهد يبكر بالخروج، يشرع

برش المكان بالماء نشدانا لترطيب الجو، يعقبه ظهور رفاقه الثلاثة، يبقون في الجوار ساعات، ينسحبون جميعهم داخلين، ليعاود فهد الظهور بعد نصف ساعة مقبلاً على أداء عمل فلاحي يبتكره لنفسه، كأن يعود لنبش تربة هذه الزرعة أو إرواء تلك، أيمن، بدوره، يودّ قضاء ساعة من فائض وقته الليلي بقراءة كتاب، هناك مصباح كهربائي مُثبّت فوق باب المطبخ، يوفر إنارة كافية، جرّبها في إحدى لياليه، جلس فاتحا كتابه قبل أن يتملكه إحساسه بالحرج، جيرانه الأربعة وراء سور الأسلاك الفاصل يخالسونه النظر ما أدراه أنّ أيّاً منهم لا يتمنّى يقرأ كتاباً، يعرفهم مُنذ عشرة أعوام لم يتصادف لأيّهم يقرأ كتاباً أو صحيفة،، اتخذ قراره يقصر مكان قراءته على غرفة معيشته، الليلة بالذات أخذه المجلد الأوّل من رواية الحرب والسلام، جنى لم تبالغ. أعظم رواية في التاريخ. مرّت ثلاث ساعات ولم يتنبّه، وضع كتابه جانبا، الساعة جاوزت منتصف الليل بدقائق، الهدوء يعمّ الجوار، توجّه صوب الباب الجانبي، تبادر له أنّه لن يشاهد سوى فهد، تفاجأ برؤية جعفر حالة ترقّب، في حين كان فهد يتابع نشاطه إيّاه. مرحباً. خطا جعفر مقترباً للسور الفاصل، لم يستعد كامل حيويّته بعد، مرّت عدّة ليال لم يظهر فيها. الشكر لك. نمط امتنان شعوري خالص. أنت ما زلت مُرهقاً. أنتَ أنقذت حياتي. جاراه أيمن. لأنّك صحفي، الصحفيون يحسنون توظيف الكلمات. هي الحقيقة. جاراه أيمن أكثر. أنتم الكويتيون كما يُخيل لي. قاطعه جعفر هادفاً يصحح. أنا غير كويتي. الذي يعرفه أيمن أنّهم جميعهم، وهذا الرجل أحدهم أو هكذا فهم من أمر المعسكر، لكنّ ما تلفّظ به هذا الجعفر أحدث لبساً في فهمه. لكنّك أسير كويتي. على غرار

ما هو كويتي. هل هذا لغز أنا فئة بدون. بدون ماذا. بدون حقوق مواطنة. ارتفع صوت فهد من مكانه حيث يواصل نبش الأرض مضمّناً منحى نفاد صبر يخالطه تحذير. جعفر. استجاب جعفر ردد. صار معلوم. نبس أيمن. هذا لغز جديد. أشار جعفر برأسه نحو فهد. الكويتيون يكرهون تداول شؤونهم خارج دائرتهم. معنى ذلك. ترك جملته ناقصة سادت وهلة صمت نشط ذهن أيمن تذكّر كلمات قالتها مارلين وهي تتحدّث عن أنظمة حكم شرقٍ أوسطية. الكويت تتمتع بهامش ديمقراطية. أومأ جعفر برأسه موافقاً، قال بحس مفارقة مريرة. فئة بدون يعيشون الهامش. ارتفع صوت فهد بنفاد صبر يلامس الانزعاج. جعفر. لم يردٍ الأخير على رفيقه، اكتفى قال لأيمن. شكراً ثانية. استدار صارفاً نفسه. وهو يأوي لأريكته استعاد أيمن كلمات جعفر بالتزامن مع الدور المراقب للآخر فهد، الحياة التي عاشها تختلف، عشرات ناس أقام معهم علاقات صداقة، جميع من عرفهم يختلفون عن هؤلاء الأربعة، شيء ما غامض ينتظم ارتباطهم بعضهم البعض.

ست سنوات لم أُعتّب مكاتب جريدة السياسة، ليس من سبب محدد انصرافي عن كتابة عمودي الأسبوعي بعدما اقتنعت بلا جدوى امتهاني العمل الصحفي. هذه لك. قالها مسؤولٍ القسم الأدبي في الجريدة، دفع لي برسالة ملفتة للنظر، كانت مُغلّفاً داخل مُغلف معززة بختم استعراضي، الصليب الأحمر الدولي. لماذا لم يكتبوا اسمي بالأحمر. ضحك مسؤول القسم الأدبي. أوصلوا

رسالتك إلينا ظنّاً منهم أنّك ما تزال تكتب عندنا. أشار لمقعد جلدي. تفضّل. كنت أتحرّق فضولاً أعرف محتوى مغلّف الصليب الأحمر الدولي، وليس من المناسب أجلس على مقعدهم أقرأ رسالة غيرهم، بلوغي مكتبي، استمدّ سكوناً نفسيّاً من منظر الفضاء المفتوح للمقبرة، أبذل جهداً أفضّ، ورق المغلّف المُعزز بنسيج دقيق لخيوط قطنيّة غير مرئيّة للعين المجرّدة. المغلّف الثاني يحمل اسمي أيضاً إنّما بخط مائل، إلى جانب مُلصق للصليب الأحمر، رسالة من عراق الداخل، يصادفني جفاف الفم، أحسّ كما لو أنّ وجيب قلبي صار مسموعاً لي داخل أذني. إنْ كان صليب أحمر دولي، ومغلّف داخل مغلّف، من تُراه يكتب لي بالمنحى المائل سوى أخي الأسير بدر. لم تحضرني جرأة فض المغلّف الثاني من فوري. أضعه فوق سطح المكتب أمامي، أتطلّع فيه، الخط المكتوب به اسمي ليس خط بدر، أرفع عيني عن المظروف، أتطلّع صوب فضاء المقبرة. يرتج جسدي كما لو تلقيت خبراً صاعقاً يفيد بوفاة. أتناول المظروف، أحاول السيطرة على ارتجاف يدي. أنت لا تعرفني لكنّي أعرفك عبر كتاباتك قرأت لك بدءاً من أواخر السبعينات وحتّى عام 1990 حيث انتهى الحال بالصيغة التي لا تختلف كثيراً عمّا لا يراه نائم أحييك على جرأتك أوّلاً وأحييك لأنّك كويتي ثانياً، بطريقة وبأخرى استطعت اكتساب ثقة أحد الأجانب من العاملين في الصليب الأحمر الدولي رجوته أن يعمل على إيصال رسالتي هذه لطرفك قد تسأل لماذا هذا الجهد أجيبك أنت قمت بعمل خيّر في وقت لا نتوقّع من إخوتنا الكويتيين غير الشماتة ولهم كلّ الحق في ذلك بعد الذي حدث في الثاني من شهر آب المشؤوم، أقول لك مجلتكم العتيدة العربي غير مسموح

بتداولها هنا لأسباب تعرفها، لكنّ العدد الذي نشرت فيه قصتك المذكورة سرعان ما اختفى من مكتباتٍ عمّان، بدأ العراقيون الذين يتخذون من الساحة الهاشميّة مركزاً للقاءاتهم يتداولونه بينهم، ثمّ إنّ أحد الشبابِ ممن يتحلّون بالجرأة بادر انتزع ورقات قصّتك من داخل المجلّة وفّق لأن يُخفيها في طيّات ملابسه يعبر بها الحدود للداخل قرأناها سرّاً قبل أن نتداولها نحن الذين نثق ببعضنا البعض لدرجة الائتمان على الحياة، أكتب رسالتي لكي أقول أنت تناولت بالوصف بعض جوانب معاناتنا اليوميّة الحقيقية لهذا أودّ أن ألفت اهتمامك لموضوعين هامين جدّاً عسى تتوفر لك فرصة الكتابة عنهما الأوّل تعرّض شعبنا لأشكال إبادة جماعية متعددة على مدى عقودٍ من السنوات تحت نظر العالم وسمعه ولم يحرّك هذا العالم ساكناً لأسباب تتصل بالمصالح، الموضوع الثاني هو ما يدعوه نظامنا الحاكم في مكاتباته السريّة عمليّات تنظيف السجون، وتتم بطريقة دورية لمرتين سنويّاً بعدما صارت سجوننا تضيق بالمعتقلين والمحكومين منذ الانتفاضة الشعبانية المعروفة وحتّى الآن لهذا يتولى القائمون على السجون إعداد قوائم تحوي أسماء معتقلين يرونهم خطرين أو لا مبرر للاحتفاظ بهم ويفضّلون التخلّص منهم، بعد ذلك يرفعون تلك القوائم للجهات العليا التي تبادر بدورها لتشكيل فرق خاصة بالإعدامات، يُحدد يوم التنفيذ، يؤخذ السجناء الذين يجهلون ما ينتظرهم معصوبي الأعين إلى أماكن نائية، يوقفونهم مصفوفينٍ عشرات أو مئات عند حافّة خندق ترابي طويل وعميق أعدّ مسبقاً للغرض، يطلقون عليهم النار تتهاوى أجساد القتلى أو المصابين ممن لم يلفظوا أنفاسهم بعد في الخندق وتكون هناك آلية جاهزة لردمه

فوراً من غير أن تترك آثاراً دالّة، لا أحد يستطيع يحصر أعداد المقابر الجماعية، وطننا صار مقبرة كبيرة، لعلك تسأل لماذا لا يتصدّى مثقفوكم للكتابة عن كلّ هذه الأمور، أقول لك أي كاتب عراقي ينتقد النظام يعرّض نفسه وإن طال الأمد للتصفية الجسديّة حتّى لو عاش خارج البلاد، جماعتنا يمتلكون جيشاً جرّاراً من الجواسيس والعملاء يندسون في أوساط المغتربين يحصون عليهم أنفاسهم ويدّعون أنّهم نزحوا للخارج اتقاء الاضطهاد، أخيراً التمس منك العذر لعدم ذكر اسمي في ختام رسالتي والاكتفاء بتوقيع عراقي من الداخل نتيجة خشيتي من وقوعها بأيدٍ غير أمينة فيكون مصيري في خندق مجهول. أعيد الرسالة لمغلّفها كمن يحرص على سريّة مطلوبة، أوجّه بصري إلى ما وراء زجاج واجهة مكتبي. أرى عدداً من الأحجار اتُخذتْ بصفتها شواهد قبور دون أن يعني واضعوها بكتابة أسماء أو تواريخ. غالبيّة الكويتيين يحسنون التخلص من موتاهم بالسرعة القصوى، زيارة القبور شأن لا مستحب، أمر موثوق منه الكويت خالية من مقابر جماعية بمعنى طمر عدد موتىٍ داخلٍ قبر واحد، يباغتني خرس شعوري يعقبه لهاث يتجسّد سؤالا مُحالا على أشهر الاحتلال السبعة. ما أدراني أنّ النظام العراقي لم يلجأ اقتصادا للوقت والجهد لحفر خنادق مقابر جماعيّة في الصحاري الكويتيّة.

هذا الصباح أكملتُ ثلاثة آلاف وتسعمائة يوماً. كيف حسبتها. بدءاً من مساء الخامس عشر نوفمبر 1990. يوم أسرك. صحح بدر لغالب. بعد الإصابة. أطلق غالب ضحكة مفارقة قصيرة. كانت إصابتي كتف أيسر. أنا بفخذ أيمن. جعفر يفكّر بكتابة يوميّات فلان في الأسر. القصد. نمنحه فرصة سماع قصّة إصابتك. سحب بدر

لصدره شهيقاً عميقاً احتفظ به وهلة ثم أفلته زفرة. ليس الآن. كلّ هذه الأيام في العراق ولم ير منه سوى سجونه ومعتقلاته، يستغرب على سجّانيه نهجهم تعصيب عينيه لدى نقله من سجن لغيره، وكأن الرؤية تمثّل خطراً أمنيّاً، أو أنّها ميزة تتوجّب مصادرتها، رغم هذا تبقى عشرات المشاهد العراقيّة خزينة الدخيلة، يستعيد رحلته إلى محافظة البصرة برفقة أخيه بعد انتهاء الحرب العراقيّة الإيرانيّة، ومشاهد الدمار التي بقيت عالقة في واجهة مُخيلته، لكن الأهم منها اختزان ذاكرته لمشاهد رائقة، أو هكذا آلت مع توالي الزمن، لمّا أخذه أخوه برحلة في السيّارة من الكويت إلى بغداد عام 1978 بمناسبة اجتيازه سنة أولى حقوق، وقتها لم يكن العراق خاض حربه ضد إيران، لم تكن ألوان خارطته ترابية كلها، كانت عينا الواحد وهو يتطلّع ما حوله قادرتين تتشرّبان الألوان برّاقة ناصعة تحدث في كيان ذلك الواحد خارج إرادته حيويّة ينازعها فرح. شهر يوليو بالحر، كان الوقت مساءً، قال أخي. تنام هذه الليلة مُبكراً. لماذا. لأننا نبدأ تحرّكنا من هنا الساعة الثالثة فجرا. توقيت غريب. تفادياً للحر الشديد. آويت لسريري مُنذ التاسعة ولم أنم قبل الواحدة، ليوقظني أخي في الثانية والنصف. كُن مُستعداً. تحرّكت بنا السيّارة، أخي تولى القيادة، أمامنا وقت كاف لبزوغ الشمس، شوارع الكويت مُقفرة من السيّارات تماماً، لحظة إيقاظه لي ظننتني سأعاود النوم بعد ركوبي السيّارة مباشرة، الذي حدث تملكني نشاط لا عهد لي به، ها أنا أرى الكويت مسكونة بالعتمة السابقة للفجر، المصابيح الكهربائية المعلقة عاليا تُنير مساحات دائرية تتحدد بمساقط الأعمدة الحاملة لها، رياح الفجر المشبعة رطوبة بعدها مُحتملة، الطريق المسفلتة باتجاه العبدلي

عريضة ناعمة ضاربة في عُمق الصحراء، نيران غاز حقل الروضتين النفطي الكويتي تزداد أرجوانية متواقتة مع بروز قرص الشمس من خط الأفق الشرقي، بعد مرور أقل من ساعة كنا نوازي نيران غاز حقل الشعيبة النفطي العراقي، هذا الامتداد الذي بدا مُتصلاً، ألسنة النيران أرجوانية أقل جرّاء ارتفاع قرص الشمس، لماذا تزداد نصاعة الألوان مع الاستنجاد بالذاكرة لكي تحدد معالم مشاهد عشناها في زمن يُخيّل لنا أنّه أكثر براءة مقارنة بأزمان أخرى لاحقة، شارفنا محافظة ميسان بعدما نزع النظام العراقي اسمها التاريخي العمارة قال أخي. نواصل. وافقته. نواصل. كانت الساعة الثامنة صباحا، بعد أربعين دقيقة ضغط أخي زامور السيّارة، الطريق كانت خالية، التفتُ مستفهماً، أشار لمبنى ضريح ذي قبّة على مسافة منّا، قال. مقام علي الشرقي. من هو علي الشرقي. لا أعرف. ابتسم. هناك من يقول على قائدي السيّارات إلقاء التحية عليه وإلا عاقبهم، تعرّضوا لحادثة ما. تملّكتني دهشتي. هل تؤمن بهذا. لا. لذت بصمتي. تابعنا سيرنا أربعين دقيقة أخرى، عاد ضغط زامور سيّارته، التفتُ إليه، أومأ لضريح ثان على جانب الطريق. مقام علي الغربي. من هو علي الغربي. لا أعرف. هل يتوجب على قائدي السيارات أداء التحية. لا أظن. الذي أعرفه أنّ أحد العليين. سكت برهة. إلقاء التحيّة فعل بشري. ضحكت في داخلي ولم أنبس. واصلنا زهاء نصف ساعة. لن نتوقّف في الكوت. أومأت برأسي، تابع. نتوقّف في العزيزية ولن يكون بيننا وبين بغداد سوى ساعة. أومأت ثانية موافقاً، يعلم أنّها مرّتي الأولى بالسفر عبر أراض عراقية، وجبة غدائنا في مطعم يطلّ مدخله على شارع الرشيد كأن مزدحما بالناس لدرجة الضيق، ما

بالهم أهالي بغداد لا يأكلون في بيوتهم. حوالي الرابعة عصراً. تعال. أخذني لشارع المتنبي. أدريك لست مولعا بالكتب لكنّي أعوّضك في وقت لاحق آخذك لسوق الشورجة. ما الذي يُباع هناك. ما لا يخطر على بالك. أتذكّرها أمسية شارع المتنبّي. رائحة الورق حاضرة في أنفي، سوق مسقوفة تتمثّل شارعا بعشرات المكتبات على جانبيه. توقّف عند أحد الباعة. لفؤاد التكرلي مجموعة قصصيّة بعنوان الوجه الآخر. موجودة. مدّ يده لرفّ قريب، ليتك تجد لي قصص محمد خضيّر في درجة 45 مئوي. مغادرتنا المتنبي. نسيت شراء رواية الحرب والسلم طبعة دار اليقظة في دمشق. بغداد التي قضينا فيها يومين لا غير بدت كأنّها رحلة أسابيع ، أستعيد تسكّعنا أنا وأخي في سوق الشورجة، تحضر أنفي كلّ الروائح المستوطنة للمكان، ما الذي جنته قيادتهم من حروب شنتها. في محاورة مع أخي أيام اشتداد أوار الحرب العراقية الإيرانية قال. لما يضيق عُنق الزجاجة بالأنظمة الشمولية لا تجد وسيلة لإطالة عمرها إلّا بافتعال حروبها. إصابتك في فخذك لم تكن معوّقة وإلّا ظهر ذلك على مشيتك. كانت معوّقة في حينه. رحل صوته وراء أساه. لو أعرف ما الذي حلّ برفاقي الأربعة. آثر غالب ملازمة الإصغاء. تُخطط لأنْ تباغت عدوك في مكمنه، مفرزة عسكرية محدودة الأفراد، تجد حالك واقعاً في كمين صنعته المصادفة، ليس سوء تخطيط لكنه سوء حظ، في الزمن الغفل وأنت حساب الموت والحياة. أنا أتولى تغطية انسحابكم. ترددوا لكنّي ألزمتهم، انصاعوا، بدأوا انسحابهم، تزايدت حدّة إطلاق الرصاص من جانب العسكر، أنا في مكاني، نفاد الذخيرة أو الإصابة النافذة في الفخذ. تهدّج صوته. لا أدري إنْ كانوا وُفّقوا انسحبوا.

ما عاد يأبه لزيارة بيته في مدينة الضباط، صار يكتفي بالاتصال هاتفيّاً، أو المرور لأخذ غرض ما إلى جانب الاطمئنان على أمّه، متعللاً بتعدد الانشغالات وزحمة الوقت. أبوك يُكثر من السؤال عنك. نبّهته أمّه مرّة، داري شعوره بالحرج مازحاً. تحياتي الحارة للسيّد العميد. لا تملك أمّه إلّا أن تستسلم. كلاكما عسكري ميؤوس منه. افتقاده حميمية الارتباط العائلي في بيت مدينة الضبّاط، ليجد بديلاً في بيت محلّة السنك حيث مناخ الألفة والعفوية. هيا تقول. أو. أم العيال أعدّت لنا كبّة برغل بالصنوبر. أو. جنى تذكّرك لا تنسى إحضار الكتاب. أن يقترب من مسجد الخلّاني، يجد موقفاً لسيّارته عند الرصيف الموازي لمدخل الزقاق، هناك. هنا بغداد. همس بها أيمن لنفسه ذات مساء. هذا الإحساس بالانتماء وتأكيد الهويّة. لو أسعفه أو أسعفها الحظ جاءت مارلين لبلد أمّها بغداد لجاء بها أيمن لبيت ريسان. عراق من عَراقة، هنا عراقتنا يا مارلين. الأخيرة بعيدة في موسكو مسألة ارتباطِ أيمن بها حكم استحالة، لكنّ ارتباطه ببيت السنك بات أمراً مفروغاً منه، ليس ما يدعوه يتساءل. هل من المناسب أنْ. فاجأته أم هيا ذات مساء. لدينا غرفة صغيرة إضافية. لجأت ليدها أشارت نحو آخر الممر. سوف نُعدّها لسكن شخص واحد. أطلقت هيا ضحكة قصيرة رائقة. نضع على بابها لافتة غرفة أيمن. يداري الأخير شعوره بالامتنان إنْ لم يكن بالانتماء، لقاء أخير قالت جنى مخبّرة. سيأتي عمّي لزيارتنا منتصف الشهر القادم. الشهر المعني هو أيلول والعم الزائر ذلك المهاجر لأستراليا منذ أربعة عقود. لم يسبق لأيمن سأل عن اسم الغائب، لعلّ هيا قرأت ما يدور في رأس أيمن. اسم عمّي خالد. أضافت. يكبُر أبي بعدّة أعوام. هل

سبق له زاركم. تصدّى ريسان. بعدما نال المواطنيّة الاستراليّة داوم يزورنا كلّ سنتين يبقى أسبوعين، منذ أم المعارك لم يسمحوا له يدخل العراق، استراليا من بين دول عوملت عدوّة، قبل أسبوعين وافقوا منحوه تأشيرة دخول. انبرت جنى. يسافر من سدني لعمّان بالطائرة ومن عمّان لهنا بالسيّارة. حانت عنها نظرة عتب لأبيها. طلبت من أبي يسمح لي أسافر لعمّان أكون باستقباله ثم. قاطعها أبوها بحسم. سبق لنا ناقشنا هذا الموضوع. لاذت جنى بصمتها صاغرة، أرادت هيا تبديد جو الوجوم. عندما يصل عمّي خالد أسأله عن التطوّرات الأخيرة للحاسوب. شارك أيمن. تطورات الحاسوب واحدة حول العالم. تعني سرعة انتقال المعلومة المكتشفة من هنا لهناك. بدرت عن أيمن ضحكة قصيرة. لا وجود لمعلومة مكتشفة هنا كي تنتقل لهناك. حدجته عاتبة. إلّا السياسة. هدفت لحرف الحديث. أظنّك تفهم بالحاسوب. فهم الشيء يتصل بالتعامل معه. عادت هيا حدجته عاتبةٍ لكنّه تابع. في شوارع عمّان، على سبيل المثال، تصادفين ناساً حاملين كومبيوترات شخصية، في حين حالنا. قاطعته هيا مُحذّرة. إلّا السياسة. استجاب أيمن. معك حق. عادت جنى شاركت بحيوية مشوبة مزاحاً موجّهة حديثها لَأيمن. البعض يتمتع بحصانة مضمونة كأنْ يكون أبوه آمر معسكر بينما البعض الأخر تركت جملتها معلّقة، ضحكتْ، ختمتْ. يا الله السلامة. لأنّها كانت تحتاج شراء مستلزمات قرطاسية لمكتبها عرض أيمن على هيا يأخذها بسيّارته. ستجدين عشرات المكتبات في مكان واحد. عرف منها، مسؤولها المباشر يوليها ثقته. اغتنم الفرصة. يجب عليه أنْ يثق. تطلّعت فيه مُستفهمة. موقعك الحزبي يلزمه بذلك. طوّفت

وجهها سحابة حزن. من أين جئت بمعلوماتك. هل أخطأ الحدس. مجرّد استنتاج. ألحّت بالحزن ذاته. من أين. شيء يشبه الوقوع في الغباء، ما الذي حدا به. بذل ذهنه يجد إجابة. إصرارك الالتحاق بوظيفة حسّاسة جدّاً تتطلّب، عدا عن اشتراطهم موافقتهم على زوج المستقبل. أصغت إليه ريثما أنهى، غافلتها زفرتها. الآن اقتنعتْ. سكتت، رغم إحساسه بالبلاهة في حينه حز في نفسه أنْ لا يعرف. اقتنعت بماذا. بما قالته جنى عن الحصانة المضمونة لدى البعض. كمن تلقّى إَهانة يستحقّها. حاول العبور على مهانته، قال. جنى كانت تمزح. يقينه يتشرّب صوته. حقيقة الحال عكس ذلك. حدّقت إليه مندهشة أو مستنكرة. سادت لحظات صمت. مكمن الخلل بانعدام عامل الثقة. تعتقد. تساءلته تُحفّزه يتابع. في الأنظمة الاستبدادية حيث تتعدد الأجهزة الرقابية القمعية وتتغلغل في مفاصل المجتمع تحصي على الناس من غير تعيين أنفاسهم يبلغ الفرد مرحلة انعدام الثقة والشك بأخيه بزوجته بأبنائه. أين قرأته. سمعته من امرأة في مثل سنّك. لا أصدّق. أستاذة علوم سياسية في أحد معاهد موسكو روسيّة بأم مسيحيّة عراقيّة. وصله صوت هيا مضمّناً فضولاً ما اسمها. مارلين. جميلة حتما هذه المارلين.

تتمتع بخيال روائي خصب. حرص أضاف. فوق العادة. ابتسمتُ لتوصيف الدكتور غانم النجار، سمعته يستطرد أشبه بمن يُسدي نُصحاً للآخر. علينا مراعاة أقصى درجات الحذر في طرح أفكار أو تصوّرات لها علاقة مباشرة بمشاعر ذوي الأسرى والشهداء.

تابع متأسّياً. يكفيهم ما يعانونه من. لعلّه لم يشأ الإفاضة، اغتنمت لحظة الصمت تساءلت. تظنني جانبتُ الصواب. أحسسته يبذل جهده يتحلّى بصبره. لا أحد يستطيع الجزم بخطأ اجتهادك أو صوابه. وازن كلماته قبل مواصلته. فكرة وجود مقابر جماعية في الصحاري الكويتيّة. تحوّل عن إكمال جملته، بدأ ثانية. أنا شخصيّاً لا استبعد قيام النظام العراقي بأصناف ممارسات إجراميّة لا تخطر على بال الناس الأسوياء، ولا يمكننا نسيان قصفه مناطق من شمال العراق بالسلاح الكيمياوي. انبرى ذهني نبّهني، استعن بوثيقة تملكها، يدي لجيبي، ومن ثمّ مددتها بالرسالة التي بحوزتي، اتسعت حدقتا عينيه وهو يتسلّم، يرى مغلف الصليب الأحمر الدولي. رفع بصره إلي. تسلمتها عن طريق جريدة السياسة. قلتها مسبّقاً إجابة سؤال مُحتمل. أمّن بحركة رأسه، يده باقية تحتفظ بالمغلّف. تساءل. ممكن. أومأت موافقا، أعمل أصابعه استلّ المغلّف الثاني، ارتفع حاجباه احتفاءً. من داخل العراق. أمّنت من جانبي بحركة رأسي. لم يسألني أسمح له، استلّ الرسالة، بدأ يقرأ. أراقبه يهزّ رأسه بين الفينة والفينة، يتريّث عند هذه الجملة أو تلك، أنهى. الصليب الأحمر الدولي يعرف بأمر المقابر الجماعية. قالها بثقة، استطرد. لكنّه لا يعرف مواقعها من خارطة الأراضي العراقيّة، وليس مخوّلاً أنْ يبحث أو يستقصي إنْ لم تكن هناك شكوى موثّقة. لم أسأله معنى شكوى موثّقة. يوجد داخل العراق عشرات، ربّما مئات أشخاص يستطيعون الاستدلال على مواقع المقابر الجماعية، لأسباب تتعلّق بطبيعة أعمالهم، كأن يكونوا من بين الحراس أو عساكر أفرادا أو سائقي سيارات، أو. لم يوفّ جملته. المعضلة الحقيقيّة أنّ أيّاً من

هؤلاء غير مستعد للتقدّم بالتبليغ أو الإدلاء بشهادة لأسباب تتعلّق بردود الفعل الانتقاميّة التي يبيّتها النظام العراقي للذي يتجرأ. نمّت شفتاه عن ابتسامة مُفارقة. هو في حالاته جميعها لا يكتفي بمعاقبة الفرد الذي أقدم وحده لكنّه يُنزل عقاباً جماعيّاً يشمل عائلته مهما بلغ عدد أفرادها بناءً على صلة الرحم. يناورني وعي الحالة، مهما كانت معرفة الواحد بطبيعة الأنظمة الاستبدادية يظل فهمه قاصراً تماماً أمام نظام عربي يقوم علي واحديّة الفرد الحزب. أصغي للنجار يستطرد. أمرٌ تجدر معرفته، يتوفى إنسان ما، يجري دفنه في مقبرة ما، الدفن عمليّة فنيّة تستلزم خبرة متوارثة منذ قابيل وهابيل، وإلّا ترك جملته مفتوحة على احتمالاتها. الجسد البشري. استدرك. أعني جثّة البني آدم تختلف عن جثّة أيّ من الحيوانات كافّة. أسألني، ما الذي يهدف إليه مُحدّثي، ولا خيار لدي سوى الإصغاء. الأرض عبر التاريخ تصعد بجثث القتلى المخفيين في باطنها إلى أعلى رويداً، تُظهرهم للعيان ولو بعد حين. هل تعني أنّ القَتَلة لن يفلتوا بجرائمهم طال الزمن أو قصر فاجأني ردّه. بشر القاتل بالقتل. لم أجد ما أعقّب به. سيأتي يوم يكتشف فيه العراقيون كافّة المقابر الجماعية التي تضمّ جثامين قتلاهم. ترتأي أن لا نُثير احتمال وجود مقابر جماعيّة من أيام الاحتلال داخل الأراضي الكويتيّة. أجاب مشترطاً. إلّا إذا كنت واثقاً لدرجة لا تحتمل اللبس. يبقى الرهان على مبادرة الأرض للكشف عمّا في باطنها. ابتسم بثقة، استجاب مشترطاً أيضاً. إن أصبت في توقّعاتك. أتأبط مغلّف رسالة عراقيّة، أغادر النجار، تحضرني بقيّة من حديثه تتصل بإنزال العقاب بناءً. قبل عقدين زمن أو أكثر قرأت ترجمة لشريعة الملك البابلي

حمورابي ما قبل أربعة آلاف سنة، عرفت أنّ شريعته هي أوّل دستور في تاريخ البشرية، تحتوي 282 مادّة قانونية، تنظّم شؤون المجتمع المتحضّر حينه، هذه المواد منقوشة باللغة المسمارية على مسلّة من حجر الديوريت الأسود، تعلوها صورة الملك حمورابي يتسلّم حُزمة القوانين من إله الشمس، بما يُفيد إننا في حضرة كلامٍ مُنزّل وليس من وضعٍ بشري. إحدى فقراته تنص، من يبني بيتاً لآخر يكون مسؤولاً عمّا بناه مهما تقادم العهد، فإنْ تهدّم البناء يعاقب البنّاء، وإنْ كان ميّتاً يُعاقب أبناؤه، وإنْ كانوا ميتين، وهكذا. أتأمّل ما أتذكّر، لو صحّت الترجمة عن المسمارية، فإنّ وريث حمورابي المتربّع على سدّة العراق يحذو ليتجاوز يوقع عقابه مُلاحقاً صلة الرحم إلى نهاية يراها موالوه. أتأمّل أتذكّر أتساءل، من أين لواحد ما يكتب نصّاً مستوفيا شروط صلة الرحم منذ شريعة حمورابي، تحاشياً لشريعة الغاب ما دامت الحيوانات لا تفني أبناء جنسها. مرحباً. أهلاً. إنْ سمح وقتك أزورك. يسمح. أحمل لك ثلاث رسائل وصلتنا من عراقيين يعيشون في المنفى. عساها لا تكون رسائل احتجاج. سمعتُ ضحكة إبراهيم فرغلي من الطرف الثاني للخط. الرسائل ليست موجّهة لمجلة العربي بالاسم لكي نملك حقّ الاطلاع على محتواها. لم أعقب، أضاف. هي مُرسلة إليك عن طريقنا. لم أعقّب، واصل. الاقتراح الوارد أنّك تقرأ هذه الرسائل فإنْ وجدتَ علاقة مباشرة للمجلّة بموضوع أيّ منها أعدتها إلينا، نشرناها في بريد القراء. تذكّر ختم. القرار لك. يسبّق لإنهاء المكالمة. مسافة الطريق. يناوشني داخلي. حين شرعتُ أكتب نصي الكابوس إيّاه تملّكني شعور من يُزمع يقدم يتخلص من مجهول يُثقل ضميره.

بحلول يومنا هذا نكون أكملنا ستة شهور لبقائنا هنا. قالها بدر، حبس زفرته. تابع متسائلاً هادفاً لإشراك الآخرين. كيف لنا أن نصفها أو نصنفها. رد غالب. من حيث الوتيرة لا أخال زمننا الآن ثقيلاً لدرجة لا تُطاق. تدخّل فهد. تعني أنّ رتم الوقت واحد سواء كنت سجيناً هنا أو طليقاً في بلدك. انبرى جعفر لافتاً نظر فهد. الأمور لا تؤخذ هكذا، قصد غالب أنّ وجودنا هنا مقارنة بأماكن احتجاز سابقة ميّزة يجدر الاعتراف بها. حاججه فهد. بصرف النظر عن الاعتراف بميّزات مكان أو شكل تعامل مسؤولين من منّا مؤهّل ينسى ولو ليوم واحد أنّه أنه مُصادر منقطع بلا إمكانيّة اتصال بشكل مُطلق. ساد صمت مشوب تأمّلاً، أنهاه بدر. أحدنا، كما يبدو، يجتهد بأنْ يُفلسف تشاؤمه برافعة بليغة. قال غالب. ما كلّ مُجتهد مصيب. شارك جعفر البعض يتخذ موقفاً مُعارضاً لسبب يعودُ لطبيعته الشخصية. كانوا متواجدين في غرفة المعيشة، الوقت تجاوز الثانية ظهراً بقليل. شمس أواخر آغسطس تشوي جدران المنزل، يضاعف حرارة أشعّتها وجود صفائح حديدية تُغطّي أربعاً من نوافذ الغرفة الست، لولا حيلة دفاعية لجأ إليها فهد، قام بحجب النافذة الغربية المفتوحة بدثار نومه، تناوب هو وغالب على رشّه بالماء من خارج كلّ نصف ساعة، بما يؤدّي لترطيب نسمات عابرة للداخل بين حين وآخر تجاوزاً لكلّ الذي قيل عن رتم زمنٍ نعيشه هنا. مهّد بدر، تابع. يخيّل لي أنّ افتراضنا الأوّل ما عاد قائماً. كلمته الأخيرة استرعت إليه اهتمام الثلاثة، أضاف. فكرة تشكيلهم لنا مجموعات قليلة العدد تمهيداً للتفاوض على إطلاق سراحنا. حانت عنه نظرةٌ لجعفر كانت مجرّد إشاعة. سارع جعفر عقّب. إنْ كانت إشاعة فعلاً

فهي مبنيّة على استنتاج أحد مسؤولي اِستخباراتهم في مديريّتهم حيث كنتُ مُحتجزاً. انبرى فهد جازماً. لو وُجد احتمال عقد صفقات تحرير أسرى لعرفنا به خلالٍ شهر أوّل لاحتجازهم لنا هنا. ما أدراكما. مهّد غالب لمداخلته منقّلاً نظراته بين بدر وفهد. بعدم إبرام صفقات فعلية حظيت بها مجموعات أسرى جرى حجزها في أماكن ثانية وإنّ أوان إبرام صفقة بخصوص إطلاق سراح مجموعتنا لم يحن بعد. سادت لحظات صمت تبادل خلالها بدر وجعفر نظراتٍ عمّرها هامش أملٍ غامض، أبدى فهد رأيه جازماً وهو يهبّ واقفاً. أنتم تعيشون وهماً وتتفاءلون زيادة عن الحد. حثّ خطوه مبتعداً لولا استمهال جعفر. إنْ لم تمانع. التفت إليه فهد. ليتك تُشير علينا بنوعٍ تفاؤل لا يزيد عن الحد. أجابه فهد بمفارقة وهو يشير للدثار المثبّت على النافذة. أشير عليكم برش هذا الدثار بالماء. رغم كونهم أواخر شهر آغسطس إلّا أنّ حرّ التاجي يُبقيهم داخل مبنى المنزل طوال ساعات النهار، لحين موعد غياب الشمس، وقتها يتعالى تغريد مئات طيور ألفت المكان، تبدأ الحرارة عدّاً تنازلياً تدريجيّاً، أرضهم الخلفية صارت خضراء كلّها، فهد لا يُعدم وسائل يديم بها حيويّتها، كأنْ يستنبت جديداً، ينقل فسائل بعضها من موقع مشمس إلى ثانٍ أقلّ تعرّضاً للشمس، أو يستخدم خرطوم الماء يساعد نبتات أخرى على احتمال الحرارة خلال ساعات الظهيرة، الخضار الورقية التي زوّدهم العريف ريسان ببذورها في وقت سابق آلت مبعث فخر لفهد، سريعة النمو، قويّة الساق، يانعة داكنة الخضرة، أبدى العريف ريسان وجهة نظره مرّة مشيراً إلى الأرض. خصوبتها عالية لأنّها لم تُزرع منذ سنوات. قال. الفلاحون هنا يناوبون زراعة أراضيهم يقسمونها

نصفين، يزرعون نصفاً ويبقون النصف الثاني بالانتظار لكي تستعيد الأرض قوّتها. لم يسأله فهد لماذا لا يعمدون للسماد، داوم على تسليمه حصّة من حصاد الخضار. لك وللملازم. الأمر المُلفت أكثر من سواه ظاهرة النبتةِ التي ظنّها فهد، عند ظهور برعمها من باطن الأرض شمّاما هجيناً، ووصفها العريف ريسان حنظلة. نبتة وحشية لا يزرعها الفلاحون، تنتشر على حدود صحراء السماوة، ربّما في أماكن أخرى شبيهة، نادراً ما تنمو هنا، الطيور تعرفها فتتحاشاها. صمت وهلة مستذكراً. ثمارها طبيّة معروفة لدى عامة الناس، يصفها العطارون لعلاج بعض أمراض الجهاز الهضمي. هل تنفع لعلاج قرحة الاثني عشر تساءل فهد بدلالة إحالة يفهمها جعفر لا أعرف. سارع ريسان نفى باستجابة عفويّة، استطرد. الذي أعرفه أنّ ثمرة الحنظل مرّة بما لا يُصدّق. تساءل غالب. كيف. يُقال لو أنّك لمست قشرتها بأصابع يدك انتقلت مرارتها لفمك. اجتهد فهد. نوع من التفاعل الكيمياوي عبر مسامات الجلد. بعد ذهاب ريسان. وجّه غالب سؤاله لفهد. أظنّك لست جاداً بمسألة التفاعل الكيمياوي عبر مسامات الجلد. أجاب فهد سؤال غالب بتساؤل يحمل تحدّيا. إلّا إذا كان لديك تفسير خاص بك. قال بدر. الشعور بالمرارة مسألة إيحاء نفسي. آثر فهد الانسحاب نحو الأرض الخلفيّة. عندما أثمرت نبتة الحنظل جادتْ بمئات الكرات الخضراء مكتملة الاستدارة دون شائبة، بحجم كرات المضرب، تتحوّل عند نضجها للون أصفر مائل للحمرة. لعلّك جرّبت تلمسها. جرّبت. هل انتقلت مرارتها لفمك. أظنّها كذلك. تظنّ أم تجزم.

أطلق ريسان ضحكة قصيرة دالّة على التسليم، أكمل. يبقى أبو البنات مغلوباً على أمره. الوقت ظهر يوم أحد، عقّب أيمن هادفا يطمئن محدّثه. ما دامتا معاً لا خوف عليهما. بعدما رفض ريسان طلب ابنته جنى تسافر إلى عمّان تكون باستقبال عمّها خالد اضطرّ بمباركة زوجته وافق على سفر الشقيقتين. لن نغيب أكثر من ثلاثة أيام. مساء يوم الجمعة التقى أيمن بالرجل القادم من استراليا، يدري أيمن عن خالد أنّه يكبر أخاه خمسة أعوام. الانطباع الذي نما لوعي أيمن وهو يمدّ كفّه يشدّ على كف خالد، يتفحصه عن قرب، هذا الرجل يصغر أخاه عشر سنوات، لعلّها النعمة، لعلّه الإحساس بالأمان، أدهشه ترحيب خالد الحار به. كما لو أنّه عرفه سابقاً، وهو يجلس إلى جانبه همس خالد في أذنه. أنت محبوب في هذا البيت. كان العم محطّ رعاية ابنتي أخيه، فرحهما واحتفاؤهما الفائق بوجوده بينهم حفّز أيمن تذكّر، لديه ثلاثة أعمام، أحدهما يقيم في تكريت، الثاني نينوى، الثالث حي المنصور بغداد، يلتقون أيام الأعياد، ليس كلّ الأعياد، وإنْ حدث فلا مكان لمشاعر مُحددة أو غير مُحددة. يفتر داخله عن ابتسامة استهانة، هو لا يكاد يلمّ بأسماء أبناء وبنات أعمامه. اقتربت منه هيا حاضنة كيساً أنيقاً، دفعته إليه. هديّة من عمّي هل يحبس أيمن مفاجأته. تساءل. لي. حانت عنه نظرة نحو العم، أومأ الأخير برأسه. شيء متواضع. ابتسم، أردف بما يضمر مفارقة. لن تستفيد منه قبل ثلاثة أشهر. تطوّعت هيا وضّحت. صديرية صوف استرالي. وجدت جنى فرصتها، خبّرت. لو لم نذهب أنا وهيا لاستقبال عمّي في عمّان والعودة بصحبته لما سمحوا له بدخول العراق. أيمن هو المعني بالإخبار. سأل. هل هناك مُشكلة

في تأشيرة الدخول. هناك ممنوعات. انبرت هيا. وصل عمّي مصطحباً معه حاسوبه الشخصي، ولم يخطر على باله أنّ محاولة عبور الحدود بالحاسوب تمثّل مخاطرة. بادرت جنى لتسلّم زمام الحديث. قالت. كُنا ياغافلين لكم الله، استقبلنا عمّي مع حقائبه في المطار، أصرّ على استئجار سيّارة أجرة تأخذنا لعند منفذ الرُطبة الحدودي، إجراءات التفتيش في الجانب العراقي، عثروا على الحاسوب، من أين لكم هذا، أخذونا لمكتب مسؤول الأمن، احتار الأخير كيف يتصرّف، قضينا هناك ثلاث ساعات، حاول مسؤولهم خلالها الاتصال بمديرية استخبارات بغداد دون جدوى. كانوا يحتجزون جوازات سفرنا، لولا فكرة طرأت لهيا. أنْ تكون على الحدود ولا تعرف حجم ونوع الخطر الذي يهددك، عمّي لم يكن يبيّت شرّاً. سألته بهمس، لو تنازلنا لهم عن الحاسوب، إنْ كان ذلك يُنهي المعضلة، توجّهت لمسؤولهم، عساكم تأخذون الجهاز وتسمحون لنا مواصلة سفرنا، تملّكه استغرابه برهة، بدا متشككاً برهة، سألني إن كُنتُ موظّفة حكومية، أنا كذلك، أين، وزارة الدفاع. طوّفت وجهه سحابة قلق، ممكن أطّلع على الهويّة، سلّمته هويّة العمل، دقق نظره، وزارة الدفاع العراقية، مديريّة الحاسوب. بدرت عن هيا ضحكة قصيرة. لحظتها هبّ مسؤولهم واقفاً، أحنى رأسه تذللاً، تقبّلوا أسفنا يفترض بنا لا نؤخركم. أعاد لي هويتي. بثّني عتبه. ليتكم عرّفتمونا بشخصكم منذ البدء. قالت. رؤيتهم الحاسوب استحوذت على اهتمامهم شغلتهم عن تفحّص مطبوعات جاء بها عمّي خالد من استراليا. لحظتها نهض ريسان لافتاً اهتمام أيمن. تبعه الأخير، وقفا في الدهليز، ليتك تطّلع على هذا. قال ريسان، ناول أيمن مطبوعاً بدا كأنّه كتاب،

عنوانه مكتوب بالأحمر، العربي، عرف بعد ذلك أنّها مجلّة شهرية تصدر في الكويت، عرف لماذا أشارتْ جنى لغفلة رجال أمن الحدود، يُمنع عبور مطبوعات عدوّة. قال ريسان. صادرة قبل شهرينٍ، جاء بها خالد. تفاجأ أيمن لدى رؤيته صورة أحدهم تتصدر ملفّاً داخل المجلة، شاهد وجه الأسير بدر، قال ريسان. مرّة أولى يبادر كاتب كويتي ينحاز للشعب العراقيٍ. تابع. هيا وجنى قرأتا القصة بتوجيه من عمّهما. أضاف هامسا هادفاً يطمئن محدّثه. لا أحدٍ يعرف عن وجود أسرىٍ كويتيين. عادا لمجلسهما لمحتْ جنى المجلّة بيد أيمن. ستقرأ نصّا فانتازيّاً يكتسب أهميّته كونه لكاتب كويتي. قالت هيا. قرأته مرتين ولم أستطع فك طلاسمه. قال ريسان. حاولت قراءته واستغلق فهمه عليّ. تصفّح أيمن المجلّة. توقّف عند ما لا يراه نائم، حدّق لوجه بدر الآخر في الصورة.

عندما بدأتُ ممارسة الكتابة بصفتها هواية لإرضاء الذات وإعلان الاسم على الملأ، كنتُ أؤمن بقدرة الكتابة على الفعل بالمتلقين، تبنيت أيامها شعارات سادت الساحة الثقافيّة، الأدب وظيفة اجتماعيّة، ضرورة مساهمة الأديب في التغيير للأفضل، الكتّاب التقدميّون لا بُدّ أنْ يكونوا معارضين سياسيين. شعارات لا حصر لها، تبنّاها البعض، أنا أحدهم، حفنة كتّاب متحمسين بقدر ما كُنا مغمورين، لم نجد من يلتفت إلينا أو يأبه بنا. ولأنّ الكتابة قدر الواحد صارت الهواية احترافاً، بما يضطرّ الواحد لدفن شعاراته في الزاوية الأبعد من مخيّلته. الحال الآن، الوعي الآن، النص الغرائبي

أو الفانتازيا، هل يقيّض لكاتب مُحدد يتأمّل حصيلته، يعيد حساباته بخصوص قدرة الكتابة على المساهمة في التغيير. نحن مجموعة مهتمين بالأدب والسياسة من بين أعضاء بيت العراقيين في هولندا. الرسائل التي جاءني بها فرغلي موضوعة أمامي على المكتب، لأسباب نفسيّة بالدرجة الأولى، ترددت أفضّ أغلفتها، السبب يعود لرسالة تسلّمتها من جريدة السياسة سممتْ لي ذهني، ألقتْ بي في دوامة مقابر جماعية مُتخيّلة تُغطّي أراضي دولتين شقيقتين. بعد أيام هاتفني فرغلي يسأل ما إذا كانت إحدى الرسائل تصلح للنشر في بريد القراء، حتّى أقطع دابر الشك قُلت له. رسائل شخصية. قبل دقائق بدأت بالرسالة القادمة من هولندا. نحيي فيكم غيرتكم على شعبنا الذي كان وما يزال يدفع ثمن مغامرات قيادته المجرمة، نحيطكم علماً أنّ العراقيون الشرفاء ممن تشرّدوا في أرجاء المعمورة جرّاء أساليب القمع والتنكيل، أوضحوا موقفهم الرافض بشدّة للعدوان الذي تعرّض له بلدكم المسالم في آب 1990، نتمنى أنْ تكونوا قدوة لكتّاب عرب آخرين، ذوي أقلام مسؤولة تنتصر لشعبنا، نشدّ علي أيديكم. أضع الرسالة جانباً، لو لم تكن مُوجّهة لي شخصياً أمكن نشرها في بريد قرّاء مجلة العربي. أُمعن تفكيري وهلة، مُرسلو هذه الرسالة لن يُعارضوا نشرها وكأنّها موجّهة لمن يهمه أمر الشعب العراقي، أعود أتأمّل الفكرة، فرغلي أجدر مني باتخاذ قرار مثل هذا، أتلفّتني، لا بُدّ من حسم حالة المراوحة تجاه رسالتين باقيتين. صديقي الطيّب. تبدأني إحداهن من أوتاوا في كندا. أنا عراقيّة، أو بالأحرى كنت عراقيّة من أهالي البصرة، صرت كنديّة، شيوعية أرملة شيوعي، اغتال النظام العراقي الدموي زوجي

صيف عام 1977 في عرض شارع الوطني، حذرني عدد من الرفاق، اسمك على قائمة التصفيات، هربتُ إلى الكويت كعيبر، بقيت بضيافةَ أقرباء لي زهاء أربعة أشهر، تدبّر لي مسؤول نقابات العمال عندكم وثيقة سفر تابعية يمنية جنوبية، ساعدتني أسافر لبلغاريا ومنها إلى بلاد الله الواسعة، حتّى توفّر لي الاستقرار هنا، خلال وجودي في الكويت تابعت كتاباتك، لمستُ فيها ما يشير إلى أنّك قريب من الفكر الماركسي، لعلّ حالتي النفسيّة المتردية حينها منعتني عن محاولة التعرّف على شخصيّات كويتية أنت من بينها. مُقدمة أقرب لسرد يختص بأدب السيرة. هل أواصل قراءة الرسالة، ما الذي فعلته بي يا فرغلي. قرأتُ ما كتبته في مجلّة العربي عن أوضاع العراق تحت الحصار الدولي، أنتَ أثبتّ أنّ الواقع في حالة كهذه أغرب من الخيال، إسمي نور كنتِ أعمل بالتدريس قبل اغتيال زوجي، كان لي ولد اسمه فهد تيمّناً بالاسم الحركي لمؤسس الحزب الشيوعي العراقي، عندما هربت لبلدكم كان عمر فهد أربعة أشهر تركته بحضانة إحدى عمّاته، بلغ الرابعة عشرة عندما قتلوه لدى قمعهم انتفاضة الجنوب عام 1991. تسألني لماذا كلّ هذه التفاصيل أقول لك مُستعدّة أزودك بتفاصيل أكثر إذا اتخذتَ قرارك تكتب قصّتي تُصدرها في كتاب، مع طلب وحيد أن لا تكون لغتك مُعقّدة.
تبقى الرسالة الثالثة، أمدّ يدي أرفع المظروف، هذه الرسالة قادمة من استراليا. الكاتب المُبدع. أنا عراقي الأصل، هاجرتُ إلى استراليا منتصف ستينات القرن المنصرم لأسباب تعرفها، أتولى الآن رئاسة تحرير مجلة شهرية عربية هي وحيدة نوعها في استراليا، من القرّاء المداومين لمجلة العربي طوال عقود، أخذني نصّك الذي نشرته

فيها مؤخراً، قرأته مرّات، أنت تكتب بأسلوب ما بعد حداثي، عدا عن المهمّة النبيلة التي تصدّيت لها بحرفية عالية، أكتب لك راجياً السماح لمجلّتنا بإعادة نشر نصّك هنا في استراليا زيادة للفائدة، فإنْ حصلنا على موافقتك كتبنا لمجلّة العربي نستأذنها، وليست مرّة أولى نُعيد نشر مواضيع مختارة منها. المرسل خالد عادل.

عشقه الوحيد ما قبل معرفته هُدى وارتباطه بها هو البحر، طرّاده الصغير، الممارسات اليومية المتصلة بالاستعداد لنزول البحر تحت ذريعة صيد السمك، مهام وظيفته خلال سنة أولى من تعيينه وكيل نيابة منطقة حولي اضطرّته للابتعاد عن هوايته، جرّاء أعمال خفارة إلزاميّة تّصادف المعيّنين المستجدّين، عاد بعدها لسابق عهده. من غير المناسب لرجل قانون يقضي جُلّ وقته بالحداق. دأب أخوه يؤنّبه كلّما رآه بصدد مغادرة البيت أو عند عودته مُشبعاً برائحة زفر البحر، دأب بدر، من جانبه، يجيبه متسائلا. ما الذي يمنع. يضيف لو جرّبت الحداق مرّة لشغلك عن الكتابة والكتب. يأتيه ردّ أخيه حاسماً. يكفينا مجنون واحد داخل البيت. ولا يتجرأ بدر يستفهم أخاه من هو المجنون فيهما. شيء ما يسكن داخله يحفّزه يبتعد عن جو المدينة المزدحم بالناس والسيارات والمسؤوليات. فإن واجهتَ البحر أنتَ والماء والسماء والأفق المفتوح على اللانهائي، وجود ملموس مغيّب لدى الغالبية من اللاهثين وراء اعتبارات وطموحات لا تنتهي اسمه الحريّة في المتناول. مرّة أولى أسمع مصطلح حريّة في المتناول. لا يتريّث بدر عند مُداخلة غالب. يواصل. حقّ مُشاع

بقدر ما هو ضروري لا يعرفه إلّا مدمنو الحداق ممن يعيشون حالات البحر بمدّه وجزره بهدوئه وعصف ريحه وصخب أمواجه. لم يدار غالب عتبه. أثرت شوقاً لمكان وزمان مستعصيين. في البحر. قالها دالةً حنيناً، تابع. تواجهك لحظات تحسّك صوفيّاً من غير أنْ تعرف معنى الصوفيّة، ينتابك ما يشبه التسليم للسحر لدى مُراقبتك الشمس وهي تبدأ هبوطها التدريجي وراء الشريط الساحلي الأبعد من جهة الغرب، حيث اللون الذهبي الضارب للأرجواني، بينما يزحف اللون الفضي من جهة الشرق ينتشر يطبق الآفاق. أثرت شهيّتي للرسم. رددها غالب متألّماً. كأنّي أقف أمام الحامل موجّهاً يدي بفرشاتي. يتابع بدر. يهدأ سطح الماء فجأة تخفّ حركة الموج، شيء من تآلف العناصر بعضها بعضا تمهيداً لاقتراب الليل، يلفتك وقتها صياح النوارس تتخاطف الأجواء بالتزامن مع الغروب. كفّ حديثه فجأة، بدا عليه أنه تذكّر أمراً، وجّه تساؤله لغالب. وفّق فهد لاستئناس العديد من أنواع الطيور لم يتصادف لنا شاهدنا النورس من بينها. النورس طائر يحتاج بيئة مائيّة كي يقتات على ما يصطاده من الأسماك الصغيرة. استدرك منبّهاً. في مطلع حديثك ذكرت اسم هدى. وافقه بدر بإيماءة رأسه. ذهنه، بعد إكماله سنتي وظيفة، كان خالياً من فكرة ارتباط بزواج، قراره الذي لم يعلنه لغيره، لن أفعلها قبل بلوغي سن الثلاثين، أراد يكمل خمس سنوات خدمة، يحق له بعدها متابعة دراسات عليا، رأى هدى للمرة الأولى في السوق المركزي لجمعيّة الروضة التعاونيّة، قلبت له موازينه كلها، مصادفة ترقى مقام معجزة، وهو يتطلّع باتجاهها أحسّها تدخل صدره، هل يتعامل مع ظاهرته بصفتها نوعا من توافق شعوري قدري. خيّل

إليه أنّ وجهها مألوف عنده لدرجة الحنين المشبع محبّة، هل سبق التقاها في مكان ما، يجزم بأنّه لم يرها قبلها، ويجزم بقرار اتخذه بينه وبين نفسه، هذه الشابّة لي، حياتي لن تكتمل إلاّ بها. كيف لزمن رؤية خاطف يحتمل أفكاراً عابرة لواقع قائم. انتظر مغادرة هدى السوق، سيّارتها الصغيرة في الجوار، راقبها عن بُعد، تبعها دون أن يلفت اهتمامها، عرف البيت الذي دخلته، أطلق بدر ضحكة قصيرة. تواجه ما لا طاقة لك على تصديقه. صوته يشفّ ملاحقاً ذكراه، استطرد. في أوّل لقاء لنا بعد عقد قراننا قالت هدى. وأنت تحدّق بي في سوق الجمعيّة وأنت تلاحقني بالسيّارة حتّى البيت ساعتها عقدت عزمي أتزوجك. استمهله غالب بإشارة يده. من منكما عقد عزمه. كلانا في الوقت نفسه. الحبّ أنْ يجد واحدنا ذاته متحققة في الآخر، أخالك قللت طلعاتك للبحر بعد زواجكما. إلى حدّ ما، لكنّه لم يتردد يصحب هدى معه أحياناً، وجدها تنافسه بتوقها للإبحار بعيداً نحو العمق. سرعان ما أتقنتْ فن الحداق شأن أي متمرّس. معنى ذلك زوجتك تجيد السباحة. سمكة. تغيّر نمط حياته بولادة طفله البكر فهد. الأبوّة شأن مغاير، يلزمك وأنت الحبيب أنْ تكون شريكاً حقيقيّاً. لامس صوته إحساسه بالمفارقة. لم ترد لذهنه فكرة منافسة ابنه فهد له، ما أن بلغ شهره السادس أصرّ فهد يكون بينهما لدى إيوائهما لسرير الزوجيّة، ولا يستسلم للنوم إلاّ مع اطمئنانه لاستتباب أمور أبويه، بعد فهد هناك فاطمة، وأخيرا بدور. يوم وقوع بدر في الأسر كان عمر ابنته الصغرى ستّة أشهر. لم تكن ملامحها أخذت كامل استوائها. أبدى غالب مشاركته. مؤلم تترك وراءك زوجة وثلاثة. قاطعه بدر مصححاً. لا أحد منّا ترك

ناسه وراءه. هم حالة انتظار أمامنا. انطباع بالحيرة أخذ بوجه غالب، أكمل بدر بصيغة اشتراط. إذا كان رهاننا على زمن قادم يضمر حلم إطلاق سراح.

يتصفح المجلّة الكويتية، شيء أشبه بهديّة لا تُقدّر بثمن، عندما سأل عن أعمال الشاعر الكويتي علي السبتي، قِيل له يُمنع تداول كتب كويتيّة. ها هو يحوز مجلة بمثابة كتاب صادرة قبل شهرين. حال عودته للمعسكر أقبل أيمن على تصفح مجلته، تريّث إزاء الصورة المستنسخة لبدر. طفق يقرأ نصّاً استغلق عليه، وطّن قراره. أتمهّل أعاود القراءة ثانية كي ألم، وهو يفعل بقي بدر حاضراً بين السطور، القراءة استعانة بالخيال. مكان الحدث الذي يبدو غرائبيًّا لا يمت للواقع بصلة سرعان ما يحيل القارئ إلى العراق من خلال ذكره لبلد النخيل، ليتكشّف النص عن المعاناة القاسية لعامّة العراقيين جرّاء الحصار الدولي واضطهاد النظام، يواصل القراءة، يتذكّر أقوال مارلين، حصيلة المعنى متشابهة لولا فارق الصياغة اللغويّة، هذا الكاتب الكويتي ينتصر للإنسان العراقي المغلوب على أمره، كتب النص بمنحى غرائبيّ، لكنّ الغرائبيّة الحقيقية الحاضرة هنا أنّ كاتب النص أخ لأحد رجال العهدة، لو بادر أيمن نهض حاملا مجلّته اتجه للباب الجانبي، الأرض الخلفيّة حيث يتواجد الأربعة وراء سور أسلاك، لو رفع صوته. يا بدر. خنس لداخله برهة تساءل. على افتراض تسلمهم نسخة مجلّتهم ماذا سيحدث. نفض رأسه كمن يطرد فكرته، عبر بعينيه نافذته، تنبّه إلى انسحاب بدر داخلا، ينام مبكرا مقارنة برفاقه، أنْ يتواجد مبعدة

أمتار وأخوه المتواجد في المجلّة مبعدة أين. كيف سيكون ردّ فعله إذا وقعت عيناه، إذا قرأ، يعرفهم أربعتهم مُصادرة، سجن أو أسر منذ ما قبل نشوب أم المعارك، وقوع عدد المجلة بين أيديهم لا يرهف مشاعر حنينهم وكفى، هو ينقلهم افتراضيّاً عند ناسهم، عاد خنس لداخله، يتوجّب عليه أنْ لا يلجأ للمجلة، يقرأ نصف عمود من حديث الشهر لرئيس تحرير، لا يجد ما يحفّزه يواصل، يتصفّح، يصادف تحقيق العدد، يمرر عينيه عليه سريعاً، يواصل، يواجه بالنص المعني. يُطبق المجلة، يضعها جانبا، الساعة جاوزت منتصف الليل، لا بأس من خروجه إلى أرضه الخلفية، لا أحدٍ يتواجد في الأرض الخلفية للبيت الثاني سوى فهد. رفع يده. مرحباً. رأى بضع طيور صغيرة تأوي على أسلاك السور. لعلّك قرأت مجلّات خاصّة بالطيور. أبدى فهد دهشته. أين هي المجلّات. ألا توجد مجلّات في بلدكم. توجد لكنّها على حدّ علمي لا تُعنى بشؤون الطيور. أيمن يتحرّك نحو هدفه. ما الذي تُعنى به مجلّاتكم. عقد فهد حاجبيه. من حقّ ضابطهم أن يسأل، ذلك جزء من عمله، لكنّ صيغة الاستنطاق المراوغة بعد منتصف ليلٍ. قال. تُعنى بكل شيء، شؤون محلية أو. قاطعه أيمن. ما اسم أهم مجلة عندكم. تردد فهد ثانيتين. العربي. استدرك. لكنّي لم أعتد أقرأها. لامس أساه نبرة صوته. أيام كنتُ. ترك جملته ناقصة. إنْ شئتَ معلومات مفصّلة عليك بجعفر.

أعرفه جيّداً عبر مراسلات متبادلة بين مجلّة العربي وبينه. أضاف. عراقي عصامي. لا مكان لأنْ استغرب تعبيراً صادراً عن إبراهيم

فرغلي، أسمعه. اكتسب المواطنيّة الاستراليّة بعد سنوات من هجرته لهناك. كنّا جالسين في مكتبي بمواجهة المقبرة، يده باقية تحتفظ بالرسالة القادمة من استراليا. أنْ يكافح أحدهم لمواصلة إصدار مجلة شهريّة ورقيّة لا يقلّ عدد صفحاتها عن المئة في مطلع الألفيّة الثالثة. لم أجد كلمات أعقّب بها حول ما لا أعرف. يطبع مجلته باللغة العربيّة في بلد يعتمد اللغة الانجليزيّة، يتدبّر تمويله من إعلانين وأحياناً ثلاثة إضافة لاشتراكات أبناء الجاليات العربيّة. فاجأه ردّي المستنكر كأنّك تقترح تولينا حملة تبرعات. جاراني ضاحكاً. فكرة جديرة بالدراسة. تجاوزت ردّه، صارحته. أردت معرفة ما إذا كان يحقّ لي إبداء الرأي بخصوص طلب صاحبك العصامي. لم لا. ليس من اللياقة أنْ أبدي موافقة إعادة نشر قبل أخذ موافقتكم. كلام سليم. سكتَ وهلة. من حيث المبدأ سبق لخالد عادل إعادة نشر مواضيع مأخوذة عن مجلة العربي. ابتسم راضياً، واصل. سياستنا تقضي بتشجيع تعميم الفائدة مع اشتراط ذكر المصدر. أفهم من كلامك أنّكم وحدكم مُخولون توافقون أو ترفضون. تقريباً. كيف لي أستوعب ما يريد قوله. إعادة نشر الأعمال الإبداعية تقتضي مخاطبة أصحابها لمعرفة رأيهم إيجاباً أو سلباً. فيما يخصّني لا اعتراض لدي. صدمني ردّه السريع. أجبه على رسالته. يكفيه ردّكم. أبدى عتبه. نوافق له ينشر ما لم يطلبه منّا حتّى الآن. لم أخف امتعاضي. أكتب له، فإنْ وصلته رسالتي كتب لكم، ثمّ يحين دوركم تكتبون له. ضحك. اتصالاتنا به تتم بالبريد الإلكتروني. إذن، لا حاجة لرسالة بريدية، يكفي بضع كلمات بالايميل. السيّد المحترم خالد عادل تسلمت رسالتكم عن طريق مجلة العربي، مدعاة اعتزاز لي ينال نصّي فرصة إعادة نشره في

مجلّتكم، لكم الامتنان. توقّعت استلام الرد بعد ساعة، بعد يوم ، بعد أسبوع، نفضت يدي من فكرة يُعاد نشري في استراليا، شاركني فرغلي حيرتي. خالد عادل عادةً ما يكون منتظماً سريع الرد إلّا إذا حدث طارئ. العراقيون، حيث كانوا، عرضة دائمة لكل طارئ. الكتابة والصدى لدى الآخر، أمر مشجّع على تعاطي فعل الكتابة عندما تجد من يهتم يقرأ ثمّ يتفاعل يكتب إليك أو عنك. النص الذي أخذته من حيثيّات كابوس صادفك ذات إغفاءة غير قابل لأن يتوالد على نفسه، تكتب ما يشابهه. الطموح يتمثّل كتابة جديدة، تبدأها بارتياد داخلك بمناخاته المعتمة عساك تجد متنفّساً لأساك أو يتخلّى عنك تشاؤمك وقتيّاً، ابحث تجد عوضاً نصّاً تجد ذاتك عبره، ترتاد مجاهلك القريبة والنائية لساعات تتواصل أياماً ولا تجد سوى موضوعة واحدة تأخذ عليك وجدانك، تتأمّلها يهفو لها خافقك تشفّ كلّك كما ضباب فجر بحري، تخاطبك صيغة مناشدة يحدوها أمل، لو أكتبني، لو أوفّق أتماهى بشخصيّة أخي بدر، أكون هو، لكي أتقمّصني بصفتي أنا. أكرّس إرادتي. أناشدني تعال نكتب. مساء يوم خميس خامس عشر نوفمبر1990، الاحتلال بزخم اندفاعه وقناعة قيادته انها قادرة تلوي عنق العالم فيرفع يديه مسلماً لواقع حال مفاده الكويت محافظة عراقية، للعراق حقّه التاريخي الذي سلبه إيّاه الاستعمار البريطاني البغيض، لكنّه بعزم الأحرار النشامى استعاد ما هو له أصلاً وليخسأ الخاسئون، أنا ورفاق من مقاومة كويتيّة نستعد ننفذ عملية نوعية نوقع عدداً من عساكر العدو. دراسة الخطة مرّة أخيرة، تفقّد السلاح والذخيرة، لحظة شروع مغادرة يستمهلني أخي الذي يكبرني، لأنّه كذلك يمتلك صلاحيّة محاسبتي. يا بدر.

يخاطبني، يأخذني من جانباً. آن أنْ تكف تشارك عمليات مقاومةٍ ميدانية. لماذا. أنت رجلٍ قانون ولست حامل سلاح. أجاريه محاولاً مراضاته. أعدك أني لن أشارك بعمليات مقاومة ميدانيّة. خفّت حدّة انفعاله. استطردتُ مشترطاً. بعد عمليتنا هذه. بررتُ. سبق اتخاذ قرارٍ تنفيذها. حرّك رأسه دلالة انصياع، أطلق زفرة تسليم. عُد إليّنا سالماً. أجيبه بحيويّة. حاضر. ولا يصدق الوعد.

لا أدري إنْ كنتم لاحظتم أم لا تساءل غالب، بادره جعفر. ما الذي لاحظناه. الرقّة المفاجئة التي شابت سلوك عريف ريسان. وافقه فهد. عاملنا كأننا أصدقاء قدامى. انبرى بدر. إلّا فيما يخصّني، كان يُحدّق في وجهي مُتفحّصاً كأنّه يراني أوّل مرّة. قال جعفر احتمال بدء إبرام صفقات إطلاق سراح مجموعات أسرى. تبادل الباقون نظرات مُفعمة بأمل تغالبه حيرة، من يملك جرأة أنْ يصدّق، أو يجزمٍ، قال غالب موجّهاً تساؤلاً متشككاً لجعفر. إنْ كان استنتاجك واقعياً لماذا أطال عريف ريسان تحديقه لوجه بدر. استغلقتْ إجابة جعفر عليه برهة، اجتهد بعدها. لعلّ اسم بدر هو الوحيد الذي علق في ذاكرته. هبط صوته لدى مواصلته. أو هو الوحيد الذي يُطلَق سراحه من بيننا. سادت لحظات صمت أنهاها غالب مُداريا شكه. أضغاث احلام. عقّب بدر واجداً تبريراً أخفّ وطأة. يتمتع جعفر بخيال صحفي. نبس فهد أشبه بمن تذكر فجأة. على طاري الصحافة، دار بيني وبين ملازم أيمن ما بعد منتصف ليلة البارحة حديث عن المجلات الكويتيّة. الدهشة تأخذ بوجوه الثلاثة. تساءل جعفر. لماذا

مجلاتٍ كويتيّة. لم يجبه فهد سؤاله، نقّل نظراته على وجوه الثلاثة هادفاً يشركهم ما يدور في رأسه. احتمال وجود علاقة ارتباط بين موضوعٍ المجلات البارحة وسلوك عريف ريسان اليوم. انبرى جعفر متحمساً. ربّما هناك تحقيق صحفي عن الأسرى وفيه صورة بدر. نبّه غالب. لا يجب أنْ نسبق بالاستنتاج قبل سماعنا ما دار بين فهد وملازم أيمن بالتفصيل. التوق والحماس وحبس الأنفاس. بدأ فهد حديثه. سألني إنْ كنتُ أقرأ مجلات متخصصة بالطيور. تبادل الثلاثة نظرات استنكار. تابع فهد. سألني إنْ كانت لدينا مجلّات في الكويت، أجبته كثيرة، أراد معرفة ما الذي تُعنى بهٍ مجلاتنا، بكل شيء، أهم مجلّة عندنا، العربي. سكت فهد منتظراً تعقيباً، قال بدر. أسئلة ملازم أيمن لا تشبه أسلوب استجواب. اجتهد جعفر. لعلّه فضول معرفة. استطرد فهد. قُلت له إذا أردت معلومات وافيةً عن مجلات كويتيّة عليك بجعفر. جفل جعفر مُتقياً أذى متوقّعاً. لماذا أنا. سادت لحظات صمت، أنهاها غالب مُضمّناً حيرة. شيءٍ ما غامض بالنسبة لنا. تلاه بدر. يصعب على الواحد يجد سبباً لسؤال عن اسم أهم مجلّة كويتيّة. ختم غالب. يجدر بنا لا نتعجّل استنتاجاتنا.

أشار ريسان لمجلّة العربي. لا أظنّهم اطّلعوا عليها. لا من بين ما قاله خالد عن كاتب القصّة الكويتي أنّه تقدّمي منحاز لقضايا الشعب العراقي. تساءل أيمن إنْ كان خالد يعرف ناساً كويتيين. ابتسم ريسان مُطمئناً. لا يعرف بوجود أسرى كويتيين. هل هناك

علاقة بين خالد والكاتب الكويتي. لا علم لي. حرارة الصيف حاضرة نهاراً رغم انقضاء نصف أوّل لشهر أيلول، هذه الحرارة سرعان ما تنحسر مع موعد غروب الشمس. حشد الطيور يحتفي بالمناسبة، تطلّع أيمن عبر نافذة غرفة المعيشة رأى الأسرى الأربعة يتسكّعون وراء سور الأسلاك الشائكة، جرت عادتهم يباشر فهد يرش الجوار بالماء، يحلّ الظلام تدريجياً، يخرج أحدهم ثمّ أحدهم حتى يكتمل عددهم، ما الذي حدا بهم يتواجدون كلّهم مبكرين، راقبهم من مكانه برهة، شيء من القلق يتبدّى على وجوههم، يعرفهم أمورهم العامّة مستتبة، خلص لاستنتاجه، شأنهم بينهم، آثر يشغل وقته بقراءة كتاب، بعد ساعة وضع الكتاب جانبا، ما الذي يريد قوله هذا الكويتي تحديداً، مدّ يده لمجلّة العربي، انحيازه للإنسان العراقي المغلوب على أمره محسوس عبر نمط تعاطف اتخذ منحى فانتازيا، سبق لأيمن لمس شيئاً مثل هذا في قصص محمد خضيّر، الأمر مع الكويتي تعقيد مُضاعف، ما جدوى رسالة مضمّنة إن لم تبلغ هدفها، هيا قالت، قرأتها مرتين ولم، جنى تقول مُعجبة بها، الإعجاب لا يعني الاستيعاب، تبقى رغبة أيمن يستشف رأي الصحفي القادم من استراليا. الساعة جاوزت منتصف الليل، الأربعة باقون يتسكعون وراء السور، من غير العدل يبقى أيمن على لامبالاته بهم، لديهم ما يحيّرهم. مرحبا. ردّوا عليه مجتمعين باحتفاء باد، اقترب للسور الفاصل، اقترب فهد. يقلقنا سؤال. أصغى إليه أيمن. هل ستنقلوننا لمكان ثان. السؤال بالمفاجأة. من أوحى لكم. لم يتأخّر فهد تساؤله. أظنّكم تكتفون بنقل بدر. لم يخف أيمن دهشته، كيف لهم، نفى صادقاً. أبداً. اقترب جعفر. لا أظنّك ستخبرنا لو

صدر قرار بنقلنا من هنا. لن أخبركم. أجاب أيمن صادقاً أيضاً، رأى انطباع الخيبة يرتسم على وجهي فهد وجعفر، تابع. إنّما لو صدر قرار وسألتموني سأجيب بلا أعرف. انفرجت أسارير فهد وجعفر، اقترب بدر. قال بنبرة صوت تراوح بين الإخبار والتساؤل. شيء ما بخصوصنا. تطلّع فيه أيمن كمن يُدقق وجه مُحدّثه، بذل جهده لمداراة فضوله. ما هو. أجاب بدر بنبرة الصوت ذاتها. لعلّه أمر غير ضار. انفرج فم أيمن بابتسامة عريضة. لا أعرف. نبس غالب لدى اقترابه. صار معلوم. بعد يومين توفّرت الفرصة لأيمن كي يتبادل مع خالد حديثاً عساه يشبع فضوله. عن المجلّة الكويتيّة وكاتب الموضوع المعقّد. ضحك خالد. معك حق. لديك علاقة بكاتبها. استنتاج بصيغة سؤال. قال خالد. لي علاقة بمجلّة العربي. لا يملك أيمن إلا الإصغاء. قبل شهرين نشرت العربي نصّاً يلامس معاناة عامّة العراقيين من ظلم مترتّب عن حصار دولي، قرر إعادة نشره بمجلّته بما يلزمنه أدبيّاً باستئذان الكاتب. وهو يسمع لا تني الصورة المستنسخة عن وجه بدر في المجلة تحفز فضول أيمن. كيف تستأذنه وأنت لا تعرفه. كتبت له رسالة شخصيّة على عنوان المجلّة. يا ريسان. نعم. لو شئت إيصال عدد مجلتهم لهم دون أن تقع في دائرة المحظور. التمعت عينا ريسان باستثارته. اترك الأمر لي.

أبدأ يوم عملي أتفقّد بريدي الإلكتروني، أُفاجأ برسالة العراقي الاسترالي خالد عادل. أسعده ردّي بالموافقة، يعدني يرسل لي عدداً من مجلّته بعد نشر نصّي، يعتذر عن تأخّره الرد، كان طوال

الأسبوعين الماضيين في رحلة لزيارة أخيه داخل العراق، بعد انقطاع دام اثنتي عشرة سنة، ولأنّه غير مسموح بالإنترنت داخل الأراضي العراقية لم تتوفر له فرصة تصفّح بريده، يتمنّى يكون نصّي فاتحة تعاون بيني وبين مجلّتهم. قال عنه فرغلي هاجر لهناك في ستينات القرن الماضي، لعلّه لا يمتّ لمعارضة النظام العراقي القائم بصلة، أعود لاستبعاد الاحتمال، لو كان من مناصري النظام إيّاه لما اهتمّ بإعادة نشر نصّي، ما يجب توارده للذهن كان داخل العراق، قضى أسبوعين، لو سألته انطباعه العام. الصديق خالد، تحيّة طيّبة. الرسالة مقتضبة، وما يُبعث بالبريد الإلكتروني لا يُستعاد. أصرفُ ذهني باتجاه بدر، مدى إمكانيّة التقمّص استعانة بالمخيّلة، كأنْ أباشر كتابة نص جديد. أتذكّر ما رواه رفاقه الذين شاركوه عمليّته الأخيرة، إصراره يتولّى تأمين انسحابهم من الموقع، حوصر بعد نفاد الذخيرة، أو تلقّى إصابة لا قاتلة، في ساقه، مثلاً، بما أعجزه يهرب، الموت مُستبعد لأنّ أحد الأسرى العائدين بعد التحرير أفاد برؤيته لبدر حيّاً سليماً مع رفاق آخرين له، كانوا يلقون مُعاملة خاصّة، ما هو خاص هنا يعني عزلهم بصفتهم صيداً ثميناً أو خطيراً، تستبقي صفة خطير وتستبعد فكرة ثمين. حرب الخليج الثانية، أوزارها التي وُضعت بهزيمة طرف، إنكاره الاحتفاظ بأسرى كويتيين بعد تسليمه أسرى عسكريين، افتراض قابل تتعامل معه نصّاً يقضي بوجود بدر في سجن بو غريب، وقوعه غرب بغداد ضمن المثلث السنّي الذي لم تشمله انتفاضة مارس 1991، قبلها كان في أحد سجون البصرة، يوم 17 يناير 1991، نشوب حرب جويّة لم يسبق لها مثيل، تحييد دفاعات جويّة عراقيّة، تدمير منصات

إطلاق صواريخ، اتسعت خارطة الأهداف المنتقاة شملت مراكز استراتيجيّة، حشوداً عسكرية، آليات تُرصد متحرّكة على الطرق السريعة، جسوراً ومراكز تموين، البنيّة التحتيّة بصفتها مصدر بقاء نظام مُحدد، وسط الفوضى الناشئة والاضطراب المترتّب عن زحمة السماء بطائرات عدوّة وقرب محافظة البصرة من ساحة حرب بريّة قادمة استلزم نقل ثمانية وأربعين أسيراً يمثّلون صيداً خطيراً إلى موقع آمن فيِ العمق، جرى تحديد الساعة الثامنة ليلاً من يوم 23 يناير، تفاديا لفوضى محتملة قُيّد الأسرى بسلاسل، وزّعوا على شاحنتي نقل مدنيتين، عُززت الحراسة بأربع سيّارات جيب بيضاء، اثنتان في المقدّمة ومثلهما في المؤخّرة. الطريق الدوليّة كانت مقفرة، لولا مرور آليات عسكريّة بين الحين والآخر، نشداناً لأمان أكبر حرص قائدو السيارات الست على عدم الاستعانة بالأنوار الكاشفة، اكتفوا بالإضاءة الفضيّة الباهتة لليل الصحراء، قبل بلوغهم مركز محافظة ميسان شاهدوا رتل شاحنات عسكرية تشتت بها المكان بعدما تعرّضت لغارةٍ مدمّرة، الدخان يتصاعد منها، هناك بقايا ألسنة لهب لم تخمد تماما، تشممت أنوف الركب رائحة شواء، لا وقت للتريّث، تابعوا سيرهم الحثيث نحو الشمال. حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل تجاوز الركب موقع مقام علي الشرقي، عندما سمعوا دوي محرّك طائرة في العمق من السماء، قال ضابط أمن يتولّى قيادة سيّارة جيب فيِ المقدّمة لزميل يجلس بجانبه. طائرة استطلاعٍ. قال الآخر مطمئناً. ما دمنا لا نستعين بالأنوار. قاطعه الأوّل مشيراً إلى أعلى. هم يستعينون بالليزر. أضاف. يتوجّب علينا أخذ الحيطة. كيف. نترك السيارات ونختفي وسط الزراعات، نتأكّد من زوال

الخطر، وقفت سيارات الجيب إلى جانب الطريق وكذلك الشاحنتان المحمّلتان بالأسرى، صدرت أوامر إخلاء الآليات والاختباء وسط الزراعات، التنفيذ الفوري، علقت إحدى سلاسل الأسرى بالمقعد الأمامي القريب من مقعد سائق الشاحنة الخلفية حين ضجّ الأفق الجنوبي للسماء بهدير سرب طائرات آخذة تقترب، تعالتْ صيحات الأسرى، بادر سائق الشاحنة اندفع بها وسط الزراعات، حوّمت الطائرات، دوي محرّكاتها يصمّ الآذان، مرّت وهلة قصيرة توالى بعدها قصف السيارات المتوقّفة على جانبي الطريق. دُمّرت الأربع سيّارات جيب والشاحنة الأمامية، تصاعدت منها ألسنة النيران، لا حضور لرائحة شواء بشري، وحدها الشاحنة الخلفيّة التي اختفت وسط الزراعات لم ينلها القصف، أشاد أحد الضابطين ماري الذكر بحكمة زميله. اضطر الجميع تكدّسوا داخل الشاحنة المتبقيّة، ارتأى الضابط الأوّل متابعتهم سيرهم سالكين طريقاً ضيّقة قديمة تربط عشرات القرى الكائنة على الضفة الغربية لنهر دجلة. قال الضابط الثاني. لن نصل قبل منتصف ليلة غد. ردّ الأوّل. نصل أحياء.

طوال الأشهر السبعة لسجنهم أو ما يمكن تسميته إقامتهم الجبريّة في البيت محدود المساحة اعتادوا يتسلمون وعاء الجراية اليوميّة من عريف ريسان معلناً وصوله. الله يساعدهم. تحيّته التي لا يتنازل عنها إلّا إذا جاء رفقة ملازمٍ أيمن، اليوم جاءهم جندي فرد، سلّمهم الجراية، وانصرف عجلاً، لم تواتِ أيّهم فرصة يسأل. أين عريف ريسان. وهم يضعون الوعاء فوق الطَاولة يبدؤون يفرغون

محتوياته فاجأهم وجود كيس ورقي يحوي شيئاً ما جرى وضعه تحت وعاء الطعام. ما هذا. رددها غالب مندهشاً. رفع الكيس، تبادل مع رفاقه نظرات استشارة سريعة، بادر فضّه. من أين. شاهد مجلّة العربي، لم يتمالك نفسه، لوّح بها. انظروا. لا وقت لتناول طعام، الوقت كلّه للعربي. لهذا السبب تغيّب عريف ريسان. رددها فهد مستنتجاً، أضاف. لعلّ ملازم أيمن أراد له لا يعرف. قاطعه جعفر عن قناعة. كلاهما يعرف. تساءل بدر. لماذا مجلّة العربي. تابع. لماذا الآن. مدّ جعفر يده لغالب. إذا سمحت. سلّمه الأخير المجلة، تطلّع جعفر للغلاف. صادرة قبل شهرين. تطلّع ثانية. يوجد ملف للقصة القصيرة في الكويت. أخذ يتصفّح، توقّف فجأة. لا أصدّق. هتفها مبهوراً، إصبعه تشير لصورة أحدهم بشعر أبيض. يا بدر. نعم. دفع له جعفر بالمجلة مفتوحة تحت عينيه، قال مُحتفياً. أخوك. شُلّ لسان بدر للوهلة الأولى، حدّق لصورة أخيه. كيف. لمّا تمالك مشاعره بعد لأي، لمّا انتهى من تجفيف عينيه، لمّا أنهى مُعانقة الثلاثة الملتفين حوله، همس بدر لنفسه. أوّلاً غالب، ثمّ جعفر، أعقبهما فهد، أخيراً بلغ دور العسكر الذين يتولون شؤوننا، ها هو أخي ينهض بدور عامل ارتباط عصي على الفهم. المفاجأة ووهلة زمن تكفي لاستيعابها، قال بدر مُدارياً شعوره بالاستثارة. نأكل ثمّ نطلع على محتوى المجلّة. وقع اختيارهم على جعفر. نقرأ بدءاً من الافتتاحيّة أم. قاطعه غالب. نقرأ القصّة. إحدى عشرة سنة في الغياب عن الوطن والأهل، أنت لا تعرف لا تدري، عدا ما كان يصلك من خلال وافدين جُدد للسجن أيام كانوا متواجدين وسط سجون مزدحمة بناسٍ عكس حال منفاهم هذا، هنا، مُذ حلوا، لا شيء بالمطلق، لتحط بينهم،

بما لا يُصدّق، مجلّة العربي، حاوية نصّاً لأخي أحدهم، أمر أشبه بحضور بديل، الكويت وظلال الأهل، عندما شرع جعفر يقرأ أرهفوا مشاعرهم. ما الذي يريد قوله. كف جعفر يقرأ لدى بلوغه منتصف النص ليتطلّع في وجه بدر. الزمن، كما يبدو، غيّر من طباع أخيك. لم يفهم بدر قصده، تابع. سبق قلت لك ما معناه أنّه مغرور، في هذا النص يتجاوز أخوك نفسه في الموقف من قضية إنسانيّة أو في الجهد الإبداعي. انبرى غالب. ما سمعته حتّى الآن يمثّل لوحة سريالية مترامية. أبدى فهد احتجاجه. لم نسمع بقيّة القصّة المعقّدة. وافقه جعفر. معك حق. واصل يقرأ. خلال الإصغاء طلب فهد أكثر من مرّة إعادة قراءة بعض المقاطع، التفت لبدر قائلاً. كتابته هذه المرّة غير مفهومة، عكس خارج الحظيرة. أنهى جعفر قراءته. لهذا السبب أوصلوا المجلّة إلينا. قال غالب، استطرد. لأنّها تنتصر لقضيّة الإنسان العراقي تحت ظرف الحصار الدولي. لم يُدارِ فهد امتعاضاً أخذ بوجهه بعد استيعابه هدف النص. كان حريّاً به يكتب عن قضيّتنا نحن الأسرى المنسيين من أهلنا وحكومتنا. حاججه غالب. ما أدراك أنّه لم يفعل. نبس بدر. أنا لا استغرب ما كتبه أخي. ابتسم بمحبّة موجّهة لغائب. اعتدت نزواته التي لا تطرأ على البال أيام كنت هناك. أضاف. الذي يدعو للاستغراب موافقة مسؤولينا على نشر الموضوع في مجلّة العربي رغم كونها مطبوعة حكومية. أبدى جعفر وجهة نظر تراوح بين الجد والشك. لعلّ السبب يعود لهامش الديموقراطيّة. أنهى غالب جدل الاثنين. سعيد لأنّ مجلة العربي باقية تصدر، الكويت بخير. نقّل عينيه بين وجوه رفاقه. اجتهاد شخصي، نشر موضوع منحاز لقضية عراقية يؤكّد بدء تحسن

العلاقات الكويتيّة العراقيّة. لم يتأخّر فهد تعقيبه. بالمشمش. حدجه غالب مستنكراً. لماذا كلّ هذا التشاؤم. لأننا هنا، ضحك بدر لإجابة فهد، التفت لجعفر. نسمع المزيد. رسخ في وجدانهم أنّ الذي جاءهم بالمجلّة سيعود في وقت لاحق لاستعادتها، الظرف والرسالة المراد تبليغها، لعلّ أحدهم، ملازم أيمن أو مسؤول من طرفهم، شاء يوصل رسالة مفادها كاتب منكم أنّبه ضميره تجاه دور لئيم تلعبه الكويت بتكريس الحصار الدولي. ننتهي من قراءتها قبل استعادتهم لها.

مقعده في غرفة المعيشة أمام نافذة تنكشف على الأرض الخلفيّة، يشغله هاجسه، لا أحد من الأسرى وراء سور التشوينة، مجاميع طيورهم أنهت احتفاءها المعتاد بغياب الشمس، وهم يواصلون ملازمة الداخل، لا يظنهم انشغلوا بمجلّتهم لدرجة الانحباس، ساعته قاربت الثامنة مساءً، يشاغل قلقه بقراءة كتاب، رتّم الوقت ثقيل، ها هو فهد أخيراً، يودّ أيمن يعرف ردّ فعلهم إزاء تسلمهم مجلّتهم. مرحباً. لا تعرف كمّ السعادة التي منحتها لنا. لامتنان الآخر لما يكون صادقاً صداه الفوري مثلاً انتشاءً داخليّاً يؤكد إنسانيّة الواحد عنده، لم يشأ يبدي استجابة دالّة، ودّ يسأل أين رفاقك. هل فهم فهد سؤاله من خلال حركة عينيه، قال. هم يتناوبون قراءة المجلّة. احتفظ أيمن بسؤاله لماذا المناوبة، تابع فهد. الانتهاء من قراءتها قبل حلول موعد استعادتها. لا أحد يزمع الاستعادة. تهلل وجه فهد، استدار مبتعداً، بعد قليل ظهروا جميعهم، تدافعت موجات فرح أيمن في صدره وهو يرى مشاعر العرفان تطلّ من عيونهم. لو قال لنفسه ليست سوى

مجلّة، لكنّها في حقيقتها أكبر من ذلك. استقرّت عيناه على وجه بدر. موقف نبيل من جانب أخيك. ردّ بدر. موقفه معارضٍ. حضرت ذهن أيمن مقولة مارلين. لا تكون نبيلاً إلّا إذا كنت معارضا. لهج بدر غير مُصدّق ما سمعه. كأنّك أخي. أخوك تقدّمي. شارك غالب. ماركسي إلى حدّ ما. قال فهد. لم أحبّ القصّة. صحح له جعفر. لم تفهمها. أحببت أعماله التلفزيونية. التفت أيمن لبدر. أخوك يكتب للتلفزيون. عندما يحتاج مالا لم يخف أيمن استغرابه. يخالكم الواحد أغنياء كلّكم. جميعهم جاوزوا الأربعين، في حين مازال أيمن ضمن عشرينياته، ألّا أنّ أمرا ما يشبه حسّ الصحبة حقق مناخ ألفة لم يعرفه أيمن إلّا في بيت ريسان، تحرّكت أضواء برج المراقبة، صادفت أعلى الجدار المقابل، حال أشبه بحضور رقابي مهيمن.

بخصوص أوضاع العراق من الداخل، للعلم، ما قبل زيارتي هذه لم تتوفّر لي فرصة السفر لهناك منذ عام 1989 جرّاء كوني مواطناً استراليّا، واستراليا من بين دول شاركت بحرب خليج ثانية، فارق زمن كبير، عرف العالم خلاله ثورة اتصالات رافقتها ثورة معلومات، وطني الأوّل، العراق، تراجع قرنين وراء، ليس بسبب الحصار الدولي المعروف وحده، لكنّها محاصرة النظام لشعبه، خشية قيام انتفاضة تؤدّي لتقويضه، الناس تعيش حالة قنوط مترتّب عن خوف، حالة خنوع لا سابق لها، في نصّك المعني لامستَ عصب المعاناة، الأجواء العامّة كافكويّة بما لا يُقاس. أنهي قراءة الرسالة الإلكترونيّة، رغم الجهد الذي بذله خالد عادل بمحاولة رصد وضع العراق من داخل

إلّا أنّه لم يأت بجديد يُشبع فضولي، أكتب له ردّاً مُقتضباً أشكر له تجشّمه عناء أعود للعمل على نصّ أسرى كويتيين تولّى مسؤولو نظام عراقي نقلهم من أحد سجون البصرة باتجاه الشمال. ضحى اليوم التالي وصلوا خان شيخ سعد، توجّه الضابط المسؤول يرافقه أربعة جنودٍ بكامل تسليحهم لمحطّة الحافلات، طلب لقاء المشرف على المحطة. نرافق عدداً من سجناء خطرين، نحتاج ست حافلات صغيرة لغرض بلوغ سجن بو غريب. المشرف هناك يفهم ما معناه في زمن الحرب يحقّ لأولي الأمر مُصادرة وسائط النقل. توزيع الأسرى والجند المرافقين على السيارات المتوفّرة. حتّى لا نثير شهيّة طياري العدو لن نمشي في قافلة، يتوجّب ترك مسافة أمان كافية بين الحافلات. الضابط الذي كان سبب نجاتهم تابع توجيه أوامره، وصلوا سجن بو غريب حوالي الساعة العاشرة ليلاً. عمليّة التسليم والاستلام استغرقت ثلاث ساعات، منحوا لبدر دثاراً وما يشبه وسادة، سمع رجلاً منهم يُصدر أمره. للعنبر 7. صحبه جنديان، كانت الساعة جاوزت الواحدة من ليلة سادس عشرين يناير، إضاءة صفراء باهتة منبعثة عن مصابيح معلّقة أعلى أعمدة شاهقة لا تكاد تنير مواقع الأقدام. لكزه أحد الجنديين في كتفه. اسلك يميناً. سجن بو غريب مُنشأة مترامية قوامها مجموعة عنابر توالدت على نفسها ما بعد انتفاضة 1991 قارب عددها الثلاثين مُحاطة بمساحات أرض فضاء مترامية تعصف بها الريح من جوانبها كافة، لم يخفف حدّتها وجودٍ عدد محدود من أشجار أكاسيا زُرعت بين العنابر. يا بدر أين لك تُحكم أطراف ثيابك حول جسدك الهزيل اتقاء بردهم القارس. ثلث ساعة مشي حثيث وصلوا عنبر7. هنا. وقفوا أمام بوابة حديديّة

سوداء عملاقة، قضوا عشر دقائق بانتظار قدوم العسكريِ المسؤول عن الاستلام، خطا بدر داخلاً، أطبقوا بوابتهم وراءه، تطلّع حوله، الإضاءة الهيّنة من مصابيح ثُبتت على الجدرانِ المتباعدة لا تكاد تبدد العتمة، وقف عنده ريثما استطاعت عيناه تحددان معالم المكان، شاهد عشرات أجساد مرصوفة إلى جانب بعضها بما لا يترك فسحة يفرد فيها دثاره، دقق نظره، رأى فراغاً محدوداً عند الركن الأبعد، حاذر مواقع قدميه وسط زحمة الأجساد، سمع همهمات، حصر اهتمامه ببلوغ ذاك الركن، كما لو أنّه دخل مكب نفايات، هاجمتْ أنفه روائح خليط، لا وقت لمعاناة غثيان أو حساسيّة ربو، حبس أنفاسه برهة، الوقت كفيل بتحقيق الاعتياد، شيء من التعويض يوفّره دفء الهواء المحبوس داخل العنبر، استلقى على قفاه، علقت عيناه بالعوارض الحديديّة للسقف المعدني المترامي. إخضاعه للاستجواب مدى أسبوعين في مُعتقل المشاتل، رُحّلِ بعدها لسجن في محافظة البصرة، قضى شهراً ونصف الشهر، حل ليل السادس عشر يناير، بدء الحرب الجويّة لتنفتح أبواب الأمل على مصاريعها في نفوس الأسرى الكويتيين، الحريّة قاب غد أو بعد غد، لكنّ ظروف نقلهم بما رافقها، وعسى أن لا تلاحقهم طائرات الحلفاء حتّى هنا، يصيخ بأذنيه، السماء العالية ما وراء السقف المعدني لا تُعدم هدير محركات طائرات، لمّا كانوا في سجن البصرة، سارّرهم أحد الجنود. الأخبار تقول أن أعداد طائرات الدول المتحالفة آلاف لا يحصيها العدّ والطلعات القتاليّة المقررة لكلّ أربع وعشرين ساعة آلاف مؤلّفة أيضاً. لاذ الجندي بصمته متأمّلا، التمعت عيناه ببريق أمل، أكمل. بمثل هذا الاندفاع الدولي الكبير لغرض تحرير بلدكم سيكون مصير

نظامنا السقوط المدوي لا محالة. خنس بدر لنفسه وهلة، تذكّر، كان عددنا لمّا غادرنا سجن البصرة ثمانية وأربعين، لماذا انتهيت وحدي. يا بدر وأنا أبذل جُهدي أتقمّص دورك أتخيّل ما صادفك، يحاصرني إحساس حاد غامض بألم داخلي لا يمتّ للمرض البدني بصلة، يصاحبه شعور غائر بالحزن، كلّما بذلت جهدي أتجاوز ذلك بالانغمار كتابة، غافلني خارج وعيي، وجدتني مغموراً به.

تشغلني فكرة أنّهم لم يسلّمونا مجلّة العربي دون قصد مُبيّت. ربّما سبب رؤيتهم صورة أخي. كانا يقفان في المطبخ، الوقت صباح مبكر، شردتْ عينا غالب في البعيد. لو صحّ ما سمعه جعفر حول صفقات إطلاق سراحنا ما الهدف من كل هذا التأخير. دار في بال بدر يقول. ليس هكذا. قال. يجدُر بنا لا نتفاءل زيادة فنصاب باليأس. أمّا أن تتفاءل أو تتشاءم. لاذ بصمته برهة. قبل مجيئنا هنا بشهرين عرفت المعنى الحقيقي للتشاؤم واليأس معاً. حصر ذهنه يتذكّر في الأيام العشرة الأخيرة من شهر ديسمبر سرت إشاعة في العنبر 23 من سجن بو غريب. غصت كلمته الأخيرة بحنجرته، تدخّل بدر. أظنك تعني إشاعة تنظيف السجون. أومأ غالب برأسه. هي ليست إشاعة، هم يختارون أياماً مُحددة كلّ عام يقومون خلالها بعمليات تنظيف سجون. هبطت نبرة صوته بدوره. كنت نزيل عنبر7، وكان عدد النزلاء مائة وعشرة، في الأيام التي ذكرتها تناقص العدد صار تسعين. قال غالب. التنظيف في عنبرنا طبّق النصف، كان عددنا مائة وعشرين صار ستين، همسني أحد رجال أمنهم. محظوظون أنتم

الكويتيون لا تشملكم حملات التنظيف. وقتها سألت نفسي حتّى متى. للتنظيف عند قيادتهم معنى سلب حياة أفراد ميؤوس من صلاحهم، دون حاجة لأحكام صادرة عن جهات قضائيّة مختصّة. هم قدر العراق على حدّ قول نزيل كردي كان جار فراشي قبل أنْ تشمله حملتهم تلك. دخل فهد. سمعت من يتحدّث عن نزيلٍ كردي. ردّ بدر. بدأنا حديثنا عن مجلة العربي. قاطعه فهد مُشاكساً. وانتهيتم بالنزيلٍ الكردي. أنّبه غالب. ليتنا نضحك لمفارقتك. تساءل فهد جاداً. إن كنتُ أثقل عليكم. ترك جملته مفتوحة، همّ بالانصراف، أفاد بدر موضّحاً. انتهى بنا حديثنا لتذكّر العمليات الدوريّة التي يسمّونها تنظيف السجون. وجد فهد سانحته يشارك. في السنة الأخيرة لوجودي في سجن الكوت كان عدد الأكراد المعتقلين معنا من معارضي النظام ثمانين، بعضهم يدعونهم بالأكراد الفيليّة، جاءت مفرزة عسكريّة طلبت منهم الاستعداد للمغادرة، إلى أين، حيث تقضي الأوامر، سألهم عريف المفرزة. تريدون البقاء هنا للأبد، لا، تعالوا إذن. همس لي أحد الجنود بعد أيام، أخذوهم شرقاً غير بعيد عن الحدود مع إيران، وجدوا خندقاً بانتظارهم. سجن الكوت كما يبدو محطة عبور. سكت وهلة. في إحدى المرّات جمعوا زهاء ثلاثين من شيعة الدجيل. سكت وهلة. إنْ شئتم حدّثتكم المزيد. نهره غالب. أنت مختص بكلّ الذي يبعث على التشاؤم واليأس. دخل جعفر بوجه مُرهقٍ. سأله فهد. نوبة قرحة. تباشير نوبة. حاججه فهد. كلمة تباشير تدلّ على التفاؤل. أطلق جعفر ضحكة خافتة بدا كمن أجبر عليها. نُذر قرحة. شارك بدر. نوبة القرحة، مثلما فهمت منك، تهاجمك لسببين، وجبة طعام بالفلفل أو جرّاء

انفعال حاد يؤدّي لزيادة إفرازات الأحماض المعويّة. أو بناءً على المزاج. مزاج من. القرحة ذاتها.

أعود بذهني لما قبل إحدى عشرة سنة، أيام الحرب الجوية، متقمّصاً دور أخي بدر إثر وصوله سجن بو غريب عنبر7 تحديداً. ليلتك الأولى في مكان أسميته مكبّ نفايات، تطبق جفنيك، تحسّ الحرقة داخلهما، أنت لم تنم منذ يومين، الروائح النتنة، بمهاجمتها لأنفك، تمنعك تنام. متى غفوت لا تدري، تدري بيقظة مفزوعة مترتّبة عن صرخات أحدهم. يا حمير. أحد رجال أمنهم يقف وسط فرجة في الباب الحديدي للعنبر، تلمّ شتات وعيك، تحاول إدراك لحظة هاربة، تسألك أين أنا، تتلفّت حولك، عشرات وجوه ضامرة جرّاء سوء التغذية، عيون باهتة النظرات، سحنات تمتّ لأعراق عديدة، بعضهم من الجنوب العراقي ،بعض آخر بحواجب غليظة تحيلهم على انتمائهم الكردي، تعرف مما يدور حولك، أوان توزيع قصعة الإفطار، تتنبّه لتوافد ثلاثة رجال أمن عند فرجة البوابة، أكداس قصعات، أوان معدنيّة صدئة، شيء ما يشبه حساء عدس، خبز كروي الشكل صلب يميل لونه للسواد، تجلس واضعاً قصعتك أمامك، لكي تبقى قادراً تواصل حيّاً يلزمك تأكل، إيمانك بالخلاص القريب يحفزك تقضم خبزك الأسود، طعمه يتحلب ريقك، الجوع سلطان، وهذا الأزيز لأصوات محركات طائرات في أعالي السماء يشدّ من أزرك، يُعزز فيك أملك، تعود تتفحّص الوجوه المحيطة بك من طرف خفي خشية إثارة نقمة من لا تعرف، الملامح الكويتية

لها خصوصيتها، لا تجدها بين الوجوه، ولا تجد أحداً يعيرك اهتماماً، تُنهي تناولك طعامك، تعود تستلقي فوق دثارك، يغافلك خيالك يأخذك إلى الكويت. بدر، صوت زوجتك هدى يتردد في خلفية وعيك، يهفو القلب، يتسارع وجيبه، تعال، من يطلب ماذا. تُطبق جفنيك، لعل ذهنك يوفّق يبذل جهده يستحضر صورتها حيّة نابضة بها، أين أنت، أنا هنا، الأولاد، لا تشغل بالك بغيري، تحسّك تمشي عبر حلم يقَظة، تحسّ بروائح ما سميّته مكب النفايات تنفضّ عن أنفك مُفسحة مكانها لك تتنسّم عطر هدى الساكن في منحنى رقبتها، بدر، تخنس عند عتبة ذكراك، ما أدراك، أنت لا تجزم بالكيفية التي ستكون عليها حربهم الهادفة لتحرير الكويت، لكنّك شاهدت طرفاً عابراً من آثارها، رتل سيارات عسكرية ورائحة شواء، ثمّ غارة استهدفتكم لولا فطنة أحدهم، إنْ كانت البداية بهذه القوة يجب أن تكون النهاية بالمتناول القريب. الوقت الذي استغرقه حلم اليقظة، سمع لغطاً آخذاً يعلو سرعان ما انحسر، فتح جفنيه، لا أحد في الجوار، ليس سوى دثر مطويّة، جميع النزلاء غادروا العنبر، حيث الأرض الفضاء أمام البوابة المفتوحة، طوى، بدوره، دثاره، خطا بالاتجاه، بدأ أنفه يتشمم هواء غيرٍ متخمّر وقف جوار البوابة، رأى عشرات المساجين، مئاتهم، يتسكعون في أرض ترابية واسعة بدتْ وكأنها تتوسط عنابر ستّة تنفتح بواباتها العملاقة عليها، رأى الأغصان العليا لأشجار أكاسيا وجدت لها مكاناً ما بين صفّ العنابر، الجانب الغربي الأبعد للسجن ينتهي بسياج أسلاك شائكة يليه سياج ثان، هناك برج مراقبة مزوّد بمدفع رشاش، تطلع لبرج ثان تأكّد من وجود مدفع بماسورة أكبر، لابُدّ أن يكون مضاداً للطائرات، فكّر، يُفترض بها

منشأة سجن وليست قاعدة عسكريّة، يفترض بها لا تطلق نيرانها على طائرات عابرة، وبعكسه أنت تُعرّض موقعك لدمار محتّم، ما وراء الأسوار الشائكة تراءت له مساحات من أراضٍ زراعية خالية من البشر وصولاً لامتداد خط الأفق حيث لقاء الأخضر الزراعي بالأزرق الباهت لسماء لامعة بدتٍ كأنّها صلفة لسبب غامض، لا يجزم كم طال به وقوفه، أحسّ تعباً في ساقه، نقل ثقل جسمه إلى الساق الأخرى، بودّه يمشي ولو خطوات، بيد أنّ زحمة المساجين، لو مشى احتكتْ كتفاه بأكتاف غيره، هو ليس مؤهلاً يتلامس بعد، يعود يدقق الوجوه من طرف خفي، إجمالي عددهم، بصفتهم أسرى كويتيين، ثمانية وأربعين، بدر يتذكرٍ ملامح عديدين منهم، يحفظ أسماء بعضهم، لماذا لا يرى واحداً من وجوه مألوفة له. السلام عليكم. قامة ضخمة عملاقة تسدّ عليه مجال الرؤية.

بدأ غالب حديثه. يُفترض بنا نعيد النظر بنمط حياتنا داخل هذا البيت. حدّق فيه فهد. من يملك إمكانيّة إعادة نظر وهو مُصادر بالأساس. تجاوز غالب كلماتٍ فهد، استطرد بحسّ الشكوى. مُنذ ما يقاربٍ ثمانية شهور تقريباً ونحن نعاني بطالة بليدة. وافقه جعفر متسائلاً. ما الذي تقترحه للتعامل مع هذه البلادة. لم أفكّر بشيء معيّن. تطلّع ناحية فهد هادفاً، قال الأخير. فيما يخصّني لا أعاني أيٍّ نمط بطالة. حاججه غالب. شاركنا إبداء الرأي إذن. غمغم فهد حانقا. طيّب. كانوا يلتفون حول طاولتهم في غرفة المعيشة، الوقت ضحى من أوائل شهر أكتوبر، حيث بدء تغيّر المناخ، تحوّله من صيفيّ حار

جاف لخريفي معتدل، لولا ارتفاع غير مبرر لدرجة الحرارة خلال ساعات النهار. رتابة الزمن وهذا الشعور بالمراوحة ما بين أمل يُضمر بارقة خلاص ذات طبيعة مستعصية على التفسير، وقنوط لحالة ركود تسقم الروح، لا أحد يستطيع يضع باعتباره متى يحلّ أوان حدوث تغيير عساه لا يكون عاصفا جدّاً. قدّم بدر اقتراحه. نستطيع نخصص ساعة يومياً لممارسة تمارين رياضية علنا نستعيد بعض لياقة بدنية. أثنى غالب. اقتراح معقول. سكت برهة. لكنه لن يشغل سوى حيِّز زمن بسيط. قال فهد. نخصص ساعة أخرى للقراءة. نبرة صوته لا تُميِّز جديّته من سخريّته، توجّهت له عيون الثلاثة بنظرات تأنيب. تابع واجداً تبريراً. نتناوب قراءة مجلّة العربي. تساءله غالب ساخطاً. حتى متى. قال جعفر. ما دمنا تحدّثنا عن الرياضة واللياقة، أظننا نحتاج رياضة ذهنية ذات منحى تفاعلي تكتسب أهميتها من طابعها الشفاهي. انطباع بالدهشة أخذ بوجوه الثلاثة. نوّه فهد بانزعاجه. أنت تقول ألغازاً. تجاوز جعفر احتجاج فهد. نختار ساعة معيّنة من كلّ يوم نخصصها لجلسة رباعية تكون جلستنا معقودة على واحد منّا. ماذا تعني. أعني ينفرد هذا الواحد بالحديث عن نفسه، حياته، ذكرياته، خبرات صادفته، ما قبل حدث الاحتلال أو بعد وقوعه في الأسر، همومه، مشاعره. كيف يفكّر تجاه رفاقه هنا، ملاحظاته عليهم، له كلّ الحق يقول ما يشاء بنسبة المصداقيّة التي يراها مناسبة، وللآخرين حق السؤال وإبداء الرأي. ما الهدف من هذا الإفضاء المصحوب باستجواب. لا أحد يستطيع تحديد المدّة التي نبقاها هنا. خفتت نبرة صوت جعفر لدى استطراده. ولا ندري ما الذي يمكن أنْ يحدث لأيّ منّا، كأنْ يكون أحدنا مُصاباً بقرحة

الاثني عشر. تحمّس بدر. فكرة مهمّة بإمكاننا تجربتها. نوزّع أيامنا بيننا، لكي نمنح من سيحلّ عليه الدور فرصة كافية للاستعداد. استجاب غالب. لا اعتراض من حيث المبدأ. اقترح بدر. نضع لنا جدولاً. سارع فهد نهض. أنا الأخير.

في وقتٍ لم يُخطط له تصفو روح أحدهم لدرجة تقرب من المجاورة الصوفية، تناول أيمن عشاءه متأخّراً جراء انشغاله بتدوين خلاصة أحاديث سبق دارت بينهما مارلين وهو، بذل جهده يتذكّر أحكاماً أشبه بالقطعيّة تجاه ظواهر أو حالاتٍ، ولا تستثني أنظمة حكم شرق أوسطيّة، يا مارلين، لو أنّ رجالاً ما، أسرى طيبين، أزرى بهم زمنهم أو زمننا أوكِلت عهدتهم لك كيف توائمين بين شرف المهنة وأمر آخر أود لو أسمِّيه شرف الضمير، يبقى الاجتهاد الشخصي مدار بحث شرط أنْ لا ينتهي واحدنا لخرق خطوط حمراء لا يدركها إلّا واضعوها. ما قبل منتصف الليل بقليلٍ خرج أيمن لساحة بيتِه الخلفيّة، رآهم، أربعتهم، يقتعدون درجات سلّم بابهم الجانبي. مرحباً. بادروا هبّوا واقفين. ليتهم ينهجون في سلوكهم معي مثلما يفعلون مع بعضهم دون اعتبارات رسميّة، اقترب جعفرٍ لسور التشوينة بخطوات متباطئة، فعل أيمن المثل، صارا متقابلين، تطلّع أيمن لوجه جعفر، لاحظ شحوبه، هل يخفي إحساساً بالمشاركة القلقة. عاودك مرضك على ما يبدو. انفرج فم جعفر بابتسامة هيّنة. القرحة المعويّة لا تشفى لكنّها تستكين لتنشط على حين خدعة. استغربه أيمن. خدعة. خارج وعي صاحبها وفي الضدّ من إرادته. أضاف.

عامّة الناس يسمّونها العلّة، يُظن أنّ القلق المتواصل سبب أساس لظهورها. أنت تعرف مرضك. حتّى أتعايش معه لا بُدّ لي من معرفة كلّ الذي يتصل به. سادت وهلة صمت أنهاها أيمن. أنت صحفي، ما المواضيع التي كنت تكتبها. لم يجبه جعفر سؤاله، فاجأه. أنت غاوي كتابة. ضحك أيمن. إلّا هذا. استدرك. أقرأ أحياناً. لا أخالك تقرأ مجلّة العربي. ضحك أيمن ثانية. لم أرها من قبل. عاد جعفر لإجابة سؤال سبق وُجّه له. أيام كنت صحفيّاً كتبت للسنة الأولى بالرياضة، ومنها صرت صحفياً شبه مُتفرغ، كتبتُ بالنقد الأدبي، ثمّ تخصصت بالشأن السياسي. ابتسم متسائلاً. هل وفّيت. ابتسم أيمن بدوره. لا توجد علاقة بين سؤالي وبين الاستجواب. بدرت عن جعفر ضحكة مفارِقة خافتة. حديثنا بهذا الخصوص مؤلم. لم يخف أيمن دهشته. مؤلم. الصحافة بالنسبة لي حياة وأنا محروم منٍ حياتي مُنذ. تركٍ جملته معلّقة لثانيتين. إحدى عشرة سنة تقريبا لم أمسك قلماً إلّا مرّة واحدة لأجل توقيع اعتراف. رفع إصبع يده مشيراً لصدغه، تابع. إلّا هنا. تنبّه إلى أنّه استرسل في شكواه وما كان أمام الآخر سوى الإصغاء. أنا آسف. رددها جعفر أليمة، استدار مُنصرفاً.

منظر الأرض الفضاء المترامية، دون التدقيق في كونها مقبرة، يبعث على حيويّة الكتابة، بي رغبة لمواصلة تقمّصي شخصيّة أخي بعدما أخذته لسجن بو غريب. فترة الفسحة الصباحية، الأرض الترابية ما بين العنابر تعجّ بمئات نزلاء سحنات شتّى، مرّت دقائق، وقف أحدهم

أمامه حجب عنه مجال الرؤية. السلام عليكم. إفريقي عملاق يقارب مترين، مستوى نظر بدر بمواجهة صدر القادم، رفع عينيه، طالعه وجه بلون الأبنوس وابتسامة دالّة إنجازاً. أنت كويتي. السؤال أقرب للتقرير لا الاستفهام، هل يبدي بدر امتعاضه. ما أدراك أنّي. قاطعه الآخر من يّعاشر الكويتيين لسنين يستطيع يتعرّف عليهم أينما ذهبوا. لم يجادله بدر يقول. الذهاب هنا اعتقال. هل كنتَ في الكويت. وُلدتُ هناك. شُرّعت نافذة في صدر بدر. حيّاك الله. مدّ الرجل العملاق كفّه. أنا آدم يوسف من تشاد. مدّ بدر، بدوره، كفّه، شعر بها تضيع وسط الكف هائلة الحجم. أظنك نزيل عنبر7 أيضاً. أومأ بدر برأسه. لعلّك وصلتَ البارحة بعد منتصف الليل. فعلاً. أين مكانك في العنبر. لم يملك بدر إلّا أن يخطو نحو فتحة البوابة يشير للركن الأبعد. قضيتَ ليلتك في الزاوية الأكثر قذارة. لم أجد فسحة مكان ثانية. ستجد. رددها آدم صيغة قرار. أردف. تعال. خطا داخلا، لحق به بدر. بلغا موقع فراش بدر، انحنى آدم رفعه، لم يعرف بدر ماذا يقول، مشى آدم نحو نافذة طولية تمتدّ من عند السقف المعدني حتّى مستوى الأرض، لا يقل عرضها عن مترين معززة بقضبان فولاذية متصالبة، فراشان متقاربان قليلا، زحزحهما آدم عن بعضهما، مُحدثاً فسحة بينهما، وضع فراش بدر. ستنام بالقرب منّي. حثّ خطوه صوب فرجة البوابة، لاحق بدر خطواته. لديك رغبة تمشي. حاول آدم لا يسرّع خطواته. متى وقعت بين أيدي الجماعة. يوم الخامس عشر من شهر نوفمبر. ثلاثة أشهر. تقريبا. فيما يخصّني وقعت في قبضتهم منذ أربعة أعوام. مدّة طويلة. أطلق آدم ضحكة قصيرة لا تمتّ للحزن بصلة محسوسة. باق من محكوميّتي إحدى عشرة سنة. كثير. رفع آدم بصره نحو السماء،

خطوط بيضاء بسبيلها لأن تتلاشى، طائرات التحالف مرّت من هنا، قال آدم. إلّا إذا انفرط عقد النظام. تريّث ذهن بدر عند تعبير انفراط العقد. لك علاقة بالأدب. لي علاقة بالقانون. انشده بدر. أنا قاض. أنا دراسات عليا قانون دولي قبل ارتكابي جريمة قتل. سادت لحظاتَ صمت، كان الاثنان بلغا طرف العنبر، لاحت لعيني بدر بضع شجرات أكاسيا، تشمم أنفه، خارج وعيه، رائحة منثول. يرن جرس الهاتف في مكتبي، أتنبّه لأنفي يتشمم بقايا الرائحة إيّاها.

يبدو لي إنّ حلول فصل الخريف يؤثّر سلباً على حالتنا النفسيّة. ما الذي يدعوك لإطلاق هذا الحكم. اكفهرار وجوهنا بلا سبب. من أين جئت بمفردة اكفهرار. السؤال الذي وجهه فهد لغالب دفع الآخرين للابتسام. قال بدر. من حق الأسير أن يكفهر. أضاف. إلّا إنّ فكرة إفضاء الواحد على مسمع الباقين ستحدث تغييراً كما أعتقد. اقترح جعفر نبدأ بغالب. رغمٍ كوني لم أستجمع أفكاري. لم يستوف جملته. كان الوقت عصرا، الأربعة يلتفون حول طاولة غرفة المعيشة. أحدّثكم عمّا قبل، أيام الإعداد لزواجي من رباب تقدّمت لمسؤولي في إدارة الجمارك، وهو صديق ليٍ في الوقت نفسه، بطلب إجازة، لدى معرفته السبب سألني مازحا. ما الذي دعاك تقدم على الزواجِ من عراقيّة، قلت له، أحبّها، حقيقة الحال، قبل أنْ أعرفها شخصيّاً فأُحبّها، أحببتُ بلدها الزبير. ربيع عام 1965 كان عمر غالب أيامها ستة أعوام صحبه أبوه معه لزيارة أبناء عمومتهم في الزبير، تخريج الجوازات يتم في منطقة المطلاع القريبة من الجهراء،

لتواصل طريقك مروراً بالروضتين تصل قرية سفوان داخل الحدود العراقيّة، بضع شجرات أثل، مبنى صغير يضم إدارة الجوازات، حيّا الله الطيبين، نتابع طريقنا، بامتداد الصحراء على الجانبين ترى أشجار الأثل. لم يسأل غالب عن سبب كثرة أشجار الأثل هناك، لكنه بعد عشر سنوات عرف السبب، تستخدم لصد ذرات الرمل التي تحملها ريح الصحراء، يزرعها الفلاحون بقصد حماية محاصيلهم. مثل ماذا. الطماطم، البطيخ، الشعير. لماذا لا يزرعون الفاكهة. أشجار الفاكهة لا تحتمل حرارة صيف الصحراء. زمن طفولته ذاك، أبوه يتولّى قيادة سيّارته، نصف ساعة أو أقلّ ريثما تعترضهم منارة مسجد أثري مبنية بالآجر المشوي. يوقف ابوه سيّارته في الجوار. هذا مسجد الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وقتها لم يكن غالب يفهم ما يسمع لكنه يدرك معنى الخشوع في صوتِ أبيه، يُغادران السيّارة، يقتربان عند محيط المنارة، يتطلّع غالب عالياً، هناك ثلمة في أعلى المنارة، لماذا لا يرممونها. يرفع أبوه كفّيه مفتوحتين متقاربتينِ أمام صدره، تتحرّك شفتاه بهمهمات لا بُدّ أن تكون دعاءً مناسباً، غالب يجمع بدوره كفّيه، يغمغم ما لا يعرف ماذا، يعودان لسيارتهما، يسلكان الطريق المؤدّي لمركز القضاء، أشجار أثل هرمة تصطف على الجانبين، الأثل شجرة المكان الوطنيّة، داخل باحات بعض بيوت الزبير القديمة تجد أثلة أو أكثر، أحد أقربائهم تاجر أقمشة، اعتاد أبوه، في رحلاتهما تلك، يقضي ساعة ما قبل الظهيرة داخل دكّانه، يتذكّر غالب أحد أبناء عمومته الشباب، اسمه فاضل، كان طالباً جامعيّاً، يتواجد في الزبير صيفاً، إنْ شئت أخذتك لسينما الحمراء نشاهد فيلم روبن هود، لدينا في الكويت سينما حمراء، هل لديكم روبن هود، لما بلغ

سن الخامسة عشرة لم يمانع أبوه يتركه هناك أسبوعين خلال العطلة المدرسيّة في شهر فبراير، طلائع فصل الربيع عندهم غير. تدخّل فهد كمن ينبّه. لا يغيب عن بالك هناك صحراء وهنا صحراء. لن يغيب عن بالي. واصل إفضاءه. في العديد من أيام الجمعة من فصل الربيع تزدحم مزارع الأثل بمئات العوائل، يصلون صباحاً راكبين سيارات باص بهياكل خشبيّة، يتسامرون، يمرحون، يبقون لحين مغيب الشمس. هذا عن أهالي مدينة البصرة حيث مجاورتهم لشط العرب وكذلك سكانها الذين يعيشون وسط غابات النخيل، ماذا عن الرحلات الخلوية لسكان الزبير، كانوا بالمثل، يجتمعون عوائل شتّى، يستأجِرون سيارات باص شبيهة بتلك، يتوجّهون لمزارع النخيل. أظنّك أطلتَ الكلامِ بأمور جانبية. قالها فهد مضمّناً نفاد صبره. أومأ غالب برأسه موافقاً، استطرد من حيث انتهى. في إحدى الرحلات العائلية نحو مزارع النخيل. تذكّر حدد. كنت بلغت سن الثانية والعشرين. تابع. تعرّفت لفتاة تزوجتها بعد سبع سنوات. ارتجف صوته. داهمها المخاض فجر يوم ثاني آغسطس احتلال. سكت لثواني، تجاوز انفعاله، اتخذ قراره. لن أتحدّث بخصوص ذلك، أتحدّث عن أوّل لوحة فنيّة لي تستحق التطلّع إليها. بدأتْ غواية الرسم لدى غالب أيام المدرسة المتوسطة، بعد اجتيازه سنته الثانية إلى الثالثة، مدرسة المتنبيٍ المتوسطة. تعمل أيه يا بني. فاجأه صوت مدرّس التربية الفنية واقفاً وراءه في القاعة المخصصة للرسم. اكتفى غالب أفسح مجال الرؤية لمعلمه. أمّال فين مبنى المسجد اِللي بترسم منارته المتهدّمة. كان غالب وقتها يرسم بالقلم الباستيل، أفهمَ معلمه أنّها المنارة الأثرية لمسجد الإمام علي بن أبي طالب في الزبير،

وأن لا وجود لمبنى مسجد. بعدما أتمّ غالب لوحته تلك، ارتأى عليه معلمه أنْ يعلّقها في مكان ظاهر داخل القاعة. الآخرون باقون حالة إصغاء. أحسّني، وقد امتدّ زمن الأسر صار إلى ما لا نهاية، فقدت لياقتي الفنيّة، ما عادت أصابعي بالحساسيّة التي.

مسجد الخلّاني في الجوار، تجاوزه أيمن بسيارته دون أن ينعطف يساراً كي يدخل الشارع المؤدّي لبيت ريسان. سأله ريسان الجالسٍ بجانبه. كأنّك تنوي الذهاب لسوق الشورجة. أومأ أيمن برأسه موافقاً مسبّقاً لإجابته. طرأت لي فكرة شراء بعض مستلزمات القرطاسية. اجتهد ريسان. بإمكاننا طلب احتياجاتنا للقرطاسيّة من مراقبة التجهيزات. القرطاسيّة العسكرية لا تصلح لأنْ تُقدّم هديّة. لزم ريسان صمته مُدارياً فضوله، بلغا مدخل سوق الشورجة، ترجّلا، الجوار بتنوّع المعروضات وزحمة المتسوّقين يذكّر أيمن بسوق البخاريّة في عمّان وسوق كوم في موسكو حيث كانت مارلين تصحبه عصر كلّ يوم أحد. تستطيع شراء كلّ الذي تحتاجه لمدّة أسبوع. الذكرى بالحنين الشفيف. صادفا مكتبة لبيع القرطاسية، شراء أيمن ما يلزمه، توجههما نحو البيت، قبل بلوغهما باب البيت قال ريسان بحس مُشاركة مشوبة شكوى. بعد سفر خالدٍ خيّم مناخ سكون ثقيل على البيت، غيابه خلّف فراغاً نحتاج وقتاً طويلاً نسبيّاً لاعتيادنا عليه. صمت برهة. لعلّ مجيئك الآن يغيّر الجو. أخوك خالد شخصيّة مُبادرة حيويّة يصعب على من يعرفه نسيانه. بعد وصولهما جاءت هيا بحقيبة جلدية صغيرة سوداء، جلست إلى جانب أيمن، قالت

بصوت أسيان. هذا هو التذكار الذي تركه عمّي عندنا. عرف أيمن أنّه الحاسوب، تابعت هيا بأسف. عدم وجود الإنترنت يحوّله إلى آلة كاتبة لا غير. بإمكانك تخزين معلومات لعرضها عند الحاجة. حصر أيمن ذهنه، أردف. صور، أفلام، وثائق. لامس صوت هيا أسفها للمرّة الثانية. كيف يتسنّى لنا تغذّيته بكلّ الذي ذكرته. التمعت عيناها فجأة، غمغمت. هناك حل. دسّت يدها داخل جيب جانبي للحقيبة، أخرجت قرص CD. نستعين بهذا، يقول عمّي نستطيع تحميله بالعديد من الكتب والأفلام والصور. لحظتها اقتربت جنى، شاركت بإبداء رأيها. لو صدف سافر أحدنا لعمّان، أخذ القرص معه، حمّله بعشرات الأفلام ذات النوعية العالية. أجدى بالواحد. يأتي معه بقرص آخر محمّل بما يريد. على غير عادته وصل أيمن بيته داخل معسكر التاجي مبكراً، توقه لأن يرى قبس فرح يطل من عيني أحد رجال العهدة، أمور الحياة، كيفيّة التعاطي معها، قرارات الإنسان، في بعض الأحيان، لا تُتخذ بناءً على موازنات وتأمّلات ومن ثمّ اختيارات، ما دام الحسّ الإنساني كما الفعل قيد الإنجاز، إن كان أخو أحد الكويتيين بادر ناصر الإنسان العراقيٍ، رغم ما يشوب تاريخ علاقة بلده بهنا حريّ بآخر من هنا يفعل شيئاً تعويضيّاً، خرج أيمن لساحة منزله الخلفية، تسارع الأربعة تواجدوا وراء سورٍ التشوينة، هل هو تكرّس مناخ الألفة بعد تسلمهم مجلّتهم. مرحباً. أشار أيمن لجعفر أن تعال، اقترب الأخير للسور. لديّ شيء يخصك. دهشة جعفر ينازعها توقّعه. يخصني. دفع له أيمن رزمة ورق وأقلاماً، عينا جعفر شعّتا باستثارته. الله. رددها كما صلاة، يداه تسلمتا الأشياء بخشوع من خلال فرجة بين الأسلاك. أنت أنقذت حياتي مرتين،

الأولى عندما أحضرت دواء. ترك جملته مفتوحة، لعلّها خشية ارتعاش الصوت، قال أيمن. لك أنْ تعود تكتب. استجاب جعفر أومأ برأسه، استطرد أيمن. لعلّي أقرأ.

من بين ما رواه آدم يوسف. أبي من أوائل التشاديين الذين استقرّوا في الكويت، وصلها أوائل ستينيات القرنِ الماضي، التحق عاملاً بأحد محلّات سوق المباركيّة، صار شريكاً بعدما أثبت تفانيه وأمانته، تزوّج شابّة سودانيّة، وُلِدَ آدم بعد سنة. معنى هذا أنا مواطن تشادي ناحية الأب، سوداني ناحية الأم، كويتي ناحية الولادة. جميل. قالها بدر منحى مشاركة صحبة. تابعت دراستي في الكويت حتّى أنهيت الثانوية العامة، بعدها التحقت طالب حقوق بجامعة القاهرة. سكت فجأة، تنبّه إلى كونه انفرد بالحديث طوال الوقت. التفت لبدر. وأنت. أنهيت كليّة الحقوق بجامعة الكويت. شرد ذهنه ثانيتين. متزوج. انبرى آدم. يخيّل لي إنّ همّ السجين المتزوج يكون همّين. صدرت عن بدر ضحكة مريرة خافتة. أو أكثر. الحمد لله أنا غير متزوج. لم يخف بدر دهشته. مرّة أولى أسمع شخصاً يحمد الله كونه غير متزوج. نحن التشاديّون نحمد الله متى شئنا. ضحك بدر من القلب، يومه الأوّل في سجن بو غريب، عيناه واصلتا بحثهما في الوجوه، علّه يُصادف وجهاً كويتياً، هل عرف آدم ما يدور في ذهنه. هم، في العادة، يضعون الأسرى الكويتيين في عنابر بُنيت حديثاً بالقرب من إدارة السجن. تطلّع إليه بدر كمن يستوضح محدثه، تابع آدم. هذه العنابر تبدأ من عنبر رقم 17 حتّى عنبر رقم 27. لماذا جاءوا

بي لهنا. طافت سحابة حزن وجه آدم. أنت زعلان لأنّك هنا. تنبّه بدر لمدى حساسيّة مشاعر هذا العملاق، ابتسم معتذراً. لعلّه حسن الحظ. وجبة الغذاء، وإنْ لم تختلف عن الإفطار نوعاً أو كمّاً، إلّا أنّها اتخذت ما يشبه طابع ألفة جرّاء حضور آدم، خلال ساعة الفسحة المسائية أخذه آدم أبعد قليلاً، شاهد سور أسلاك شائكة ببوّابة يقف عندها رجال أمن، تعترض الطريق نحو عنابر حديثة البناء، أشار آدم لمجموعات تتحرّك في الأرض الفضاء البعيدة. معظم الأسرى الكويتيين هناك. السماء بين ساعة وأخرى تتمخّض دوي محركاتٍ طائرة استطلاع أوّلاً يعقبها سرب مقاتلات أو قاذفات تتجه شرقاً، أومأ آدم برأسه، قال كلمة واحدة. بغداد. ليس بين السجناء من يعرف ما يدور، الحرب الجوية الأعنف في التاريخ بدأت قبل عشرة أيام، بدر شهد عيّنة دمار عابر خلال عمليّة نقله مع رفاقه، الدمار الحقيقي أمر آخر، يريد للنظام العراقي يسقط بأسرع وقت، لكنّه يحبّ العاصمة بغداد، يتذكّرها لمّا أخذه أخوه إليها، لا يريد دماراً يلحق شارع الرشيد أو المتنبّي أو سوق الشورجة، خان مرجان أيضاً، كيف نعرف أين وصلت الحرب الجوية، تساءل، فاجأته إجابة آدم، أنا أعرف.

احتفاء جعفر بقرطاسيّة سلّمها له ملازم أيمن لا يضاهيه إلّا احتفال غالب برؤية علبة أقلام الرصاص. هلّا أعرتني واحداً. ضحك جعفر. خُذ ثلاثة. طمع غالب أكثر أحتاج بضع أوراق. خُذ عشراً. وجّه بدر تساؤله لجعفر. أظنّك ستبدأ مشروعك الذي أسميته

يوميّات فلان في الأسر. ليتني أكتب شيئاً قريباً من ذلك. انفرج فمه بابتسامة هيّنة. لمّا تكون مواد الكتابة بحكم استحالة الحصول عليها تتزاحم الأفكار في مقدمة مخيّلة الواحد، يخاله لو توفرت له أقبل يكتب من فوره، فإنْ حدث وصارت بالمتناول تبدأ مرحلة المراوحة في المكان، ما الفكرة التي أبدأ بها، كيف أقاربها ومن أين. قال بدر بإمكاننا البدء بحديث الواحد عن نفسه. عاجله جعفر. أنت الأوّل. لم يمهله فرصة الرد، استطرد. ما الذي كان عليه موقفك من النظام العراقي قبل الغزو. حتّى ما قبل الخلافات التي أثيرت بشأن حقل الرميلة النفطي واتهام الكويت بسرقة النفط العراقي جرّاء انخفاض منسوب الأرضٍ. استمهله جعفر. موقفك من النظام العراقي أيامها. أضاف متسائلا أيضاً. عندما كانت الحرب العراقيّة الايرانيّة في أوج اشتعالها، لأيّ الجانبين كنت منحازاً شعوريّاً. للجانب العراقي. هل لديك ما تريد إضافته. شيء من إحالة على الحسّ القوميٍ، الموقف الكويتي الرسمي والشعبي بأغلبيّته الساحقة كان مناصراً للعراق. إحالة على الحسّ القومي أيضاً. قالها جعفر الفكرة الأساس وراء إصدار مجلّة العربي منذ عام 1958 أنْ تكون الصوت القومي العربيٍ الصادر عن الكويت بمشاركةٍ كتّابٍ معظمهم عرب. قال فهد مواربا نكاية. الاحتلال كان ثمنا مناسباً لموقف الكويت العروبي. تجاوز جعفر نكاية فهد، وجّه حديثه لبدر. مجلّة العربي إيّاها تولت نشر نص ينتصر للإنسان العراقي. ما الذي تبيّت له. أخوك كاتب النص، ولا أظنّك نسيت رأيي به. قلتَ عنه مغرور. ترسّخ رأيي به نتيجة رفضه المتكرر أنْ أجري له مقابلة صحفية. شارك غالب. أخوه غامض قليلاً لكنّه طيّب ولا أخاله يردّك دون سبب وجيه. التفت إليه

جعفر. أنت، كما اعترفت، زبيري إلى حدّ ما. استغربه غالب. وجه الارتباط. ماذا عن موقفك أيام اشتداد الحرب العراقيّة الإيرانيّة. بلغ بي حماسي وغيرتي على بلد أبناء العمومة أنّي توجّهتُ ضحى أحد أيام صيف عام 1985 لمبنى السفارة العراقيّة طالباً التطوّع للالتحاق بأيّ من وحداتهم المقاتلة، وعدوني خيراً. نفد صبر بدر، وجّه سؤاله لجعفر ما علاقة هذا كلّه بأخي. السبب الأساس لفشل محاولتي الأولى بإجراء لقاء صحفي معه أنّي بدأت بسؤاله حول موقفه من الحرب إيّاها، فاجأني تطلّع لساعة معصمه، آسف عندي ارتباط هام، تركني، وسط ذهولي، حاولت، بيني وبين نفسي، أجد عذراً أبرر له تصرّفه، نزوات الكتّاب، عدم تقديرهم أهميّة الوقت، لامبالاة بالغير، بذلت جهدي اتصلت مرّات عدّة، بقي يراوغني، سألته عبر آخر اتصال هاتفي، يخيّل لي أنت تتهرّب منّي، ضحك بلؤم، كيف عرفت، أقفل الخط، الإهانة المكررة، اقتنعت هذا الكاتب المدّعي ليس مغروراً حسب، لكنّه مناصر عاطفيّاً لإيران، لا يريد كشف هويته. ضحك بدر. أنا وإياه أخوان، بيننا علاقة شفيفة، تعكّرت أيام الحرب إيّاها، أنا مناصر مُتحمّس لحارس البوابة الشرقية، وأخي يلعن، كان ضدّ الحرب، عدا أنّ النظام العراقي هو الذي بدأ تلك الحرب تنفيذاً لإرادات ومصالح أطراف إقليميّة دوليّة. قال جعفر بمحبّة مُضمرة. لمّا اطّلعتُ على نصّه الأخير أدركت حجم الظلم في حكمي الشخصي. وجد فهد فرصته، قال. لو كنتَ شاهدتَ خارج الحظيرة لأدركتَ مدى احترامه للحصان. قال جعفر. منْ يحترم الحصان يتفهّم دوافع حيوانات أخرى.

خلال الاجتماع الدوري لآمري معسكرات القاطع الأوسط بالسيّد وزير الدفاع صباح أمس الأوّل التقيت العميد مجيد. كان أيمن يجالس أباه مكتبه في منزل مدينة الضبّاط، أومأ برأسه دلالة إصغائه. لمستُ من كلامه أنت راضٍ عن سير العملِ مع رجال عهدتك الأربعة. ابتسم أيمن بمفارقة. لا أحد يهتم بهم إلّا بصفتهم عدداً. ما عدا ذلك هم مسؤوليتك. وهو يغادر بيته لم يكن أيمن سعيدا ولا حزيناً، أمورهم أو تصريفهم شؤونهم، شاكلة لا يفهم آليتها، حيث لا مكان للمشاعر، في كل المرّات التي تداول أمر رجاله الأربعة مع أبيه يحضره وصفه الأربعة العهدة، لم يخطر له يسأل كيف هم مادام السؤال يعني معرفة شخصيّة بالآخر، العميد مجيد لم يسأل بالمطلق، كان يصغي ليفتي، ولا يدري أيمن كيف سيكون ردّ الفعل الرسمي لو نقص العدد صار ثلاثة، جعفر على سبيل المثال بالمرض العضال الذي يتآكل أحشاءه، الحال القائمة هؤلاء الأربعة يمثّلون لأيمن اهتماماً مغايرا، مناخ صحبة غير مبيّت لها، شأن بيت السنك بقاطنيه. يجدر به وهو يتولى قيادة سيّارته الآن يفرد وجهه، هو بسبيله لاصطحاب هيا، شراء لوازم مكتبية، رئيسها خصّها غرفة فارهة بعدما اختارها لرئاسة شعبة جمع المعلومات. لم أفهم غرض إنشاء هذه الشعبة. همس لها أيمن وقتها. مهام تجسس غير مُعلنة. أيمن. عاتبته رددت اسمه. مكتبها غرفة فارهة بطاولة كبيرة. الإخلاص والدقّة بتنفيذ الأعمال التي تُناط بالواحدة. قاطعها أيمن. جمال الواحدة يلعب الدور الأهم. التمعت عيناها لإطرائه. تابعت تخبّر خصوها بجهاز حاسوب هو الأحدث من نوعه، لها رمزها السرّي لتشغيله، رئيسها لا يعرف شيئاً عن كيفيّة التعامل مع الجهاز. أفهم من كلامك رئيسك كثير التواجد في مكتبك.

تطلّعت فيه مُستنكرة. من أين لك بهذا الاستنتاج. نفذ من الموقف. لأنّك جميلة زيادة. عادت عيناها التمعتا. مكتب رئيسي يقع في آخر الرواق، ولا يدخل مكتبي. إلا إذا احتاجني. أردفت. راق لي أمس عمل مفاجأة لجنى، كتبت اسم مجلة عمّي التي يصدرها في استراليا، ضغطت مفتاح البحث، دخلت على الموقع الإلكتروني للمجلة، قمت بنسخ مواد العدد الأخير على قرص CD، جُنّت جنى فرحاً، قضت ساعتين مع الحاسوب تقرأ. ماذا لو. فكرة طرأت لأيمن أراد التصريح بها، أمسك في اللحظة الأخيرة.

يقول أحدهم ما مفاده الحياة أنْ تكتبها. ولست تفهم المعنى المراد حقيقة، هل كتابة الحياة كتابة عنها من أجل الإمساك بها وتثبيتها عند لحظة ورق يصبح بالمقدور العودة إليها إذا لزمت الحاجة وهذا يمنح فعل الكتابة دوراً تصويرياً تسجيليا توثيقيا، أو التحامك المدرك بالحياة هو كتابة لها بما يرقى بالفعل الكتابي من مادي لأثيري، أنت تعيش وعيك، تُراكم زمنك من حاضر لماض، كما شأن التوثيق الشفاهي الذاهب في الفقد. تتريّث عند هذه التساؤلات، تكتبها بهدف معرفتك ما يدور فيك، سبق لك قلت أتمثّلني بشخصيّة أخي بدر، وسط محاولة احتشادك البارحة وجدتك تضع مسألة التماهي نصب طموحك، تماهيك بأخيك، خلال كتابتك إيّاه يحققه حيّاً نابضاً فيك، يستعيدك واقعك، المسألة برمّتها مسافة ورق، تكتشفك موصداً عليك من داخلك، اللهاث بديل الكتابة، تدريك لست مُصاباً بالربو، لكنّه الحلول، هل تتوصل لاستنتاجك هذا هو المناخ النفسي لأسير مُغيّب في النسيان الوطني، الكتابة والازماع، سجن بو غريب، ساعة الفسحة المسائية، بدر وآدم يتواجدان معا، رياح

أواخر يناير تهب باردة، تساءل بدر مدارياً توقاً حائراً. كيف نعرف ما وصلت إليه الحرب الجوية. أنا أعرف. لأنّه نزيل بو غريب منذ سنوات ولأسباب كامنة في طبيعة شخصيته التواصلية وفّق آدم يقيم علاقات طيبة برجال أمن العنبر. عددهم خمسة عشر، يتناوبون عملهم على ثلاث ورديّات، توطّدت علاقة آدم بعبد الجاسم وجه خصوص، من أهالي قضاء القاسم، صادفت ورديته مساء أمس. حقيقة الحال نحن نجهل ما يدور، هم لا يريدون لنا نعرف، يدّعون إسقاط عشرات الطائرات المغيرة كلّ نشرة أخبار، ولو جمعت الأعداد لوجدت من الحديد الخردة ما يكفي لبناء الجسور المدمّرة. تبالغ يا عبد الجاسم. طائراتهم لم تُبق جسراً واحداً يوصل ضفّتي دجلة أو الفرات من شمال العراق حتّى جنوبه، قصفوا محطات توليد الكهرباء الرئيسية، أهالي بغداد يستنيرون بالشموع، دمّروا محطات تزويد الوقود، قصفوا القصر الجمهوري، الرئيس حفظه الله، يعيش تحت الأرض، أتمنّى أفهم سبب ادعائنا انتصارنا، نحن نخوض أم المعارك والنصر المؤزر على حد قولهم قاب قوسين. سكت آدم برهة. حال العراق لا تسرّ، وإذا طالت هذه الحرب لأسابيع أخرى سوف تعيد العراق إلى القرون الوسطى. تبادر لذهن بدر. قيام الحرب الجويّة مدعاة أمل واحتفاء، أن يكون هناك عدّ تنازلي فعلي لسقوط النظام العراقي القائم، وسط هذا التوقّع المتفائل يتبّدى هاجس قلق مضن. العراق بلد الحضارات مُنذ ملحمة جلجامش ومدينة أوروك، طرأ له يسأل. من يحفظ تراث العراق. أنت تتعامل مع نظام لا يقيم وزناً لغير بقائه، السيّد الرئيس يقولها باعتزاز وفخر مستعد يواصل الحرب حتّى آخر عراقي. شاب صوته إحساسه بالمرارة. هم يقيمون منصّات إطلاق صواريخ السكود

وسط الأحياءِ الشعبية بما يضطر طيران الدول المتحالفة يتحاشى تدميرها خوفاً من سقوط كمٍّ ضحايا أبرياء. إن لم يبادر عملاؤه لقصف أحياء شعبيّة هادفاً يفضح الدول المتحالفة أمام الرأي العام العالمي. هم يقصفون جماهيرنا العزل. يضعون مدافعهم المضادّة للطائرات فوق سطوح المستشفيات والمساجد، حفاظاً على ما تبّقى من سلاحه الجوي هرّب مائة وعشرين طائرة مقاتلة لإيران. يلجأ لعدوّته اللدود. لو انتهت الحرب ولم يسقط النظام هل تعيد إيران الطائرات. غالبيّة العراقيِّين يتمنون سقوط نظامهم. صدرت عن بدرٍ ضحكة مفارقة خافتة. كلنا نتمنى ذلك. حوالي الساعة التاسعة ليلا آوى السجناء كافّة لفرشهم، شبك بدر كفيّه تحت رأسه عيناه باقيتان مفتوحتين صوب السقف المعدني العالي، وضعه الآن غيره البارحة لمّا لا مفرّ من مكب النفايات، رغم ميّزة مكانه الجديد إلى جانب آدم ظلٍّ أنفه يشمّ روائح متخمّرة تمت للحموضة بصلة، هو عرق الأجساد ناتجا عن زحمة العنبر، التقطت أذناه همسات يتبادلها المساجين. تساءل آدم. لن أسألك كيف حال الكويت تحت الاحتلال. أجاب بدر. لا تسرّ الصديق. أنت أوّل كويتي أقابله هنا. رأساهما يكادان يلامسان إفريز النافذة، مدّ آدم يده إلى مربع زجاجي قريب، أزاحه جانباً، هبّت نسمة هواء قادمة من خارجٍ مشبعة برائحة ورق أكاسيا، عبّ منها بدر لصدره، ودّ يقول، شكرا آدم.

توفر الأقلام والأوراق أحدث تغييراً نوعياً على وقت كلّ من جعفر وغالب، خصّ جعفر ساعة صباحية وأخرى ما بعد الظهر

للكتابة، صباح يومه الأول واجه الطاولة، مشمّراً طموحه يكتب، تطلّع للورق، واصل التطلّع لساعة ونيّف، أطلق زفرة ضيق، عصر يومه فعل المثل، عدا بادرته يكتب اليوم والتاريخ ترويسة ورقة، بعدما توجّه بسؤاله لبدر. أين نحن من الزمن. الخميس خامس عشر نوفمبر 2001. قال جعفر. رقم يبعث على التفاؤل. أو العكس لدى فهد. نبس فهد محذّراً. عن الغلط. صبيحة اليوم التالي كتب جعفر بضعة أسطر، بدا بعدها فرحاً كمن حقق إنجازاً. سأله غالب. ماذا كتبت. خاطرة. ماذا تعني. لا شيء. اقرأها علينا. لا تستحق. في الوقت ذاته بدأ غالب ما يشبه مشروعاً، يرسم وجه جعفر لدى انحنائه على ورقه يكتب، الوجه والخطوط الواضحة حول الفم، اشتغل مخطط رسمة أخرى لوجه بدر، لم يغفل إبراز شبهه بأخيه، اهتمّ بفهد رسمه واقفاً وسط الأرض الخلفية تحلّق حوله عشرات طيور. جهده التشكيلي حقق مناخ احتفاء لدى رفاقه، فهد كان الأكثر فرحاً. أنت لم ترسم نفسك. تساءل جعفر، ردّ غالب. إلّا إذا توفّرت لي صورة شخصية. شارك فهد. لو وقفتَ أمام مرآة. ضحك غالب. أظنّها ستكون رسمة متحرّكة. بعدها اشتغل على وجه أيمن، بذل فيه عناية مضاعفة. اقترح فهد. ليتك سلّمتها له. لماذا أنا. استعاد غالب الرسمة، دفعها لجعفر. سلّمها نيابة عني. التفت فهد لبدر. دورك بالحديث. أحدّثكم عني. ما قبل الاحتلال كان بدر صدّامي الهوى، لا يخفي إعجابه الشديد بقائد الأمّة بطل القادسيّة وألقاب لا حصر لها، كنت أعلّق صورة له فوق سريري. لن يُحدثهم عن مشاعر هدى تجاه حضور الصورة في مخدع الزوجيّة، يحدّثهم بخصوص لا تصديقه حدوث الغزو. كيف يفعلها، كما لو أنّ واحدنا ارتكب واحدنا. ما الذي

تعنيه. افهمها كما تشاء. أخي لم يتفاجأ. قال. متوقّع. الاندفاع الأوّل بالمحبّة أخلى موقعه لمشاعر غضب وحقد، محاولة رد فوري بالصيغة المتوفّرة. لم أكن أملك سلاحاً يُعتد به، كلّ الذي بحوزتي بندقية صيد لا فائدة منها خلل الظرف. إحساس الواحد بالمحاصرة داخل دائرة العجز. ضحى الأحد رابع يوم احتلال تسلّمت أوّل سلاح حقيقي، مُسدس كولت مع عشرين طلقة، أعطاه لي أحد جيران السكن، لمّا سألته سبب استغنائه عن سلاحه قال هو مضطر لمرافقة زوجته وأولاده عبر الحدود، حصولي على المسدس حقق لدي ثقة بالنفس، لكنني لم أجد له موقعا ضمن خطط مزعومة لأعمال مقاومة محتل، ضحى الخميس التالي للاحتلال التقيت بفادي اللبناني وسط زحام المتسوقين في الشارع الذي يفصل بين منطقتي بيان ومشرف، كان زميل مدرسة أيام الثانوية، أينك الآن. مسؤول مبيعات شركة إلكترونيات. تنبّه استدرك. قبل الأزمة. الحوار ومشاركة الهموم والرغبة المعذّبة لفعل قتالي يردّ اعتبار الفرد لنفسه. خلته يعرف أكثر، قلت له، سمعت بوجود مقاومة ولا أعرف كيف أستدلّ. سألني. تُجيد التعامل مع السلاح. قليلاً. تابعت. مسدس. تحتاج تدريبا ولو لبضعة أيام. أخذني لموقع معزول من منطقة صبحان، رأيت عدداً من الشبّان اللبنانيين يواصلون تدريبهم هناك بإشراف رجل خمسيني ذي بُنية رياضية، عرفت فيما بعد أنّه من كوادر الحزب القومي السوري. تلقيت تدريبا على الكر والفر والزحف واستخدام بندقية ذاتية، أعقبتها بندقية رشاش، عرفت من فادي عن ارتباط مجموعته اللبنانيّة بأخرى كويتية في منطقة بيان، إنْ شئت أخذني إليهم، انتابني انشداهي لحظة وصولي منزل بيان،

رأيت أخي وسط رفاق كويتيين آخرين، تفاجأ بدوره. عاتبته. أنت لم تخبرني. أنت لم تسألني. تابع مبررا. كلّ مشغول على طريقته. كفّ بدر عن مواصلة حديثه، أصدر فهد سعلة تنبيه، ثم فم بدر عن ابتسامة هيّنة. شفّ صوته لدى استطراده. منزل بيان، في قادم أيام الاحتلال تلك صار مقرّاً لقيادة مجموعاتٍ بو الفهود، وبقي دور أخي فيها، على حدّ قوله، كتابيّاً تحريضيّاً، وفي أحيان أخرى إعلاميّاً. سأله غالب. عارض أخوك فكرة مشاركتك عمليات قتاليّة. دأب يقول لي أنت رجل قانون لا رجل سلاح، رغم معارضته شاركت في عمليات مقاومة عديدة لكنّي لم أقتل إنساناً. لماذا. لعلّها الصدفة أو حسن الحظ. تساءل جعفرٍ. لماذا حسن الحظ. في وقت سابق قرأت ما مفاده عندما تقتل إنسانا تطاردك روحه في أحلامك.

كيف يحدث لقارئ ما يحلم بشخصيّات روايات قرأها. أطلقت هيا ضحكة قصيرة رائقة. هل أنت جاد. عندما قرأت روايات فؤاد التكرلي لم يحدث لي ذلك. من هو فؤاد. بعد منتصف شهر تشرين الثاني يبدأ الليل يحلّ مُبكراً على معسكر التاجي، مالٍ أيمن بجسده متخذاً وضع استلقاء فوق صوفا غرفة المعيشة مواصلاً حديثه الهاتفي مع هيا، إحساسه الوحدة بعد مغادرة عريف ريسان، أوجز ردّه لهيا روائي عراقي يعيش في الخارج. استطرد. جنى تعرفه أكثر. ضحكتْ للمرّة الثانية، أنت وجنى من قبيلة القرّاء. الذي يحيّره لدى عودته لقراءة رواية الحرب والسلام أنّه كلّما نام ظهرت له شخصياتها بأسمائها الروسيّة، التفسير الوحيد هو حنينك للعزيزة

مارلين في موسكو. شكل ارتباطه بهيا بدأ يأخذ عليه جانباً من اهتمامه، ما عاد حنينه لمارلين يتسم بمرارة الفقدان، لم تتوارد لذهنه فكرة الارتباط بهيا لغرض تأسيس عائلة، لم يسمح لنفسه يفكّرا نتيجة قناعة راسخة، أبوه وأمّه لن يتقبّلا الفكرة، هيا ابنة عريف وتتحدّر من عائلة غير تكريتيّة، هي إذا نظرنا لموقعنا ومكانتنا، لا، ثمّ ألف لا أمّه لمّحت له، بنات أختها أو أخيها، أبوه يحلم نيابة عنه، بنات أعمامه بالمتناول، لكن زواجه من أيّهن لن يرقى بمكانتهم من حيث مهابة الموقع أو قوّة المال، ابنة أحد أعضاء قيادة قطرية، لا بأس قومية، مع مراعاة الوضع المالي، بدونه تكون الحياة العائلية مهب ريح، في مكاشفة أبيه له. من يضمن الغد. شابت صوته نبرة قلق. لأجله يتوجّب تأمين مسائل السكن وأرصدة مالية بالدولار في ثلاث عواصم عربية ورابعة أوروبية. من يتوسّدون سدّة الحكم يزمعون مواصلة توسّد سدّة الحياة، هامسين لأنفسهم دوام الحال من المحال، أيمن لا يجيد التفكير بصيغتهم، المسألة بالنسبة له تأمين كفاية عيش ونمط سلام نفسي، يعترف بتأثير رحلة موسكو عليه، هو غير آسف، مادام تحوّله غيّر نظرته للحياة، منحها بعداً يدعو الواحد يصير شفيفاً. ليل التاجي، كلّما تقدّم فصل الشتاء، يبطئ من تقدّمه أكثر. رأى الرجال الأربعة يتوزعون المكان عند درجات سلم بابهم الجانبي. الساعة الحادية عشرة، الإضاءة الصفراء المنبعثة عن مصابيح مثبّتة على الجدران تؤكّد وحشة المكان لولا الحضور البشري. تنبّه لاقتراب جعفر. كُلّفتُ بتسليم هذه. مرر ورقة مطويّة بحرص عبر فرجة بين أسلاك السور الفاصل، فَرَدَ أيمن ورقته بحرص، تناوبتْ مشاعره وجهه، دهشة مشوبة احتفاء. رسم غالب.

عمل فنّان متمكّن. غالب فنان معروف في الكويت. اقترب الأخير. عملك مُتقن. تدخّل جعفر. رسمنا كلّنا ولم يرسم نفسه. لماذا. قال غالب. يصعب على الواحد رصد وجهه. صمت ثانيتين. لا يقنع بتخطيطات وجهه. عارضه جعفر. أشهر الفنانين دأبوا يرسمون وجوههم. الرسم بالزيت أمر آخر. اقترب بدر. توجد لغالب لوحة زيتية في منزل أخي بالكويت.

أدخل الطريق الجانبية الموازية لشارع الاستقلال في منطقة بنيد القار فينتابني الحنين شأنَ كلّ مرّة، لعله طراز بناء البيوت العائد لستينات القرن الماضي، لعلّه منظر اشتباك أغصان أشجار الصفصاف الهرمة فوقي بما يمنح إحساس غابة هجين. مبنى مجلّة العربي على اليمين. تهلل وجه إبراهيم فرغلي. لو لم يتصادف مجيئك زرتك. تابع. بخصوص صاحبنا الاسترالي العراقي خالد عادل، كتب لك ولم تهتم ترد بشكل منتظم، أقرأ عليك رسالته الأخيرة. حُرمت من زيارة بلدي العراق إحدى عشرة سنة، وعندما منحوني تأشيرة دخول، تحتّم سفري للأردن، من حسن حظي وجدتُ ابنتيَّ أخي بانتظاري في عمّان وإلّا تعرضت للاعتقال في الرُطبة. رفع فرغلي عينيه. منغّصات حدودية، ما تتوجّب قراءته وصفه لأنماط معاناة مواطنين عراقيين، إذا كان هدف الحصار الدولي مضايقة النظام لماذا نمنح هذا النظام فرصة معاقبة شعبه، مئات الأطفال من أبناء الفقراء يموتون شهريا تحت بند منع استيراد أصناف أدوية، وحقيقة الحال كلّ الأدوية متوفّرة في صيدليات مُلحقة بأسواق خاصّة لا

يرتادها سوى جنرالاتهم ورجال حزبهم الحاكم إضافة لبطانات هذه الفئات، يهدفون من وراء فعلتهم هذه لإيغار صدور عامّة العراقيين تجاه النظامِ العالمي. رفع فرغلي عينيه. قبل أن يختم خالد عادل رسالته يؤكد ملاحظتين، عجزه ينشر ما مرّ في مجلّته لأن السفارة العراقيّة في سيدني تعرفه وتعرف بوجود أخ شقيق له في بغداد ولا يريد التسبب بزجّه في غياهب سجون النظام لأن عقاب العراقيين يطال صلة الرحم. عقد فرغلي حاجبيه. ما القصد. أجبته. ارجع لقانون حمورابي. ردّ بكلمة شكراً نكاية، أضاف. يتمنى علينا خالد إيّاه ننشر مادّة رسالته في العربي نضع لها اسماً مستعارا. لا بأس بالفكرة. هل عنّ لمضيفي يسألني سبب مجيئي. سبق عرفت منك نيّة تضمينِ ملف حول موضوع أسرىٍ كويتيين. قاطعني. عساك كتبتَ نصّاً. لم أنجزه بعد. بقي محدّقا في، وضّحتُ. حاولت تقمّص شخصيّة أخي الذي ضاعت أخباره في الأسر شابت صوته نغمة أسى. كتابة مثل هذه ستكون شائكة.

لأنّ الدور عليّ. قالها جعفر، نقّل بصره على وجوه رفاقه. خلال الأيام الأولى لوجودنا هنا دار حديث ثنائي بيني وبين بدر. استنتج خلاله، أنا أسير من الكويت إذن أنا كويتيٍ. تطلع لغالب. ما الذيٍ تقوله لو كنت صاحب قرار. سمّيتك كويتيًا حتّى لو لم تكن أسيرا. انتقل جعفر بعينيه لفهد. وأنت. لو كنت صاحب قرار ما منحتك جنسية كويتية. طوّف شعور بالإحباط وجه جعفر، استطرد فهد. إلّا إذا سكنتَ جزيرة فيلكا. جمعتهم غرفة المعيشة، كان ضحى

من أوائل شهر ديسمبر، لا أثر للبرد الشتوي. تابع جعفر حديثه. بدون كثيرون يترددون طويلاً قبل أن يتزوجوا حتى لا يرث أبناؤهم مصيبتهم، المفارقة هم غير مُحصنين عن الوقوع في الحب. أيام عمله في جريدة الوطن تعرّف إلى شابّة كويتيّة سمراء بتقاطيع جميلة، عرف في وقت لاحق أنّا كويتيّةٍ الأب هنديّة الأم. إقبال إحدى الصحفيّات الناشطات سياسياً، كانت تكتب في مجلّة الطليعة الأسبوعية، لقاء في وجهات النظر تجاه الأحداث المحلية وكذلك ما يخص القضية الفلسطينية، بدأنا ما يشبه التنسيق لدى تناول أمور مُحددة، بما استدعى لقاءات ثنائيّة، اخترنا إحدى مقاهي السالمية المواجهة للبحر، منظرنا جلوسنا متقابلين وأوراقنا تغطّي طاولة المقهى بيننا، أثار اهتمام النُدُّل، ثمّ اعتادوا حضورنا مثلما عرفوا طلباتنا التي لم تتعد اثنين قهوة سادّة. اخلصٍ. رددها فهد دالة نفاد صبر. لما نظراتنا تلتقي مصادفة تقول شيئاً سرعان ما نستنكره كلانا، مرّت ثلاثة أشهر والحالِ كماهي لولا مصادفة غير مقصودة حين تلامست أصابع يدينا،عفواً، فوق الطاولة لدى تداولنا ورقنا، لحظة توقّف فيها الزمن، شيء أشبه بانفتاح صدر الواحد على الدنيا. التفت لفهد. كما عصافير تفرّ من القلب للقلب، اللحظة بالقرار المصاحب، كأننا اتفقنا من فورنا نترك لأصابعنا تتسلّك سجيّتها، تيّار الفرح، كنّا نحن، كنّا واحداً بكيانين يتوقان يتماهيان. سكت ثانيتين. هو الحبّ من إرادة طرفيه، للحظات عديدة نسيت أنّي بدون، بعد شهرين منّ هامش سعادة. لماذا هامش. في حالتنا هناك ما يترصدك عند كلّ منعطف، قالت لي إقبال أنّها أخبرت أخاها، هفا قلبيٍ، قال هيٍ حياتك وأنتِ حرّة بها، الحياد السلبي لأخيها تحوّل موقفاً معارضا

بعدما تجرأ جعفر تقدّم طلب يدها. أمّها الهنديّة قالت لها. تكفيك نظرة الناس لكِ أمّك هنديّة، تتزوجين شخصاً بلا هوية. الموقف بما انتهى إليه، فُجع جعفر باختفاء إقبال، بعد أسبوعين هاتفته من أمريكا، سافرتْ بحجّة مواصلة تعليمها. قالت. أحاول أجد وسيلة تلتحق بي هنا ولا نعود إلّا بعد حصولك على مواطنيّة أمريكية، الرغبة بالشيء، إقبال، كما كان يقينه وقتها، لم تدّخر وسعها، بذلت جهدها، بيد أنّ اليأس مدعاة قنوط، تباعدت اتصالاتها الهاتفية، صارت مع مطلع كلّ شهر، مُدد مكالماتها ما عادت تطول، طالت سنوات غيابها لدرجة مقاربة النسيان، في آخر اتصال لها عرف عنها تحتاج ثلاثة أشهر كي تنهي مناقشة رسالة الدكتوراه، كان ذلك في شهر يوليو السابق لشهر آغسطس احتلال. سكت جعفر، خيّم صمت قصير قطعه غالب. بذلت إقبالك جهدها تُخلص لك. فاجأه ردّ جعفر. شكراً.

شيء من المحبّة، ذاك ما أحسّ به أيمن وهو يعود لتفحّص رسمة القلم الرصاص التي نفّذها غالب، بعد ليلتين لمّح لفهد عن رغبته يرى الرسمات الأخر، بعد دقيقتين كانت الرسمات بين يديه، هل ثمّت نظراته للرسمات عن رغبة احتفاظ، أدهشه فهد. إنْ شئت الاحتفاظ بها. الاحتفاظ لا عن رغبة اقتناء عمل تشكيلي، لكنّه حافز الإبقاء على شيء يذكّره بهم بعد غياب محتمل، كلمة عُهدة تعني المؤقت، يفرش الرسمات الثلاث إلى جانب بعضها فوق سطح الطاولة. بدر، نظرته الهادئة تبدو وكأنّها تخترق الأشياء إلى ما ورائها،

جعفر، المحيا القلق والعينان الغائرتان قليلاً وهذه الخطوط العميقة حول الفم، يعقبهما فهد، عينان مشاكستان توحيان رغبة صدام مواربة إلى جانب تظاهرة الطيور المحلّقة حوله. لا يجزم أيمن لماذا تحدوه رغبته يضع رسمته عند رسماتهم، تفرحه العناية الفائقة لإبراز ملامح وجهه، لو رأتها هيا، لو رأت رسمات أخرى، في لقائه الأخير بها قال لها، لو سمح ظرفك توصلّت لمعلومات عن كاتب القصة الكويتي إيّاه، شجعته استجابتها، بإمكاني نقل المعلومات على CD، سمّى لها فناناً تشكيليّاً. وهو يستعد لمغادرة بيت المعسكر قالٍ لريسان. في بالي أصحب هيا لمشوار. لا بأس. رددها ريسان راضياً. أيمن بالنسبة لهما، هو وزوجته، ابنهما المفترض، هاجسهما المشترك هما بابنتين، شغل أيمن، خارج إرادته، مكان الولد. عندما أشارت أم هيا نحو غرفة آخر الممر. لك. لم يدّخروا وسعهم عمدوا لطلاء جدران الغرفة بالجص، جددوا بلاط أرضيتها، سرير لشخص واحد، ستارة لنافذة صغيرة مطلّة علي زقاق خلفي ضيّق، للسكن في السنك نكهة خاصّة، أيمن لم يفكر يسكن، ما يقولونه له بهذا الصدد يأخذه على سبيل المحبّة. رأى هيا بانتظاره حاملة الحاسوب، تسارع وجيب قلبه، تراها وفت وعدها. المعلومات التي احتجتها موجودة هنا. قالتها لدى ركوبها السيارة. غافلته ضحكة احتفاء. أنت رائعة، لم أسمعها منك قبل الآن. عيناها في عينيه تحليق داخل الصدر، ساعة العصر في شارع أبي نواس تتسم بسحر لم يعهده، ركن سيّارته إلى جانب الرصيف أمام مدخل أحد المطاعم، جلسا متقابلين حول طاولة في الركن الأبعد عند الواجهة الزجاجية، نهر دجلة بالمتناول، مياهه تنحسر نحو العمق كاشفة شريطاً طينيّاً يغطيه القصب، عندما

يحلّ فصل الربيع ويبدأ ذوبان ثلوج جبال تركيا يختفي الشريط الطيني، يرتفع منسوب المياه يصل حتى الحاجز الإسمنتي الممتد مع النهر كما لو أنّه يوجهه جنوباً. ما دمنا متواجدين في مطعم يتوجّب علينا نطلب شيئاً. أعملت هيا ذهنها. بودّي نطلب دوندرمة. تذكّر أين أحد مطاعم موسكو هو ومارلين يجلسان متقابلين. أريد آيس كريم. أبدى دهشته، قالت مارلين. المرأة تحبّ ثلاثة أشياء. الذهب والزهور والآيس كريم. اناءا المثلجات عند زاوية الطاولة، دسّت هيا قرص CD في مكانه من الحاسوب، سترى الكثير بخصوص الكاتب والفنان التشكيلي، كذلك توفرت لي فرصة سجّلت تحقيقات مصوّرة، معالم وأسواق كويتية حديثة، ستنشده وأنت تراها، صور للسواحل والجزر، أشياء أخرى.

بعدما قرأ إبراهيم فرغلي الأوراق المعدودة من النص المُزمع إنجازه عن أخي قال. بداية موفّقة وإنْ اختلفت عن نصّك الأوّل. عرض الموضوع يقتضي ذلك. هل كنتَ نزيل واحد من السجون العربية في زمن سابق. تقريباً. إجابة غير شافية. لفضولك. ضحك. من يقرأ نصّك قبل معرفته لك يخالك تكتب سيرة ذاتية. أنت تشدّ أزري. نصّك بشخصيتين محوريتين، إحداهما تخصّك والثانية لها معادلها الواقعي. تابع. حامل اسم آدم يوسف محرر في إحدى الصحف هنا، تقول عنه أنّه تشادي، وآدم تشادي. أردت استعارة شخصية خبرتها كفاية لكي تكون مقنعة على الورق. لا أظنّك استأذنته. لا على افتراض احتجاجه بعد نشر النص. هو يتسم بخجل فطري وإن حدث

واحتجّ سأقول له مئات آدم يوسف في تشاد. أنت واثق. لا أطلق ضحكته التي تتسبب له بالسعال أحياناً. كما لو أنّي تزوّدت بشحنة تشجيع، عُدتُ لانعزالي داخل مكتبي، وجّه آدم سؤاله لبدر. كيف وقعت في أسرهم. كان وقت الفسحة الصباحية، الاثنان يتسكّعان بالجوار من أسوار الأسلاك الشائكة المحوّطة منشآت السجن، أواخر شهر يناير بالرياح الباردة النشطة في الأرض المكشوفة، أعاد بدر إحكام فتحة ثوبه حول رقبته، أجاب. تنصب كميناً لعدوك تجدك واقعاً في كمين لا متوقّع. عبرت عيناه ما وراء أسوارهم الشائكة. في مركز طوق حِصار مفروض حولك. حاججه آدم. عرفت منك أنك عملت قاضياً. ابتسم بدر. كأنّك تتحدث بلسان أخي. كان بإمكانك اختيار نمط مقاومة آخرٍ الأسرِ نمط واحد. هل ينتابك شعور بالندم. يكون الندم مصحوباً إحساساً بالذنب. معك حق. سماء بو غريب زرقاء لامعة، لا وجود لنتف غيم، حين تنصت تلتقط أذناك صدى دوي محركات لطائرات حربيّة عابرة مُخلفة خطوطاً قطنيّة سرعان ما يبهت لونها تتلاشى، تابع آدم حديثه. يصدف للواحد يصاب بعمى البصيرة نتيجة حالة غضب عارم يدفعه لارتكاب جريمة. سكت برهة. بصرف النظر عن الدوافع الموجبة والظروف المصاحبة. مفرداتك قانونيّة. تخفف صوت آدم من بعض حزنه، بدا عليه كمن تذكّر أمراً. قال. دراسة القانون تحقق للسجين شيئاً من احترام سجّانيه. استطرد. هم يلجؤون إليك طلباً لاستشارة مجانيّة. لا بأس أنْ أشهر معرفتي بالقانون. أنت لا تصلح لأداء هذا الدور. لماذا. الأمر يحتاج تواصلاً يعتمد مبدأ سجّانك أرفع مرتبة منك، طبيعة شخصيّتك الواثقة أو المكتفية بذاتها تولّد نفوراً لدى من لا يعرفك.

أطلقٍ بدر زفرة تسليم. كيف لك تنزع جلدك. فجأة دوى الجوار عاليا بما يصمّ الآذان، مرّت أربع قاذفات طيران منخفض متجهة نحو الشرق، غابت عند خط الأفق. استنتج آدم. بغدادٍ. تابع. في الأيام الأولى لحربهم الجوية واصلت طائراتهم تحليقها عالياً جدّاً حتّى تظل بمنأى عن قدرة المدافع المضادة. أصغى إليه بدر. تحديد مواقع هذه المدافع استعانة بالليزر، تمّ تدميرها، في الليلة الأولى لتحليق طائراتهم فوق سماء بغداد أطلقت المدافع العراقية عشرات آلاف الدانات، اشتعلت السماء كما كرنفالات الألعاب النارية، الذي حدث أنّ كلّ الذي انطلق من مواقع أرضيّة عاد سقط حديد خردة. سكت ثانيتين. من بين ما قاله لي عبد الجاسم، أحد أقربائه يمتلك جهاز راديوٍ حديث، يمكّنه يسمع إذاعات عالمية، هناك بوارج أمريكية محملة صواريخ عابرة للقارات في مياه البحر الأبيض المتوسط توجّه صواريخها لأهداف على الخارطة وتكون قابلية الخطأ بإصابة تلك الأهداف على الأرض لا تتجاوز بضعة أمتار، عدا عن الصواريخ الموجّهة من قواعد في الأراضي الأمريكية، الأمر الملفت تدمير أي موقع أرضي يطلق النيران تجاه الطائرات بعد وقت قصير، لهذا السبب تناقصت أعداد مواقع الدفاعات الأرضية حتّى تلاشت. تطلّع بدر لأحد الأبراج حيث يتوارى مدفع مضاد، تساءل مع نفسه، لو كان وجّه نيرانه لطائرات عابرٍة. واصل آدم حديثه. صارت السماء العراقية مفتوحة لا تمثّل خطراً على الطيران المنخفض بقصد تصيّد الأهداف بدقّة ويسر من بين ما قاله عبد الجاسم، خبراء الحروب الذين استعانت بهم بعض الإذاعات العالمية، أبدواٍ حيرتهم إزاء نوعيّة المهام الموكلة لطيران الحلفاء، الذي كان متوقّعاً يبدأ بضرب

الحشود العسكريّة العراقيّة الرابضة في خنادقها عند حدود الكويت الجنوبية بمواجهة الأراضي السعودية، هم حيّدوا تلك الحشود، واصلوا تدمير طرق الإمدادات ووسائل الاتصال بهدف أحداث الفوضى في الداخل العراقي، يُحيل البعض الأسباب لتلميحات إعلام النظام العراقي بمفاجآت لا تخطر على بال الأعداء. قلق بدر ينازعه جزعه. عساه لا يضرب الكويت بالكيمياوي.

لكم أنْ تقولوا عني ما شئتم. مهّد بها فهد لافتاً اهتمام رفاقه، استطرد. لأسباب ناتجة عن نفور أهلي منّي أو نفوري منهم قررت لا أتزوج من بنات العائلة، لا أتزوج كويتية لكي تكون نكايتي بهم مُنجزة. لأنّه اكتسب غالبية خبرته البيطرية أيام دراسته في القاهرة كان للأخيرة دالّتها عليه، يقضي إجازاته السنوية فيها، معارفه من هناك، باتخاذه قرار الزواج طلب مساعدة صديق مصري. بعد بحث دام أشهر هاتفه صديقه، تعال، طلب إجازة طارئة أمدها أسبوع، وجدنا فتاة جميلة عمرها بحدود عشرين سنة، أتمّت دراستها الثانويةٍ قبل عام، من عائلة محترمة. بيّت فهد في نفسه يرى البنت أوّلاً صحب صديقه زوجته بصفتها الوسيط، توجّه الثلاثة لشارع كلوب بيه، عبروا ممر مبنى يتألّف من ثلاثة أدوار يضمّ شققاً سكنيّة، رأيت الفتاة، طيّبة على نيّاتها، شكلها مقبول، كنّا جلوساً في صالة بيتهم، لم أتعجّل ردّي بالموافقة، لكنّي بيّته، قدّموا لنا عصير مانجا، لحظة دخول شابّة فارعة القامة، جميلة لدرجة الانجذاب اليها منذ لحظة أولى، تولّت صاحبة البيت التعريف، هي ابنتها الكبرى، تعمل

سكرتيرة في سفارة السودان، انشغل ذهن فهد. لماذا السودان قبل أن يقرّب فمه لأذن صديقه يهمس، اضطرب صديقه، مال بدوره على أذن زوجته، تبادلت زوجة الصديق نظراتها مع الأم، نهضتا، غادرتا الصالة، غابتا دقائق، عادتا، أشارت الأم لابنتيها بإخلاء المكان، التفتت لفهد. يا ولدي. حيرتها تسكن صوتها، استطردت. أنت شاب لم تبلغ الخامسة والعشرين وابنتي الكبرى ليلى أكملت الثلاثين. طافت وجهها سحابة أسى. عدا ذلك ليلى كانت متزوجة منذ عشرة أعوام، لتترمّل قبل إكمالها سنة زواج. رسخ في وعيه حينها، هم لا يرفضون الفكرة. هل لديها طفل من المرحوم زوجها. لا بعد مغادرتهم المكان سأله صديقه. لو كان لدى ليلي خلفة. قاطعه فهد. لو وافقتْ ليلى تتزوجني لا مانع عندي. أم ليلى قالت وقتها. البنت أرملة وقرارها بيدها. ليلى قالت. لا اعتراض من حيث المبدأ. قالت. أحتاج أعرف هذا القادم من الكويت، ثم أقرر. حدث هذا أواخر شهر مارس 1983، التقيت ليلى مرّة واحدة، دعوة عشاء اقتصر علينا هي وأنا، أحد المطاعم العائمة في نهر النيل. نبس غالب. لقاء رومانسي. لا عيب أن أقول. سكت وهلة طارد خياله ذكراه، شف صوته. منذ ليلتنا تلك سحرتني ليلى، لمّا تحدّق إليك امرأة مكتملة الأنوثة في عينيك يأخذك خيالك إلى أين. عاد فهد إلى الكويت تاركاً نصف قلبه هناك، رحلته التالية بعد ثلاثة أشهر أبقى نصف قلبه الثاني لدى الحبيبة ليلى، تزوجا في سبتمبر، ليرتحلا من القاهرة، أمّ الدنيا كما يسمّي المصريون عاصمتهم إلى أمّ الجزر الكويتية فيلكا، لم تُفجع ليلى تماماً، استأجر فهد لهما شقّة صغيرة في منطقة الرقعي، صارا يغادران الجزيرة عصر يوم الخميس من كل

أسبوع ولا يعودان إليها قبل صبيحة يوم السبت، بعدما حملت ليلى بولدهما آثرت ملازمة فيلكا، لا مبرر لأنْ ينفق فهد جزءاً من مرتّبه بدل إيجار شقّة، ويكون البديل سفرة سنوية طويلة للقاهرة خلال فصل الصيف، وُلد عبدالله وانتظمت حياة فهد اليومية موزعة بين العيادة بالحالات القليلة لحيوانات الأهالي ومزرعة الخضار الصغيرة في الأرض الخلفية الملحقة بالمنزل. قطع استرسال فهد بالإفضاء سؤال بدر. لماذا عبدالله. شُده فهد للوهلة الأولى، ريثما أدرك ما رمى إليه بدر. تقصد لماذا سمّيت ولدي عبدالله. في حين اسم أبيك صالح. أطلق فهد ضحكة خافتة لا تخلو من مرارة. كنتُ أحمل ذكرى طيّبة عن جدّي أيام طفولتي الأولى. تساءل جعفر مضمّناً مناكفة. هل صادفتك طفولة ثانية. حدجه فهد نظرة متوعّدة التفت لبدر أكمل إجابته. عكس الحال مع أبي الذي ظلّ على موقفه الرافض لي. قال جعفر. له الحق ما دمت تتسلّك بالضدّ من إرادته. احتدّ صوت فهد قليلاً. هل تعرف أبي شخصيّاً. تدخّل بدر محاولاً تغيير مجرى الحديث، قال لفهد. لم تحدّثنا كيف وقعت في الأسر. وافقه فهد. لم أخبركم كيف وقعت في الأسر.

الوقت المتبقي لغروب الشمس لا يتجاوز ساعة، هو وهيا يجلسان حول طاولة في الركن الأبعد من أحد مطاعم شارع أبي نواس بإطلالته على نهر دجلة، جهاز الحاسوب بينهما، إصبع هيا يتحرّك فوق لوحة المفاتيح، قالت. نبدأ نتصفّح ملف كاتب القصّة. تريّث ذهن أيمن عند مفردة تصفح. تساءل. تصفّح أم قراءة. لكي

تقرأ تحتاج ساعات. تطلّع أيمن لعيني هيا، حيرته بين انفاقهما ساعتهما بإصغائهما لهما يستجليان مشاعرهما أو اطّلاع وقراءة متأنّية لمعلومات يحفزه فضوله يعرفها، التمعت عيناها استجابة لفكّرة طرأت لَها. خُذه الحاسوب معك. بادر للجهاز أطفأ شاشته. ما رأيكَ بالصداقة. فاجأه سؤالها. نحتاج إجابة فلسفية. لماذا فلسفية. الصداقة مفهوم يتسم بالشمولية. نبدأ من هنا. كلاهما، في العمق من داخله، يدرك أنّ واحدهما يعشق ثانيهما لدرجة تماهيه فيه، لكنّ أيّاً منهما لا يجد جرأته يجهر بحقيقته لأسبابٍ يعرفها ولا يريد التوقّف عندها. علاقتهما بالصيغة الحاملة توقاً معذّباً ولذيذاً في الوقت ذاته بموازاة خوف الفقدان أو انفراط عقد العلاقة إذا ما خرقت محيط دائرة الصداقة باتجاه الاعتراف حبّاً حيث لا مفرّ من مواجهة فكرة زواج، هو في حقيقته معنى استحالة ما دام بيت مدينة الضباط، يبقى البديل قبول حد أدنى، احتكام للصداقة، تبقى حتميّة الاحتيال على المفهوم. نطلب قهوة. أفضّل الشاي. ضحكت هيا. في الشاي لا أستطيع قراءة طالعك. فرد أيمن كفّه أمامها. طالعي هنا. تورّدتْ وجنتاها، الفعل بالنيّة المضمرة، ترددت قبل أنْ تزحف بكفيها. أكون صريحة معك. كوني معي. ارتعش صوتها. أنا معك. كفّه بين كفّيها. أنت تمثّل شخصيتين، واحدة بجسد ماديّ تتواجد في بغداد، والثانية أثيرية تقطن موسكو. ضحك. هناك وسيلة وحيدة لمحو فكرة أنّي مرتبط عاطفياً بمارلين. شحن صوته وعده. آخذكِ سفرة للقاء مارلين. حوّطته بعينيها. متى. ساعتهما مرّت سريعاً، حلّ المساء مبكراً. وحده جلسة استرخاء في غرفة معيشة بيت المعسكر حاضناً جهاز

الحاسوبِ، هناك الكثير مما يُقرأ أو يُشاهد، الكاتب إيّاه أصدر كتاباً جديداً قبل أشهر، لو تريّثنا عند مجموع إصداراته خلال إحدى عشرة سنة، مجموع سنوات أسر أخيه وجدناها سبعة، لم يعرف بها بدر. لو عرف الآن، لو واتت أيمن بادرته. بإمكانك معرفة الكثير من أخبار أخيك في هذا الجهاز. صور قديمة له، تراه فيها نسخة طبق الأصل عنك. يا لروعة هيا، إضافة لكتابات محددة عرفتْ تحمّل عيّنات من أعمال تلفزيونية، إذا انتقلنا للآخر غالب. نُبذة عن حياته، معارض تشكيلية شارك بها أو أقامها، صور للوحاته مع تواريخ إنجازها، آخر لوحاته مؤرخة مارس 1990، مع إشارة إلى جانب صورة علم بلده تُفيد وقع الفنان غالب سلطان فهد في الأسر أيام الاحتلال العراقي للكويت ولا أخبار عنه. كما الشعور بالذنب، ليس لأنّه يعرف هذا الغالب، لكنّه نهج نظامه الأبعد عن أيّما شأن مُتصل بحقوق الإنسان، مارلين تقول لمّا يشتدّ الخناق على الأنظمة الشمولية تبدأ تفتعل حروبها، حربهم التي افتعلوها وضعت أوزارها ما هدف احتجاز بشر حكم أجانب بانقطاع كُلّي عمّا يدور حولهم هنا أو في بلدهم هناك. الانفعال في لا مكانه، يضع الحاسوب جانباً، يتوجّه لمطبخه، يحتاج يشتغل أي شيء عساه يشاغل ذهنه الحاقد على من، تفقّد وعاء الطعام، أنّى له يأكل، عبر نافذته تنبّه لوجود فهد ينبش الأرض عنده، تُدهشه إرادة أيّ من الأربعة بمواجهة مجانيّة الحياة ضمن ظرف احتجاز لا نهاية معلومة له، لوّح الآخر بيده، فعل أيمن المثل، قفل عائداً لغرفة المعيشة، قراره قيد تنفيذه ، تأبّط الحاسوب، توجّه لأرضه الخلفية.

رتابة الزمن من لا فاعليّة الواحد، تقول. أعطني فكرة تتمتع بحيويّة تخليق أحداث بشخوص تتحرّك في الزمان والمكان المعينين امنحك نصّاً نابضاً واقعية مُقنعة. تقدم تتقمّص شخصية أخيك تكتب عنه أو من خلال في البدء كنتَ محايداً شعوريّاً قادراً تتحكّم بسير أحداثٍ وضعتها بمحضٍ إرادتك، بعد مسافة ورق اكتسب نصّك وجوداً يؤكّد استقلالاً خلته نسبياً، لكنّه فرض عليك شروطه، ولا مناص من انصياعك له عبر رصد فاعليّة تشكله في مخيلتك بصفتها مسرح أحداثك. وجدتك تعاني السجن بصفته نهج عقاب لقاء ارتكاب محدد، الارتكاب في حالة بدر دفاع عن وطن صيغة مقاومة طرف مُعتد. يا بدر. التفتَ بدر مستغرباً البحّة المشروخة الآخذة بصوت محدِّثه. ما بك. صدرت عن آدم سعلة اهتزٍ لها جسده. يبدو أنّي مصاب بنزلة برد حادّة. سعل ثانية. ابق بعيداً قليلاً حتّى لا تُصاب بالعدوى. قلق بدر ينازعه استغرابه. قبل ثوان لم تكن مريضاً بالمرّة. صدرتْ عن آدم ضحكة مفارقة خافتة. لأنّهُ مطلع شهر فبراير. لم يخف بدر دهشته. هل تمرض حسب التقويم. لو أنّي لم أتذكّر. ليتني أفهم. ما بعد فقدانه أعزّ صديق عنده، أو بالأحرى صديقه الوحيد، صار جسد آدم يتسلّك خارج إرادته أحياناً، يتذكّر مناسبات ثنائية يعيشها كأنّها واقع قائم. منذ سنوات يداهمني المرض أوائل فبراير، السنة الماضية أصبت بنوبات مغص حادّة مصحوبة. ترك جملته مفتوحة، أطبق جفنيه. هذا الصداع الحاد. تقوّس جسمه العملاق، برك أرضاً، رغم طلبه السابق أن لا يقترب منه بدر خشية انتقال عدوى ما استسلم آدم لذراع بدر، ساعده على قطع مسافة الأرض الفضاء حيث كانا يقضيان وقت فسحتهما المسائية، ليجتاز به بوابة

العنبر داخلين. يا للجسد الخسيس. رددها حاقدة، استطرد. جبّار في لحظة وفي لحظة تالية خرقة بالية. ضحك بدر. ما سمّوك آدم إلّا لكي تدوم. من أين جئت بهذه المقولة. من واقع حال رجل قانون تشادي يقيم في سجنٍ بو غريب عراقي. كان آدم استلقى فوق دثاره، سحب لصدره شهيقا عميقا. لا أدري ما إذا كان ردّ الفعل المرضي في الموعد المحدد يمثّل رغبة خفيّة للحاق بالصديق الفقيد. هذا رأي له علاقة بالطب النفسي. بدا على آدم وكأنّه لم يسمع. توقيت مضبوط لا يتأخّر ولا يتقدّم، لعلّها المشيئة الخفيّة لمجاراة ما كان يصيبنا أنا وصديقي في أوائل شهر فبراير من كلّ عام لمّا كنّا ندرس القانون في جامعة القاهرة. تتحدّث ما يشبه الألغاز. سكنا شقّة استديو صغيرة في حي السيّدة زينب، لعلّه جرّاء البرد والرطوبة كنّا أنا أو عليوة نتناوب الإصابة بالبرد مطلع فبراير كلّ عامٍ. ردد بدر اسم عليوة بدهشة سبقت قوله. كأنّي أعرفه، أظنّه محامياً مصريّاً التحق بمكتب الكندري للاستشارات القانونيّة، اختفى فجأة قبل سنوات ولم تُعرف أخباره. قتله ضابط قوّات خاصّة عراقي أمام مقهى في مدينة القاسم. بلد صاحبك عبد الجاسم. رغم معاناته إرهاق المرض شاع في وجه آدم حس الاكتشاف. لم أتنبّه لهذا من قبل. سكت وهلة. هل سبق لعليوة ترافع أمامك. لا هل كنت تعرفه بشكل شخصيٍ. ليس تماماً. طوّفت وجه آدم سحابة حزن. لكننا تبادلنا سلاماً عابراً أكثر من مرّة. شعّت عينا آدم ببريق أمل. معروف عن عليوة أنّه نشيط مقارنة بمحامين آخرين. انفرج فم آدم بابتسامة توق، احتياج غير مبرر لسماع تفاصيل عن موتى لهم حضورهم الخاص بهم، لما في الكويت، بدر يعرف الكندري المحامي، ولا يضيره إذا

وضع الكندري ثقته بعليوة، ميّزهُ عن محامين منتظمين في مكتبه. عليوة نبيه وفق لاكتساب احترام الجميع. اعتدل آدم جالساً. ما عاد الصداع بالشدّة. بقي من زمن الفسحة نصف ساعة، وهما يزمعان الخروج من بوابة العنبر سمعا رشقات بنادق رشاشة. تخللتها صيحات احتفالية. العراقيون يعبّرون عن فرحهم بعنف. أنباء متناقلة عن مصادر مسؤولة في أعلى هرم السلطة، وافقتْ القيادة العراقية على حقن دماء الجميع، ارتأتْ سحب جيوشها وراء حدود ما قبل الثاني من آب الماضي، شرط أنْ تجري تسوية الأمور العالقة بين العراق والكويت بالسبل السلمية، الفرحة المفاجئة دامت ساعة، صدر على الفور بيان رسمي شديد اللهجة. ننفي هذه الافتراءات، وإنّ عراق المجد قادر يخوض غمارٍ أم المعارك وينتصر على جحافل البغي والعمالة. غمغم آدم مرتاحاً. الحمد لله. تطلّع فيه بدر. قيام الحرب البريّة واجتياح جيوش الدول المتحالفة للأراضي العراقيّة عامل حاسم بإسقاط النظام.

دخول فهد غرفة المعيشة حاملا جهاز الحاسوب سأله غالب. ما هذا. لست متأكدا ما هذا. وضعه بحرص فوق الطاولة. سلّمه لي ملازم أيمن قال عنه حاسوب شخصي. تملك الجميع فضولهم، التمّوا حول الجهاز. أبدى بدر دهشته وهو يقلب الجهاز بين يديه. وزنه خفيف. أخذ جعفر الجهاز، فتح غطاءه، شعّت شاشته بنور أزرق باهت. عهدي بالحاسوب أنّه يتألف من عدّة أجهزة، أحدها خاص بشاشة العرض، وزنها لا يقل عن وزن فهد. ضحك كلّ من غالب وبدر، احتج فهد. لماذا

التشبيه بوزني. لأنّك رشيق. انبرى غالب. التطور العلمي في الخارج بلغ شوطا تعجز معه أذهاننا عن تصوّره. توجّه بدر بسؤاله لفهد. ما الذي قاله لك ملازم أيمن. قال بإمكاننا الاطلاع على محتوياته. أبدى غالب حيرته. كيف يتأتى لنا الاطلاع على ما لا نعرف. أرشدني ملازم أيمن لكيفية تشغيله. التمّوا حول الطاولة، من أين نبدأ، كيف لأيّ يبدأ. كلّ الذي تصادفهم به شاشة الجهاز مدعاة ذهول يبعث على سعادة، سرعان ما تتحول حسرة بطعم الضياع. نرى صور هذا السوق. سمّوه سوق شرق. يقع بمواجهة المستشفى الأميري جهة البحر يضاهي أشهر أسواق لندن. أجمل. شيّدوا إلى جانبه مرسى زوارق. تمّ افتتاحه في سبتمبر 1998. قبل ثلاث سنوات. الكويت آخذة تتقدم. عساه لا يكون عمرانياً فقط. لعل عبور تجربة الاحتلال أحدث تغيّيراً نحو الأفضل. أو الأسوأ. أنت لا تستطيع تجاوز تشاؤمك. ليس ما يدعوني لذلك. واصلوا يتصفحون، استرعت انتباههم صور لمنطقة المباركيّة، قال فهد. سوق السمك القديم أفضل من الجديد. حنينهم ينبعث دافئاً لدى تصفّحهم. ها هو ملف مجلّة العربي. قبل استعراضهم أسماء كتّاب مشاركين. توقّفوا عند اسم مُحدِد. هذا أخوك يا بدر. اغرورقت عينا بدر، بذل جهده يبقى متماسكاً. ملازم أيمن خص أخاك ملفاً وحده. آخر تحديث معلومات قبل أربعة أيام من الآن. تعداد إصداراته في السنوات الأخيرة. لا أخالني ألقاه ثانية. تفاءلوا باللقاء. أمورنا، كما هو واضح، آخذة تنفرج، ووصول هذا الحاسوب أكبر دليل. عساهم لم يغفلوا جزيرة فيلكا. بحث في ملفّات قرص CD، قال. يوجد شيء عن الجزر الكويتية، ها هي صور فيلكا. تريّث عند بعض الصور، لامس صوته إحساسه بالإحباط. كما لو أنّها تخلّفتْ عمّا كانت عليه. احتدّ

صوته قليلا. لماذا لا يولون اهتمامهم لجزيرة فيلكا. نبهه جعفر بمحبّة. أعصابك. انتقل لملف لاحقٍ، صوته يحمل إعجابه. أيمن رجل خطيرٍ. ماذا. اقترب يا غالب. تطلّع غالب في شاشة الحاسوب هتف مبهورا. هذا أنا أيام معرضي الشخصي عام 1988. توجد صور لأهم لوحاتك. امتدت إصبع بدر مشيرة. صورة لوحتك المعلقة على جدار صالة منزل اخي. همس فهد لغالب. أنت تحب الحيوانات. في حالات الانكشاف الإنساني تباغتك ضحكتك خارج توقّعك، ضحكاتهم أربعتهم، حتّى وإنْ صدرت من قلب أيّ منهم، تبقى تختزن مرارة الفقدان.

لحظة مغادرة عريف ريسان لجلب الجراية اليومية رن جرس الهاتف. همس أيمن لنفسه. لا أظنّها هيا. رفع السماعة. معك سكرتارية مكتب السيد آمر المعسكر. ارتج قلب أيمن في صدره. ما الذي يضمرونه. تساءل. خير. السيد العميد يطلبك الآن. حاضر. أقفل الخط، معضلته لا تكمن في كونه مطلوباً للمثول بين يدي العميد، الأخير بصرف النظر عن الرتبة والمكانة بمثابة راع له، جزع أيمن يكمن باحتمال وجود موفد من طرف مديرية الاسّتخبارات المركزية، ضرورة الاطمئنان لأوضاع العهدة، جزعه الأشد مترتّب عن وجود الحاسوب حوزة العهدة. لو عمدت استخباراتهم أرسلت أحدهم لغرضٍ الرؤية على الطبيعة، مداهمة الوقت وضرورة استعادة الحاسوب فورا، توجّه للأرض الخلفية، لا أحد من رجال العهدة في الجوار. يجزم بأنّهم يلتمّون في غرفة معيشتهم حول الحاسوب، ارتدى زيّه العسكري على عجل، غادر مبنى منزله، باب منزل العهدة

بمواجهته، أعمل مفتاحه، رآهم ملتفينٍ حول الحاسوب. انشغالهم حواسهم كلّها لم يتنبّهوا لدخوله. مرحباً. وقع المفاجأة، حسّ الفجيعة إزاء داهم مجهول. بادر جعفر أغلق الحاسوب، امتدت يده به. هل فهم القصد. هدف أيمنٍ يُطمئن. أحاول أعيده لكم. أضاف. احتمال تفتيش. غادرهم سريعا، دس الحاسوب تحت مقعد سيّارته الجيب. دخوله مكتب العميد. أمرك سيّدي. رأى، إضافة للعميد، ضابطاً متجهّم الوجه رتبة عقيد استخباراتٍ، قال العميد. السيد العقيد يود معاينة وضع العهدة. هبّ واقفاً، فكّر أيمن. عسى عقيد الاستخبارات لا يتنبّه لمسألة الطيور، لا يحتج على زراعة أرض خلفية أو وجود إبريق لإعداد الشاي. العميد ومرافقه ركبا سيارة جيب، لحقت بهما جيب أخرى تُقل ضابطين ملازمين وعريفين، بلوغهم المكان، استغرب أيمن وقوف عريف ريسان وضع استعداد أمام باب بيت العهدة، الأمور بالسرعة التي جرت بها، ريسان أدّى تحيته، العميد ومرافقه لم يتريّثا عنده، عبرا بوابة بيت العهدة داخلين، الضابطان الملازمان إضافة للعريفين المرافقين بإثرهما، بادله ريسان نظرة مفادها لا بأس، حثّ خطوه بعدما سبقه الآخرون لغرفة المعيشة، ازدحام المكان بهم، تفاجأ برؤية الأربعة العهدة لابسين زي السجناء الذي وصلوا به لهنا، كانوا واقفين حول طاولتهم حيث وجبة غدائهم. دسّ العقيد يده في جيب صداره، تناول ورقة مطويّة، نشرها أمام عينيه، قبل أنْ يتوجّه بسؤاله لأحد الرجال الأربعة. ما أسمك. بدر فهد الفهد. عملك. كنت في سلك القضاء. من أين جاءوا بك. من سجن بو غريبٍ. عنبرك هناك. 7. واصل توجيه الأسئلة وسماع الإجابات وهو يتطلعٍ في ورقته، عاد بعدها وجّه أسئلته كاملة لكلّ من غالب وفهد وأخيرا جعفر، حيث

تجهّم وجهه أكثر عندما سمع إجابة الأخير بخصوصٍ وجوده لسنوات في معتقل مديرية الاستخبارات، حدّق لوجهه، لعله رآه في مكان ما. تعني المديرية العامّة. تساءل العقيد مُتشككاً. أجابه جعفر. فرصتي أن أتقدّم بشكري الجزيل لك سيّدي لأنّكم وقت اشتداد المرض علي هناك أمرتَم بإحضار طبيب تولى فحصيٍ واشتريتم لي الدواء. لحظتها ارتخت قسمات وجه العقيد مُداريا إحساسه بالزهو أو بالإحراج، وجّه خطابه للرجال العهدة. تناولوا طعامكم. أومأ لمرافقيه بما يعني إنجاز مهمتهم، أشار بيده صوب باب الخروج، سبقه العميد، لحق بهما أيمن. وقف الثلاثة عند السيّارة، قال العقيد موجهاً خطابه لآمر المعسكر. سأشير لكفاءتكم بتولي المهام الموكلة لكم سيّدي. أجاب الآخر بأريحية. إشادتكم يجب أنْ تكون من نصيب ملازم أيمن ابن العميد ركن عبدالرزاق آمر معسكر الرشيد. امتدت كفّ العقيد لأيمن. تحيّاتي. ابتعاد الرتبتين ومرافقيهم، ابتسامة ريسان تعلو فمه، قال أيمن. مبادرة ذكيةٍ أنّك طلبت منهم يلبسون زي السجناء. لم أطلب، وصلت حاملاً الجراية، وجدتهم لابسين، سألتهم لماذا، أجابوني أنّك أخبرتهم احتمال تفتيش.

التقيت عليوة أوّل مرّة صبيحة يوم بدء الدراسة، ثانوية صلاح الدين، كلانا كان سنة أولٍى، توطّدت صداقتنا بعدها. سكت برهة. أنهينا دراستنا الثانوية معاً، معدّل درجاتنا غير مُرضٍ. تنبّه سأل. أين درست الثانوية. عبدالله السالم، ميدان حولي. كانتَ أحدث مدرسة ثانوية كويتية. قيل عنها نموذجية. ماذا عن دراستك الجامعية. أنهيت

ليسانس الحقوق في جامعة الكويت. عليوة وأنا التحقنا بجامعة القاهرة معاً، اخترنا دراسة الحقوق، أنهيناها معاً، بعدها استجبت لإلحاح أبي سافرت لبريطانيا مواصلة دراسات عليا بالقانون الدولي، عاد عليوة للكويت، تسلّم وظيفة في شركة التسهيلات التجارية لثلاث سنوات، قبل أنْ يتركها، يلتحق بمكتب الكندري للمحاماة. أبدى بدر ملاحظته. تحفظ تاريخ عليوة بشكل جيد. أجابه آدم بحزن. لكني عجزت أدافع عنه عندما. حزنه منعه يكمل جملته، كانا يقفان إلى جوار جذع شجرة أكاسيا هرمة. قال بدر مُغيّراً مجرى الحديث. اليوم هو الخامس عشر فبراير. الفسحة الصباحية أبّانها، الأرض الفضاء الكائنة وسط العنابر تعج بالسجناء، تابع بدر حديثه. بعد عشرة أيام يصادف أوّل عيد وطني والكويت تحت الاحتلال. قال آدم. وتيرة الحرب آخذة تتصاعد بأسرع مما يتصوّر الواحد. عارضه بدر. أنا أتحدث عن عشرة أيام باقية. قاطعه آدم. في نبأ مؤكّد. أصدر بدر ضحكة قصيرة ودودة مُسبّقاً لتساؤله. نقلاً عن عبد الجاسم. احتجّ آدم عبد الجاسم مصدر ثقة. صمت وهلة. يُقال، وهذا أمر مؤكد، الرئيس الأمريكي جورج بوش وعد أميركم أنْ يجمع ما بين يومي التحرير والعيد الوطني. كيف. الخطة المعتمدة من جانب قيادة قوات التحالف تقضي بإنجاز تحرير الكويت يوم الخامس والعشرين من هذا الشهر. غافلت بدر ضحكة مفارقة خافتة. الست معي هناك مبالغة اتخذت شكل إشاعة. ما أدراك أنّها ليست حقيقة. ردد بدر متمنياً. عساها. لحظتها ارتجّ الجوار بما يشبه الانفجار القوي، عبرت السماء طائرتان مقاتلتان بطيران منخفض. لدى توجههما نحو الشرق. هم يخرقون جدار الصوت. من أين للصوت جداره. ضحكا

معاً، تنبّه بدر لأعلى البرج حيث المدفع المضاد للطائرات، رأى الجندي القيّم عليه يحرّك فوّهة ماسورة مدفعه صوب الغرب توقّعاً لقدوم طائرات لاحقة، مرّت دقيقتان، ارتجّ الجوار ثانية، اغتنم جندي البرج فرصته، أطلق. شاهد بدر سحابة دخان صغيرة تصاعدت من فوهة ماسورة المدفع. دانته، على ما يبدو، لم تُصب هدفاً طائراً، الذي حدث إنّ إحدى الطائرات خففت من سرعتها عند الأفق، ارتفعت إلى الأعلى، أدّتْ استدارة، لتتقدّم بالاتجاه، هل رصد جندي البرج عودة الطائرة، ركض للسلّم الحلزوني الخاص بالبرج. هل تتوفر له فرصته، الطائرة العائدة وجّهت صاروخاً من تحت أحد أجنحتها، خيل لبدر أنّه صاروخ صغير، لحظة لامست قدما الجندي الأرض انفجر الصاروخ بكابينة البرج، سقط المدفع حطاماً، عمّت الفوضى الساحة، تراكض السجناء نحو بوابات العنابر، الغبار المترتّب يكاد يحجب الرؤية. عاد بدر يبحث بعينيه عن الجندي، رآه يحتمي ببقايا قاعدة البرج متخذاً وضعاً جنينياً. هذا مثال على من يتجرأ يترصّد طيران دولٍ متحالفة. تابع معتداً. تشاد من دول التحالف. ضحك بدر. نقلاً عن عبد الجاسم. قناعتي الخاصة. استطرد. قال لي عبد الجاسم البارحة طيران التحالف دك الملاجئ الحصينة الخاصة بالسيّد الرئيس وبطانته بقنابل خارقة للحصون. خلاصة ذلك. الرئيس يعيش مطارداً لا يستطيع قضاء نصف نهارٍ أو أكثر من ليلة واحدة في موقع بعينه، يلزمه الانتقال السريع وإلّا جرى اصطياده. أشار لبقايا البرج، أتمّ. بالسهولة ذاتها. أنت متفائل. بغداد الآن مدينة أشباح يسكنها جزع الناس نهاراً ويعمّها الظلام ليلاً، عبد الجاسم يقول. بدرت عن بدر ضحكة قصيرة، لم تمنع الآخر يتابع. الغالبية العظمى

من أهالي بغداد هجروها إلى الأرياف. عقّب بدر. نشداناً للأمن. طرأ له يسأل. حال الكويت وسط هذا كلّه. يقول عبد الجاسم. قاطعه بدر ضاحكاً بأعلى. آمنت الآن أنّ عبد الجاسم وكالة أنباء متكاملة. لم يخف آدم نفاد صبره. تريد تعرف أخبار الكويت. أريد. اسمع إذن. التقى عبد الجاسم بأحد أبناء عمومته، جندي هارب من وحدته في الكويت، يقول سماء الكويت مزدحمة طائرات طوال الوقت، لكنها طائرات متجهة نحو الأراضي العراقية أو عائدة لقواعدها في المملكة العربية السعودية، في الليل تحديداً تخترق أجواء الكويت عشرات الصواريخ العابرة. لم يقصفوا تجمعات أفراد جيش النظام العراقي داخل الكويت. لكنّهم استهدفوا مقّار قيادات الاستخبارات، والرادارات، وقواعد إطلاق صواريخ سكود، الرئيس العراقي هدد بإحراق نصف إسرائيل. لماذا اكتفى بالنصف. تجاوز آدم تساؤل بدر. أطلق صواريخ سكود عديدة نحو الغرب. علت وجهه ابتسامة أسى. سقط معظمها فوق الأراضي الفلسطينية المحتلة. الخشية أنْ تشعر القيادة العراقية بحتمية السقوط تلجأ لأسلحة دمار شامل. لن يمهلوها تفعلٍ ذلك. تتحدّث عن قناعة راسخة. قناعات ناس تشاد راسخة دائما.

يا فهد. رفع جعفر صوته، التفت إليه الأوّل. أنت منذ الصباح منكب على الحاسوب. وجه الاعتراض. أنت لم تتفقّد زرعك أو طيورك. عاد فهد لمشاهدة الحاسوب. البركة فيك. غيرك يريد الانفراد بالحاسوب. أمهلني ساعة أخرى. وصول لجنة تفتيش للمرّة الأولى،

ارتباك الأربعة لحظتها، بعد ذهاب اللجنة المعنية ظهر ملازم أيمن وراء سور الأسلاك الشائكة، كان فهد ينفق وقته ينبش أرضه. أنتم أحسنتم التصرّف أمام فريقِ التفتيش. دفع حاسوبه لفهد. أبقوه عندكم لحين انتهائكم. لأنّه تسلم الجهاز هو أحق باستحواذه عليه، الأمر الذي لا يُصدّق هناك مشاهد كاملة من خارج الحظيرة، ها هو حصان الشيخ فهد الأحمد، ها هو الممثل الطفل فهد النجار. يا فهد. رفع جعفر صوته ثانية. خير. اسمح لي أقرأ أخبار مجلس الأمّة. لا أملك أنْ لا أسمح لك. قال فهد وهو يدفع بالحاسوب لجعفر. لكني أملك حقّ أعارض غريزة الصحفي الآخذة اهتمامك. أطلق جعفر ضحكة قصيرة مشوبة أسى. واحد بدون أسير يهتم بمعرفة أخبارٍ الديموقراطية في بلد ينكر عليه مواطنيته. دفع له فهد بالحاسوب قائلاً. هنا كويتيون ثلاثة نصّبوك مواطناً. يكفيني هذا. شمس التاجي توشك تغربٍ، قال بدر لغالب. دورك بالحديث. البارحة زارني وحيد، لم يكن قردا، وإن اتخذ صفات قرد، كان يمشي على قدميه مستقيم الظهر، يتحدث بطلاقة، المكان يشبه شقة العُمَريَّة لكنه يقع وسط مساحة أرض رملية مزروعة بالأثل، كنت أعاني من قلق شديد مجهول المصدر بالنسبة لي، اقترب مني، لا سبب يدعوك لأن تحزن ها هو سلطان بطريقه إليك. هبط صوت غالب فجأة. رسخ في دخيلتي للتو، سلطان هو ابني. خيّم صمت أنهاه بدر. الذي عرفناه منك أنت بلا أولاد. حزن غالب يتشرّب صوته. كيف لمشاعر أبوّة غيرٍ موجودة في الواقع تأتي نابضة قويّة كما لو هي حقيقية، جاءني لابسا دشداشة بيضاء، شعره أسود، قلت له. شعرك شبيه بشعر أمّك، تنبهت إلى أنّ وجهه نسخة رجولية مصغّرة عن وجه رباب، أين أمّك، سألته أجابني هناك عند مدخل مستشفى الولادة،

لم يتبادر لذهني الحالمِ رباب توفيت متأثّرة بجراحها، أخذت بيد سلطان، كان شابا صغيرا تجاوز سنته العاشرة، مشينا معا، وجدتني في الساحة الأمامية لعنبر 23 من سجن بو غريب وقت الفسحة المسائية، صحوت من نومي أتصبب عرقاً، مشاعر أبوّتي لسلطان باقية مُسيطرة عليّ، منذ مجيئنا لهنا لم يسبق رأيت وحيدا في حلم. سكت وهلة. لما كنت نزيل سجن بو غريب كان يزور أحلامي مرّة أسبوعياً على الأقل، في زياراته تلك لم يتكلم العربية، كان يكتفي يطلق صيحات فزعه، ماذا لو أنّ زيارته لي البارحة توطئة لزيارات قادمة. يزعجك حضوره ضمن أحلامك. يزعجني استيقاظي من نومي بمشاعر محتدمة مؤلمة في الوقت نفسه. عندي اقتراح بحل. قال فهد، استطرد. أنت فنان، حاول استحضار ملامح قردك وحيد وارسمه. هل تظنّ. تدخّل جعفر. فهد طبيب حيوانات يعرف طباعها في الأحلام تحديداً. بصرف النظر عن سخرية فهد، لو كنت أنا صاحب الحلم لما انزعجت بالمرّة، شيء خير من لا شيء. منذ أسري. رحل صوته وراء توقه. كلما حانت ساعة نومي أدعو كي أرى ليلى ولو للمحة خاطفة في حلم. سكت وهلة. الأحلام نعمة لا يعرف قيمتها إلّا فاقدها. شابت صوته رعشة طارئة. لمّا فارقت ابني عبدالله كان عمره خمس سنوات، إنْ بقي حيّاً أوشك يبلغ السابعة عشرة، على افتراض أنّي حلمت، هل سيحضر حلمي بصفته طفلا في الخامسة أم أراه شابا بقامة تنافسني طولا الصمت في حالات منه يحلّ عفواً، قطعه غالب قائلا لفهد. فيما يخصّني قررت الأخذ بنصيحتك، أحاول استحضار ملامح وحيد، أرسمه. ختم. ستكون الرسمة من نصيبك.

أنت بصدد شراء هدية لصديق. قالتها هيا، سيارتهما تواصل سيرها. ما نوع الهديّة التي تفكّر بها. مستلزمات رسم. لم أفهم. نشتري ما يتصل بمزاولة الفن التشكيلي. يلزمنا التوجّه لأسواق حي المنصور. سألهما البائع. مطلوبكم. بدءاً من قماش الرسم انتهاءً بالزيت الخاص بتنظيف الفرشاة. ماذا عن عبوات الألوان. كلّها. عبوة من كل لون. ثلاث عبوات. لا بدّ أنْ يكون صديقاً عزيزاً جدّاً لكي تدفع مبلغاً كبيراً. الأمر غيره. حدّقت فيه هيا. الهدية لقاء رسمة بالقلم الرصاص. رسمة ثمينة بالتأكيد. الثمين هو البادرة. هل كانت الرسمة جميلة. مقارنة بالأصل. ضحكت هيا. متى أراها. المرة القادمة. تذكّر تابع. نضعها في إطار مناسب نعلّقها على جدار غرفتي. غرفتك في مدينة الضبّاط. عندي غرفة وحيدة صغيرة تقع في أحد بيوت السنك. همهمت هيا بكلمة لم يميّزها أيمن، لعلها حبيبي، قبل بلوغهما البيت قالت هيا. بخصوص الكاتب الكويتي صاحب النصّ المعقّد. ما به. صباح أمس دخلت موقع مجلّة عمّي خالد. ابتسمت بما يشبه التواطؤ. نشروا له في عددهم الأخير نصّاً جديداً، قرأت بضعة أسطر منه، ليس مُعقّداً مثل الأوّل. اكتفى أيمن يصغي. تابعت هيا. إن شئت سجّلته لك على قرص CD. أشاء ما تشائين. سمعها غمغمت كلمتها المبهمة ثانية. رأى ريسان مستلزمات الرسم. رفع حاجبيه. هذا كثير، ستكون فرحة أحدهم كبيرة. سأل. هل نسلمها الآن. ودّ أيمن لو يكاشف الآخر. يا ريسان، يخيّل لي أنّي حمّلتك فوق الطاقة، إذ ليس من صالحك مشاركة أعباء أسرار تتصل بمخالفات جسيمة. بمحاولة لطرد أفكار سوداء بادر أيمن نشر رسمات القلم الرصاص الأربع على سطح الطاولة.

قال ريسان. غالب فنان يستحق ما جئته به. عبر أيمن على كلمات محدّثه. أريد مبادلتك الحديث. حاضر. حار أيمن من أين يبدأ، وإنْ بدأ كيف له بمضمون يَفي غرضه. أنا سعيد كوننا نعمل معاً. أنا أكثر سعادة، أم هيا تقول نحن محظوظون لأنّي أعمل تحت أمرتك. آنا أكن لك ولعائلتك مشاعر محبّة ينازعها شعور بالذنب. لماذا أعوذ بالله. ينتابني يقين أنّي ورّطتك فيما لا طاقة لك به. عفواً ابني أيمن. استدرك. اغفر لي كوني سمحت لنفسي لحظة انفعالي قلت ابني. لا اعتراض. رددها أيمن بمحبّة، أضاف. الاعتراض أنْ يصيبك، أنت أو أي فرد من عائلتك مكروه جرّاء مخالفات أنا مسؤول عنها. لعلمك أنا لم أفعل ما لا يُرضي ضميري، وإلّا قلت لك آسف سيّدي. لماذا سيّدي الآن. تجاوز ريسان تساؤل أيمن. أدري بالامتحان الصعب الذي مررنا به يوم قدوم جماعة التفتيش، لكن الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المحسنين، نحن لم نرتكب جريمة خيانة أمانة ولا خيانة وطن، يعلم الله أننا نتصرّف بوحي ضميرنا، نرعى رجالاً ليسوا مجرمين عتاة. ابتسم بدلالة الرضا. ربّما ليسوا مجرمين بالمرّة، الدليل أنّهم يتصرفون بنبل. لم يجد أيمن ما يعقّب به.

صفحة بريدك الإلكتروني تفيد لديك رسالة مرفقة بملف من طرف العراقي الاسترالي خالد عادل يقول برسالته أنّه رجع لعدد ماض من مجلة العربي، وجد فيها موضوعاً حول نفي الآخر لدى الحركات السياسية وأنظمة الحكم في دول العالم الثالث أو الثاني، لا فرق، ولأنّك سبق منحته صلاحية إعادة النشر وجد فرصته ضمن

عدد مجلته الأخير. تتذكّره موضوعاً نشرته قبل سنوات، كان مهمّاً في حينه، ولا تدري من أين لهذا الخالد مزاج البحث في مطبوعات قديمة، كذلك لا مزاج لك تعيد قراءة قديمك، يشغلك موضوعك الماثل على الورق أمامك، زجّك بأخيك في خضم تصوراتك، لا بأس من صيغة تعامل سردي، لكن البأس أنْ تُعايش الحالة شعورياً، بما يحيلك عدوانياً. أنت لا تتقمّص دور سجين حسب، أنت تعود بذاكرتك لأيام الحرب الجوية قبل إحدى عشرة سنة، تستعيدها حيّة تدور رحاها الآن، تجلس في مكتبك المواجه مقبرتك الأثرية، الصمت مطنب حولك، في حين واصلتْ أذناك تطنان بدويّ محركات مئات آلات طائرة عدا عن صفير صواريخ عابرة، ولا مناص. ساعة الفسحة المسائية. بدر وآدم يرتادان مساحة أبعد وراء العنابر القديمة جوار الأسوار المتعددة للأسلاك الشائكة التي تفصل منشآت السجن عن الأراضي الزراعية المحيطة، لآدم دالّته على رجال أمن السجن، بما يجعلهم يتغاضون عن تصرفات لا يسمحون بها لغيره. الأحداث آخذة تتسارع لدرجة عجز الذهن عن متابعتها. آدم يقول وبدر يصغي. انشغالهما الكلّي بتداول أخبار الحرب الدائرة، الجندي عبد الجاسم نقل لآدم. اليوم 22 شباط، وحدات الجيش العراقي الرابضة في الخنادق على امتداد حدود محافظة النداء مع السعودية تتعرض لجحيم قصف قنابل البنزين زنة خمسمائة كيلو. لم أسمع بقنابل البنزين. كذلك قامت المدفعية بعيدة المدى لجيوش الدول المتحالفة بدك استحكامات الجيش العراقي هناك، قصفوا ما وراء الخطوط، قطعوا على الجنود سبيل التراجع نحو العمق. هل أنت متأكّد من أخبارك هذه. عبد الجاسم متأكد. لا خيار أمام الجندي العراقي،

الموت أو الأسر. أسرانا بالآلاف. كنّا يتوعد دول التحالف بالويل والهزيمة المنكرة عندما تنشب الحرب البرية، التهديد من الوعيد، ترانا أين. لا أظنّك تبقى على معارضتك لي. بخصوص ماذا. ها هو جورج بوش يكاد ينفذ وعده لأميركم، الجمع بين تاريخ العيد الوطني وعيد التحرير المنتظر. ضحك بدر. أنت تقولها منتظر، بما يفيد غير المؤكد. قُل إن شاء الله. ما بعد جراية العشاء غاب آدم لدقائق اختلى خلالها بالجندي عبد الجاسم. لدي أخبار هامة، تجاوز عدد الغارات الجوية حتّى ظهر هذا اليوم مئة ألف. رقم فلكي. عليك أنْ تقدّر حجم الدمار المترتب. طيرانهم يختار أهدافه بشكل دقيق. سبب إطالة أمد الحرب الجوية، كما يقول عبد الجاسم، يعود إلى أنّ النظام العراقي لجأ لحشد دروع بشرية من مواطنيه في الأماكن الاستراتيجية والمواقع العسكرية المهمة لكي يمنع طيرانهم من قصفها. بعدما اضطرّ لإخلاء سبيل دروعه البشرية من الأجانب لم يجد من يضحّي بهم غير ناسه. في حين لا يني إعلامه يردد مقولاته جماهير شعبنا الأبيٍ تأبى إلّا أن تدافع عن منجزاتها الحضارية. هم ينتهجون أسلوبا إعلاميا مفاده اكذب حتّى تُصدّق نفسك فيصدّقك الآخرون. كانا يتبادلان حديثهما همساً خشية إقلاق نوم سجناء الجوار. مدّ آدم يده لأسفل النافذة حيث المربع الزجاجي، دخلت نسمة هواء منعشة معطرة برائحة ورق شجر أكاسيا. تابع آدم همسه. يقولون عن كمّ المتفجرات التي أسقطتها طائرات الدول المتحالفة على الأراضي العراقية تجاوز ستين ألف طن. أنت تفرح لاحتمال سقوط نظام ظالم لكنك تحزن لدمار لا يمكن حصر آثاره. السيد القائد لا يهتم بحجم التدمير نحن مسؤولون نعيد بناء ما دمّروه. عدا هذا يقول هو على أهبة الاستعداد

لمواصلة الحرب حتى آخر عراقي. هناك من يقول لو وضعت هذه الحرب أوزارها وتلفّتَ الناس لتأمّل ما بقي لوجدوا بلدهم وقد عاد إلى أيام الهيمنة العثمانية إنْ لم يكن أبعد من ذلك. الساعة قاربت منتصف الليل، سيحل 23 فبراير، لم يبق عن موعد العيد الوطني الكويتي سوى يومين. ما أدراك أنّ هذين اليومين لن يكونا حاسمين. أطلقٍ بدر ضحكة لامست حدود الهمس. لا أدرٍي لماذا أنت متفائل جدّاً. حين يتفاءل الناس في تشاد يتفاءلون جداً.

كيف يصدف للحياة تكتسب ألوان الطيف وسط ظروف الأسر، تشكيلة العبوات الزيتية التي جاء بها ملازم أيمن تؤلّف ألوان قوس قزح، شتّان ما بين قنوط ويأس ينشبان زمن الواحد في حالات صحوه وساعات نومه، وبين أنْ تجدك أمام قماش الرسم وألوانك الزيتية بالمتناول، ما عاد هناك مكان للحيرة، الحيرة تتمثّل في أي الأفكار أجدر بالتنفيذ أولاً يعمل غالب ذهنه. يتوجّب عليه لا يتسرّع، يلزمه يتباطأ مادام وقته المتاح مفتوحاً على الأبد. تبادر له، ريسان هو الذي حمل مستلزمات الرسم، تبادر له إنّه عمل تخطيطاً لوجه أيمن، ريسان لا، ليس يدري وقع فعل الرسمة على ريسان. راحت مخيّلته تتواتر ملامح وجه الآخر، تساءل راضياً، ما الذي يمنع، لديه بقيّة ورق أبيض، أرجأ العمل على القماش. تقاطيع الكهولة المرهقة بخطوطها الواضحة في وجه ريسان لم تأخذ من غالب وقتاً لتثبيتها على الورق. رسمة جميلة. رددها جعفر معجباً، لعلها خطوطهما العميقة، هو وريسان. لم تستغرقه رسمة وجه ريسان أكثر من ساعة،

وضعها جانباً، أقبل على القماش، في باله يرسم نفسه تلبية لطلب ملازم أيمن، عذره حينه لا يمكنه التنفيذ إلّا بالألوان الزيتية، كلّ الألوان بالمتناول الآن ،يجدر به يستحضر قسمات وجهه على الورق أوّلاً، ساعة عمل أخرى، ها هو يراه أمامه على الورق. قال بدر. أنت رسمت نفسك شابّاً أكثر. ضحك غالب. حاولت رسمٍ الصورة الباقيةٍ عني في مخيّلتي. حدّق فهد في الرسمتين طويلاً. كنتَ عادلاً مع عريف ريسان، رسمته كما هو، لكنّك نرجسيٍ مع نفسك حسمت عشرة أعوام من عمرك. حتّى لا أكون نرجسيا. ترك جملته مفتوحة، استعان بقلمه الرصاص، أحدث بضعة خطوط في الجبهة وعند الأذنين، أبدى جعفر رضاه. هذا غالب الحقيقي. بادر غالب جمع رسمته ورسمة ريسان دفعهما لفهد. لو سلّمتهما للملازم أيمن. ألبّي طلبك شرط تفي وعدك ترسم لوحة لقردك وحيد. كانوا في غرفة المعيشة، الوقت ما قبل غروب الشمس، تعالى من خارج تغريد متواتر للعصافير وآخر موزون للبلابل. وجّه جعفر حديثه لفهد. أنت حتّى الآن لم تجتذب طائر ببغاء. ضحك غالب. من أين. قال فهد. الببغاء مزاجي، عنيد لدرجة الغباء. عودة لجزيرة فيلكا، عودة لبيته هناك، ليلى واستقرارها المكان بعد ولادة ابنهما عبدالله، صدف لفهد زار سوق الحمام ضحى يوم جمعة، لفت اهتمامه ببغاء مع شاب هندي. بكم. واحد دينار. رخيص جدّاً. بابا هذا مريض. أكبر فهد بالشاب الهندي أمانته، دفع ديناراً. قبل عودته لبيته عرّج فهد على أحد المختصين ببيع أغذية الطيور زوّده الأخير بدواء سائلٍ يتوجّب خلط قطرات منه مع الماء الخاص بالطائر. قال له وهو يتطلع للببغاء. مصاب بالكآبة، كيف للطيور تُصاب بالكآبة. فقدان أليف

أو تغيير قفص. راهن فهد عليٍّ إنقاذ الطائر من كآبته، أولاه رعايته، صار يحدّثه أكثر من مرّة يوميا، بعد ذلك راهن يعلّمه الكلام، ضاع جهده سدى، بعد سنة أتقن الببغاء ترديد نوعين من الأصوات، بكاء عبدالله الرضيع ورنين الهاتف. في البدء كان ترديده لهذين الصوتين مصدر إضحاك، لكنّه بمواصلة ذلك طوال الوقت صار مصدر قلق لليلى، لمّا تكون في المطبخ وتسمع بكاء عبدالله أو رنين جرس الهاتف، تهرع لتلبّي وليس سواه. غبي. ليلى أطلقت عليه اسمه، لتصبح بمرور الزمن كلمته الوحيدة. عاش معنا، حتّى احتلال الجماعة لجزيرة فيلكا، وأمرهم لنا بالمغادرة، وسط جزعنا وحيرتنا إلى أين. اتخذ فهد لحظتها قراره يطلق سراح الغبي. فتح باب قفصه. امشِ. طار الببغاء، اختفىِ وسط أغصان شجرة بمبر في الجوار من البيتَ، زحمة وقتنا ساعة المغادرة بإشراف عسكرهم. رعشة أقرب لأن تكون خفيّة لامست صوت فهد. لا أدري لماذا واصل الببغاء ترديده كلمة غبي، تضاحك الجنود بينهم عدا أحدهم، رأيت وجهه ينطعن بالدم، لعله النعت الذي سبق اختصّه رفاقه به، وسط ذهول الجميع وجّه ذاك الجندي ماسورة بندقيته صوب أغصان الشجرة، ورقها داكن الخضرة شأن ريش الببغاء.

أمر يشبه قراءة الأفكار. قبل أيام فَرَش أيمن رسمات القلم الرصاص فوق الطاولة، وجوه أربعة، ثلاثة من رجال العهدة إضافة له، عندما تساءل. لماذا غياب وجه غالب. قيل له. الفنان لا يقدم يرسم وجهه إلّا إذا توفّرت له ألوان زيتية، لما صارت الأخيرة بمتناول

يده أقدم رسم وجهه بالقلم الرصاص. أمر يصعب فهمه لو أُخذه أيمن كما هو، انتظر قدوم ريسان. وضع رسمته أمامه. شمل احتفاء الأخير وجهه. هذا أنا. رأى رسمة غالب أيضاً. اكتمل العقد. وهو يشتري مستلزمات الرسم بصحبة هيا قال لها مُبررا بادرته. هدية لصديق يتعاطى الفن التشكيلي. توسّعت ابتسامة ريسان. غالب حسبة صديق. هيا طلبت رؤية رسمتي. صارا رسمتين. التمعت عينا ريسان. الصديق الذي رسمك رسمني. أشار أيمن لرسمات الأربعة العهدة. ورسم أصدقاء آخرين. في بالك تدع هيا ترى الرسمات جميعها. في بالي أشغل جدران غرفتي في بيت السنك برفين للكتب وهذه الرسمات. التمعت عينا ريسان باكتشافه. كنّا أنا وأم هيا لمّا نخلو لبعضنا نقول أيمن يجاملنا تجاه مشاعر نكنّها له. سكت وهلة. لكن حديثك بخصوص غرفتك.

لأنّك تتماهى بأخيك، لأنّه سجن بو غريب خلال احتدام الحرب البرية، لأنّ زمن الحدث يعود لما يقارب اثنتي عشرة سنة، يلزمك، توخّياً لدقّة المعلومات، العودة لمراجع بهذا الخصوص، الاعتماد على الذاكرة وحدها غير مأمون العواقب، ذاكرتك بانحيازها الانفعالي مؤهّلة للمبالغة، أو لإسقاط ما لا يناسب مزاجها. قادة النظام العراقي بعدما هددوا العالم بتحويل الخليج إلى جحيم لا تُبقي ولا تَذر، خُيّل لهم يمتلكون قدرة إشعال المسطح المائي للخليج من أقصاه لأقصاه بالنار إذا أغرقوا شماله بالنفط الخام. سكت آدم محاولاً العثور على مفردات مناسبة. راهنوا على اشتعال مياه الخليج بقدرة قادر، فتحترق

البوارج وحاملات الطائرات والغواصات وكذلك الموانئ. تأمّل بدر كلمات آدم. في حالةِ اليأس عليّ وعلى أعدائي. اكتفى آدم بإيماءة رأس، واصل. تنفيذاً لتصورهم الجحيمي فتحوا أنابيب النفط الخام الكويتي التي كانت تزود الناقلات في أرصفة الشحن، صبّوا ملايين البراميل في مياه الخليج. صدرت عنه ضحكة خافتة مُشبعة نكاية. الذي حدث مياه الخليج لم تشتعل لتصير جحيماً، في الوقت ذاته بادر الطيران الفرنسي قصف مصبّات النفط الخام بالقنابل الذكيّة، أوقف تدفقها نحو الخليج. الوقت ضحى 24 فبراير عام 1991، بدر وآدم يقفان عند زاويةِ البوابة العملاقة للعنبر 7، يتبادلان حديثهما همساً، تساءل بدر. كلّ هذه الأخبار من مصدرك المطّلع عبد الجاسم. أجاب آدمٍ وهو يتطلّع ما وراء كتفي بدر. ها هو عبد الجاسم. التفت بدر. أهلاً وسهلاً. تفحّص وجه رجل الأمن الذي وقف عندهم، الأنف الطويلٍ والحاجبان المتقاربان إضافة للعينين الضيّقتين. الأخ عبدِ الجاسم كردي. أكّد الأخير. كردي فيلي من مدينة القاسم. تولّى آدم التعريف. القاضي الكويتي بدر. طاب لعبد الجاسم يقول دعابته. عساك لا تُحاكمنا قريباً. وقف الثلاثة بضع دقائق أدلى خلالها عبد الجاسم بأهم ما وصل سمعه. رأسِ النظامٍ خبط عشواء، قيادات الدولة والحزب، كلّهم لا أثر لهم. كُن دقيقاً بنقل أخبارك يا عبد الجاسم. مدير السجن هنا مختف منذ يومين، ضباط رتب بالمثل، لا ترى أمامك سوى ضباط رتبةً ملازم، الجميع خائفون مما هو قادم. مثل ماذا. لا أحد يعرف. جيوشنا الموجودة في أراضي محافظةٍ النداء. حانت عنه نظرة لبدر. قالوا أنّها انسحبت انسحاباً منظماً بعدما فجّروا آبار النفط هناك. احساس الفجيعة يأخذ بوجه بدر. قيل

كلّ الآبار، صار دخان الحرائق سحابة سوداء غطّت سماء محافظة. أمسك كلمته الأخيرة. انسحبت جحافل جيشنا متسترة بالدخان الكثيف بمحاولة لاتقاء ضربها أثناء تراجعها. لكن طيران الدول المتحالفة اكتشف الخطة، قصف مئات الآليات قبل بلوغها الحدود العراقية، بدءاً من فجر هذا اليوم دخلت طلائع الجيش الأمريكي أراضي النداء من ناحية حدودها مع السعودية، تهديدات النظام العراقي بمفاجآت يضمرها مع نشوب الحرب البريّة ذهبت لا خبر، تمّ تجميع الأسرى العراقيين في معسكرات مُعدّة داخل السعودية، يبدو لمراقبين مختصّين بالشأن الحربي أنّ نتائج المعركة بالآثار المترتبة معروفة لقيادة الدول المتحالفة وأنّها اتخذت احتياطاتها لكل طارئ، يُقال مئات خبراء أجانب، إنجليز وأمريكان تواجدوا متخفين داخل الأراضي العراقية غير بعيد عن المواقع الحساسة المهمة، وهم الذين أرشدوا قادة الطائرات لتحديد الأهداف مستخدمين وسائل اتصال متطوّرة. غداً يصادف عيد التحرير عندكم. همس بها آدم، كانا، هو وبدر يستلقيان فراشيهما عند النافذة، رياح بو غريب الليلية تهبّ باردة منعشة عبر فتحة زجاج النافذة. ما الحكمة من إقدام الجيش المنسحب على تفجير آبار البترول. لم يجد آدم ما يرد به. ماذا عن استنشاق الناس هناك لهواء ملوّث بسموم بقي آدم ملازماً صمته. معروف أنّ إخماد نيران بئر بترول واحدة يستغرق فرق إطفاء متخصصة مدى أشهر، كيف وعدد الآبار المشتعلة تجاوز 800. قال آدم بصوت واثق. اليوم تتحرر الكويت. استغربه بدر. لو كنت التقيت صاحبنا عبد الجاسم. ترك جملته معلقة. كيف خلصت لاستنتاجك. قبل دقائق تجاوزنا منتصف الليل، حلّ 25 فبراير بما

يمنح قيادة الدول المتحالفة وقتاً كافياً كي تعلن تحرير الكويت. يومهما ذاك مرّ أبطأ ما يكون، مشحوناً بالقلق والجزع، ولا وجود لعبد الجاسم بالجوار لينقل خبراً مطمئناً، مساء يوم 26 منه عاود عبد الجاسم الظهور. لا أحد يجزم ما الذي ستتمخّض عنه أحداث الأيام القليلة القادمة، العالمون ببواطن الأمور يقولون نظامنا شبه منته. ماذا عن وضع الكويت. صباح هذا اليوم أعلن الرئيس الأمريكي تحرير كامل الأراضي الكويتية. تبادل بدر وآدم نظرات احتفاء، قال آدم. عيدان ليومين، وطني وتحرير. لعلها رغبة أميركم يُميز عيداً عن عيد.

يا جعفر لماذا وحدك من بين الأربعة هش سريع التلف، لماذا هذا المغص المعوي الذي لا يكاد يخفّف وطأته عليك لأيام حتّى يعلن حضوره حادّا، حكمة مريض القرحة أن يتآلف مع مرضه، لا يُفاجأ بنوباته، يبقى مستعداً لاحتوائه بالصبر عليه، قدوم الشتاء يعني تواتر المرض، يستلزم تدفئة منطقة البطن، وتوفير الدواء، تقول عنه كتب الطب الشعبي أنّه مرض الملوك جرّاء الإفراط بتناول أصناف طعام ثقيلة الدسم أو شدّة قلق تسيير أمور الحكم، القدماء ينسبونه لنمط حزن دفين دائم لا علاج له ولا أمل بالشفاء منه إلّا عبر إعادة النظر بالعوامل والأسباب الباعثة، عدد لا يستهانٍ به من بدون الكويت يحملون قرحهم بأحشائهم جرّاء معاناتهم همّاً دفيناً وغير دفين أسبابهٍ معروفة للقائمين على الشأن العام. يا جعفر أنت الآن أين، وليس عدلاً تحمل مرضك الكويتي معك. رفاقك الثلاثة واصلوا محاولات صادقة تهدف تمنحك ثقتك كونك كويتياً عندهم أو منهم، لست تتشكك

بصدق مشاعرهم، بما يستدعيك أن لا تقلق بخصوص مواطنيّة مزعومة مادامت الحال سيان في الأسر أو عدمه، لا تقلق لأمر لا تعرف متى يُحسم، وكيف. لكنّه الجسم البشري يتسلّك خارجً إرادة صاحبه، بودّك لا تستسلم للمرض تصبح ضعيفا يستحق شفقة محيطين به، التمني مجرّة أخرى، أنت طريح فراشك، يؤلمك تكون محطّ رعايتهم، يؤلمك يبعث لك ملازم أيمن تحياته، إنْ احتجت دواءً لا تتردد تُسمّي، الدواء المتبقّي يكفي لاجتياز هذه النوبة، فهد يتولى نقل رسائله إليك، يستطرد، يسألك متى وفاء وعدك تكتبِ، المعنى المضمّن، شدّ حيلك، جاهد مرضك، لو كان المرض مطواعاً، عليك بك، وأقفز من مربع الألم إلى حياة اعتيادية يمارس فيها الواحد نفسه دون أن يتولاه جسده بألم لا رادّ له، غالب لازم مكانه على مقربة من سريرك، جاء بعدّة الرسم خاصته، آثر الاشتغال على لوحة قرده وحيد بمتناول عينيك، أنعشتك رائحة الألوان الزيتية، لا يني يخاطبك وهو يعمل فرشاته، فهد يطلّ بين الساعة والساعة يحدّق لقماشة الرسم، لو كان دافنشي ولوحة الموناليزا لما أخذت كلّ هذا الوقت، يجيبه غالب، مُتعة الرسام لا تتمثّل بإتمامه لوحته، يغمس فرشاته في قلب اللون، يتابع. متعته الحقيقية مواصلة العمل عليها. نوّه فهد باحتجاجه، انظر يا قرد، تضحك ويضحك غالب، يغادركما فهد، يدخل بدر حاملا وعاءً تفوح منه رائحة طبيخ، عريف ريسان خصّك بوجبة طعام خالية الدسم، قال أنّه جاء بها من بيته، يا جعفر يلزمك تخجلٍ من مرضك، يكفيك أنّك محاط بمشاعر تُرهف الواحد تحيله شفيفا قادرا يحلّقٍ بعيداً عن مرضه، يتذكّر جعفر تحليقه مع مرضه ذات مرّة، كان شابا في الخامسة والعشرين، المكان فندق شيراتون الكويت، مناسبة انعقاد مؤتمر لوزراء

خارجية عرب، عليه متابعة أعمال المؤتمر مُكلّفاً من صحيفته، الوقت الساعة الثامنة ليلاً، المكان قاعة المؤتمرات في الميزانين، داهمه المغص قويّاً دون مقدّمات مُعتادة، حنى جسده محاولاً احتواء الألم، زادتِ حدّة المغص لدرجة تفوق الاحتمال، خانته ساقاه، تهاوى أرضاً، يتذكّر برودة الأرضِ الرخامية، تناهت لأسماعه صرخات، هذا الشاب يحتاج من اسعافاً، الثواني بتواليها غير المدرك وإحساس الواحد أنا آخذ أتلاشى ولا طاقة لي أضع حدّاً لما ينتابني، الأصوات المحيطة بدأت تنأى، من جانبه ما عاد قادراً يتكلّم، ما بك، سؤال آمر مثلما هو ناهر، بذل جعفر جهده يفتح عينيه، بزّة عسكرية تنحني عليه، أحدهم يبحثٍ في طيّات ثيابه، سمع ما مفاده، هذا إثبات شخصيّته، سمع صوتاً رجالياً حاقداً ومستنكراً في الوقت ذاته، بدون يتعاطى الخمر، ودّ يقول لهم، لست مخموراً، لكنّه الغياب، توفّرت له فرصة وعي حالته بعد ساعة، وجد نفسه ملقى على أرض إسمنتية لغرفة توقيف، إضاءة صفراء باهتة تنبعث عن مصباح قذر مثبّت في السقف، الهدوء والصمت، حدّق لمعصمه هادفاً معرفة الوقت، لا وجود لساعته، دار بعينيه حوله، لا أحد يشاركه المكان، استعاد أحداثه القريبة، أصاخ لداخله، المغص لم يزايله نهائياً، هو الآن قيد السيطرة، فإنْ لم يتداركه بكوب حليب بارد اشتدّ ثانية، تساءل، كيف وصل لهنا، أصاخ باتجاه الممر ما وراء قضبان الباب، سمع لغطاً خافتاً لأصوات رجالية، استجمع قواه، يا أخوان، كفّ اللغط، أعقبه وقع حذاء ثقيل على أرض الممرِ، وقف رجل أمن وراء الباب، نعيماً، رددها رجل القادم ساخرة دالة استهانة، كظم جعفر امتعاضه، لا أعرف لماذا تحتجزوني هنا، أنا صحفي داهمتني نوبة، قاطعه رجل الأمن، انتظر حتى نأخذك للمحقق، لماذا،

اسأل نفسك، بعد ساعتين أخذوه للمحقق، النوع المُسكر الذي تناولته، لم أتناول مسكراً، إنكارك لن ينجيك، أنا مريض، نحيلك على الطب الشرعي يجرون لك تحليل دم لمعرفة نوع مخدراتك ، أقسم لك أنا مريض، لم يسمعه السيد المحقق، تناول الهوية الصحفية العائدة لجعفر من بين أوراق أمامه، قال قبل شروعه كتابة أمر تحويل المتهم للطب الشرعي، أنتم وراء غالبية الحوادث الإجرامية، قال له طبيبهم الشرعي، دمك خال من أي مخدرات لماذا حولوك إلينا، لأنّي بدون، يا جعفر يتوجّب عليك استعادة عافيتك سريعا، أحتاجك تساعدني بزراعة الرويد. يضحك جعفر.

الزمن لا يكتسب أهميّته اعتباطاً، أيام موسكو بقيت ماثلة في الذاكرة، الأشهر التي أعقبت عودته ومن ثمّ تكليفه بالعهدة، عاش ما يشبه النزوع لتحدي لوائح سائدة، صار يرى نفسه متسقاً مع ذاته، إلى جانب رهافة أخّاذة موجّهة لناس بيت السنك، لمّا يكون مع هيا يكتسب وقته بُعداً أثيرياً سريع التلاشي، يلتقيها في الرابعة سرعان ما تحلّ الثامنة، مع مارلين لم يكن عامل الزمن بهذه المراوغة الخادعة، لعلّها طبيعة المنحى العملي لتفكير مارلين. هاتف هيا. أراك بعد ساعة، أمامنا عمل بسيط يستدعينا ننجزه. لم تسأله، آثرت تعرف سرّه الصغير بعد وصوله. نذهب إلى فني براويز. قال لها بعدما تحرّكت بهما السيارة. لا بُدّ من وجود علاقة بين مستلزمات مزاولة فن تشكيلي سبق اشتريتها هدية لصديق وبين فني براويز. ناورها إجابته. إلى حدّ ما. بادر دفع لها مغلّفاً. لو شئتِ الاطلاع. تفاجأت

بدءاً برؤية وجهه، هتفت باستثارة محببة. هذا أنت. أضافت لدى تدقيقها الرسمة. جميلة فعلاً. انتقلت لرسمة ثانية. هذا أبي. منها لرسمة فهد. من هذا الرجل المُحاط بالطيور. أحد أصدقائنا. انتقلت لرسمة جعفر. صديق ثان. لم تُخف هيا استغرابها وهي تحدّق لرسمة تلت. كأنّه وجه الكّاتب الكويتي. وافقها أيمن. هذا ما تبادر لذهني أيضاً. لم تجادله ردّه، انتقلت للرسمة الأخيرة، انفرج فمها عن ابتسامة متواطئة. لن أقول وجه هذا الرجلِ نسخة لوجه الفنان التشكيلي الكويتي الذي. قاطعها أيمن مُتخذاً قراره. ستعرفين كلّ شيء، شرط يبقى الأمر سرّاً بيننا. أضاف مُحذّراً. وإلّا تعرضنا لحساب عسير. تساءلت هيا قلقة. من جانب من. تملّك أيمن إحساس من وقع في الفخ، لو أزمع ردِه، لو أصْدَقَ هيا ردّه لقال جهاتنا العقابية عديدة، رؤساء مباشرين، قيادة الجيش، استخبارات، عدا عن أنّه ابن آمر معسكر، هيا باقية تنتظر ردّه. قال صيغة اقتراح. نقصد مطعم شارع أبي نواس. زاويتهما بمواجهة مياه نهر دجلة. يلزمني الاعتذار منك، يتملكني شعوري بالذنب تجاهك. تندهش هيا أو تستنكر، ليس أمامها غير إصغائها، لامس أساه صوته. طلبت منك الوصول لمعلومات بحكم ممنوعة. اكتفت أومأت برأسها. تعمّق أساه أكثر. انتهزتُ دالتي عليك. عز عليها يتألّم، مدت يدها حضنت يده فوق الطاولة. أيمن. ناشدته مرددة اسمه، تابعت مضمّنة قلقاً. سؤال واحد، هل خنتَ بلدك. عقد حاجبيه غاضباً. أوشك يرد بسؤال منزعج، ما هذا السؤال الغبي، آثر يعتبها بمرارة مردداً اسمها. هيا. تابعت. أعرفك ضابط استخبارات دورة تخصص من موسكو. حدّقت إليه في عينيه. هل ما طلبته منّي يتصل بطبيعة وظيفتك.

سارع نفي. طوّفت وجهها سحابة حيرة، ارتخت يدها الآخذة يده، انسحبت عندها. أقترح أنْ تسمعيني ثم تُقرري ما شئت. لم تنبس، بدأ أيمن حديثه. ما لقنوه له في المدرسة، ما أعادوا تلقينه له في الكلية العسكرية، الوسط الذي نشأ فيه، حياته الرخيّة بطبيعتها، رآها تتململ في مقعدها، ودّ يناشدها، تمنّى لو زحفت يدها ثانية ليده، فجعه قرارها. نمشي. وقفتْ، وقف بدوره. في طريق عودتهما قالت له، فاجأتها مكاشفته، لا تجزم إن كانت تعرفه على حقيقته، شيء يشبه المشي على الحافة، العواطف مسألة شائكة. قال لها. هي لم تسمعه للآخر. حسمته. أحتاج أخلو لنفسي. قبل ترجّلها دارت وجهها جانباً، لم تشأ له يرى دموعها.

التسميات بدلالاتها، وكل التوصيفات ذات الطابع الشمولي بحتمية نسبتها للسيد الرئيس حفظه الله، أمّ المعارك جولات عديدة، الحرب كرّ وفرّ، الانسحاب التكتيكي لغرض إيقاع العدو في فخ الصمود، تجاوز الجولة الأولى تاريخياً لحكمة لدى القيادة الرشيدة، أيّها العراقيون الشمّ يكفينا فخراً أننا تصدينا لجيوش ثلاثين دولة، وها إنّا ما زلنا على شموخنا. توخياً لأمانة مفترضة تجاه الكتابة تعود تقرأ أدبيات تتصل بحرب تحرير الكويت، إنْ صحّت تسمية الأفعال العسكرية بالأدبيات، تقف مذهولاً إزاء خطاب إعلام النظام العراقي، هناك من لا يقيم وزناً للبشر، ويقيم حجّة انتصاره من بقائه في سدّة الحكم. أيها العراقيون الأشاوس. تعالوا نتداول الخطابات. أنت حيث لا خيار ما دمت تقمّصت شخصية أخيك

الأسير، عُد إليه أو به، وتطلّع لواقع حال المكان. نزلاء سجن بو غريب، على كثرتهم، يعانون حالة التباس فهم، الأخبار المنقولة إليهم عبر مصادر موثوقة تقول، ثورة عارمة تعمّ محافظات الجنوب بدءاً من البصرة ومنها إلى. الإنسان العراقي الذي كابد ظالميه عقوداً خرج إلى الشارع رافعاً صوته تعالوا نضع حدّاً لما لا يُحتمل، خروج عن طاعة الحاكم، المنشآت الرسمية تمّ اقتحامها، أنتم لستم ولاة أمرنا، أخذنا حصتنا مضاعفة من القهر، حانت ساعة تدفعون ثمن استبدادكم بمصائرنا، لا نريد لغيرنا يحارب بنا. نزلاء بو غريب يتناقلون الخبر الأكثر أهمية بالنسبة لهم، جماهير المحافظات الثائرة هاجمت سجوناً ومعتقلات أطلقت سراح كلّ المتواجدين داخلها دون تمييز. ماذا عنّا هنا. عبدِ الجاسم وعدد آخر من رجال أمنٍ شيعة، جرى احتواء أعتدة أسلحتهم الشخصية، قيل لهم، تأميناً لحياتكم ضد تمرّد لسجناء يجري تحريكهم من خارج، مُنع نزلاء عنابر عديدة من فسحاتهم المعتادة، حتّى لا يُطلق مجهولون عليكم النار، وصلتْ للسجن وحدة قوّات خاصّة من تكريت، قيل، نظراً لقربه الجغرافي من العاصمة بغداد اقتضى تأمين سجن بو غريب ضدّ غوغاء محتملة، أخبارٍ محافظة نداء سابقة لم تعد تتسم بالأهمية بعد انسحاب منظّم جدّاً لدرجة أذهلت مراقبين عسكرين عالمين، الأمر الطارئ والملح في الوقت ذاته، ظهور صيّادي الماء العكر من دخلاء وجواسيس وخونة وعملاء رجعية واستعمار وامبريالية، شكلوا بينهم مجموعات تخريبية هدفت للنيل من انتصارات أم المعارك، لولا يقظة شعبنا الحر الأبي بالتعاون والتنسيق مع وحدات جيشنا المقدام هبّوا يداً واحدة للقضاء على الفتنة في مهدها. لو صرفنا اهتمامنا عن خطاب محدد،

مراقبون محايدون أفادوا، حركة التمرّد العفوية التي عمّت جماهير محافظات عدّة ومحاولتها توظيف هزيمة النظام في الكويت بعدما راهنت على مُساندة جيوش دول متحالفة، خسرت رهانها كلّه بعدما صدرت أوامر لوحدات حرس جمهوري، أوان إثبات الولاء والدفاع عن الوجود، ليس من إحصاءات لأعداد قتلى الانتفاضة، جهات صليب أحمر دولي قالت عشرات آلاف، النظام يقول، شرذمة من شُذّاذ الأفاق جرى التنكيل بهم حتّى لا تقوم لهم قائمة، أخبار متناقلة، صدرت أوامر لقادة جيوش التحالف المتواجدين داخل الأراضي العراقية وقتها لا تتدخّلوا لصالح المنتفضين، افسحوا طريق المرور لقوات الحرس الجمهوري كي تؤدي مهامها، النظام العالمي لا يريد قيام دويلة طائفية تدور في فلك إيران، أخبار متناقلة مدفعية وحدات الحرس الجمهوري وجهت نيرانها نحو الأضرحة المقدسة في كربلاء والنجف لغرض القضاء على العملاء، الأوضاع شمال العراق غيرها، بدأ النظام العالمي خطوات عملية لإقامة منطقة عازلة حماية للأكراد. القمع الوحشي للانتفاضة، الانتصار المؤزر للنظام وحتمية إقامة سجون جديدة أو توسعة سجون قائمة لاحتواء خارجين على الوطن، استقبل سجن بو غريب مئات معتقلين، خُصّ العنبر 7 بعشرين منهم. لا أخالك تخالفني الرأي. تساؤل وجهه آدم لبدر. استجاب الأخير. حول ماذا. حول كون العراق إحدى دول التحالف. ضحك بدر. من أين لك بهذا الرأي. الوقائع تؤكّد ذلك. عاتبه بدر. حدّث العاقل. صدرت عن آدم زفرة مصحوبة أنيناً. لماذا قامت حرب الخليج الثانية. هدفها الأساسي تحرير الكويت. احتدّ صوت آدم. لماذا تصرّ تتخذ موقفاً مناصراً لأعداء الإنسانية. من هم

هؤلاء. كلّ الذين ينادون بضرورة الحفاظ على النظام العراقي، دعنا من آثار الحرب الجوية. أصغى إليه بدر. مع نشوب الحرب البريّة دخلت جيوش التحالف أراض عراقية من جنوب وجنوب غرب، كان الجيش العراقي حالة انهيّار كامل، وقيادة النظام فوضى عارمة تُعد عدّتها للهرب باتجاه اليمن أو كوبا. تشرّب حزنه صوته. لماذا لم تنجز جيوش الدول المتحالفة مهمّتها تدخل بغداد. لو دخلوها سقط النظام وهذا خارج خطّتهم الموضوعة منذ البدء. تعني تحرير الكويت. لا غير. هناك فرق بين قيادات جيوش حديثة، ونهج ثور الساقية، عوّلنا علي إنجاز تحرير العراق، ثم عوّلنا على نجاح الانتفاضة. لم يجد بدر ما يقوله، سادت لحظات صمت. لسنا محظوظين. ابتسم بدر مشاركاً، تابع آدم متمنياً. لو أنهم أسقطوا النظام العراقي لما بقينا هنا. الوقت ضحى يراوح بين الشتوي والربيعي، كانا يقعيان جالسين عند جذع أكاسيا وراء العنبر، أحاط آدم الجوار بإشارة يده، أضاف. لو قُيّض لهذا السجن يقع في إحدى المحافظات التي شملتها الانتفاضة لكنّا الآن أحراراً.

قال بدر. بعد أربعة أيام تحلّ الذكرى 41 لعيدنا الوطني. قال فهد مضمّناً حس مفارقة. نطلب من ملازم أيمن يأتينا بورق للزينة وبالونات ملوّنة. تجاوز غالب حسّ مفارقة فهد، قال. بعد خمسة أيام تحلّ ذكرى التحرير، نكون قضينا اثنتي عشرة سنة أسراً. قال جعفر. كذلك نُكمل سنتنا الأولى هنا. يتداولون كلمات تدور، بهذا الشكل أو ذاك، حول موضوع ماذا. رياح ضحى فبراير ببرودة محتملة،

كانوا يفترشون درجات سلّم الباب الجانبي بمواجهة فسحة الأرض الفضاء التي آلت خضراء عن آخرها بفضل جهد فهد. تساءل بدر. هل نجزم بوجود صمت مقصود أو نسيان من جانب جماعتنا. قال جعفر. حتّى الآن لم أفهم سبب احتجاز العراقيين لنا في هذا النفي إنْ لم يزمعوا إبرام صفقة إطلاق سراح كما كان متوقعاً. اجتهد فهد. أنت بصدد قيادة نظام تفتقر قدرة اتخاذ قرار محدد. مسؤولية بقائنا في الأسر إلى ما لا نهاية لا تقع على عاتق النظام العراقي وحده. قالها غالب بألم، استطرد. هي من حيث الأساس مسؤولية جماعتنا. يُقيمون احتفالات عيد وطني تليها احتفالات عيد تحرير عساهم يستحدثون فسحة زمن يتذكّرون مغيبين في الأسر. بدرت عن جعفر زفرة. على أيام مراهقتي كانت أمّي تناشدني. لا تحرق دمك. لم أستوعب المعنى الحقيقي لكلماتها، أحرقتُ دمي كفاية حتّى ورثتُ القرحة. نقّل نظرات محبّة على وجوه رفاقه، تابع وهو يتثاقل واقفاً. خيرٌ لنا نكفّ نحرق دماءنا ما دمنا عاجزين نُغيّر حالنا. عبر الباب داخلاً، وقف غالب بدوره. مرّة أولى يقول فيها جعفر كلمة حق. التفت إليه فهد. شهران مع لوحة قرد. رددها مُضمنّة نفاد صبر، شارك بدر. لو أنهى غالب لوحة القرد أين له بفكرة ثانية يعمل عليها. أجابه فهد من فوره. عساه يرسم ببغاء حدّثته عنه. بعد لأي دخل ثلاثة، بقي فهد وحده، نقّل عينيه حوله، غير بعيد عن سور الأسلاك الشائكة حيث بركة الماء الصغيرة تواجدت مجموعة طيور خليط عصافير وبلابل وحمامة برية واحدة، انشدّ اهتمامه لطائر ملون لا يكاد يستقر، ها هو الهدهد حلّ ضيفاً خفيف الظلّ، قبل مغيب شمس أمس شاهد للمرة الأولى طائراً يشبه النورس لكنّه

أصغر حجما، حطّ على أسلاك السياج، بقي هناك، لم ينزل أرضاً كي يلتقط طعاماً، رؤيته الطائر استثارت ذكرى نوارس بحر الكويت، الأعداد المتزايدة للطيور والتزام فهد تجاهها يوفّر لها طعامها. حدس الواحد بقدوم الربيع، جاء ريسان قبل أسبوعين برفقة أربعة جنود مزودين أدوات لحراثة الأرض وتسويتها، تولوا الأرض الكائنة عندهم، لعله حسّ المنافسة، أراد ملازم أيمن لمساحة أرضه لا تبدو بوراً، هي الآن مربعات خضراء بعدما ازدانت ببراعم خضروات ورقية نابتة حديثاً، صار عريف ريسان يقضي ساعة ما بعد ظهر كلّ يوم برعاية أرضهم، بعيداً عن توجّه غالب لرسم قرده ودّ فهد لو يأخذه ذات فجر من يده يتسلل. به لسطح المنزل، كي يرى امتدادات الأراضي الزراعية المحوّطة للمعسكر، يرصد لحظات انبثاق الأنوار الأرجوانية ما وراء الأفق الشرقي، لو حضرها لجاشت فيه مشاعر الرسم. البارحة تنبّه فهد لتخلف حمامتين فوق سور السطح لحين حلول الظلام، تفقدهما بعد قليل، لم يرهما، حدس وجود مشروع عش، يلزمه يتأكّد، اتخذ قراره يتسلل فجر اليوم. تصعد السطح تُفاجأ بالنجوم أقرب إليك، ترى خيمة الليل تطبق الآفاق، يراودك قلقك، إلّا الانكشاف لمن في برج المراقبة، تتخذ وضعك زحفاً، سور السطح يوفّر ساتراً من مسقط نورهم الكشّاف، تصادفك كوى صغيرة تكفيك تتطلّع عبرها، تخنس عندك، عيناك تعتادان الظلام، تبدأ ترى ما هو بمتناولك من مساحة السطح، لم يخب ظنّك، الزاوية الأبعد عن مطلع السلّم تحتضن عش حمام، مرّت دقائق خضع الجوار إثرها لتحولات ذات منحى يشبه السحر، هذا الانحسار المتدرّج للظلام من ناحية الشرق، بدء انغمار الموجودات

بفضاء فضي مغبّش يسبق زقزقة العصافير وتغريد البلابل ممهداً لارتفاع قرص الشمس من وراء صف عنابر المعسكر، عيناك تروحان إلى طريق سريعة وراء سور الأسلاك الشائكة، ثمّ تستريحان على مساحات أرض خضراء مترامية لا يحدّها النظر خالية من بيوت للسكن، وأنت تُزمع تزحف عائداً لمهبط السلّم يخطف بصرك منظر قطيع أغنام، بدت قادمة من صوب الأفق الغربي، يسوقها أحد رعاتهم، تراها تتراكض مستقبلة نور الشمس برؤوسها، كأنّها تهدف لبلوغ قرص الشمس قبل ارتفاعه فوق خط الأفق. لو رأى غالب خرافهم راصداً توقها للنور.

يتواتر الزمن ثقيلاً بطيئاً فارغاً إلّا من حزن يبدو مبرراً حيناً وغير مبرر غالباً. طوال عمر عاشه أيمن منذ طفولته وحتّى أسابيع قليلة أخيرة لم يصادفه هذا الشعور بالمجانيّة، ليس ما يستحق التريّث عنده طويلاً، لا يوجد دافع أساس يستحثّ الواحد يتطلّع لغدٍ يحمل خبراً مغايراً، يرفض أيمن ينسب هذا الذي يعانيه لجفوة انتابت علاقتهما، هيا وهو. جدّة نمط المعاناة وهذا الإحساس بلا جدوى الارتباط بالأشياء، شأن الاشتياق للقاء آخر محدد، في حين يبقى ذاك الآخر دائراً في فلكه الخاص به، ولا يشغله سوى ذاته. منذ لقائه الأخير الملتبس بهيا لم يذهب أيمن لبيت محلّة السنك، اقترب ذات مساء من جامع الخلّاني، تسارع وجيب قلبه، كيف له يواجه عيني هيا، ينتابه شعور من ارتكب خيانة بحق صاحبه، استغل ثقتها به، استغفلها ربّما، علاقتهما الجميلة تلقّت ضربة قاضية، عندما سألته إن كانت

طلباته لمعلومات من الإنترنت تمتّ لكونه ضابط استخبارات وردّه السريع لا حيرة هيا، غضبها، تشككها، فقدانها ثقتها به، كلّ ذلك نتج عن، ما الذي يريده أيمن مني، يتذكّرها قالت، لا تجزم إنْ كانت تعرفه على حقيقته، قالت، شيء يشبه المشي وسط رمال متحركة. كما قوّة غامضة تُطبق على صدره تحبس أنفاسه وهو يتذكر إشاحتها وجهها عند ترجّلها الأخير من سيّارته محاولة مداراة دموعها، يؤلمه يكون سبباً لتعاستها، رسمات القلم الرصاص الست بقيت في مغلّفها، لا مزاج عنده يضعها في أطر، وإنْ فعل لا وجود لجدار تُعلّق عليه. وجه المرء مرآته، عريف ريسان احترم انكفاء أيمن داخل ذاته، رآه يحاول إشغال ذهنه، يدفن عينيه في صفحات كتاب ما، بعد أسبوع من الموقف الملتبس لأيمن هاتفته جنى، تذرّعت باحتياجها رواية بداية ونهاية لنجيب محفوظ، قبل ختمها مكالمتها تساءلته بمنحى دال، من منكما أغضب الثاني أنت أم هيا، جاراها مُفتعلاً ضحكته، لا وجود لغضب حقيقي. الشقيقتان، كما تبادر له حينها، تداولتا أمره، خنسٍ لداخله، على افتراض حدوث ذلك ما الذي منع هيا تهاتفه بدلاً من جنى، تساءل مع نفسه حول السرّ الكامن وراء اختيار رواية بداية ونهاية، هل هناك رسالة ما مُضمّنة. وحده مع خيالاته، عادت جنى هاتفته إثر مرور أسبوع ثان، هيا تقول سبق لك طلبت منها تسجيل موضوع كاتب، سارع قاطعها، شكراً لك ولها، يظنّها استنكرت كلمته، لكن خشيته من خضوع المكالمة لتنصّت جهات أمنية، خشيته تواصل جنى إدلاءً خبرها تُعرّف الكاتب بصفته كويتيّاً ليكون الفخ الأمني مُحكماً، سمعها تُردد له اسمه عاتبة، تتابع بهامش ألم، أنت تتعامل بصيغ رسمية، سارع نفى، أبداً،

إذن، وجد سانحته يقول، يلزمني أزوركم. صوتها يؤكّد لهفتها، متى، عندما تحين الفرصة، هل أهانتها إجابته، سمعها تردد مُحبطة، مع السلامة، يخلو لنفسه، يجلدها، لا خبرة له باتقاد المشاعر، ارتباكها، في لحظة يكون مخطئاً، وفي لحظة تالية يحمّل الخطأ لهيا، لو منحته دقائق إضافية من وقتها، لو أصغت له، فاجأه ريسان. أم هيا تصرّ على مجيئك للعشاء. لازم أيمن صمته. هل سمعت عنّا ما ينفرك منّا. لا إنْ رفضت جئتُك بأم هيا لهنا. ضحك أيمن مضطرّاً. اغتنم ريسان اللحظة. إلى جانب تولينا مهمّة رسمية حساسة لدرجة كبيرة نواجه وضعاً إنسانياً يستوجب مخالفات بسيطة. حبس أيمن دهشته إزاء استخدام ريسان لتعبير مخالفات بسيطة وهي جسيمة جدّاً، تابع ريسان. هيا بدورها تتولى وظيفة حسّاسة في وزارة الدفاع. وافقه أيمن بإيماءة رأس. المعلومات التي توصّلتْ إليها بخصوص جماعتنا. لم يجد ما يضيفه. قال أيمن. أنا أتحمل المسؤولية. فاجأه رد ريسان. هيا عنصر طيّب.

اليوم 25 فبراير 2002 شأن مُغاير جرّاء مصادفته للعيد الوطني، ولأنّه كذلك آل عطلة مطلقة، الاحتفالات المزمع إقامتها على المستويين الرسمي والشعبي تبدأ مراسمها في ساحة العلم من الساعة الثالثة عصراً، الوقت الآن ضحى، الكويت العاصمة شبه مقفرة، تحتلّ مقعدك وراء مكتبك حالة انتظار، فرغلي اقترح تلتقيان عندك الساعة الحادية عشرة، متعللاً ننعم بهدوء مطلوب، عيناك تعبران الواجهة الزجاجية، الأرض المترامية للمقبرة المهجورة عبر

الشارع مكسوّة في مواقع منخفضة منها باللون الأخضر، آثار إيجابية لزخّات مطر أواخر ديسمبر قبل شهرين، تتذكّرك قبل سنة من الآن واستجابتك لطلب فرغلي، مشاركة ملف قصة، وفاءِ الطلبِ لتكون بادرة صحبة، توطّدت إثرها صداقتكما، تعرفه روائياً سماعاً. يجدر بي أقرأ لك. يجدر بك تكتب نصّاً جديداً، لم تعُد ترد. لا لاستجابة كتابة بناءً على الطلب، لأنّها في بعض حالاتها كذلك بدأت تكتب أخاك، تمدّ يدك لدرج مكتبك، حزمة ورق فولسكاب، خطّك مقروء لك، ومكروه لديك جراء عدم ترابط أحداث النص المزمع، لمّا يقرأ أحدهم موضوعاً لم تنجزه بعد بالصيغة التي ترضيك ينتابك شعورٍ انكشاف، يصل فرغلي قبل موعده، تتجالسان، تتبادلان حديثا حول تمادي أحدهم بتقمّصِ شخوصاً واقعية، دام جدلكما دقائق، أنهاه. نقرأ نصّك عن كويتيين في الأسر. لا يفي بالغرض. لماذا. لم أنجزه بالكامل. ضحك. جدلنا بالمثل يبقى منقوصاً. تخلص لقناعة وقتية. ليس هناك ما يمنع. تدفع له أوراق الفولسكاب. ينهمك يقرأ، تنهمك تقلق، رأيته يبحث داخل جيوبه. أنا بلا قلم. هذا قلمّ. عاد تطلّع حوله. فهمت مطلبه. هذه ورقةٍ. يكتب كلمات، تجهد تبعد عينيك. يتابع قراءته، يكتب سطراً، في حين بقيت أنت عاطلاً بلا هدف. قضى نصف ساعة يقرأ، خرج بنصف صفحة ملاحظات. قال. بداية مبشرة. هذه ليست بداية. ضحك. ليست نهاية بالتأكيد. لم تستجب تضحك. قال. يجدر بك تسرّع وتيرتك. تعني وتيرة الأحداث. وتيرة الكتابة. طوى ورقة ملاحظاته، دسها في جيبه. ماذا كتبت. أشياء لا تهمّك. كيف لا تهمّني والنصّ نصّي. ربّت على جيبه حيث ورقته. هذه الملاحظات لي. سادت

بينكما لحظاتٍ صمت، أشرتَ لأوراقك. هل تصلح للنشر. نصّك سيكون طويلاً عن المعتاد. شكراً. رددتها مُحبطاً، ابتسم. هل تكتب للنشر أم لك. للاثنين. وسّع ابتسامته. اكمل نصّك واترك الأمر لي. كيف. انتهاجك أسلوب المقاطع المتصلة المنفصلة في الوقت ذاته. تصغي له. سأختار في حينه مقاطع تشكّل ارتباطاً. أنا أتولى ذلك. حدّق إليك متشككاً، قال. حاذر الكتابة الانفعالية. لم أفهم. كأنْ تستجيب شعورياً لما يدين الآخر متابعاً إدانته. تتسرّع بحكمك. هذا ما أقوله لنفسي، رغم هذا يصعب على أيّ منّا ينزع جلده. تسمعه أكثر. بهذه المناسبة أذكّرك بمقالة لك نشرتها منذ سنوات، وأعاد صديقنا العراقي الاسترالي خالد عادل نشرها في مجلته قبل شهرين عرضت فيها موضوع نفي الآخر لدى أنظمة دول عالم ثالث. لا تحبس دهشتك. علاقة هذا بذاك. الأدب انعكاس لواقع يغترف منه، ما يسري في الواقع يسري في الأدب. لعلي فهمتك. نصّك ما لا يراه نائم امتاز بحيادية طيّبة. لم تقل له الحيادية الطيبة تستلزم وجود أخرى خبيثة. هذه الحيادية لعبت دوراً بلفت اهتمام البعض للنص. إصبع يده تشير لأوراقك. نصّك هذا يفتقر حتّى الآن، للحيادية إياها. لعلّه حدس ما دار في ذهنك. استدرك. هناك إشارات بسيطة عساك توليها اهتماماً أكبر. كيف لك تفعل ذلك وأنت عامل النص والمسؤول الأخير بصدده. بعد مغادرة ضيفك فرشت أوراقك، تقرأ أو لا تقرأ، تتذكّرك واكبت تحرير الكويت من داخل سجن بو غريب، تستعيدك محاصراً بقهرك، دخان حرائق آبار بترول يُحيل نهارات الكويت ليلاً متصلاً، تستعيد إقدام الحرس الجمهوري للنظام العراقي على قتل عشرات آلاف عراقيين شاركوا

بانتفاضة تتوق خلاصاً، بينما اتخذت جيوش دول متحالفة مواقف حيادية لا تنفي الآخر ولا ترحمه.

كان الوقت عصراً، سلّم غالب لوحة القرد وحيد الزيتيّة لفهد. وفيت بوعدي. فرحة فهد ينازعها اعتداده بحيازة لوحة، فكّر يعلّقها على جدار الغرفة حيث ينام، لكنّه تحوّل عن فكرته، ليس من حقّه يستأثر بها وحده. أثبتّ أنّك اشتراكي. قالها جعفر لدى انشغال فهد بتثبيت اللوحة على جدار غرفة المعيشة. بعد حلول الليل اكتسبت ألوان اللوحة، النارية منها، حسّ مهابة، حقق القرد وحيد حضوراً ذا بُعد غامض. أومأ بدر برأسه صوب اللوحة. صرنا خمسة. منتصف نهار اليوم التالي دخل العريف ريسان حاملاً وعاء الجراية اليومية. أزمع يلقي تحيته لولا انصعاقه المفاجئ لدى رؤيته لوحة القرد. ما هذا. انبرى غالب للإجابة. وحيد. تساءل ريسان بصوت يحمل نذيراً. أنتم تعرّضون أنفسكم لأشدّ أنواع العقاب. تساءل بدر. عقاب بسبب رسمة قرد. صحح له ريسان. بسبب تعليق رسمة قرد. غمغم غالب. لم نفهم. إن وردت لذهن الواحد فكرة تعليق رسمة يجب أن تكون للسيّد الرئيس حفظه الله. لم يتبادر لذهن أيّ من الأربعة يوجّه سؤالاً حول حكمة تعليق رأس الدولة في مكان يضمّ أسرى دولة أخرى. توجّه ريسان نحو الطاولة، وضع الجراية، أشار للوحة. لو دخل أحد المسؤولين، رأى القرد تبادر لذهنه أنّكم تسخرون من السيّد الرئيس، تتخذون بديلاً عنه. كتم فهد ضحكة أوشكت تغافله. قال. إلّا هذا. سارع للوحة أنزلها. تابع. أضعها في

الغرفة. حذره ريسان. ولا في الغرفة. صور السيّد الرئيس تتصدّر جدران غرف النوم. تجرأ جعفر سأل. أنت جاد. وافقه الأخير إيماءة رأس قبل مغادرته. قال جعفر. يبدو أنّ السيّد الرئيس فعل الكثير خلال السنوات الأخيرة. عقّب بدر حزيناً. نزع عن الشعب العراقي خصوصيته. أطلق فهد ضحكة قصيرة. صار الشعب يخصّ السيد الرئيس وحده. عاتبه غالب. نحن نتحدّث عن وضع مأساوي وأنت تضحك. أجاب فهد متسائلاً بحيرة حقيقيّة. أين نذهب بالسيّد وحيد. ضحك غالب عفوياً. مع انشغالهم تناولهم طعام غدائهم قال بدر موجّهاً حديثه لغالب. ما الذي انتهيت إليه بخصوص القرد. احتجّ فهد. القرد المعني عائد لي وأنا المسؤول عن اتخاذ قرار بشأنه. خاب ظنّهم أن يكون القرد وحيد متواجداً معهم، مسحة الحزن الآخذة وجه غالبٍ بما يحيل ذكراه لوحيد الأصل، يليه فهد بعدما رصد مراحل تشكّل اللوحة طوال شهرين، حتى اكتملت. بمحاولة لتغيير مناخهم النفسي توجّه بدر بسؤاله لغالب. ما موضوع لوحتك القادمة. السيّد الرئيس حفظه الله. قبل انفضاض مجلسهم ألقى كلّ من غالب وبدر وجعفر نظرة أخيرة على وحيد، لم يتبادر لأي منهم يقول لفهد. ما الذي ستفعله بالرسمة. سكون ليل التاجي، خرج فهد لأرضه الخلفية حاملاً لوحته، أنوار غرفة معيشة البيت الثاني مضاءة، لعلّه ملازم أيمن يشغل نفسه يقرأ كتاباً، اقترب من سور الأسلاك الشائكة، لوّح بذراعه. مرحباً. حيّاه أيمن لدى اقترابه، حانت عنه نظرة للوحة. حدّثني عنها عريف ريسان. تأمّلها مليّاً. يبدو حيويّاً. تريّث ذهن فهد عند كلمة حيوي، لم يخف حسّ الفقدان من صوته. لم يحسن غالب اختيار موضوع رسمته هذه. أدهشته

إجابة أيمن. كثيرون لا يحسنون الظن بالناس. وقوفهما متقابلين يفصلهما سياجهما، وجه فهد تساؤله لأيمن مُشيراً للوحة. تريدها.

منذ الثواني الأولى للقائهما أحسّ أيمن بعيني هيا تحضنانه، للغفران وسائل تعبيرية خاصّة به، كانا في الغرفةِ الصغيرة إياها، قالت له. وددت لو أكرهكِ لا لكونك كنتَ قاسيا معي لكنّه غموضك، وددت أكره أبي أيضاً، كان يعرف ما وراء التباس فهمي لك، سألته مرّات، لا أدري ما الذي يدور في رأسك، تلك إجابته المحيّرة، هل أقول لك أحسستني غريبةً عليّ، يقيني الذي بقي يتملّكني أنّك نقي شأن أبي، ولا أجد تبريرا لما اكتنف علاقتي بك. سكتت، لعلّ ذهنها رحل وراء ذكرى محددة. ليتك تصدّقني. حزنها يناوش صوتها. كرهت عملي في وزارة الدفاع، كرهت الحاسوب وما يتصل به لأنّه صار سبباً. هبّت واقفة. نخرج. محاولتها احتواء حزنها على طريقتها منعته يسألها إلى أين. لحظة ركوبهما السيّارة قالت. أنا اختار وجهتنا. تخفف صوتها من ثقل حزنها. تأخذنا لسلمان باك. احتوى فضوله، آثر لا يسألها سبب اختيارِها. مغادرته زحمة شوارع العاصمة إلى الطريق السريعة المتجهة جنوبا، التفت لها. نصف ساعة ونكون هناك. فاجأه حضورها ردّها. أنا معك. كما تأكيد واقع قائمٍ، الرضا قوس آخر للسعادة. عندما تكون هيا معه يكتسب زمنه بعداً أثيرياً لا علاقة له بالزمن المتاح. لمّا اختلى بي أبي قبل أيام، أنت تظلمين أيمن. تملّكني غضبي، كيف يتحوّل المظلوم إلى ظالم. أنت مُنحاز لملازمك من غير معرفة أسباب، قاطعني، أعرف كلّ الأسباب، شكا لك أيمن،

لم يحدث، أين لك بقناعتك، لأنّي شأن أيمن لا أستطيع التصريح بما أعرف، ما الحكمة من كلامكِ إذن، تولّدت عندي قناعة لا جدوى الصمت ما دمت صرتِ طرفاً بالموضوع. لم يشأ أيمن يقاطع إفضاء هيا، بساتين النخيل والفاكهة تترامى على الجانبين بعدما تحوّلت السيّارة عن الطريق السريعة سلكت الشارع الفرعي المؤدّي لقرية سلمان باك. أنت إنسان نبيل، أبي إنسان نبيل أيضا، أنتما لا ترتكبان إثماً، لكنّكما تتبعان ما يمليه عليكما ضميركما. عيناها في عينيه. أنا معك. هل يصحّ لأيمن يهمس بكلمة حبيبتي. اليوم هو الأوّل من آذار مطلع الربيع، وصولهما الموقع الأثري لإيوان كسرى، شاهدا عشرات العوائل البغدادية تنتشر في البساتين المحيطة بالصرح، عهد أيمن بالمكان سنة ثانية كليّة عسكرية، لمّا أخذوا طلبة الدفعة جولة استكشافية لمحيط العاصمة توخيًّا لتدريبهم على تعيين مواقع دفاعية فيما لو خاض العراق تتمّة أمّ المعارك. لدى ترجّلهما قالت هيا. الناس هنا يسبّقون لعيد نوروز. مازلنا بعيدين عن نوروز هل تأتي بي هنا ثانية. إنْ شئت جئنا كلّ يوم. إحساس الواحد بتحققه عبر تواجد الآخر، من غير ما توقّع منه امتدت يدها ليده، طراوة اللحم الأنثوي. هذا الشعور الشفيف بانتمائك للكائن عندك طموحاً لصيغة اتحاد عصيّة التحقق، تابعا مشيهما، دخلا صحن الصرح، مهابة المبنى العملاق. سمعها تقول. اكتسابه عظمته يعود لكونه بُني قبل ما يقرب من ألفي سنة. اجتهد مشاركاً. بالوسائل البدائية أيامها. رفع رأسه نحو السقف البعيد. لو أطلقت رصاصة مسدس باتجاهه سقطت أرضاً قبل ملامستها له. هل حاولتَ. وصلها ردّه سريعاً. أكره السلاح. أفهم من هذا بيتك خالٍ من السلاح. وصلها ردّه سريعاً أيضاً. عدا

المسدس الخاص بأبيك. عيناها اتسعتا بدهشتها. أسألك عن بيتك في مدينة الضبّاط. وأنا أجيبك بخصوص بيتي في السنك. سمعها تغمغم متمنية. عساه كذلك. ارتيادهما الجوار، وصلا مرقد الصحابي سلمان الفارسي، استرعى انتباه أيمن وقوف طابور عائلات مع أطفال صغار أمام مدخل الضريح حيث يتواجد حلّاق في الهواء الطلق يتولى حلاقة رأس طفل مرعوب لم يتجاوز سنته الثانية إلى جانب صبي يتولى جمع بقايا الشعر يضعها داخل كيس مُعدّ، دهشة أيمن تغالب فضوله. كأننا عدنا نصف قرن وراء. تطوّعت هيا وضّحت. يُقال عن الصحابي سلمان الفارسي أنّه كان حلّاق الرسول، لهذا يتبرّك أهالي بغداد بحلاقة شعور أبنائهم للمرّة الأولى عند مدخل ضريحه. أهالي تكريت لا يعرفون مثل هذه الشعائر. ضحكت هيا. لأنّكم بدو لا تقصّون شعوركم. أشارت صوب الصبي الذي يجمع نتف الشعر المتساقط. اعتاد الأهالي يضعون شعر الطفل في ميزان للذهب، يتصدّقون بثمنه على الفقراء. نوّه أيمن. شعيرة طيبة. لحظة ابتعادهما عن مشهد الضريح قالت هيا. لا بأس أن تعرف. تنبّه يسمعها. منذ أمس الأوّل وأنا أخطط لزيارة المكان. لامس صوتها شعور الفقدان. في مثل هذا اليوم، قبل خمس عشرة سنة، جئنا أبي وأمي وأختي جنى وأنا وأخي خالد. صُدم أيمن. لديك أخ. كان في الثانية من عمره، قص له حلّاق الضريح شعره، أتذكّر ميزان الذهب في سوق الصاغة، انفرج فمها ابتسامة محبّة. لأنّه على اسمه حوّل عمّي خالد مبلغاً يعادل ستة أضعاف ثمن وزن شعر خالد. لاذت بصمتها، لازم أيمن صمته احتراماً. في ذروة أمّ المعارك أصيب خالد بمغص حاد، أطباء المستشفيات حينها وانشغالهم بالإصابات الخطيرة للعسكر،

طفقنا ننتظر الدور في ردهة المستشفى، حقنوا أخي بمسكن للألم، بعد ساعات فقد خالد وعيه، حاولوا إسعافه، توفي بانفجار الزائدة الدوديّة. أراد يُبدي مشاركته. لم أكن أعرف. ها أنت عرفت. تابعت. في بالي تكون معي وأنا أستعيد ذكرى الفقيد خالد. قال. معك. الشمس توارتٍ لتوّها وراء خطّ الأفق الغربي، انغمار الجوار بالإضاءة الفضيّة تمهيداً لقدوم الليل، ازدحام الطريق السريعة الصاعدة باتجاه بغداد بالسيارات العائدة. ماذا فعلت مع فنّي البراويز. لم أذهب إليه. أين انتهى الأمر بالرسوم الستة. أشارٍ أيمن إلى وراء. باقية هنا، في صندوق السيارة. أبدت هيا استغرابها. كلّ هذه المدّة. واتت أيمن ضحكته. زاد عدد الرسوم صاروا سبعة بعد إضافة لوحة زيتية للقرد وحيد.

سواء أخذت كلمات فرغلي بخصوص لا نفي الآخر على محمل الكتابة أم تغاضيت، هناك آلية خفية ينتهجها النص في حالة تخلّقه بما يمنحه إرادة نمو خفيّة تبدو كأن لا علاقة لها بك بقدر ما أنت مسؤول تجاريها، بناءً لابدّ من مواكبة مجريات سجن بو غريب، النظام العراقي رغم خسارتهٍ في أمّ المعارك حقق انتصاره على شعبه الذي تجرأ انتفض طموحاً للخلاص، عزز انتصاره أعاد فرض هيبته المطلقة على محافظات جنوب ووسط بعدما نفّذ حرسه الجمهوري إعدامات آلاف مواطنين، نعدمك ولا نسمح لذويك يتسلّمون جثمانك إلّا إذا دفعوا ثمن رصاصات اخترقت جسدك الخائن، أنت والذين جرى إعدامهم قبلك معك بعدك جميعكم عبرة لمن اعتبر. القتل بالجملة على رؤوس الأشهاد. من بين نزلاء جدد

في العنبر 7 رجل اسمه عبد السادة، قصير القامة، تجاوز الأربعين من عمره، وإنْ بدا في السبعين، جلدة رأسه حمراء طاعنة بسبب تساقط شعر رأسه كلّه فجأة، لعلّ صفاته هذه شفعت له لا يُعدم، أو نتيجة غياب أدلّة تعزز فكرة إعدامه. من أهالي محافظة البصرة، قرية صغيرة تتبع منطقة الخورة، تتألّف من دور طينية يسكنها عمال مُياوَمة على مرمى نظر الحرس المرابط عند بوابات قصور السيّد الرئيس المطلّة على شط العرب. انسحاب جيشنا أيام أم المعارك. حرص عبد السادة يتحدّث بصوت مهموس فلا يسمعه سوي بدر وآدم. جنودنا كانوا مخذولين غاضبين على قادتهم، معاناتهم الجوع جرّاء حرمانهم القسري من الطعام طوال أيام الحرب الجوية، زاد من قهرهم تعرّض آلياتهم للقصف من جانب طيران العدو قبل اجتيازهم حدودنا للداخل، واضطرارهم مواصلة الطريق الصحراوية سيراً على الأقدام. سكت مستجمعاً ذاكرته. الجنود الأفراد بالغضب المشتعل في صدورهم هم الذين انتفضوا قبل غيرهم. سأله آدم. لعلك شاركتهم. لمّا قامت الانتفاضة كنت في النجف. أهالي النجف ساهموا أيضاً. كنت مضطرّاً أعود للبصرة سريعاً للاطمئنان على زوجتي وابني. سأله بدر. هل توفّرت لك الفرصة. سأله عبد السادة أنت محقق. أطلق آدم ضحكة مفارقة خافتة. كان قاضي تحقيق قبل احتلالكم الكويت. انزعج عبد السادة. أنا ضدّ احتلال الكويت. أردف. غالبية أهالي البصرة ضدّ احتلال الكويت. نبس آدم. أمر طيّب. يُقال، تمثّلت الشرارة الأولى للانتفاضة بإقدام أحد الجنود العائدين من الكويت يوم أوّل آذار بإطلاق رصاص رشاشه على تمثال السيّد الرئيس حفظه الله المقام وسط ساحة سعد في

Twitter: @ketab_n

البصرة، عمّت الانتفاضة بعدها بخروج آلاف الناس للشوارع، نساء رجال شباب شيوخ، اختلطوا بأعداد هائلة من الجنود العائدين، تعالت هتافاتهم بسقوط النظام الذي أقدم خاض بالعراقيين حروباً ظالمة خاسرة في الوقت نفسه، موظفو الإدارة المحلية من القائمين على شؤون المحافظة وكبار المسؤولين إضافة لقيادات الحزب الحاكم اختفوا بقدرة قادر، كبّار ضباط الأمن بالمثل، رجال الشرطة الأفراد التحقوا بالمنتفضين، حلم التحرر بعد ثلاثة عقود استبداد، وضع المنتفضون أيديهم على المرافق الرسمية، محاولتهم بدء تنظيم شؤون ناسهم، تنبّه بعض ناقصي العقل والحكمة لوجود القصور الرئاسية غير بعيد عن المتناول، الانفعال والاندفاع، حرس تلك القصور تواروا دون أثر، ربّما تخلّصوا من زيّهم العسكري اختلطوا بالجماهير، مشاعر الكراهية والانتقام حاولت تلك الجماهيرِ تدمير ما وقع تحت أيديها، أو الاستيلاء على ما خفّ وزنه تعويضاً، الردهات الواسعة للقصور الرئاسية مفروشة بقطع سجّاد عملاقة لا يمكن نقلها، بما يعني إمكانية تحويلها قطعاً ذات أحجام صغيرة استعانة بالمناجل، ولدي عبد الحسين مراهق لم يتجاوز الخامسة عشرة، دخل مع جمهرة الناس، عاد حاملاً نتفة سجّاد بحجم حصيرة خوص. لو كنت موجوداً وقتها لما سمحت له يستولي على شيء دنس. تهدّج صوته. الفوضى المصاحبة أيامها، ندرة وسائل النقل بين المحافظات جرّاء الفلتان الأمني، وصل عبد السادة لمدينة البصرة بعدما استعاد النظام سيطرته، مئات الجثث باقية في العراء، رجال الحرس الجمهوري يلاحقون من يقترب لجثّة ما، جثث أخرى معلّقة إلى أعمدة الإنارة، يجدر بعبد السادة الاطمئنان على عائلته الصغيرة، توجّه من فوره

لقريته، وجدها محوّطة بمثات حرس جمهوري، إحكام عملية البحث عن منهوباتٍ، منعوه من دخول ساحة القرية المطلة على شط العرب، رأى عدداً من أهالي القرية بما فيهم زوجته وابنه، يتزاحمون واقفين، ظهورهم صوب شط العرب، أمام كلّ منهم الغرض الذي نهبه من القصور الرئاسية، رأى نتفة السجّاد.

لأنّهم مضطرّون يتعايشون معاً طوال ساعات أيامهم إلى ما لا نهاية مُدركة لهم توجّبٍ على أيٍّ منهم يتحلّى بانضباط شعوري محايد قدر المستطاع متجاوزا أحزانا ذات طابع شخصي حتّى لا تنتقل عدوى معاناته لرفاقه وبعكسه يكون إحساس الجميع بالمأساة حاضراً أبداً. وهو يستعيد ذاته يبدأ بممارسة الرسم بالألوان الزيتية، وهو يختار موضوع القرد وحيد بذل غالب قصارى جهده يستنطق عيني المعني، حرص على تأكيد نظرة مباشرة تحمل رسالةٍ عتب يتلقّاها المشاهد منذ اللحظة الأولى، جهده ذاك استغرقه أسبوعاً إضافيا، كان يرسم ويدقق، بلوغ الرضا أمر غير وارد، ينتظر جفاف الزيت لكي يرسم فوقه، وعده لفهد أنْ تكون اللوحة له يعني حضورها بمتناول الرؤية، لحين أبدى ريسان ملاحظته. بما يعني إبعاد وحيد. نهاية قسرية بهذه السرعة، لجأ غالب لغرفته، عبوات الألوان الزيتية باقية مُتخمة بعصاراتها، ما الذي يساعد على التخفيف أو التعويض، لكلّ ألمه، ألم فهد الذي راقب ولادة وحيد شهرين لا بُدّ يكون ذا طبيعة ملتبسة، لو جاء التعويض بمحاولة رسم شجرة بمبر جزيرة فيلكا بأوراقها العريضة داكنة الخضرة كيف لنا نميّز حضور الببغاء وسط أغصانها، الببغاء يُجيد نُطق كلمة غبي، لكلمة

مثل هذه احتشادها الخاص بها ضمن حالة الإعدام يومها. الفكرة من الشروع بها، يبدأ غالب يضع لطخات من اللون الأخضر بانتمائه للبنّي، بعد ساعات تراءت له الأغصان بأوراقها، تُراه لم يحسن عيار الأخضر، من مصادفاته أنّه لم يعاشر شجرة بمبر لدرجة تقمّص الروح، يضاعف كمية اللون، ينزكم أنفه بالرائحة النفّاذة، رائحة مركزة مثل هذه تصير مدوّخة، ماذا عن ذكرى ذات ارتباط. زواجهما رباب وهو، الأمر بالنسبة إليه كلّه، بما يعتمله أو يحتمله، كان جديداً عليه، عاش حالة التوق لمّا قالت له، أخالني حاملاً، أخذه فرحه لذرى لا خبرة له بها، استغرابه ببلوغ فرحه ذاك حدّه الأقصى وهو يعايش توحّم الحمل عند رباب، كانت تدنو من لوحة زيتية قيد العمل، تقرّب أنفها تشمّ، الأمر بالغرابة الباعثة على الغموض، شكا لرئيسه في العمل بصفته الصديق المتزوج منذ عقد سنوات وله أربعة أولاد، لعله يجتهد يفسّر. قال له رئيسه. توحّم المرأة الحامل يرتبط بأنواع من الأطعمة أو الروائح. ودّ غالب وقتها يسأل لماذا الروائح، لولا استطراد محدّثه ضاحكاً بدالة المفارقة. في كل مرّة تحمل زوجتي أجدني مضطرّاً للنوم خارج غرفة الزوجية لأنّها لا تطيق رائحة الرجل. المعنى الضمني لا علاقة جسدية، خجل غالب يقول. مع حمل رباب تضاعف إقبالها عليّ. الذكرى تداعيات مشاعر خليط، وحيد أو ببغاء فهد، رِباب بالجنين والمخاض، الرصاص أوجه اغتيال يستحيل إيجاد المعادل التعويضي لها، ممارسة الفن التشكيلي معايشة إبداعية لفعل يدوي، إنْ كان الذهن مسرح انفعالات شخصيّة حادّة صرَف غالب نفسه عن المواصلة. مطلع ربيع التاجي الرياح الليلية باردة قليلاً مُنعشة بما حفز ثلاثة منهم تواجدوا ضمن الأرض الخلفية، فهد، ينشغل برعاية نبتاته، بدر وجعفر يتخذان من درجات سلم الباب

الجانبي مجلساً يجدان مادّة حديث لهما، غالب وحده بقي داخل غرفته، النسيان، في العادة، مسألة وقت، لكنّه ينهج مغايراً تماما إذا كان هناك فقدان لا قابلية لتعويضه. أمر يتوجّب عليه يضعه بحسبانه، أنّه يعايش رفاقا يكادون يتماهون واحداً. عند الساعة العاشرة دخل بدر وجعفر غرفة المعيشة، للحديث، دائما، بقيّة، غالب، من جانبه، أحسّ كمن تخفف قليلاً من انكفائه على داخله أزمع يلتحق بغرفة المعيشة، أطلّ فهد. مطلوب حالاً خير. ابتسم فهد بدلالة مُلغزة. ملازم أيمن. يفصلهما سور الأسلاك الشائكة. أردتُ أقول لك لوحة القرد متقنة. شكراً. ردّك حزين. أبداً. أبدى أيمن مشاركة. ليتك تزوّدني بعنوانك الدائم في الكويت. انشداه غالب أخذ بوجهه، لم يفهم المراد منه، تابع أيمن. لو شاء القدير وعدت لبلدك، يصبح بمقدوري أجد وسيلة أوصل بها لوحتك إليك.

صدق الإنسان مع نفسه وأمانته تجاه الآخر. مقولة لا يجزم أيمن ممن سمعها، ويجزم قيلت له على أيام دراسته الثانوية، بعد الحديث القصير الذي دار بينه وبين غالب، اندهاش الأخير من ذهوله، لا تصديقه إزماع سجّانه إعادة لوحته إليه حين يحلّ ظرف مناسب، رأى أيمن عينيِ غالب تلتمعان بامتنان يشوبه أمل. يعود أيمن لغرفة معيشته مُحتشداً مشاعر ما كان مؤهّلاً يعرفها بالزخم والفاعلية، رجال العهدة يُضاف ريسان يُضاف بيت السنك تُضاف هيا خصيصاً، يحسّه، بعد رحلتهما سلمان باك كمن ارتقى بآدميّته أعلى، صار يتنسّم هواءً أنقى، تعزز شعوره أكثر لمّا سلمته هيا جهاز الحاسوب، قالت. عدد

المجلة التي يُصدرها عمّي خالد في استراليا حاوية مقالة الكاتب الكويتي. للقراءة من جهاز الحاسوب متعتها بالفضول المرافق، تريّث أيمن برهة عند العنوان، نفي الآخر لدى الكيانات السياسية وأنظمة الحكم في العالمين الثالث والثاني، ما الحكمة من تقديم الثالث على الثاني. لا يتردد أيّ من الأحزاب والأنظمة عن رفع شعارات الديمقراطية، فإنْ تبوأ سدّة الحكم قطع الطريق على غيره، مع سعي دؤوب لإعلاء شأن رأس الدولة. المقالة تكاد تطابق ما كانت تقوله مارلين، تُراهما استقيا فهمها من مصدر واحد. عندما صحبته هيا لفني البراويز توفّرت لها فرصة رؤية اللوحة الزيتية، فتحت عينيها سعتهما إعجاباً. يكاد ينطق. لم يأبه أيمن لنظرات عاملين ينكبّان على رسمات القلم الرصاص وهما يقارنان وجهه برسمة أمامهما انحنى على أذن هيا، تساءلها. لو نطق القرد. تطلعت إليه تستفهم قصده. أكمل تساؤله. ما الذي سيقوله. اكتسى وجه هيا حيرة، قرّب فمه عند أذنها ثانية، تصنع ما يشبه المهابة وهو يهمس كمن يوجّه خطاباً. الأخوة القرود. اهتز جسد هيا مُطلقة ضحكة رائقة، لم تُدارِ إعجابها. أنت مجرم. وهما يسلكان طريقهما نحو بيت السنك. قالتَ بصوت يشوبه المرح. أيام الأسبوع سبعة. تطلّع فيها. رسمات القلم الرصاص ست. تراه أدرك قصدها، وعدها. أحاول. قالت متمنّية. لا أظنّه يقول لا. ردّ أيمن. لا أضاف. أحتاج صورة شمسيّة لك. اقترابهما للمنزل قالت. لن يوافق أبي نُثبّت صورة القرد على. قاطعها أيمن. معه حق. سكت ثانيتين. لو تصادف زاركم أحدهم رأى القرد بالمهابة التي ظهر بها ظنّه نسخة مستوحاة.

في وقت سابق رافق كتابتك لنصّك ما لا يراه نائم أبدى فرغلي رضاه عن حيادية مُفترضة تمثّلت بحضور الصوت الآخر، الحال مع نصّك الدائر في سجن بو غريب لا تبشّر بقبول رسالة مضمّنة. أين الصوت الآخر. لم يقلها فرغلي صراحةً لكنّه عناها، تودّ لو ترقى بكتاباتك عند حدود الطموح، تود تتخلّص من كراهية لا إرادية أو لا مُدركة إزاء خسارتك لأخيك، تتعلل باحتكام النص خلال تساوقه لآليات أقوى من إرادة الكاتب. صحّة تعللك من عدمها، إحساسك النقدي تجاه المراوحة داخل سجنهم رغم إسعافك الحدث بتخليق شخصية آدم يوسف، حتىٍ وافاكٍ خيالك ابتكر لك شخصية عبد السادة بعدما افترضته جنوبيًّا قادماً من الجحيم الدموي لقمع الانتفاضة الشعبانية، للحظة راودك وعيك أنّك لدى زجّك رجلك هذا بصفته شاهد حدث تستطيع تحقيق حيادية مزعومة بأنْ توكل له مهامٍ الصوتٍ الآخر، ولا تجزم. إعادة الحديث عن المأساة تمثّل استحضارا شعورياً لمجريات مؤلمة، أشار آدم لبدر ما معناه، يتوجّب علينا عدم الخوض في تفاصيل قد تتسبب بانهيار صاحبنا، وافقه بدر بإيماءة رأس مدّ كفّه لامسٍ كتف عبد السادة. شدّ حيلك. بدوره خاطب آدم عبد السادة مُشاركاً. خسارتك على ما يبدو كانت فادحة. غمغم المعني. كُليّة. القرية الكائنة من أعمال منطقة الخورة، الساحة الموازية لشط العرب، البيوتات الطينية لأهالي القرية تُمثّل خلفية المشهد. عند الساتر الصخري لمجرى شط العرب وقف ما يقارب الثلاثين من أهالي القرية، خليط رجال ونساء وصبية مراهقين مولين ظهورهم للشط وبين أقدامهم بعض تحف وأوان مُزخرفة ونتف سجّاد نُهبت من قصور السيّد الرئيس حفظه اللهّ، بقيّةّ أهالي القرية ممن حضروا الواقعة يتزاحمون

وراء صف أفراد الحرس الجمهوري المتأهبين ببنادقهم الرشاشة استعداداً لأي طارئ، تولى ضابطهم اختيار ستة جنود، أمرهم يقفون مبعدة أمتار بمواجهة النهّابين. بلوغ عبد السادة المكان بدا وكأنّه توقيت لحضور الواقعة، زحمة الساحة بالأهالي والعسكر، شعور الفجيعة الآخذ بوجوه السكان، أوشك عبد السادة يخترق حشد الأهالي توقاً للالتحاق بزوجته وولده أمسك به أحد جيرانه. إلى أين. ما كان أدرك مجريات الحدث الماثل أمامه. ماذا يدور. أشار الجار بالاتجاه. ابنك عبد الحسين دخل قصر السيّد الرئيس حفظه الله استولى على قطعة سجّاد. ذهن عبد السادة لم ينشط بعد. منذ ساعات الفجر الأولى قامت وحدةٍ حرسٍ جمهوري بتطويق القرية. داهم أفرادها البيوت، أجروا تفتيشاً دقيقا، عثروا على ما أمكن. ابنه اعترف باستيلائه على نتفة السجّادة لكنّ الأم أرادت افتداء ولدها ادّعت هي التي دخلت القصر، بما يفيد مسؤوليتهما المشتركة. قبل إصدار ضابطهم أمره لجنود ستة مشهرين بنادقهم نحو صدور خليطِ الأهالي الواقفين عند الساتر الصخري لمجرى النهر رفع صوته مخاطباً الحاضرين كافّة. ها أنتم ترون بأمّهات عيونكم نهاية مجرمين سوّلت لهم نفوسهم الدنيئة ارتكاب الموبقات ظنّاً أنّ العدالة لن تطالهم. نقّل بصره على الوجوه المفجوعة. ها هم يلقون مصيرهم عبرة لمن اعتبر. ضجّ المكان بأصوات رصاص البنادق الرشاشة. قبل أنْ يبادر جاري بلفتة إنسانية منه يستر عيوني بكفّه لمحت جسد زوجتي ينقذف إلى ما وراء الساتر الصخري للنهر، سمعت صرخاتٍ الناس حولي، أردت الاندفاع إلى الأمام، قبل أن أتهاوى أرضاً، استعدت وعيي بعد ساعتين لأسقط في الظلام ثانية. قال بدر. فقدان الواحد لوعيه إزاء فجيعة يعجز الذهن عن مجاراتها

حيلة دفاعية يلجأ إليها الجسد اتقاء الموت فزعاً. لما أفقت ثانية. ارتفعت يد كف عبد السادة تحسست رأسه، أضاف. وجدتني أصلع تماماً. انفرج فمه بابتسامة حزينة. كان شعر رأسي على وسادة فراش الجار الذي نقلني لبيته ساعة الواقعة. سادت لحظات صمت، انبرى آدم. لماذا اعتقلوك. غامت عينا عبد السادة بذكراه. فرضوا حراسة على جثث الشهداء، من يريد دفن موتاه عليه دفع ثمن الطلقات التي. سكت لوقت قصير. عرفوني بصفتي رب العائلة، أين كنت عندما حادثة تدنيس قصور السيّد الرئيس حفظه الله، في النجف، حيّا الله ثوّار الأضرحة، لم أشارك، صدّقناك، أطبقوا الأصفاد على معصمي أيقنت أنّي سألحق بعبد الحسين وأمه، لم يمنحوني ميّزة الالتحاق بعائلتي. خطف نظرة لوجه بدر، تابع. قاضيهم العرفي يحاكم الناس بالجملة، صفّ الرجال الذين كانوا واقفين على يمين المنصّة خمس عشرة سنة، صفّ الذين يقفون يسار المنصّة عشر سنوات.

طيور التاجي تحتفي بقدوم الربيع على سجيّتها، تنوّعات تغريدها استجابةً لفعل الطبيعة، الأرض والأشجار بالحيوية المختزنة، صاحَب هذا كلّه تحوّل يدعو للتفاؤل والأمل بالخلاص السريع طرأ على نفوس الأربعة، موقف ملازم أيمن من موضوع لوحة القرد وحيد، طلبه عنوان غالب في الكويت وكلمات برر بها طلبه. ما الذي قاله لك بالحرف. سؤال وجهه أيّ من الثلاثة لغالب مرّاتٍ عدّة، وفي أيٍّ من المرات تلك حرص غالب يتوخى دقته. لو شاءً القدير وعدتَ لبلدك يصبح بمقدوري أوصل لك لوحتك. المعنى المستخلص أو

الذي يجب أنْ يُستخلص إننا عائدون للكويت بعد وقت يطول أو يقصر. اجتهد أحد الثلاثة قالها لحظة سماع إفادة غالب أوّل مرّة، جرت استعادتها ثانية مع تعديل بسيط. المعنى المستخلص إننا عائدون للكويت في وقت ليس ببعيد. مرور يومين، اجتماع الأربعة حول وجبة غدائهم، أعاد أحدهم ترديد الجملة ذاتها، أضاف كلمة واحدة. المعنى المستخلص أننا عائدون للكويت في وقت ليس ببعيد حتماً. كلّما التمّوا على بعضهم تداولوا شأن الزمن القادم، يقول واحدهم لواحدهم. يتوجّب علينا أخذ كلام ملازمٍ أيمن مأخذ الجد، من غير المعقول يَقدم يتفوّه كلاماً يتضمّن إقرارا بحدث قادم مثل هذا إنْ لم يسمع من مصادر عُليا عن قرب إطلاق سراحنا، ما أدرانا عن عدم وجود جهود دائبة من قبل حكومتنا تهدف تتوصّل لاتفاق مع مسؤولين هنا بخصوص أسرى عالقين في الزمن المغفل، لا تنسوا جهود المنظمات الدولية بالتنسيق مع منظمات كويتية، لأننا معزولون هنا ولا نعرف بالذي يدور، لا بُدّ من حدوث انفراج شمل العلاقات الكويتية العراقية على المستويين الرسمي والشعبي وإلّا ما سمحت وزارة الإعلام الكويتية بنشر نص. يتبادلون توقعاتهم، يتداولون تمنياتهم، وسط انبعاثٍ الأمل في نفوسهم عنّت لجعفر فكرة مكاشفة فهد. لأنّك الأكثر قرباً من ملازم أيمن. ماذا تعني. أعني أنت تراه ليلياً، ليتك تسأله متى يحين موعد إطلاق سراحنا. تتحدّث بثقة عارف ببواطن أمور يجهلها غيره. تمنّى عليه جعفر. لو أنّك بادرت. سكت برهة. عودة لكلام قاله أحد رجالهم أيام كنتُ نزيل قبو المديرية العامة لاستخباراتهم بخصوص صفقة. كم من الزمن مرّ على كلامك هذا. الصفقات ذات الطبيعة الدولية الحساسة لا

يمكن إبرامها سريعاً. عقد فهدٍ حاجبيه مُسبّقاً لاحتجاجه. ترتأي علي أغتنم فرصة تواجده ليلاً في حديقة منزله ثمّ أتوجّه له أسأله متى تطلقون سراحنا. ليس بهذه المباشرة. ضمّن فهد صوته هامش انزعاجه. لا بهذه المباشرة ولا بغيرها. لماذا العناد. علاقتي بالملازمٍ أيمن لا تتجاوز مرحباً يُسبّق بها أحدنا فيستجيب الآخر مرحبا بصفتي الأكثر تواجداً خارج مبنى المنزل ليلاً، عدا ذلك لا امتياز ولا حسّ صداقة يخصّني به، يتعامل معنا نحن الأربعة من مسافة واحدة. تنبّه استدرك. إلا إذا تذكّرنا مواقفه مع غالب. انفرجت أسارير وجه جعفر. أظنّك على حق. يا غالب. فاجأهما الأخير. لا أملك الحق ولا أتسم بجرأة مطلوبة. بقي توق الأربعة لمعرفة مصيرهم مرهوناً بسماع خبر أو تلميح يصدر عن أيمن، جاءت مناسبة غيرٍ محسوبة، طلب فيها أيمن رؤية بدر ليقدّم له جهاز الحاسوب. مجلة عربية تصدر في استراليا تولّتْ نشر مقالة لأخيك. الوقت بعد غياب الشمس بقليل، سور الأسلاك الشائكة يفصلهما عنهما، التمعت عينا بدر باحتفائه. أفكارنا، أخوك وأنا، متشابهة إلى حدّ كبير. لم يتردد بدر يصّرّح بمكاشفته. أفكار أخي أقرب للماركسية. ابتسم أيمنٍ. ماذا عنك. يُفترض بمن ينخرط في سلك القضاء لا يتبنى فكراً عقائدياً. حياد مطلوب. أزمع أيمن ينصرف لحظة تنبّه لنظرة رجاء في عيني بدر. هناك ما يشغل بالك. سور الأسلاك الشائكة يفصلهما عنهما، بدأ بدر إفضاءه. سنوات قضوها في الأسر تجاوزت اثنتي عشرة، انقطاع لا سابقة له، مُنذ حلولهم هنا نالوا رعاية ومشاعر صحبة بما يخفف المعاناة ولا يلغيها، في الأيامٍ الأخيرة بدأ صبرهم ينفد، كيف للواحد يطمئن لمصير مجهول حدّ الاستغلاق. سادت

ثواني صمت، قال أيمن متوخياً أمانته. على حد علمي أنتم لستم سجناء بالمعنى الحرفي، تسميتكم المعتمدة عُهدة خاصّة. سكت ثانيتين. سمعت ما مفاده أن رأس السلطة يوليكم اهتماماً خاصاً. فاجأه بدر مدّ كفّه عبر فتحة في الأسلاك الشائكة، المصافحة شأن بشري. أنت عززت فينا أمل خلاصنا.

الإنسان بالذات المتحققة فيه، فإنْ صادف الواحد توازنه الداخلي ممثلاً رضا عن حضور بدالّة فعل خير طوعي حظي بفيض سعادة. اختلى أيمن نفسه، حديثه مع بدر قبل دقائق فتح عينيه على نمط معاناة لم تسبق له معرفته، الحبس في المكان، منذ اثنتي عشرة سنة وهم من مُعتقل لسجن ومن سجن لمثيله ريثما هنا، انقطاعهم عن وطن، أهلٍ، أحبّة، وطنهم منفي في ذاكرة آخذة تنأى، في السجون لوائح تنظم علاقة الداخل بالخارج، من حقّ السجين يطمئن على من يهتم بهم أو يهتمون به، له حق كتابة رسائل واستلام بريد، له فرصة متابعة ما يدور، معرفة مُدّة محكوميته كي يعيش عدّه التنازلي على طريقته، حال العهدة عزل مطلق لا اتصال ولا خبر يساعد على احتمال وطأة الانقطاع. البيت الذي يسكنه أيمن نسخة لبيتهم، إنّما شتّان بين مُفردة سكنى ومُفردة احتجاز، لو أراد أحدهم مغادرة المكان خرج لأرضه المشوّنة، ولو أراد أيمن مغادرة المكان ذهب لبيت السنك، مدينة الضباط، شارع المتنبي، سلمان باك، عمّان أو موسكو. أنْ يمتلك الواحد خيار ملازمة المكان أو تركه، لمّا يبقى أيمن لثلاثة أيام متتالية داخل معسكر التاجي ولا يغادره لخارجه يتملّكه

إحساس المراوحة المملّة في المكان، انحباس الأربعة العهدة إلى متى. جلس أمام طاولته، حانت عنه نظرة سريعة لكفّه اليمنى، أحسها تنّملت، مُنذ قليل امتدّت كفّ أحدهم خلل فرجة بين الأسلاك، طوال زمن تواجدهم لم يخطر ببال أيّ منهم يشهر كفّه يصافح، أنت عززت فينا أمل خلاصنا، خطاب الفرد يشمل جماعته، قبل أشهر، حادثة فهد وكوب الشاي، لم يشرب، ضميره منعه يشرب ورفاقه لا يتساءل أيمن إنْ كان حسّ التكافل لديهم يساعدهم على احتمال وطأة الانحباس، هم ليسوا من عائلة كبيرة واحدة ولا يعرفون بعضهم قبل مصادفة تجمّعهم هنا، أيام اشتداد أزِمة قرحة جعفر خيّل لهِ أنّهم كلّهم مرضيّ، كيف لأيمن يفعل شيئاً دون أن يتجاوز حدوداً وهمية حمراء، تذكر حذر الانكشاف وقطيعته مع هيا لأسابيع، تذكّر صورتها الشمسيّة في جيب صداره.

أومأ فرغلي برأسه دلالة الرضا أو القبول. لا بأس من توظيفك شخصيّة عبدٍ السادة القادم من أقصى الجنوب العراقي. تساءل مبيّتاً فضولاً ما الذي سيكون عليه دوره بعدما حكى لنا قصة إعدام زوجته وابنِه. ليس لديه ما يقوله. واصلت. أو يفعله. لماذا. لأنّه شخصية طارئة أفكر بالتخلّص منها. تملّكه استغرابه. كيف. يكون أحد مواطنينٍ عراقيين يشملهم الجرد السنوي الذي يتولاه أزلام نظامهم توخّيا لتنظيف سجونهم من معتقلين فائضين عن العدد لا مسوغ لبقائهم أحياء. لم يخف انزعاجه. لا أظنّك جادّا. موقف قيادة النظام العراقي من المشارَكين بالانتفاضة الشعبانيّة يقضي

بذلك. أضفت. واقع حال السجون العراقية بالجرد السنوي المعتمد وعمليات التنظيف الدوريّة. تكتفي بإدارة حوارٍ الاثنين بدر وآدم. إلّا إذا جدّ جديد. مثل ماذا. لا أعرف. هبّ واقفاً. لا أستطيعٍ إبداء رأي نهائي بالنصّ لحين بلوغه نهايته. عَبَرَ فصل الربيع سريعا على سجن بو غريب، حلّ فصل الصيف بدءاً من أوائل شهر مايو، مع بلوغ منتصفهٍ وزحمة عنبر 7 بما يتجاوز المائة سجين صارت ساعات الظهيرة عذاباً لا يحتمل. كيف ستكون عليه الحال لمّا يتقدّم الصيف أكثر. أجاب آدم تساؤل بدر. سنعتاد عليه أكثر، كانا يجلسان أرضاً عند النافذة. طوّفت وجه بدر سحابة حزن. صرتُ كلّما صادفت رجلاً قصير القامة هزيل البنية تذكّرت عبد السادة. قال آدم. الأشخاص قصار القامة عادة ما يكونون نشيطين سريعي الحركة. أردف. عليوة كان قصير القامة لدرجة ملفتة. حصولهما كلاهما ليسانس حقوق، عاد عليوة للكويت، في حين سافر آدم لبريطانيا بمباركة أبيه من أجل استكمال دراسات عليا، ابتعادهما عنهما لم يمنع تواصلهما رسائلهما أسبوعياً، عدا عن مكالمة هاتفية عند نهاية كلٍ شهر. كنّا صديقين متميزين في زمن تعز فيه الصداقات الحقيقيّة. لما يخلو لنفسه يبحث عن الأسباب التي ساعدت على تكوين صداقته بعليوة ورسوخها لدرجة بدت معها وكأنّها واقع أزلي رغم تواتر أسباب داعية لغير ذلك، أحدهما تشاديّ والثاني مصري، آدم طويل القامة لدرجة العملقة، عليوة قصيرها، سيضطر القاضي الذي تترافع أمامه لأن يرفع جسده من على كرسيّه كي يطلّ يراك تحت مستوى المنصّة، اخرس يا. يرتفع صوت عليوة زاجرا، كما لو أنّ الطبيعة عوّضت له قصر قامته بصوته الجهوري ذي القرار العريض، في رسائله المتوالية أو

اتصاله الهاتفي الشهري المنتظم يشكو عليوة من إرهاق العمل في الشركة ذات العلاقة، يقول أنّه لولا مسؤوليات مترتبة عن مخالفة قانون الإقامة في الكويت لبادر أنهى عقد عمله مع الشركة، تعمل ما يقرب من عشرٍ ساعات مدى ستة أيام في الأسبوع بإجازة سنوية خمسة عشر يوماً، لم يُجدد عليوة عقد عمله في قسم شؤون قانونية من شركة، التحق بمكتب الكندري للمحاماة، يلحقك هناك عطلة القضاء الكويتي، بدءاً من أوّل شهر يوليو وحتّى مطلع شهر سبتمبر يخفّ خلالها ضغط العمل على المحامين، عندي إجازة طويلة وفي جيبي ما يكفي من مال، أقضي النصف الأوّل من شهر يوليو في القاهرة ومنها إلى لندن، عساك تكون مستعداً لاستقبالي، استقبله آدم في مطار هيثرو، أوّل ملاحظة أبداها عليوة، الظاهر أنّك صرت أطول، لم يُجبه آدم، الظاهر أنّك صرت أقصر، الأماكن التي أرغب بزيارتها بدءاً من حي سوهو، لماذا هذا الحي، لا تعمل حالك عبيط، تابع، بودّي أزور متحف الشمع، تسمعه تظنّه مهووساً فعلا بأمورٍ معينة، فإن جدّ الجد، تعال نذهب لأماكن متحررة أكثر، قضيا معا شهراً كاملاً، طاب لآدم يأخذ عليوة لحديقة هايد بارك، شُده لدى رؤيته خطباء بلغات بلدانهم، بعض منهم يجد مستمعين قليلين، وبعض آخر يخاطب الفراغ، تفاجأ آدم بعليوة يقول، فرصة، ارتقى أحد المقاعد، بدأ يخطب، صوته العريض اجتذب عديدين، ماذا قال في خطبته، حذّر العالم من ثورات عارمة ستعم القارة الأفريقية إنْ لم تتنبّه لها الدول الأوروبيّة توليها رعايتها. لحظتها فُتحت بوابة العنبر 7 على مصراعيها، هبّ معظم النزلاءِ واقفين، موعد الفسحة المسائية. الرياح المسائية الشرقية تحمل شيئاً من طراوة منعشة، توجّها

لمكانهما المعتاد عند حوض شجرة أكاسيا هرمة وراء العنبر. أتذكّره جيّداً. من. صديقك عليوة. أطلّ اهتمام آدم من عينيه. تردّد على مكتبي مرّات عدّة لمّا كنت رئيس نيابة جنايات منطقة حولي، إذا التقاك مرّة توفّرت لديه القدرة يُشعرك بحسّ الصُحبة عبر ابتسامته الودود. لم يُخف آدم لهفته. تتحدّث عنه كأنّه صديقك.

واصل غالب عمله على رسم وجه الشابّة العشرينية، قال فهد وهو يدقق نظره في الصورة الفوتوغرافية الصغيرة. تُقارب الثلاثين. عتبه بدر. أنت تبالغ. قال جعفر. جمالها لا يخلو من نزعة بدوية. ضحك غالب. هذا يعني إنّ عريف ريسان بدوي. تصريحه أو استنتاجه أثار فضول الثلاثة، عادوا يدققون في الصورة، قال فهد. خط الحاجبين واحد. اجتهد بدر. بروز الذقن واستطالة الوجه. تساءل جعفر. كيف لم نتنبّه لذلك. صدرت عنه ضحكة خافتة. عريف ريسان بشكل أنثوي مُحسّن. نبس فهد. إنْ كانت ابنة ريسان أو أخته لماذا جاء طلب رسمها من طرف ملازم أيمن. ضحك جعفر. وجّه سؤالك له. بعد الحديث القصير بين بدر وملازم أيمن قبل أيام ساد التفاؤل والأمل نفوس الأربعة، رسخ في دخيلة أيّ منهم أنّها مسألة وقت، مادامت جهات من أعلى هرم السلطة مهتمّة بمصائرهم، يتداولون شأن مستقبلهم بشكل شبه يومي، يجتهدون بحدس ما سيأتي. قال جعفر بمنحى المفارقة. علينا الانتظار حوالي ثلاثة شهور. لماذا التحديد بثلاثة شهور. يكون حلول الذكرى الثانية عشرة للاحتلال. أنت متشائم لدرجة السخرية. جعفر صحفي متمرّس يستطيع استشراف

أحداث قادمة. يجدر بنا لا نستبعد فكرة أنّ الحكومتين الكويتية والعراقية تنتظران مناسبة ذكرى الاحتلال لغرض إعلان صلح شاملٍ. لم يرد لي مثل هذا الخاطر. قالها جعفر صادقة، قبل انسحابه داخلاً، مسؤولية أن تكون صحفياً، يتذكر ما قاله ملازم أيمن يوما ما، أنت تكتب وأنا أقرأ، يتذكر أنّه استجاب بما يعني الموافقة، انتابه إحساسه بالتقصير. ملازمته غرفته تتناوبه أفكاره، عليه المسارعة باختيار موضوعٍ كتابة لغرض مباشرة، لم تَطل به حيرته، أسعفه ذهنه استحضر سؤالاً شاغله مدى سنوات سبقت حدث الاحتلال، لكنه، أيام تعاطيه مهنة الصحافة بالشكل العملي لم يتجرأ يطرحه على مستوى التنفيذ بهدف النشر خشية تعرّضه لإجراءات أمنيّة، سؤاله المحوري يهدف لبحث العلاقة بين الانتماء والولاء، مع التحقق منٍ مسألة أسبقيّة واحدهما لرديفه أو تأكيده له. المصاب الجلل ممّثلاً بتعرّض الكويت للغزو استدعى إعادة النظر بعلاقة المفهومين بعضهما البعض. جعفر من أهالي الجهراء إن صحّت نسبة مواطنيّة الواحد لمسقط رأسه، يتذكّر حاله طفلاً ثمّ صبيّاً محروماً من احتياجات، ضروريات أو كماليات، مقارنة بصبية رفاق دراسة، أدرك ما الذي يعنيه الجار والمجرور بدون. دون، إذا أخذت مجرّدة، تعني مرتبة أدنى في سلّم المعطيات البشريّة عند وضعها أمام توصيفات شتّى، كأن تقول دون حقوق مُعترف بها أو غير، كذلك دون وثائق ثبوتية تُفيد أنّه كائن إنساني موجود في المكان والزمان، الأهم من هذا كلّه دون وطن، مستويٍ لاحق بالأهميّة دون رعاية صحية أو تعليمية، مستوى أوّل أيضا دون إحساس بالأمان، دون أفق حياة قادمة، أمّا إذا ألغيت ما بعدها وسبّقت لها بحرف الباء صارت تعني

محنة أبديّة مكرّسة تعود على حاملها ومن يمُت له، وتعني لدى غالبيّة المسؤولين بيئة جاهزة لانتشار الجريمة، يا هذا أنت، خارج الحسابات الرسميّة للدولة أنت بالضرورة خارج على القوانين ذات الصلة. موقف رسمي لصيغة واردة، موقف ناس كويتيين محيطين بين بين، من يعرفك شخصيّاً يتعاطف معك، النتائج المتحصلة لا تعدو كونها مشاركة صوتية، ليرتفع من جانب ثانٍ صوت غيورين على البلد. ليس من وجود حقيقي لظاهرة تدعىً بدون، تحكيم العقل يقودنا لاستنتاج واحد لا شيء يأتي من فراغ، بناءً عليه يتوجّب إيقاع عقاب صارم بالدخلاء لغرض إجبارهم يبرزون أوراق ثبوتية ذات صلة ببلدان وفدوا منها. عندما ازدحمت الحدود الكويتية الشمالية فجر ثاني آغسطس إيّاه بجحافل جيوش، ازدحمت الحدود الجنوبية بالكثيرين من أولئك الغيورين. لا بقاء لنا في وطن لا أمن ولا أمان فيه. للذاهبين ذرائعهم، في حين توفرت وهلة محاكمة وعي، هناك وطن وهناك وطن مستأجر

في اللحظات الأولى حار أيمن ماذا يقول لغالب عند تسلّمه رسمة بالقلم الرصاص لوجه هيا، أحسها تتطلّع إليه بصدد توجيه سؤال ما في ذهنها. جميلة دقيقة معبّرة. يحسّه كمن هفا قلبه، كما الانخطافٍ لبيت السنك، حفّزه يسأل. ما الذي جعل هذه الرسمة أكثر كمالاً من سابقاتها. سببان يعملان لصالح هذه الرسمة. مهّد غالب لردّه. سبب أوّل يتمثّل بارتباط شرطي بين مشاعر من يتطلّع للرسمة وبين صاحبتها. رفع أيمن حاجبيه دهشة. السبب الثاني.

كوني أعرف الأشخاص الستة عن قُرب، بما فيهم أنا، لم أستعن بخيالي محاولاً قراءة ما وراء الملامح. روح الفنان. الفضل للشخصية الأصل. خطف أيمن نظرة لوجه هيا الجالسة إلى جانبه وهي تتطلع إلى أمام، جميلة بكلّ المقاييس، همس بها لنفسه مواصلاً قيادة سيّارته في الطريق الموازية لقناة الجيش، لم تتنبه هيا لتحديقه، استعاد كلمات سبق قالها غالب، ارتباط شرطي بين مشاعر من يتطلّع للصورة، قطعت عليه هيا تسلسل أفكاره. ما زلتَ مصرّاً تشتري نبتات داخلية لغرفتك. استجاب لها مُشترطاً. أنت تختارينها وأنا أختار برواز الرسمة السابعة. أبدتْ لهفتها. هي معك. مدّ يده لدرج سيّارته، تناول مغلّفين، دفع لها أحدهما، قال بدّالة الإحالة على معنى حسّي. تسلّمتك البارحة. فاته يلتقط همهمتها. لم يُدار فضوله. ماذا قلت. ردّت عليه إحالته بتضمين يجنح به الخيال. أنا أيضاً تسلّمتك. لا مكان لتعقيب يفي الموقف حقّه، راقبها تفضّ المغلّف. لا أصدّق. رددتها مُثارة عندما واجهتها رسمتها، تفحّصتها بفرح مندهش. كأنّها تشبهني. أنتِ لا تملكين حقّ الحكم عليك في الرسمة. من الذي يملك هذا الحَق. شخص يستطيع رؤيتك من داخل. مالت عليه هيا. هذا كلام المتصوّفة. وجد أيمن ردّه. لم أقرأ لأيّ من الصوفيين. استدرك مُبتسماً. إلّا إذا كان النفي الطوعي في الطرف الأبعد من معسكر مترام لزمن لا نهاية معروفة له يفعل فعله الصوفي. دفع لها مغلّفه الثانيّ. ما هذا. بعض مما كتبه واحد من العهدة. فضّت هيا المغلّف بحرص، ليس سوى ثلاث ورقات، تبدأ تقرأ، تتريّث، تتأمّل. كنت أظننا وحدنا، على مستوى العالم، من يعاني ظلم نظام حكمه الشمولي بقسوة فريدة نوعها. أطلق أيمن

زفرة دالّة. الأمر أبعد من معضلة ظلم يمارسه نظام حكم شمولي أو آخر لديه هامش ديموقراطيّة. ليتك وضحت. هناك أنانيّة متأصّلة في سلوك بعض مواطنيهم. لم يطرأ لي أنّ الوفرة المالية تكرّس الأنانية. بلوغهما محالّ بيع النباتات الداخليّة، اتفاقهما المسبق، تولت هيا مهمّة الاختيار، أدهشه لدرجة الذهول أنّ أول نبتة أشارت إليها. أريد هذه. كانت من فصيلة الغاردينيا. في طريق عودتهما طاب لهيا تتفحّص أوراق جعفر ثانية، أشارت لتذييل الورقة الأخيرة بأحرف ثلاثة. لماذا ج ف م. الأحرف الأولى لاسمه الثلاثي. طوت الأوراق. ما رأيك. معك في كلّ الذي تقررين. غافل هيا صوتها. حبيبي. المفاجأة بحجم المكاشفة بحجم الاحتفاء بحجم الحيرة. الحب يعني الارتباط بزواج وأنا. بتر أيمن جملته. أرادت هيا أن تهوّن عليه، تصنّعت مرحها. أبوك وأمّك يريدان لك تتزوج ابنة آمر معسكر لن أتزوج. بذلت هيا جهدها تُبقي على مرحها. حتّى متى. مرارةٍ أيمن تستوطنه. من غير متى. أضاف. لن يضيرني بقائي أعزب أبديّاً. معنى كلامك أنت تقترح علي أنْ لا أتزوّج. استطردت. يكفينا نعيش أيامنا حبّاً. لحظته تلك تجرأ أيمن. يا أحبَ الناس. البيت مسافة خطوات. أشارت هيا للمغلف الحاوي أوراق جعفر تساءلت. لو أرسلتها لعمّي خالد. التمعت عينا أيمن بحس التوقّع. لو وافق عمك خالد نَشَر الموضوع ستكون سابقة من نوع خاص. عسى صاحبك لا يُعارض الفكرة. لن نستأذنه، ندعوه لقراءته منشوراً في حينه. عقد حاجبيه، طوّفت وجهه سحابة قلق لم يتردد عن التصريح به. أخشى أنْ تتسببي بتعريض نفسك. قاطعته. أطبعه بالحاسوب، أحمّله على قرص CD، مسألة الإرسال بالبريد الإلكتروني لن تستغرق سوى

ثوان. سكتت وهلة. أمر أخير. توجّه لها أيمن بكامل اهتمامه. ماذا. أنتَ حبيبي.

مقتطف مما رواه آدم لبدر بخصوص فقيده عليوة وأمور أخرى وردت في السياق. يمر العام تلو العامٍ ولا تنمحي من ذهني ذكرياتنا المشتركة أيام لندن، دخولنا مطعماً لمأكولات هندية، أنواع الأطعمة كافّة بالفلفل الحار، احتار عليوة كيف يأكل، النار ولاٍ الأرز بالبهارٍ، طلب رغيف خبز حافّاً عساه يأكله، وجده بالفلفل أيضاً، رفع يده طالباً نادل المطعم، ماذا عن الشاي، ابتسم له النادل، إنْ شئت أعددنا لك الشاي بالفلفل، أجابه عليوة، كوب ماء سادة، مع منتصف نهار أحد أيامهما كانا يتسكعان في شارع قريب منٍ مبنى البرلمان البريطانيٍ، بدأت ساعة بيج بن تدق ناقوسها إعلانا للوقت تسمّر عليوة واقفاً حيث هو بوضع استعداد، ما بك، أشار لي أنْ التزم الصمت، لماذا، لا رد، لا مفرّ من الانصياع له، بقينا واقفين، أنهت بيج بن دقاتها الاثنتي عشرة، الآن نمشي، ما سبب وقوفنا، احترام ناقوس بيج بن، لن أحدّثك عن ساعة قضيناها في متحف الشمع، كان يمشي إلى جانبي واختفى فجأة، تملّكني القلق، هو غريب على المكان، يا عليوة، خجلت أرفع صوتي، زحمة المكان بالسوّاح، الحيرة مدعاة اضطراب، أين ذهب، جُلتُ ممرّات المتحف وردهاته، رأيته مُندسّاً بين تماثيل أحدهما لزعيم عربي بعدما اتخذ وضعية متخشبة، بما أوهم رواد المتحف لدقائق، يتوجّبٍ عليك تتحلى بالعقل. يتوجّبٍ على إدارةٍ المتحف تُقيم ركناً خاصاً بملوك الفراعنة. سافر عائداً للكويت تاركاً

فراغاً بطعم الصداقة. ثلاثة أشهر لمناقشة مبحث إجازته القانونيّة كتب له عليوة، مبروك لي اشتريت سيّارة جديدة، كان ذلك في مارس 1986 عاد عليوة كتب، ناقش رسالتك وتوجّه للكويت رأساً، تبقى مع أبيك وأمّك لمدّة أسبوع، أصحبك بعده بسيارتي، نبدأ رحلة بريّة انطلاقاً من الكويت مروراً بالعراق سوريا لبنان سوريا ثانية عبوراً لتركيا ولا نتوقف إلّا عند ضفاف البوسفور نقضي شهراً ينافس شهرنا في لندن، خبرة السفر والطريق كيف، اطمئن سبق سافرت قبل سنة برفقة صديق كويتي وصلنا لسواحل البحر الأسود مروراً بالبلدان التي ذكرتها حتى أقصى بلغاريا، يا عليوة، بانتظارك يا آدم، الإغراء ودلالة الصحبة، كنت أدريني إذا ما أنجزت إجازتي القانونية يلح علي كلّ من أبي وأمي الزواج سنّة البشر يا ولد، أنت قاربت الثلاثين يلزمك فتاة تناسبك، يلحقها أو يصاحبها يلزمك تجد وظيفة، الأسابيع الأخيرة لآدم في لندن توالت مكالمات عليوة الهاتفيّة، تسافر معي أو تسافر معي، أسافر معك، آدم في الكويت، أبوه وأمّه استنكرا عليه إصراره يسافر بعد أسبوع لوصوله، وفاء وعد لصديق، اضطرّ أبواه سلّما لإصراره. شرط لا تغيب طويلاً، طمأنهما، شهر واحد، ناشده أبوه لا يتأخّر أكثر عمّته وابنتها بصدد الوصول، فهم آدم الرسالة، لن أتأخّر، يتذكّرها ابنة عمّته شابّة فارعة تضاهيه قامة، ألّا أنّ بشرتها سمراء قمحية عكس لونه الضارب للسواد، لم يتيسر له يعود لا بعد شهر ولا بعد سنة ولا بعد كم، الحكم بسجنه خمس عشرة سنة، أنّى له يستوعب أحداثاً صادفته، حتّى الآن مرّ من مدّة محكوميتي أربعة أعوام وبضعة أشهر لاذ صمته، حديث الذكريات المرّة يثير المواجع، احترم بدر حزن آدم، كانا يتمشّيان غير

بعيد عن الأسوار الشائكة. في البدء كانوا يحرّمون عليّ الاقتراب من هنا. ممنوع يا الأهطل. يصرخون بي، لم أكن أفهم معنى كلمة أهطل، لمّا تقادم عهدي في المكان، وعرف رجال الأمن أنّي تخصص قانون يحتاجون لاستشارتي أحياناً، بعد توطّد ما يشبه الصحبة مع بعضهم، سألت أحدهم معنى الكلمة قال طويل القامة، عبد الجاسم وحده أصدقني الرد الأهطل بالمعنى المتداول طويل وأهبل. واصلا مشيهما متجهين غرباً أكثر، الوقت ضحى، الأراضي ما وراء الأسوار مزروعة بالحنطة التي شارف أوان حصادها، اللون الذهبي لسيقان الحنطة وسنابلها المتجاوبة مع حركة الريح على مدّ النظر. عساهم يجدون عمالة تتولى الحصاد. لازم بدر إصغاءه. قبل مغامرة غزو الكويت. تمهّل ذهن بدر عند كلمة مغامرة. كانت العمالة المصريّة تفي بالغرض، موقف مصر المساند للحق الكويتي، أنت مصري، مع أو ضدّ، غالبية المصريين غادروا. ماذا عن العمالة العراقيّة. الجيش العراقي يستوعب الجميع بدءاً من سن الثامنة عشرة وحتّى. ترك جملته مفتوحة على التصوّر. التجنيد الإلزامي ليس إلزاميًا فقط، الإنسان العراقي الذي يقضي سنوات شبابه يخدم عسكرية بمرتّب مُضحك لا يكاد يكفيه مصروف يوم واحد، لو سوّلت له نفسه يهرب، لو عثر عليه رجال انضباط عسكري ممن يجوبون شوارعهم ليلاً نهاراً بادروا أخذوه مخفوراً، محاكمة عسكرية، يُسجن بعد أن تُجدع أذنه إفرازاً له عن بقيّة النشامى، يقضي فترة عقوبته يعود للجيش خاسئاً مُهاناً، كُلّ العراقيين جنود السيّد الرئيس، الأيدي المؤهلة لأنْ تكون عاملة أمّا تخدم في الجيش أو هاربة منه متوارية عن الأنظار، أو عاملة على ضبط النظام ومحاربة الخونة المتهاونين عملاء

الاستعمار والرجعية وما شابه. ضحك بدر للتعبير الأخير. من أين تأتي باستطراداتك هذه. مواطنو تشاد يجيدون استطراداتهم.

ساعة الظهيرة من مُنتصف شهر مايو دخلٍ العريف ريسان عليهم غرفة المعيشة حاملاً جرايتهم اليومية مُسبّقاً لخبر يراه مدعاة احتفاء. ستنعمون بهواء منعش يخفف من حرارة الصيف. بادره فهد سؤاله المندهش. كيف. أشار ريسان للصفائح المعدنية الحاجبة للنوافذ. بعد ساعة يصل فنيو الإدارة الهندسيّة للمباشرة بإزالتها. سمع غمغمة غالب. صار معلوم. وهم يلتمّون حول وجبة غدائهم دار بينهم حوارهم. يبدو أنّهم يرغبون يولوننا شيئاً من حسن رعاية. هناك رسالة مضمّنة لا إطلاق سراح في القريب العاجل. نبس فهد. إلّا إذا اتفقنا على وجود قريب آجل. مازلنا أوّل الصيف. لعلّهم يطلقوننا منتصفه. أو يصدق توقّع جعفر يختارون يوم ثاني آغسطس. يختارون ما يريدون، المهم أنْ لا نبقى منسيين. ما قاله ملازم أيمن لبدر مدعاة تفاؤل. بعد انفضاض حديث المائدة أزمع فهد ينسحب نحو مساحة الأرض الخلفية نبهه جعفر شمس الظهيرة حامية. لن أتعرّض لها. ليس حافزه أنْ يتابع عمله في ري النبتات، لكنّه توقه لا ينفرد بنفسه في غرفته فتنفرد به هواجسه. سلوكه يوحي لغيره أنّه محترف لامبالاة أو بلا هموم ، حقيقية الحال كيف. يا ليلى عندما يخلو فهد مع نفسه تحضره تفاصيل لحظات مُحددة قضاها معك. يتذكرك وقت زيارته بيت أهلك في حارة شعبيّة قاهريّة، يتذكّره بصدد طلب يد أختك لولا دخولك، هذه ابنتي المترمّلة، يخالها، مع

امتداد زمن أسره تعيش حالة ترمّل ثانية، الليلة الأولى لزواجهما، اسمح لي جراًتي، سأتكلم بموضوع تحت الحزام، شدهه تعبيرها، أومأ برأسه مُشجّعاً، تعرضت للختان وأنا طفلة، عساك تصبر عليٍ. في وقت لاحق أدرك فهد أنّ صبر الواحد على الثاني يحقق تماهياً لا أروع، الحب طرفان يلتقيان يتشكّلان خليّة مؤهلة تواكب الزمن لو كتب لها ماذا، فهد هنا، في الطرف الأبعد لمعسكر عراقي يقع في أين، ولا يستطيع يجزم بمكان تواجد ليلى وابنهما عبدالله إن كانا ما زالا حيين، هل تبادرت لليلى فكرة مغادرة الكويت باتجاه مصر بعد انقطاع أخبار زوجها، لو بقيت كيف لها من يهتمّ لأمرها، تعيش ترمّلاً لا سابقة لها به، لا خبر لا رسالة لا وسيط لا نأمة تدلّ، ماذا عن حكم الشرع في حالة ترمّل مجهول العاقبة، متى يحقّ لصاحبة شأنها تتخذ قرار زواج آخر، يا لَيلى يغفر لك فهد لو حدث اقدمت. في الأسر توفّرت لفهد فرص سماع أخبار بخصوص الكويت، لكنّها أخبار ناقمة أو تتسم بالسذاجة، الكويت الآن تضمّ أكبر قاعدة أمريكية على وجه البسيطة، عملتان رئيسيتان يجريٍ تداولهما في الكويت الدولار الأمريكي أوّلاً، يحلم فهد يسمع خبراً يتصل بناس الكويت، بشخصين من الكويت، أشهر أخيرة تحقق تواصل يلامس القلب، مجلّة العربي وجهاز الحاسوب لتحضرهم الكويت مصغرة عبر شاشة قريبة لدى المشاهدة، نائية في الذاكرة.

فتح عدد من رجال أمن سجن بو غريب بوابة العنبر 7، رفع أحدهم صوته. عليكم الاستعداد من أجل أعمال الجرد. التفت بدر

لأدم. ما الذي تشمله أعمال جردهم. تشملنا. الوقت صباح مبكر ليوم 17 تموز 1991، مناسبة ذكري الثورة التي أطاحت بالرئيس عبدالرحمن عارف عام 1968 وتولي حزب البعث الحاكم السلطة منذ ذلك الحين. اصطفاف المساجين وضع استعداد داخل العنبر، زحمة المكان، نشر أحد رجال الأمن ورقة أمام وجهه، بدأ يتلو أسماء سجناء مُحددين، عصف القلق نفوس من سمعوا أسماءهم. ماذا يحدث. صرخ أحد رجال الأمن. هدوء. تقدّم ضابط كان يقف خارج البوابة. للعلم لا غير، هذه أسماء الأشخاص الذين شاركوا في أعمال شغب مارس الماضي. عادت همهمات القلق تصاعدت بأعلى، أشار الضابط لرجل أمن قريب منه، صرخ الأخير. هدوء ياالجحوش. ساد الصمت، تنحنح الضابط. بتوجيهات سامية صادرة عن السيّد الرئيس حفظه الله، احتفالا بأعياد الثورة المجيدة تقرر إطلاق سراح هؤلاء الأشخاص بعد أخذ تعهّد مكتوبٍ أنْ لا يتسببوا بتعكير صفو الأمن مرّة أخرى. استدار منصرفا، تعالت هتافات مساجين من العنبر. عاش السيّد الرئيس. هدأت الأصوات، رفع رجل الأمن إيّاه صوته. أمام الرجال الذين سمعوا أسماءهم ساعة لغرض الاستعداد. تجرأ أحد السجناء سأل. ما هو الإجراء. أسكته رجل الأمن بإشارة يده. هناك سيّارات نقل بانتظاركم. إلى أين. لكي يقطع دابر أسئلة أخرى أحاط رجال أمن معه بإشارة يده. نحن مأمورون لا نعرف إلّا ما يقوله لنا السيّد الضابط. العدد الإجمالي للسجناء المشمولين بالعفو المزمع خمسة عشر. فترة الفسحة الصباحية صادف كلّ من بدر وآدم رجل الأمن عبد الجاسم، كان الأخير معتكر المزاج، أبدى بدر اهتمامه. ما الذي أزعجك. شاب حزن عبد الجاسم صوته.

المساجين الشيعة الذين أخذوهم بالحافلات قبل قليل. عقّب آدم. قالوا لهم سيطلقون سراحهم بأمر السيّد الرئيس حفظه الله. خفّض وتيرة صوته. أعرف سائق إحدى سيّارات الجيب التي سترافق الحافلات، سألته عن وجهتهم، قال إنّهم بصدد التوجّه لمزرعة الأستاذ ابن السيّد الرئيس حفظه الله في محافظة بابل. غلب آدم فضوله. أيّ الأبناء. أجاب عبد الجاسم لامبالياً. ما الفرق. تساءل. لماذا مزرعة. هناك وسط الآثار البابليّة حيث توجد بقايا الجنائن المعلّقة وضع الأستاذ يده على مساحات شاسعة من الأراضي زرعها شتّى أنواع الفواكه وأنشأ العديد من أحواض تربية الأسماك، وسط هذه الجنّة الأرضية يطيب لهم اللهو في الأعياد والمناسبات، يقيمون مسابقات تنشين. إحساسه باللوعة يمسك بحنجرته. يتنافس الأستاذ مع حرّاسه ومرافقيه من الأكثر دقّة بإصابة الرأس أو القلب من أجساد سجناء يقال عنهم إنّهم ميؤوس صلاحهم. قال آدم. إعدامات تسلية. كلّ الذي يفعلونه يثبّتون السجين لعمود، يتلذذون برؤية الفزع لمّا يطل من عيني الواحد وهو يجد نفسه هدفاً لإطلاق النار. أو يقيّدون السجين كما حال المجانين الخطرين، يبقون له قدميه حرّتين يحزمون جسده بمواد متفجرة مع صاعق يتحكمون به عن بُعد، اركض لكي تنجو، يركض السجين ليتفجّر أشلاء تتطاير في الهواء. ساعة الفسحة أوشكت تنفد، مناخ الحزن الذي خلّفه حديث عبد الجاسم. لا أحد يستدلّ على قبور من أخذوهم. أنت تعيش في بلد يحكمه شواذ. مناسبة السابع عشر يوليو. قال آدم. شرد ذهنه وراء ذكراه. كان في بالي أحدّثك عن عليوة. ما الذي منعك تتحدث. ماذا لو قلت لك في مثل هذا اليوم قبل خمس سنوات قتلوا عليوة.

بعد إزالة الصفائح المعدنية الساترة لأربع من النوافذ الست بدت غرفة المعيشة أكثر سعة، الإضاءة النهارية تبعث الارتياحٍ مع توفّر فرصة تهوية مستمرة. أظنّها شجرةْ بمبر. تساءل فهد متطلعا في اللوحة قيد التشكيل. هي كذلك. إنْ كانت بمبرة فيلكا. أشار فهد بإصبعه لمكان من طرف اللوحة. تستطيع رؤية البحر هناك. تأمّل غالب ما سمع، تابعٍ فهد. مركز البيطرة لا يبعد عن البحر سوى عشرات الأمتار. كل ما يوجد في فيلكا لا يبعد عن البحر سوى. قاطعه فهد. فيلكا مساحات مترامية فوق ما تتصوّر. أومأ غالب برأسه كمن يزمع صرف محدّثه، قال. صار معلوم. قرار غالب عودة العمل على لوحة اتخذ لها عنواناً أوليّاً غباء الحرب، بوحي من حادثة إطلاق زخّة رصاص كلاشينكوف على طائر ببغاء اعتاد يردد كلمة غبي، صاحبه قرار ثان أنْ يعمل على خلفيّة حروفيّة شفيفة توحي بوجود الشجرة والببغاء أمام واجهة زجاجية تملأ الكادر، التشكيل الحروفي جاء بوحي من تكرار الحروف في كلمات غبي وببغاء، يقف أمام اللون الأخضر الداكن لأوراق الشجرة، يحدق لزاوية اللوحة حيث سبق أشار فهد، تستطيع رؤية البحر، التنبيه بالفكرة الواردة، الخلفيّة بحر كلّها، والحروف بتفاوت درجٍات الأزرق. قضى ساعة في التلوين، اقترب فهد ثانيةٍ، أبدى رضاً. فيلكا بريشة غالب سلطان. واصل غالب عمله صامتاً. تشغلني فكرة. اكتفى غالب بهزة رأس. لو تسللنا صاعدينٍ فوق السطح. أبدى غالب استغرابه. ما الذي تقوله. نصعد فجراً. لماذا. عساك تصادف قطيع أغنام يتراكض لبلوغ قرص الشمس لحظة ظهوره فوقٍ خط الأفق. هل أنت جاد. لك أنْ لا تُصدّقني. رددها فهد مبتعداً، أقبل غالب على رسمته، طموحه

أنْ يوفّق للتعويض بلوحة غباء الحرب. تواجده المعتاد خارجاً ليلاً، اغتنم فهد تواجد ملازم أيمن. لدي طلب. أيمن يقف حالة انتظار علي الجانب الآخر من سور الأسلاك الشائكة، قسمات وجهه تؤكّد إحساساً مُضمراً بالصحبة. قبل تصريحي بطلبي يتوجّب علي الاعتذار. عن ماذا. خالفت لائحة تعليماتكم، صعدت فوق السطح دون استئذان. متى. فجر أحد الأيام الماضية. حدس أيمن. بحثاً عن عش حمام. عقد فهد حاجبيه. كيف عرفت. أشار الآخر لسطح منزله. أقام حمامك أعشاشه هناك أيضاً. تابع. هل تنبّه رجال برج المراقبة لصعودك. اعتمدت أسلوب الزحف. ما هو طلبك الآن. تصعد أنا وغالب فوق السطح. لم يستجب أيمن من فوره بنعم أو لا، استطرد فهد راجياً. أريده يرى الفجر، يرصد ارتفاع قرص الشمس من وراء الأفق الشرقي، هذا الامتداد اللامتناهي للمزارع وراء أسواركم. أسوارنا. رددها أيمن أسيفة بصوت خفيض، واصل فهد. ليتنا نُصادف قطيع أغنام يتراكض وسط الزراعات. يا غالب. صوت رجالي ينفذ لوعيه، فتح عينيه، الظلمة الحالكة وهذا الشبح المنحني عليه، استوى جالسا. من. فهد. خير. تعال. أين. نصعد السطح. وعي غالب لم ينشط كله. لماذا السطح. استأذنت ملازم أيمن. بماذا. نفد صبر فهد. تعال. البيت حالة سكون شامل. كأننا نخطط نسرق. إلى حد ما. ارتقيا السلّم، بدأ غالب يستوعب ما هو مُقدم عليه، بلوغهما الباب الأعلى للسلّم، نبّه فهد. لزوم نحاذر أضواء برج المراقبة. ماذا عن استئذان ملازم أيمن. لا علاقة له بهؤلاء. كيف. كفّ أسئلتك. نشطت حواس غالب كلّها لدى انفتاحهما على منظر منشآت المعسكر الجاثمة تحت الظلام، تراءت

له مصابيح صفراء باهتة الإضاءة مثبتة أعلى أعمدة خشبية متباعدة، التقطت أذناه هديل حمام. طيورك هنا. لاحت حزمة ضوء تتحرك في الجوار. نزحف. ماذا. نزحف حتى الساتر الشرقي. لماذا الشرقي. نرصد لحظة ولادة الشمس. ولادة ماذا. ازحف. كثافة ظلام الأفق الشرقي آخذة تتخفف تتحوّل فضيّة مطفية، حبس غالب أنفاسه، أنوار الشمس تلون الأفق أرجوانياً قبل بزوغ قرصها من تحت خط الأفق، انغمر أعلى برج المراقبة بطلائع الأشعة الذهبية، زراعات الأراضي السهليّة ما وراء الأسوار الشائكة المحوّطة للمعسكر تبدأ تولد خلل الأنوار الصباحية. ها هو. هتف غالب مأخوذاً، لاح في البعيد قطيع من مئات أغنام تتدافع حثيثاً باتجاه الشمس.

على أيام التحاقه دورة استخبارات في موسكو حدّثته مارلين عن نمط الأنظمة الشموليّة القمعيّة وبطاناتها الناشبة بالسلطة كما تنشب حشرة السوسة بخشب دعامات البيت حتّى ينهار على أهله وعليها، يتذكّر موقفه وهو يضحك لتشبيهها، تراه يستطيع أنْ يضمّ أباه لزمرة بطانة معنيّة، يتذكّرها حدّثته بخصوص تطويع الأنظمة ذات العلاقة لأي من جوانب عقائدها حسب حاجة الظرف وإقدامها على إبرام معاهدات وتحالفات تخدم ديمومة حكمها. لا بأس من فهم طبيعة نظام بعينه، البأس أنّ مارلين أغفلت تخبره عن كيفية تعامله مع نظام ينتمي إليه بعلاقة مصيرية جبرية من جهة الأب، كيف له يكون جزءاً من كُلّ ولا يُصاب بالتبعة، إن لم يتعرّض لانكشاف مفاجئ، يساق لمحاكمة عسكريّة. ساررته هيا مرّة. أصابتْ مارلين.

قال أيمن. حتّى لو تجاوزنا الظلم العام وما يعانيه عامة الناس جرّاء الحصار الدولي، يخيّل لي أنّ الأشهر القادمة تحمل مفاجآت كبيرة. لجميع من هم في سدّة الحكم. مع التردّي الذي بلغناه لا أعارض أي تغيير بصرف النظر عن الجهة المتسببة به. الفرق الدولية ذات الصلة بالبحث عمّا يدعونه أسلحة دمار شامل تجوب أراضينا بتكليف من مجلس أمن دولي. خلال الأيام الأخيرة أصرّت إحدى فرقهم تدخل أحد قصراً رئاسيّاً بحجة تفتيشه وتمّ لها ما أرادت. لعله هدف إذلال رأس الدولة. سمعت عن اجتماع وزير خارجية أمريكا بقيادات معارضة عراقية في الخارج. ما جدوى كونها في الخارج. عرفت أنها تلقّت دعماً ماليا. كأنّك تقول سبّة. منذ أحداث 11 أيلول الماضي ومهاجمة أميركا لأفغانستان وهي تتحرّك باتجاهنا. وضع العراق تحت شروط البند السابع يعني التصريح باستخدام القوّة. تساءلت هيا قلقة. ما هي حالنا لو هاجمونا. نخوض أمّ معارك جديدة جديرة بالألفية الثالثة. سيّارته والطريق السريعة المتجهة جنوباً، أبّان نشوب الحرب العراقية الإيرانية كان أيمن طفلاً يحبو، لم يفهم ما الذي يعنيه تعرّض بغداد للقصف، لكنه فهم جزع أمه، عاش زمن طفولته باتساع رقعة تلك الحرب، يتذكّرهم يتحدّثون عن معركة الفاو وجزر مجنون. ولا يجزم من هو المجنون. يجزم أنّ أمّه كانت تؤدّي الصلاة خمس مرّات يوميّا، وفي كلّ مرّة تخصص وقتاً إضافيّاً للدعاء ربي احفظه لنا، المعني هو الأب، ولا يصبر أحدهم على حالة سلم، يُصار إلى احتلال الكويت، الحق التاريخي والمحافظة السليبة، وضع الأمور العربية في نصابها استعداداً لتحرير القدس، وقتها كان أيمن طالباً في الإعداديّة ولم يتمكن من إيجاد

علاقة بين ضمّ الكويت وتحرير القدس، أشهر معدودة ليبدأ خراب بغداد، مئات الطائرات المُستهدفة للبنية التحتيّة والمنشآت العامة والجسور، عادت أمّه لملازمة سجّادتها إلهي أعده لنا سالماً. الضبّاط الحزبيون يتولون شؤون التخطيط للمعارك من الخطوط الخلفية، إيغال قادة النظام بطشهم بالإنسان العراقي، الضحايا الأكراد لا يحصرهم عد، ضحايا تمرّد الشيعة بالمثل، العالم يتفرّج، لكنّه وهو يتفرّج يناور ويفرض حصارٍه، يخطط من طرف خفيٍ أو واضح لنزع أنياب وأظافر النظام تدريجيا قبل ماذا، مع نفسه يتمنّى أيمن حدوث تغيير يجتثّ النظام من جذوره، ولا ينسى أنّ مثل هذا الاجتثاث يشمل أباه، يشمله هو بالبنوّة، أين له من يجيب سؤاله. الحال بعدها. تخفف من قلقه عند اقترابه من مسجد الخلّاني، بدأ يحبّ هذا المسجد كونه مسافة خطوات عن بيت السنك.

في لقائي به حرص إبراهيم فرغلي على مداراة هامش امتعاضه في صوته. أنت طوال كتابتك عن سجن بو غريب وتواجد أخيك هناك لم تُفصح عن أسلوب سردي يمكن التعويل عليه. تعويل بخصوص ماذا. بخصوص محاولة جمع شمل قصاصاتك المتفرّقة، وضعها ضمن سياق يجعلها أشبه بنص يطمح لأنْ يكون تجريبياً. أصغي له. بعض المحافظين من النقاد يأخذون على العديد من النصوص المُحدثة توسّلها بالتجريبية تمريراً لتهافتها. كما لو أنّها رسالة موّجهة. استوضحته. أين موقعنا من المحافظين أو المتهافتين. بين بين. أعمل ذهنه برهة. لا بأس من توظيفك لشخصية عبد الجاسم بمحاولة

لتحقيق تنوّع صوتيٍ. سألته إنْ كان قاموس المصطلحات النقديّة يحوي ما أسماه تنوّعاً صوتياً. قال. ليس بيت القصيد. تابع. ليتك منحت عبد الجاسم عناية أكبر، كأن تحدّثنا عن وسطه الاجتماعي، شأن ما فعلته مع شخصيّة عبد السادة. تبدو راضياً عنها. أنت منحتها بيئة حاضنة، القرية الكائنة عند بوابات قصور رئاسية، إضافة لزوجة وولد، في حين جاء عبد الجاسم مُنبتّ الجذور. حدّق إلي في عيني. لا أدري ما الحكمة التي توخّيتها من اختيار أسماء غيرِ متداولة عربيّاً، عبد الجاسم وعبد السادة. محاولة تأصيل بيئة، لعلّي أردت تأكيد شيعيّة الأسماء بقصد تسليط الضوء على اضطهاد طائفي. حجّة ضعيفة. اقتراحك. المزيد من التروّي. أضاف. أمر أخير، منذ بدأت العمل على نصّك وضعت كلّاً من بدر وآدم في واجهة الأحداث، وأشرت لوجود شخصية ثالثة بدت وكأنّها أساسيّة أيضاً، المصريِ عليوة، ما جدوى ذكره بين حين وآخر إنْ لم تمنحه دوراً فاعلاً يوازي مساحة اهتمامك به. تمرّ دقائق يشرد ذهني خلالها، لو أخذتُ بملاحظات فرغلي توجّبت عليّ محاولة إعادة كتابة النص من أوّله، يعقبها صرف نظر، تمرّ دقائق أخري ينشط ذهني يستعيد مفاصل من النص، أخلص لقرار، أواصل كتابته حتّى يستنفد ذاته. روى آدم لبدر. يوم عاشرِ يوليو 1986 وصلت الكويت قادماً من لندن، أبي وأمّي امتعضا لمّا عرفا قرار سفري مع عليوة، تصل لتسافر. لن أغيب طويلاً. لا خيار أمام أبويه إلّا الرضوخ لإصراره. الساعة الثالثة من فجر يوم 17 منه وصل عليوة بسيارته. جاهز. حقيبتك وجواز سفرك. رصدا شروق الشمس لدى بلوغهما تلال المطلاع، تجاوزا منفذ العبدلي حوالي السادسة صباحا، مع السابعة

كانا يسلكان الطريق الدولية الموصلة لبغداد. متى نصلها. تساءل آدم، أجابه عليوة. الواحدة ظهراً. أضاف. نتناول وجبة غدائنا في أحد المطاعم المطلّة على دجلة، نكمل باتجاه منفذ الرُّطبة الحدودي. لماذا كلّ هذه العجلة. حتّى نصل ضفاف البوسفور بأسرع وقت. نصل متعبين. تأمّل عليوة ما قاله آدم. ماذا تقترح. دعنا نتصرّف مثل سائحين، نتناول وجبة خفيفة في أحد مطاعم الطريق. حسناً. لا بأس أنْ نصل بغداد عصراً، نبقى فيها يوماً واحداً على الأقل. خلص عليوة لقراره. أنا أحبّ بغداد. لو سلّم آدم باقتراح، المواصلة حتّى بغداد لما كانت الواقعة. تجاوزا العديد من البلدات الصغيرة. ما رأيك بمدينة القاسم. أنت أعرف. وقع اختيار عليوة على مقهى شبه خال من الرواد. أوقف سيارته في الجوار، لحظة ترجّلهما اقترب أحد الصّبية، أشار للسيّارة التي تراكمت عليها الأتربة. أغسلها. ردّ عليوة. من غير تأخير. نشط الصبي ، بينما اتخذ آدم وعليوة مجلسهما حول طاولة قريبة لحظة توقّف سيارة جيب، ترجّل منها ثلاثة ضباط جيش شباب، عرف آدم في وقت لاحقٍ أنّهم قوّات خاصة. تعال يا الهيس. رفع أحدهم صوته منادياً على الصبي المنشغل بغسل سيّارة عليوة. نعم سيدي. تعال اغسل الجيب. استمهله الصبي. دقائق سيدي. تطلّع الضابط لساعته، هل كان هو ورفاقه على موعد بمناسبة احتفالات ما يدعونه ثورة 17 تموز التصحيحيّة، نقل بصره لسيارة عليوة ثمّ تطلّع في آدم وعليوة، عاد صرخ بالصبي. اترك سيّارة الجحوش، تعال اغسل الجيب. هبّ عليوة واقفاً. نمشي. وقف آدم بدوره، لم يكونا طلبا طعاماً بعد، هي رغبة تحاشي متاعب غير محسوبة. البعض لا يحترم ضيوف بلده.

غمغم بها عليوة وهو يصل لسيارته، يفتح بابها، أسرع إليه ضابطٍ منهم. ماذا قلت. سأل غاضباً، أجابه عليوة بصوت منضبط. عفواً أخي. وضع الضابط عينيه في عيني عليوة. أنت جبان. شكراً. مازال عليوة يبذل جهده لا يستجيب للاستفزاز. أنت كويتي. مصري. هذه سيّارتك. إن شاء الله. تسخر منّا. حاشا لله. خمس سنوات منذ حادثة مقهى القاسم، يستعيد آدم نبرة صوت عليوة وهو يجيب تساؤلات ضابطهم ولا يجزم إن كانت توحي بمعاناة الواحد لتفاهة الآخر أم لا يجزم إنّه، وقتها، أحس بحرارة في رأسه. كنت أسمع وجيب قلبي داخل أذني. استنتج بدر. سارعتَ تصديتَ لضابطهم. فاجأته إجابة آدم. لا

من أين لأي منهم طاقته الشعوريّة التي تمدّه بقدرة مواصلة الانحباس داخل المكان في المنأى من كلّ ما له علاقة بالوطن والأهل عبر زمن مفتوح على أبديّته ولا يصادفه قنوط اليأس أو ردّة فعل نفسيّة تستحيل انعكاسات جسديّة. بذلوا جهدهم طوال ثمانية عشر شهراً قضوها هنا يحدسون احتمال إبرام صفقة أو عقد صلح يُنهي مصائب عالقة بين بلدين شقيقين بما فيها إطلاق سراحهم. زمن معايشتهم مدّ وجزر، يرتهن برصدهم أفعال واستجابات شخصين مسؤولين عنهم، ملازم أيمن وعريف ريسان. أكتوبر شهر خريفي مكتمل على شروطه مؤهل يعمّق حسّ المراوحة بين اليأس وحسابات الأمل الباهت. قال بدر. عشرِ سنوات سجن بو غريب. رحل ذهنه وراء انثيالاته. أنْ تكون مُحاطاً بعشرات مساجين انتماءات شتّى، ينتابك إحساس

الشخص المُلتحق بالقطيع مصحوباً تسليماً بالمقدور. بدرت عن غالب زفرة. معايشة اليأس عن قناعةٍ لا تنتابها ذبذبة أمل كاذب. كانا في غرفة المعيشة، دخل فهد قادماً من ناحية غرفة جعفر، قال مخبّرا. يبدو أنّه نام، أو تظاهر بالنوم. كانت الساعة قاربت الثانية عشرة ليلاً، السكون يهيمن على الجوار، المصباح المعلّق بالسقف يضفي إنارة صفراء باهتة، مُنذ أسبوع بدأت معاناة جعفر لألمه. موعد متوقّع لنوبة القرحة. لماذا متوقّع. لأنّه الخريف. أنت تتكلّم ألغازاً. الأمور بانتظامها. لا تنس أنّ القلق على رأس أسباب استثارة القرحة. ما الذي لا يدعوني أقلق. كنّا عوّلنا على ما قاله ملازم أيمن عن إيلاء الاهتمام من جانب رأس السلطة. هو أمر يدعو للاطمئنان. أو العكس. أنت متشائم زيادة. بعض الناس يُصَنّفون عصبيين وبعض آخر تُصنّفهم عصابيين. من أي الصنفين أنت. من الاثنين. حاول أنْ لا تنفعل. المسألة ليست اختياراً شخصيّا. ركّز إرادتك بالاتجاه المعاكس. ذلك ما يقوله المعالج النفسي للحيوانات. ضحك فهد في حين تقوّس جسد جعفر جرّاء اشتداد وتيرة مغصه. خفف عليك يا جعفر ما دامت هناك بقيّة من دواء زنتاك. واظب يتناول دواءه، لثلاثة أيام أولى بدت حاله كأنّها آخذة تتحسّن لولا انتكاسة حادّة في اليوم الرابع. نطلب مساعدة ملازم أيمن. لن يفعل شيئاً. كيف تجزم. صاحب القرحة أدرى بالذي يلزمها. ما الذي يلزمها. تأخذ مداها لتبدأ انحسارها. لدى مجيئه حاملاً جرايتهم اليوميّة ظهيرة اليوم الخامسٍ تلفّت عريف ريسان قبل أن يتساءل. أين الأخ جعفر تابع مُضمراً قلقاً. لم أره منذ أيام. وجد بدر فرصته يخبّر. جعفر مريض. حثّ ريسان خطوه نحو غرفة جعفر، لدى أوبته قال. رغم مرضه

الشديد يصرّ أنْ لا أُخبر ملازم أيمن، يظنّ نفسه يشفى خلال يومين.
وقف فهد عند عتبة المطبخ مواجهاً الليل، أحزمة الضوء الموجّهة من برج مراقبتهم تلامس ساتر السطح، تناهى لسمعه هديل خافت.
الأنين الذي يصدر عن فهد يشبه هديل الحمام، سمع صدى نباح كلاب آتياً من بعيد، وطنهم بعيد، ناسهم في البعيد وهذا الجعفر يصرّ يقاوم مرضه بطريقته، لمّا دخل عليه فهد قبل قليل تنبه لعبوة الدواء، كانت فارغة. متى نفد دواؤك. صباح اليوم. لماذا لا تُخبّر. لماذا أخبّر. إنسان ما مريض لدرجة المشارفة يرفض يتلقّى مساعدة. عاد هديل الحمام يشاغل أذنيه، أنوار غرفة معيشة البيت الثاني باقية مُضاءة.

أمرهم مُحير هؤلاء الأسرى، أحاسيس متضخمة بالكرامة أو بشيء ما لا يسهل فهمه، يكون واحدهم بأمسّ الحاجة للمساعدة ويعرض عن طلبها، حتّى لو تسبب له إعراضه بمضاعفات غير محسوبة، عندما أخبره ريسان. جعفر مريض، ولا يريدك تدري. لماذا. لزّم عليّ لا أخبرك. في حالة مثل هذه يجد أيمن نفسه مُلزماً يحترم رغبة الآخر، لولا مبادرة فهد. جعفر مريض جداً. ولا يعرف أيمن سر استجابته الفورية. آت حالاً لو كان طبيباً حقّ له، لو كان رفقة مسلحين حقّ له. الوقتّ جاوز منتصف ليل، إزماعه التواجد بين أربعة رجال بحكم سجناء، ولا يراوده احتمال انقضاضهم عليه، أعمل مفاتيحه في قفل باب بيتهم، تفاجأ بفهد يقف بانتظاره، صوته يضمر اعتذاره. أزعجناك. ينطق بلسان المجموع. خُذني لجعفر. مشى أمامه، رأى كلّاً من بدر وغالب. نظراتهما تشي بامتنانهما

يغالبه حزنهما، وقف حائراً عند سرير جعفر، رأى وجهه شاحباً لدرجة خلوّه من الدماء كليّاً، انقبض قلبه، نقّل بصره بين وجوه الثلاثة الواقفين مسافة منه. لماذا لم. قاطعه صوت جعفر واهناً. أنا منعتهم. أعاد أيمن سؤاله. لماذا. لا جدوى. لا جدوى ماذا. سكت جعفر، غمغم فهد. نفد دواؤه. قبل مغادرته تنبّه أيمن لباطن كفّ جعفر، كانت بيضاء شاحبة من غير دماء. شيّعه فهد وبدر وغالب حتى الباب، تملّكه شعوره بالخجل وهو يعود يقفل عليهم. أمر يخشاه أنْ لا يكون مرض جعفر ناتجاً عن القرحة وحدها، يتذكّره عندما عانى نوبة سابقة، شحوب الوجه وشعور بالضعف مع وضوح الخطّين حول الفم، الشحوب الذي رآه هذه المرة بدا خطيراً، انتظر حتّى الرابعة فجراً أجري اتصالاً هاتفياً، وصله صوت عريف ريسان متوجّساً. نعم. ليس طلب مساعدة بمعناه، لكنها محاولة لتفكير مشترك. كيفية الاستعانة بطبيب، التعليمات مشددة بخصوص انكشاف شخص ما عليهم، المرض حالة مستثناة، لا بُدّ من اتّباعٍ إجراءات استخلاص موافقة مسؤول أعلى، إجراء كهذا يحتاج أياما، استيقاظ هيا وإشراكها الرأي، لديها صديقة صيدلانية، لعل الأمور تسلك طيّعة مادام أيمن يعرف اسمٍ الدواء المطلوب، إضافة لكونه مؤهّلاً يصف وضعه الصحي نوعاً ما. وجودها معه طمأن الصيدلانيّة. عبوة زنتاك واحدة احتفظ بها للضرورة القصوى، معظم الأدوية المستوردة غير متوفّرة في الأسواق. يهمّني معرفة رأيك. قال لها أيمن، تابع يصف حالة مريضه، استمهلته. يتوجّب عرضٍ المريض على طبيب باطنيّة. تدخّلت هيا قائلة. مريضنا يعيش بعيدا عن هنا. تأملت الصيدلانية كلمات هيا، مدت يدها لجهاز هاتفها. أجرت اتصالها قبل أنْ تدفع

السماعة لأيمن، عرف أنّه يحادث طبيباً استشارياً متخصصاً. وصفك لاختفاء الدم من الوجه وباطن الكفّين عند مريض القرحة يؤكّد وجود نزيف داخلي. غادرا الصيدلية حاملين أدوية وإرشادات، زنتاك فوّار يوفّر سرعة امتصاص الجهاز الهضمي، مضاد حيوي قوي لمعالجة أسباب النزيف وآثاره المترتّبة على أن يؤخذ بالحقن، ما دام الجهاز الهضمي بوضع مترد، تغذية خاصّة تعتمد طعاماً سهل الهضم. عدا عن حاجته للعلاج بالأدوية يحتاج المريض علاجاً معنوياً. قالت هيا جملتها دفعت لأيمن بجهاز الحاسوب، أضافت. خذه له يقرأ مقالته منشورة في مجلة استرالية.

تململ بدر وهو يبذل جهده يصغي لهمس آدم. يسمّونه عيداً وطنيّاً يحتفلون به وسط كم من الأناشيد والأغاني الحماسية، لكن واقع الحال غير هذا، عامّة العراقيين لا يقيمون وزنا للسابع عشر من تموز بصفته ذكرى ثورة تصحيحيّة، غالبيّة العراقيين من غير المنتمين لحزب البعث الحاكم يكنّون احتراماً خاصّاً لذكرى الرابع عشر من تموز مناسبة الثورة على الملكية عام 1958. نفد صبر بدر. لا أحتاج أسمع رأي العراقيين تجاه أعياد وطنيّة. تعمّقت نبرة عتبه. وعدتني تحدثني عمّا جرى لكما أنت وعليوة في مدينة القاسم. كونهما محاطين بعشرات أجساد سجناء يخلدون للنوم أو للتفكير حرص كلّ من آدم وبدر على تبادل الحديث همسا، إنارة باهتة تنبعث عن مصابيح متباعدة لا تكاد تبدد ظلام العنبر 7، الساعة شارفت الواحدة بعد منتصف ليل أواخر يوليو، بين دقيقة وأخرى تتواتر همهمات نائمين،

بعضهم يحلم فيصدر ما يشبه كلمات غامضة، إقدام آدم على انتزاع اللوح الزجاجي للنافذة لم يلطّف وخامة المكان بسبب سكون الهواء خارجاً. قال آدم. أنا أتهرّب. تعثّرت كلماته في فمه. أنْ تتحدث يعني أنْ تتذكّر كأنّك تعيش لحظتك حيّة. سكت ثانيتين. أنا الآن مُنفعل لدرجة الغم. امتدت كف بدرٍ لامست ذراعه. حظ أحدهما، هو أو عليوة، تدخّل مفتعلاً حادثة غير واردة في البال البتّة. الأمر بما لا يُصدّق، كأن يصل أحدهم فجأة، يخصّنا بإهانة موجّهة يصّفنا جحوشاً، كُنا، عليوة وأنا، مُنذ مغادرتنا الكويت باحتفاء المسافر قصد السياحة، أردنا نمارس مرحنا، الموقف المترتّب قضى على أسباب المرح كلّها، أردنا الابتعاد ببقيّة كرامة، محاولتنا الانسحاب، لم تُحقق لضابطهم فرصة ممارسة عدائيته مُنجزة، هل أزمع عليوة ردّ شيء من كرامة مُهدرة لمّا غمغم جملته. البعض لا يحترم ضيوف بلده. هل وجدها ضابطهم ذريعة لا يجب تفويتها. فتح عليوة بابَ سيارته، فتح آدم الباب الثاني، في حين تواجه ضابطهم بعليوة متحدياً. ماذا قلت. الله يسامحك. أنت جبان. إعلان مباشر لمواجهة جبريّة. لأنّه أمام شخص ضابط شاب ميؤوسٍ من إنسانيته انطعن وجه عليوة بدمائه، رآه آدم يضغط فكيّه محاولاً لجم ردّ فعله، تحتّم عليه تلقّي السبّة ليجد إجابة لا تخلو من إشعار المقابل بدونيّة مُفترضة. شكراً. لو كان آدم هو المقصود أنت جبان، انشداهه لدرجة فقدانه قدرة التفكير بشكل منطقيٍ، الأمور في لا نصابها، الحدس الوارد، ضابطهم وضع لنفسه هدفاً يسعى لبلوغه بصرف النظر عمّا قاله عليوة أو سيقوله، شحن صوته باحتقارٍ لديٍ تساؤله. هلٍ تعودٍ لك ملكيةٍ هذه السيّارة. أنْ تنشد خلاصاً مُذلاً يُضمر غضباً هائلاً مُحاصراً في داخلك، اضطرّ

عليوة غمغم. إن شاء الله. تلقي ضابطهم إجابة الآخر بصفتها إهانة. تسخر منّا. حاشا لله أخي. قالها عليوة مترسماً صدقاً بدا لسامعه مُفتعلاً. تكاد تقول أسقط في يد ضابطهم، تكاد تقول لم ينل ضابطهم بغيته بالمنحى الاستفزازي الذي سلكه حتّى لحظته. رفيقاه يقفان متفرجين، لا يجزم آدم إن كانا عدوانيين بالمثل أم لا أريد رؤية جوازٍ سفرك ودفتر سيّارتك. خطف نظرة متعالية لآدم. جواز سفرك أيضا. الغضب المحاصر والعاجز في الوقت نفسه يتحوّل لوعة. ما الذي تريده منّا يا أخ. وضع ضابطهم إصبعه في صدر عليوة. أنت لا تسمع الكلام. جواز السفر وثيقة دولية لا يحقّ لي تسليمه لأيّ كان. أنت حقير تافه. أنا محامي أفهم بالقانون. جنّ جنون ضابطهم. أنت تفهم ونحن الحمير. كفّ آدم حديثه فجأة، خُيّل لبدر أنّ بقيّة السجناء ينصتون لحديثهما، حرص خفّض وتيرة همسه عند تساؤله. أظنّك سارعت تصدّيت. لا

وصل عريف ريسان حاملاً وعاء الجراية اليومية إضافة لإناء منفصل خاص بحفظ الأطعمة. رأى كلّاً من بدر وغالب وفهد، تطلّع نحو الممر المؤدّي لغرف النوم، تطوّع فهد. جعفر ينام أو يتظاهر كما هي عادته بالنوم. أبدى عريف ريسان تفهّماً بإيماءة رأسه. أشار للإناء المنفصل. هذه شوربة له. تابع. ملازم أيمن بطريقه لهنا. لحظة وصول الأخير. كيف حال جعفر. عاد فهد تطوّع أجاب. ينام أو يتظاهر بالنوم. يا جعفر. فتح جعفر جفنيه. لهج بصوت يشارفٍ إحساسه بالذنب. أقلقت راحتكم. يلزمك تبلّ من مرضك سريعاً.

صدرت عن جعفر ضحكة مفارقة خافتة. ما باليد حيلة. جلس أيمن على طرف السرير، وقف ريسان وبدر وفهد وغالب في الجوار، قال أيمن. زنتاك مع حقن مضاد حيوي. اعتكر وجه جعفر. إلّا الحقن. الطبيب الاستشاري يجزم بوجود نزيف داخلي، وتناولك للمضاد الحيوي عن طريق الفم يفاقم الوضع. التفت لريسان. علينا الاستعانة بأحد المضمّدين. قال فهد. إن كان على الحقن أنا كفيل بها. قبل مغادرته قال أيمن لجعفر. هناك موضوع يخصّك. نشط جعفر في مكانه. يخصّني. ردّ أيمن. تطّلع عليه بعد استعادتك قواك. سؤال. رددها جعفر وهو يميل جانباً كاشفاً أعلى فخذه استعداداً لتلقي حقنة المضاد الحيوي، استجابٍ فهد وهو يفرغ الهواء من الحقنة. اسأل. عساك عالجت بشراً بواسطة الحقن. أجابه فهد متصنعاً تجهّماً. عالجت العديد من الحمير والخيل. استدرك. والأبقار من الجنسين. أكمل. الفرق أنّ الحقنة التي استعنت بها على أيام فيلكا كانت كبيرة الحجم جديرة بعملها. وهو يتلقى حقنة أولىٍ صدرت عن جعفر همهمة مفاجأة. كم عدد الحقن. ثلاث يومياً كما أفاد دكتور أيمن. يتعمّد جعفر يتظاهر بالنوم عساه لا يُثقل على الثلاثة وهم يحاولون التسرية عنه بالجلوس عنده توسّلاً بتبادل أحاديث يراها مُفتعلة ما دام مُقيداً لسريره جرّاء خيانة جسده له. يتذكّر نوبة شبيهة بهذه تماماً غافلته أواخر شهر ديسمبر عام 1988، مغص حاد اعتمد جعفر مبدأ تعامله معه بمسكّنات قويّة المفعول، طبيعة وظيفته الصحفيّة تقتضي ساعات عمل لا تقل عن عشر يومِيّاً، لا ضمانة اجتماعية لفئة بدون، تتشبّث بتلابيب وظيفتك وإلا. معاودة المغص واعتياد الاحتفاظ بالدواء المسكّن في

الجيب للحاجة، بعد أسبوع منه بدأ يحسّ بالوهن، صار يلهث كلما قطع مسافة تزيد على عشرة أمتار، صار إذا صادف وجهه بالمرآة رآه أبيض، لم يتبادر لذهنه وقتها أنّ جسده بدأ يفرغ من دمائه، باطن كفّيه بلا لون، حداه أمله يتحسّن إذا جالد مرضه، ضحى يوم عاشر لبدء النوبة كان يحتلّ مقعده وراء مكتبه في قاعة محررين جريدة القبس، همّ بالنهوض دارت الأرض به، تهاوى أرضا. هرع إليه زملاؤه. سلامات. مجرّد إرهاق. نبهه أحدهم. أنت مريض جدّاً يجدر بك مراجعة طبيب. حاول الوقوف على قدميه، خانته ساقاه. يتذكّره وقتها ضحك. كيف يتخلّى عنك جسدك. أسنده اثنان من الزملاء. إلى مستشفى مبارك الكبير. ممرات المستشفى طويلة وطاقة جعفر متلاشية، أجلسوه على كرسي بعجلات، يكاد لا يصدّق ما يحدث له، جزم في داخله أنّه يواجه أمراً صحيّاً طارئاً لن يستغرق علاجه سوى ساعة يعود بعدها لحالته الطبيعية، زحمة المراجعين من المرضى، غاب أحد الزميلين عاد حاملاً قصاصة ورق. لوّح بها ضاحكا. رقمك 18 يصلك دورك بالدخول على الطبيب بعد ساعة. باقٍ رهن كرسيه المتحرّك أحسّ عطشا، غاب أحد زميليه دقيقة، عاد حاملاً كوب عصير برتقال، تذوّقه جعفر بمتعة لم يعهدها قبلاً، عبّ منها أكثر، تمرّدت عليه معدته، تقلّصت بغتة، ثمّ دفعت بالعصير أعلى، آخر ما يتذكّره شعور حرقة الأنف وما خطر له يتخلّى عنه كرسيّه المتحرّك، أفاق في غرفة العناية الفائقة، وحده هناك، البرد يكاد يثلج أطرافه، لماذا أجهزة التبريد والوقت شتاء، العتمة الليلية وهذا السكون المطبق، يده مربوطة لخرطوم يتصل بكيس شفّاف يحوي سائلا بلون الماء مثبّت أعلى حامل معدني،

أنت أسير ماذا، سقط في الظلام ثانية، أفاق ظهر اليوم التالي، رأى زميليه من الجريدة إلى جانب سريره. الحمد لله على السلامة. متى أغادر. ضحك أحد الزميلين. قُل متى أنقل من غرفة العناية الفائقة إلى جناح المرضى.

حوالي الساعة العاشرة صباحاً رن جرس الهاتف. نعم. قُل صباح الخير. خصّه صوت أبيه عاتباً، مرّة أولى يبادر يهاتفه، سأله ما معناه، هل استجدّ في حياته أمرٍ يمنعه يزور بيته، لا، لماذا لا يراه إذن، يذهب لهناك أحياناً، مترصداً غيابي عن البيت. ليس هكذا يا أبي. هل بإمكانك الآن. الطلب صيغة أمر، حاصره أبوه، إن كانت عقبته تتمثّل بطبيعة عمله هاتف له آمر معسكره، لا حاجة لذلك. اختليا بعضهما في غرفة المكتب، صوت أبيه خلافاً لما عهده بدا قلقاً لدرجة التطيّر. أوضاع المنطقة غير مطمئنة. أضاف. الأوضاع العالميّة غير مطمئنة. يُدرك أيمن، أبوه لا يتكلم اعتباطاً، يعرفه ليس بعيداً عمّا يدور في كواليس هرم السلطة، هل انتقلت عدوى القلق إليه، أطلق أبوه زفرة دالّة. يكاد التاريخ يعيد نفسه، هم يتخذون خطوات تؤدّي واحدتها للاحقتها أشبه بالذي فعلوه استعداداً لمواجهتنا بقصد دفعنا خارجٍ محافظة النداء. يغفر لأبيه يقينيات لا خلاص له منها، آثر يبقى مُصغياً. وقتها كنّا نستعد لملاقاتهم بخوض أم المعارك. لمس نغمة سخرية شابت صوت أبيه. لا أم معارك ولا تسميات استعراضية أخرى، أنت حينٍ تقول كلمة حقّ يجري التشكيك بإخلاصك، المنافقون يفوزون دائماً. لا يدري أيمن أين يتوارى المنافقون، احتدّ صوت أبيه فجأة.

لماذا لا نمتلك خاصيّة قراءة سير الأحداث. لم يصدف له رأى أباه بانفعال ينمّ عن ألم حقيقي، لو كانت علاقتهما بهما تشبه علاقة هيا وجنى بأبيهما لبادر أيمن احتوى كتف أبيه، لكنّها النشأة ذات المنحى الانضباطي. باستعداداتهم لما سمّوها حرب خليج ثانية وضعوا نصب عيونهم هدفاً واحداً هو انتزاع محافظة النداء منّا. لم يتخفف صوته من شحنة غضبه، لحربهم القادمة وضعوا نصب عيونهم هدفاً أبعد بكثير. سادت لحظة صمت، شاء أيمن يُبدي مشاركة، لعلهم يهدفون للنيل من السيّد الرئيس حفظه الله. يهدفون يجتاحون العراق من أقصاه لأقصاه. يعرف أيمن هناك قوى كبرى تُخطط لإيذاء العراق باستصدار قراراتٍ مجلس أمنٍ دولي، يدريهم يرومون إضعاف بلده أكثر فأكثر تمهيداً أو تشجيعاً للعراقيين كي يثوروا على حكّامهم، خلاصة ما ساره به أبوه يفيد بماذا. أضيق حلقة في بطانة المنافقين من القيادات المحيطة بالسيد الرئيس تّخطط تبيع العراق بثمن بخس. لا يكاد أيمن يُصدّق ما يسمع، شخصيّة أبيه هذه جديدة عليه، تراهم يتوجّب عليهم أخذ الحيطة والاستعداد لمعركة شرسة قادمة، أبوه لا يجزم بحدوث مواجهاتٍ حاسمة بين جيوش حديثة مجهزة بأنواع الأسلحة وأشدّها فتكاً وبين جيش مُنهك فقد فاعليته مثلما نخرته عوامل التفرقة المذهبية الطائفية الحزبية، وتقادم الزمن بآلياته ومعداته، أسلحته القديمة ما عادت ذات جدوى، أضف ما فعلته سنوات الحصار الدولي، أضف لم نعد نمتلك اسراب طائرات تحمي أجواءنا من انتهاكات مُحتملة. ما الذي تهدف تقوله في نهاية لقائنا هذا يا أبي، توارد سؤال أيمن ذهنه ولم يتجرأ يصرّح به، انتظر عليه يدلي ما عنده، فهم منه، الزمن القادم يحتمل مخاطر بلا حصر، المكانة

والامتيازات مؤهّلة تروح إذا راح البلد، يبقى أخذ الحذر واجب، ألزم ما على الإنسان حياته، أنت شاب، يجب لا ينالك القنوط واليأس، ما الذي تهدف تقوله يا أبي، تحوّطاً لزمن مجهول اتخذتُ احتياطات تساعدنا نُخلي بالسرعة المطلوبة، باتجاه أين، الاتجاه المتيسّر وقتها، الغزو القادم كما تفيد الظروف المحيطة بنا سيأتينا من جهات ثلاث، الجنوب والشمال والغرب. تجرأ أيمن سأل. من جهة سوريا. صحح له أبوه. عبر الحدود مع الأردن. تذكّر أيمن فيلّا جبل الحسين والساحة الهاشميّة. الأردن بلد حليف. صحح له أبوه. حليف أمريكي. تحسّباً لمستقبل غامض عمل أبوه على شراء بيت صغير في ضواحي مدينة صوفيا عاصمة بلغاريا، اشترى شقّة في دمشق، هناك حسابات مصرفية مؤمّنة كافية، بعضها يخص أيمن، ما المطلوب مني. تكون أهبة استعداد، بدء الحرب واحتمال انقطاع الاتصالات الهاتفيّة، عليه ترك كلّ شيء أيّاً كانت أوامر رؤساء آخرين، القدوم لهنا فوراً، أبوه وفر سبل مغادرتهم العراق على جناح السرعة. مغادرة أيمن لمنزله الساعة الثالثة عصراً. ما بك. سألته هيا قلقة. تنبّه ابتسم أجاب. لا شيء. استنكرت ردّه. حزنك يطلّ من عينيك. عينا المحبّ نافذته على حبيبه. أخذته من يده. تعال.

البارحة حلمت بكما عليوة وأنت. تستدرجني للحديث عن عليوة. رأيتك في الحلم باركاً عند جسده الذي ينزف. قاطعه آدم. هل احتوى حلمك على ضباط قوّات خاصّة شباب. لا، لكنّي رأيتكما تحت شجرة سدر عملاقة أغصانها مُثقلة بكنار ذي لون

ضارب للدم. حلم دموي. ساعة الفسحة المسائية، كانا يتخذان من ساتر حوض شجرة كينا عند الزاوية الأبعد لجدار العنبر مجلساً لهما. اقترب أحد رجال الأمن. ابتعدتما أكثر من المسموح يا آدم. حاضر. غمغم آدم لدى نهوضه، جاراه بدر، انفرج فم رجل الأمن بابتسامة صحبة، أشار لهما. عودا للجلوس، إيّاكما الابتعاد أكثر. أظهر آدم امتنانه. شكراً أخ عبد الواحد. لدى ابتعاد رجل الأمن تساءل بدر. تعرفه. قليلاً، عبد الواحد من الصابئة الذين يعمّدون بالماء الجاري. أشاوس السيّد الرئيس يُعمّدون بالدم. تذكّر آدم سأل إنْ كان بدر جادّاً فعلاً بمسألة حلم البارحة. الأمر الداعي للغرابة غياب بدر عن الحلم، بدا له كمن يشاهد شريطاً سينمائيّاً صامتاً. فيما يخصّ حادثة مقتل عليوة، فَقَدَ آدم في مراحلها الأخيرة قدرته على السمع، لعلّه جرّاء ارتفاع مفاجئ لضغط الدم، عيناه وحدهما بقيتا تعملان. رفض عليوة تسليم جواز سفره ووثائق سيارته لضابطهم. إن شئت رافقناك لأقرب مخفر لا يجزم آدم هل صرخ ضابطهم أم لا، رآه يرفع يده يصفع عليوة بقوّة، رأى عليوة يلتحم بضابطهم، رغم قصر قامته مقارنة بالقامة الفارعة للآخر، استطاع خلخلة توازنه أسقطه أرضاً، برك فوق صدره، تدخّل الضابطان الآخران، أمسكا عليوة، كلّ من جانب، رفعاه، ثبّتا ظهره لجسد سيارته، لحظتها نهض الضابط طريح الأرض استلّ سكيناً بنصل طويل، وجّه طعنة نافذة لصدر عليوة، لعلّ آدم التحم بالضابط الطاعن، لعلّ الأحداث توالت، الضابطان اللذان كانا يثبّتان ظهر عليوة لجسد سيّارته أفلتاه، بذل عليوة جهده يبقى واقفا دون جدوى، الضابطان إيّاهما حاولا تثبيت ظهر آدم لجسد السيّارة بالمثل موفّرين لزميلهم الفرصة ذاتها، ضخامة

قامة آدم حالت، استطاع الإفلات منهما، هرع للضابط الطاعن، انتزع منه سكينه، ما الذي فعله بالسكين بعد استحواذه عليها، لا يذكر، لا يدري هل أعماه غضبه، وإنْ كان أعماه فعلاً هل يتسبب له بفقدان جزئي لذاكرته، بعد زهاء ساعة أفاق آدم من غيبوبة لا يعرف كيف ألّمت به، تنبّه لصرير حاد داخل أذنيه، وجد حاله داخل زنزانة ضيّقة ذات باب بقضبان حديديّة، وحده المكان، كيف له وأين، تنبّه لألم عاتٍ ينبض في مؤخّرة رأسه، رفع يده يتحسس، شيء ما رطب يتخلل شَعره، دم، يخاله تلقّى ضربة ساحقة، خلد لصمته، وحده الصرير يستحوذ حواسّه، أطبق جفنيه، غاب ثانية، صحا بحضور حاسة سمعه. أين أنا. مخفر مدينة القاسم. كيف وصلت لهنا. أتوا بك مخفوراً. من هم. ضابطان من القوّات الخاصّة. الشرطي الذي تطوّع أجاب تساؤلات آدم ختم بقوله، أنت رسم أمانة. أمانة ماذا. هم بصدد أخذك لبغداد. نقلوه مقيد اليدين داخل حافلة صغيرة مقفلة، شغلته محاولة تذكّر تفاصيل لحظات محددة. أخذوه لمديرية أمن بغداد، أودعوه زنزانة منفردة في القبو، المكان يضمّ اثنتي عشرة زنزانة يفصلها ممر عرض مترين، القضبان الحديدية تسمح برؤية المعتقلين بعضهم، لكن الحضور الدائم لرجال الأمن حال دون تبادل حديث، لم ينم ليلته الأولى، ساعات فجر يوم تال بدأت ذاكرته تصفو، استعاد اللحظة التي انتزع فيها سكين ضابطٍ القوات الخاصّة من يده، هوى عليه طعنة في الصدر قبل أنْ تصدمه قوه هائلة في رأسه، تطايرت من عينيه حُزمة شرر، ثمّ مادت به الأرض. إنْ كان قتلٍ ضابطهم ما الذي منعهم من قتله وقتها. استعاد مشهد عليوة ممددا على الأرض ودماؤه تنزّ من صدره، أينه الآن، تراهم

نقلوه لمستشفى. بعد ساعات أتوا له بقصعة عدس وقطعة خبز داكنة اللون، لمّا ينهشك جوعك يتحتّم عليك تأكل. اسمك. آدم يوسف. لا يبدو عليك أنّك عراقي. أنا من تشاد. ما هذا التشاد. دولة مجاورة للسودان. كيف وصلت العراق. كنّا مرور سيّاحة. من كان معك. صديق مصري يُدعى عليوة. أين عليوة. لا أعرف. أين جواز سفرك. كلّ الأوراق الخاصة بي داخل السيّارة. أي سيّارة. السيّارة التي جئنا بها من الكويت. مسؤول الأمن الذي يحقق معه لا يعرف شيئاً عن خلفيات قضيّته. نُبقيك محجوزاً لحين تَسلّمنا ملفّك. من مكانهما عند شجرة الكينا تنبّها للسجناء يخلون الساحة، نفاد زمن الفسحة، حثّا خطوهما عائدين، قبل اجتيازهما بوابة العنبر داخلين وجّه بدر سؤاله لآدم. كم بقيت في قبو مديرية أمنهم. سنة.

انتظامه علاجه، بدأت صحّة جعفر تحسناً بطيئاً، دماؤه التي غاضتٍ من وجهه عادت تتسلل إليه، من جانبه جعل باطن كفّيه مقياساً له، كان يتفحصهما بانتظام، سريان الدم فيهما يمثّل استعادته حيويته. طوال أيام مضتْ حرص غالب يقضي ساعة مزاولة رسم صباحية وأخرى مسائية في الجوار من سرير جعفر محاولا التسرية عنه بتبادل الحديث، بعد تحسّنٍ صحّة الأخير اختلى غالبٍ داخل غرفته. صار يزاول رسمه بعيداً. نوّه بدر عن قلقه موجّهاً حديثه لفهد. صادفته حالته ذاتها خلال الأيام الأخيرة لاشتغاله على لوحة القرد وحيد. ما السبب. يخشى يسمع رأياً انتقادياً يصرفه عن إتمام اللوحة. وجهة نظر قطع عليهما حديثهما قدوم غالب. أحتاجك

دقائق. قالها لفهد، وما دارِ في بال الأخير أنّ احتياجه يعني مفاجأته بلوحة الببغاء مُنجزة. كأنّك حضرت واقعة مقتل الببغاء. أردت رسم الموضوع من خلال عينيك. كان فهد يقف أمام اللوحة المسندة إلى الجدار. كيف. اللوحة بمجملها كادر، وأنت، كما هو مُفترض، واقف خارجه. السينمائيون يكثرون استخدام كلمة كادر. اقترب بدر، وقف يتأمّل، هناك بضع ريشات خضراء بدت مُتطايرة بفوضى، أشار بدر لريشة أقرب لمركز الرؤية. ريشة حيّة تكاد تكمل طريق سقوطها خارج اللوحة. انفرج فم غالب بابتسامة رضا، استطرد بدر. لوحة وحيد وهذه اللوحة أجمل من لوحة احتجاج الخراف. تدخّل فهد. لو رسم الخراف الآن لكانت لوحة لا تُضاهى. اقترب جعفر بخطوات واهنة، تنبّه للوحة. وُفّقت بتأكيد بيئة المكان من خلال خلفيّة السماء والماء بالرغم من صعوبة تجسيد اللون الأخضر العشبي فوق اللون البحري. عقّب غالب. فهد هو الذي أوحى لي أرسم البحر. أشار فهد للوحة، تساءل. وعدتني تهديها لي. لك. أملك حقّ التصرّف بها. تردد غالب برهة. تملكه. مدّ فهد يده للوحة رفعها، علّقها حيث كانت لوحة القرد. أمنحكم مهلة ثلاثة أيام تكتفون من رؤية غباء الحرب. عمل رائع. قالها أيمن وهو يرى اللوحة. قال فهد. سمّاها غالب غباء الحرب. قال. أعطيناك لوحة القرد لأننا لا نستطيع الاحتفاظ بها. قال. نهديك هذه لأنك تستحقّها.

تاريخان يتوزّعان زمن أيمن، تاريخ يخص سنوات سبقت ابتعاثه لموسكو ومعرفته مارلين، وآخر أعقب ذلك، في ماضيه اتسق نمط حياته

وتيرة واحدة ممتدّة أفقياً لا شيء يدعو للتفكير خارج ما هو مألوف، لا شيء يدعو لقلق بما يستوجب مراجعة مسلمات، بعد ذلك عرف ماذا يعني الشعور بالذنب أو التقصير تجاه فعل لم يقترفه شخصياً، مسؤوليّة ذلك تلحق آخر يمتّ له، أو جهة يُحسب عليها. شيء يشبه تنكّب يقظة ضمير بالإحالة، مُنذ موسكو، عمّان والعباءات النسائية العراقيّة مُقترنة مهانة، الأربعة العهدة، عريف ريسان وبيت السنك، منذ كهل مُهاجر يُدعى خالد عادل يأتي بمجلّة، الأمور بما يشبه قدريّة تراكميّة لا تكاد تكف، هزه موقف أبيه، قراءته لأحداث عاصفة يراها حتميّة، طوال حياته درج أبوه ينهج مسلك الرجل القوي الواثق من غد آتٍ يعزز مهابته وسطوته، تفاجأ به يشكو تأثيرات أضيق حلقات البِّطانةَ على صاحب القرار، في حين يراهم أبوه يزمعون يبيعون الوطن بالثمن البخس، إشاعات تُفيد أنّهم أقاموا اتصالاتهم بأعداء العراق سرّاً. يفهم أيمن أنّ وطنه مُستهدف، هناك قوى دولية على رأسها ولايات متحدة تكيد، تعدّ خطط عدوانها، لكنّه لا يفهم لماذا قرار أبيه، استعداد مغادرة إلى أحد أماكن مؤمّنة سلفاً. يتذكّره أيام أمّ المعارك كان متماسك الإرادة، يتريّث أيمن أمام سؤال. هل يتأكّد وجود وطن مُعين من إحساس ناسه بمواطنيتهم تجاهه أو العكس، يعرف أنّ كلّ الذي حدث منذ عام 1990 وكلّ ما هو متوقّع الحدوث ترتّب عن محاولة ضمّ الكويت، الأربعة العهدة أسرى من الكويت، مراقبته لهم طوال زمنهم هنا، تعاونهم بينهم، محاولاتهم تآلفهم مع المكان رغم انحباسهم فيه، إضافة لمراعاتهم كرامتهم. يظنه لو وجّه سؤاله بخصوص نزعة المواطنة لأيّ منهم سمع إجابة تدعو لإعادة نظر بمسلّمات متداولة هنا. هيا قالت له يتوجّب عليه لا

يستغرب موقف أبيه تجاه مُعطيات راهنة، تكاد تجزم أنّ العديد من قيادات الصفّ الثاني العسكريّة أو المدنيّة بدأت تتبادل هواجسها بينها بخصوص القادم بعدما حُرمت حق المشاركة باتخاذ القرارات ذات الصلة بمصير البلد، عملها في إدارة الحاسوب، معرفتها فحوى اتصالات دولية على مستوى رؤساء حكومات أو وزراء خارجية، هناك وتيرة آخذة تتسارع، ما عادت ساعة صفر بدء عمليّة غزو العراق بعيدة، قبل أيام طالبها رئيسها تجمع معلومات حول حشود عسكرية أمريكية وبريطانية على طول الحدود الجنوبية الفاصلة مع الكويت، ومثلها على الحدود الغربية الفاصلة مع الأردن، الأمور عدّ تنازلي والحرب في حالة قيامها محسومة لصالح قوى دولية بالتعاون مع شخصيات معارضة عراقية تعيش في الخارج، القادم كيف، نحن الآن كيان كارتوني هائل منخور من داخل لا أخالنا نستطيع نكون أسوأ، لا مانع لدى عامّة الناس من قبول أيّ تغيير دون التدقيق بهويّة من يأتي به. هموم أيمن تتوزّع بين قلق حول مصير بلده، وآخر يتصل بمصير الأربعة الأسرى إذا ما عصفتْ تغيّرات ما، تلفته روح التكافل السائدة وسط الأربعة عبر تعاملهم مع ظرف تواجدهم، بالأمس سلّمه فهد لوحة غباء الحرب. هم هنا وهم برسمتهم هذه يلامسون حدود حرب عاناها بلدهم قبل أكثر من اثنتي عشرة سنة، نحن هنا، ماذا عن احتمالات حرب قادمة، أبوه أفاد أنّ المنافقين وحدهم يفوزون، أفاد بوجود بيت في ضواحي صوفيا، شقّة دمشق، شقّة بيرت، أرصدة مصرفيّة كفيلة، كيف لأيمن يتصوّر نفسه يقضي حياته مُشرّداً حول العالم، تقول هيا، لا مانع لدى عامّة الناس، يقول أيمن لا مانع لديه شرط تكون هيا معه.

مخالفاً نهجاً حرصنا نلتزم به ألغى فرغلي زيارة مُقررة، لي في مكتبي، اتصل هاتفيّا، مشاغل المجلّة صارت مُضاعفة جرّاء سفر مفاجئ لعدد من المحررين. ما المطلوب منّي. أردت أسألك عن نصّك الأخير بو غريب مع التحيّة. سبقني احتجاجي. من منحه اسمه هذا. أنا. أكمل. بعدما أنهيت قراءة أجزائه التي تسلمتها منك. شكوته. لا أدري من أين تأتي بتسمياتك. اختر اسماً يناسبه بعد كتابتك آخر كلمة فيه. كأنّك تستعجلني. كلّما استعجلني رئيس التحرير. تابع. ملف قصص أسرى الكويت سيكون جاهزا لتضمينه في العدد القادم لو تسلّمت بقيّة نصّك خلال الأيام القليلة القادمة. عندما يلحّ أحدهم أكتب، تفر منك كلماتك لدرجة التطيّر بلوغاً مرحلة الانصراف لكتابة موضوع ثان، عدا هذا يعرف فرغلي يقينا ماذا تعني معايشة الكاتب شخوص قصصه. مع بدء كتابتك موضوعك سألك فرغلي سبب توسّلك بآدم يوسف، أحجمت تقول له هرباً من الالتحام بمعاناة بدر، هرباً من إصابة حتمية بأمراض الأسر، اكتئاب، إحباط، قهر، شعور مصادرة، لا جدوى زمن يلاحق بعضه نحو ضياع عمر، يقينية تخلّي قاعدين في وطنك، أو ربما هربا من مصير لا تريده لأخ ضاع في الأسر، كلما جئتَ تكتب عنه يفزعك نمط حياة يكابدُها، تخلق له جوّا، رغم قسوته، أخف وطأة من مصير محتّم، لكنّه التسليم، ها أنت رضيت أم أبيت تعود تستكمل نصّك ليس إرضاءً لفرغلي، لكنّك، توسّلاً بالكتابة، تنشد خلاصا خاصّاً بك. يا آدم. نعم. قصّ ما جرى لكما أنت وعليوة. قاطعه آدم بصوت يتشرّب حزنه. عليوة مات. هل رأيته وهو يموت. لا. هل عرفت كيف مات. لا إجابة. قلت عنه تلقّى طعنة في صدره

تداعى أرضاً نازفاً. لماذا تصرّ تعرف تفاصيل. لو تم إطلاق سراحي عُدت للكويت رويت قصتكما أنت وعليوة لأخي، أعدك ألح عليه يكتبها أعدك تصلك حيث تكون. أريد أنْ أكون في الكويت. خنس بدر يسمع. أنا تشادي لكنّي لم أزر بلدي سوى مرّة واحدة قبل التحاقي بالجامعة، قضيت حياتي في الكويت الدراسة والذكريات والأهل، لسنوات بقي أبي كبير جاليتنا في الكويت، عددنا أيامها بحدود سبعين. هبط صوته. مُنذ مغادرتي الكويت فجر يوم الحادثة وحتّى الآن انقطعت أخباري عن أهلي، في قبو مديرية أمن بغداد لم يسمحوا لي أكتب رسالة أو أتصل بأي، قلت لهم ليتكم تجرون اتصالاً بسفيرنا هنا، جاء ردّهم حاسماً. هنا مديرية أمن، في زمن قادم فهمت أن لا سفارة لنا في بغداد. كانا يسيران في الجوار من أسوار الأسلاك الشائكة الفاصلة ما بين السجن وفسحة أرض فضاء تقع بيوت بعض العاملين في السجن على طرفها. لماذا تتهرّب من موضوعكما أنت وعليوة. طافت سحابة حزن وجه آدم. الحديث عن ظروف المأساة يعيدها حيّة في الدخيلة. معك حق. سادت لحظات صمت. إن حدّثتني عمّا أريد حدّثتك بالمثل. ابتسم بدر. نمارس المقايضة. سمّها ما شئت. اسأل. رحلت عينا آدم وراء صفّ الأسوار الشائكة، يومهم الخريفي ذاك، قرص الشمس يميل نحو الأفق الغربيٍ، لم يبقِ طويل وقت لفسحتهم المسائية، سحب آدم لصدره شهيقاً عميقاً، استدار بمواجهة بدر. أنت عايشت الاحتلال حتّى منتصف شهر نوفمبر، لعلّك تعرف شيئاً حول أوضاع جاليات افريقيّة في حينه. هل تواردت لذهن بدر فكرة مفادها لا بأس من الاستعانة بالخيال ما دام الهدف انعاش روح أحدهما. كلاهما حالة

انقطاع كلّي. لأنّك سألت. تظاهر بالتفكير بضع ثوان. نحصر حديثنا بجاليات عربيّة أفريقيّة سوداء البشرة، السودانيّة هي الأكثر عدداً، كانت متعاونة مع الكويتيين، جالية جُزر القُمر متعاونة أيضاً علماً بأن عدد أفرادها لا يتجاوز ثلاثين، لا مانع من ذكر الدور الطيّب للصوماليين والأوغنديين، الأكثر تجاوباً من كل هؤلاء هي الجالية التشاديّة، لهذا جرى تصنيف تشاد ضمن دول التحالف. لاحت في عيني آدم نظرة شك. عساك لا تُجاملني. لو كنت أجاملك لاغتنمت الفرصة حدّثتك عن الحاج يوسف المعروف بو آدم. ضحك آدم من القلب. حتّى لو كنت تُمارس كذباً أبيض أنا سعيد بذلك. طمأنه بدر. القضاة لا يكذبون بسهولة.

سكون الليل يخيم على الجوار، بدرٍ وغالب، كما هو مُفترض، يغطّان نوماً، وحده فهد ينشغل خارجاً، ووحده جعفر يجلس في سريره حاضناً الحاسوب عنده، عيناه تعيدان قراءة عنوان المقالة بخط الرقعة الكبير للمرّة الخامسة أو السادسة، بين الولاء والانتماء، بقلم ج ف م، مُذيلة بإشارة تُفيد، كاتب كويتي. كانت الساعة قاربت الواحدة ظهراً عندما جاء عريف ريسان بجرايتهم اليوميّة، دخل ملازم أيمن بعده، معروف عنه لا يطلّ إلّا إذا استدعاه أمر هام، رأوه يحمل الحاسوب، قال لجعفر سبق أخبرتك عن موضوع يخصّك. شعّت عينا جعفر توقعاً، بادر ملازم أيمن سلّم الحاسوب لجعفر. لم يتناول أيّ غداءه، انشغلوا يتصفّحون محتويات الحاسوب، تريّثوا عند موضوع منقول عن مجلّة استراليّة تُطبع بالعربيّة، توجّهت

عيونهم لجعفر. متى حدث هذا. منذ شهرين، ربّما ثلاثة، لا أتذكّر بالتحديد. كيف نشرته. ملازم أيمن تصرّف دون علمي. تطوّع بدر قرأ المقالة، مع انتهائه عقّب غالب. عتب مؤلم. أكمل فهد. موجّه لمجهول فاقد الإحساس بالمسؤولية. تشرّب صوت جعفر بحزنه. مُنذ إعلان استقلال الكويت، مُنذ صدور قانون جنسية يفتقر لرؤية تتسم بالعدالة لا نجد آذاناً صاغية. شاكسه فهد. لهذا صرتم ترفعون الأذان في استراليا. نم فم جعفر ابتسامة هيّنة. سادت وهلة صمت بددها بدر. فكرتك كما يبدو اختمرت في ذهنك طويلاً. مُنذ سبع عشرة سنة. سكت ثانيتين، استطرد. لو عرفت باحتمال نشر الموضوع جعلته وافياً أكثر. نبس غالب. خير الكلام ما قلّ ودل. مفارقة أنْ تتوفّر لبدون كويتي في الأسر فرصة إعلان صوته مُطالباً بحقّ مواطنيّته بصرف النظر أين. احتفاء رفاقه الثلاثة لدى الاطلاع على مقالته فاق توقّعه، هم الآن هنا، أسرى داخل حيّز مكاني محدود مثلما هو مُنقطع، لو صدقت توقّعات سابقة حول وجود صفقة تقضي إطلاق سراح، لو توفّرت بعد كلّ سنوات الأسر هذه فرصة أخذهم أربعتهم من هنا باتجاه الكويت، احتمال استبعاد جعفر جانباً بصفته بدون وقت بلوغهم أوّل منفذ حدوديّ كويتي، المفارقة أنْ يزجره أحد رجال الأمن الكويتيين. أنت أسأت لسمعة الكويت في الخارج. لو صادفه ذلك هل يتضامن رفاقه الثلاثة معه، لن نجتاز الحدود للداخل إلّا إذا كنّا أربعة، أم أنّ واقع الحال غيره، يتذكّر جعفر موقفاً ذا صبغة نقابية صادفه خريف عام 1987، لمّا طالب عدد من الصحفيين الكويتيين والفلسطينيين بسقف من حريّة الكتابة دون تدخّل الرقيب بالحذف والتعديل، موقفه التضامني مترتّب

عن يقينه أنا كويتي، بعد يومين من مطالبتهم أخضعوا للتحقيق، ما الذي تُخططون له، حريّة صحافة، لا حُريّة من غير رقيب لكم أنْ تعملوا بشروط أو كفّوا أقلامكم، احتجزوا الجميع لحين حلول الليل، وصول مسؤول كبير، مطلوب تعهّد خطي بعدم خرق القانون. لأنّه لا مفر، الكويتيون كتبوا تعهداتهم، بلغه الدور، إثبات الشخصيّة، أنا بدون، أخذوه لغرفة الحجز، اكتفى زملاؤه خصّوه نظرات عطف. الفلسطينيون أرغموا على مُغادرة البلد لجهات يختارونها، جعفر بلا جهة، أبقوه في حجزهم عشرة أيام ثمّ أطلقوا سراحه بتعهّد خطي من رئيس تحرير جريدته، إيّاك تفعلها ثانية. لا تنس أنّك غير كويتي، حس المواطنة صنف شعور غريزي لا يملك الواحد قدرة تخلصه منه.

استوت سيّارة أيمن على الطريق السريعة المتجهة جنوباً. بعد نصف ساعة نصل سلمان باك. اكتفت هيا الجالسة إلى جانبه بإيماءة رأس، كان الوقت ضحى يوم جمعة من أواخر شهر كانون أوّل، ازدحام سماء بغداد بغيوم رماديّة منخفضة خفف من وطأة البرد الشتوي. أودّ التأكّد مما يُشاع عن وجود فرق تفتيش أسلحة دمار شامل تابعة للأمم المتحدة في محيط المنطقة الأثرية هناك. أطلقت هيا ضحكة قصيرة سبقت عتبها. يُفترض به يومنا. لأنّه يومنا أردت التأكّد من أمرٍ معين. وشّى قلقها صوتها. لا أرى علاقة. ناشدها. اصبّري قليلاً. تكاثفت الغيوم الرمادية أكثر، بدا وكأنّ الوقت مساء مبكر. معظم نهارات موسكو هكذا. تحن لمارلين. أحن لزيارة موسكو شرط مُصاحبتك لي. إن كان عليّ أنا مُنذ اليوم. استعداد هيا، وقد

بدا عفويّاً، حشد مشاعر أيمن في كفّه التي امتدت احتوت كفّها. قبل انحرافه بسيّارته نحو طريق المواقع الأثريّة زخت السماء بضع قطرات ثمّ توقّفت، قالت هيا. عساه أوّل الغيث. اقترابهما شاهدا طابور سيارات شرطة عسكريّة، بما استدعاه يوقف سيّارته، جاءه أحد رجال الأمن. يُمنع الوقوف هنا. دفع له أيمن بطاقة التعريف الخاصة به، بادر الآخر أدّى تحيّة عسكريّة. آسف سيّدي، نحن نؤدّي واجبنا. لا بأس. قال أيمن، تساءل. هل سيّارات مفتشي الأمم المتحدة في الجوار. أشار رجل الأمن بامتداد ذراعه. وراء طاق كسرى. تحرّك أيمن بسيّارته. كان الموقع الأثري مؤمّناً من رجال الشرطة العسكرية ولا أثر للعوائل البغداديّة التي اعتادت قضاء فسحة يوم الجمعة وسط الحدائق المحيطة. همست هيا بأسى. وضع مُذلّ. عقّب أيمن. يتعمّدون يبعثون رسائلهم للمواطن العراقي أنّهم لا يقيمون وزناً لحكومته. كيف يتبادر لذهن أيّ إنسان وجود أسلحة دمار شامل هنا. اقترابهما أكثر شاهدا طابور سيّارات جيب بيضاء اللون، رُسم على أبوابها شعار الأمم المتحدة باللون الأزرق، رأوا على بُعد عشرات أمتار، أشخاصاً طوال القامة يرتدون ثياباً بيضاء غريبة الشكل، أشبه بما يرتديه رواد الفضاء بما فيها أغطية رؤوسهم، يحملون على ظهورهم صناديق أو حقائب، ممسكين بأيديهم قضباناً تنتهي أطرافها بأقراص مستديرة، كانوا يمشون صفّاً أفقيّاً والأقراص تكاد تلامس سطح الأرض أمامهم. قالت هيا مُضمّنة سخرية. لعلّ حظوظهم تخدمهم يعثرون على أحد كنوز كسرى. قال أيمن. أمور البلد بدأت عدّها التنازلي. آثرت هيا تلزم صمتها، اقترب بسيارته من مقهى خال من الروّاد والعاملين نتيجة الإجراءات الأمنية، أوقف سيارته. نجلس

لدقائق. فتح بابه، حذت هيا حذوه، بدأت السماء تنث قطرات دقيقة هذه المرّة، اتخذا من أريكة تحت سقيفة المقهى مجلساً لهما. قال. منطقة سلمان باك موحشة من غير ناس. وضع البلد إلى أين. في لقائي الأخير مع أبي كاشفني للمرّة الأولى بهواجسه، طلب منّي أنْ ألّا أشرك أحداً بما قاله. سكت ثانيتين. لأنّك أنا. خشية أبيه إذا أزفت ساعة سقوط بغداد يصبح لزاماً على أيمن يترك كلّ شيء، يتوجّه للبيت، إعداد عدّة التوجّه خارج البلد عبر وسائط نقل مؤمّنة سلفاً، بيوت في عواصم عربية أو غير، رصيد بنكي باسمه الشخصي، لا اعتراض على رصيد بنكي بالدولار في مصرف أجنبي. هيا باقية تُصغي إليه باهتمام يشوبه ألم. لأبي الحقّ في أنْ يخشى مضاعفات وضع مستجد بصفته أحد رِجال الخط الثاني. بدأ المطر يهطل أشدّ، بدا كأنّه خيوط لامعة تربط السماء للأرض، شردت عينا أيمن في البعيد. ما يخصّني لا شيء يضطرّني للرحيل بالسرعة التي. ترك جملته ناقصة. لست مسؤول خط ثانٍ. استعاد نظراته من البعيد، واجه عيني هيا. لست ضدّ مشروع السَفر للخارج شرط أنْ لا يكون هرباً. رقّ صوته. الشرط الأهم أنْ تكوني برفقتي. جاء ردّ فعل هيا بريق سعادة أطلّ من عينيها سرعان ما تلاشى. كيف تواجه أبويك. أصدقها إجابته. في الظرف الحالي لا مكان لمكاشفتهما بعلاقتنا. اشتدّ هطول المطر، أضاء البرق ممهّداً لانفجار صوت الرعد فوقهما، جهد أيمن يختار مفرداته، هل غافلته زفرته. رُبّ ضارة نافعة. حدّقت فيه مُحتجّة، أكمل. إذا ساءت الحال بناءً على توقّعات أبي. لم يكمل جملته.

يا بدر. نعم آدم. هل يعجبك المشي تحت المطر. أمسك بدر ضحكة أوشكت تفلت منه. يعجبني، لكنّهم لا يسمحون لنا بمغادرة العنبر متى عنّ لنا. تعال. قالها آدم صيغة قرارٍ، مشى نحو البوابة مُراعياً لا يتعثّر بدُثر السجناء الذين يغطّون نوما، كان الوقت ساعة فجر أولى، في حين واصل السقف المعدني للعنبر إصدار ما يشبه الدويّ المتواتر الخافت جرّاء تلقيه زخّات من حبّات مطر كبيرة مُتلاحقة. وقفا وراء البوابة، نادى آدم بصوت مهموس موجّه للخارج. أخ عبد الجاسم. ولأنّه لا ردّ استبدل الاسم. أخ عبد الواحد. استجاب صوت مُنزعجٍ من خارج. ماذا تُريد. أنا آدم. أعرف. ليتك فتحت البوابة قليلا. مرّت ثوان قبل أنْ تنفتح فرجة محدودة. نعم. تساءل رجل الأمن عبد الواحد. أطلّ آدم برأسه. هناك مطر قوي. زجره الآخر. ماذا تريد. لو كان عبد الجاسم سمح لنا. ما الذي يسمح لكما به عبد الجاسم. نخرج دقائق. لماذا. نتبارك بالماء. خفّت حدّة انزعاج عبد الواحد وهو يبدي استنكاره. في مثل هذا الوقت. لن نبتعد عن شجرة الكينا. مشيا تحت وابل المطر، هبوب الرياح الباردة لم يمحُ احتفاءهما به، تحسسا مواقع أقدامهما، الظلام يهيمن على الجوار لولا إنارة باهتة لمصابيح معلقة أعلى أعمدة خطوط الكهرباء. بلغا حوض شجرة الكينا. أمطار لندن تأتي أحياناً على شكل زوابع. قالها آدم صيغة إخباريّة، لم يدرك بدر رابط مطر بو غريب بزوابع لندن، آثر يصغي. حدّثتك عن تصرفاته الطفوليّة في متحف الشمع. فهم بدر أنّ المعني هو عليوة. لم أخبرك عن تصرّفه تحت وابل مطرٍ لندن. سكت لحظة. لأنّ الوقت صيف، فتح أزرار قميصه مُشرّعا صدره للمطر المصحوب بعاصفة. شف صوته. ركضت وراءه، ستصاب بالمرض،

ضحك مني. المصريّون لا يمرضون كيفما اتفق. لاذ آدم صمته برهة أصغى خلالها بدر للجوار، لم يعُد زخم المطر بالشدّة. ليلتها سقط عليوة طريح الفراش، نوبات برد لندنٍ لا ترحم، لازم السرير ثلاثة أيام، صار أنفه أشبه بجزرة. تابع نادماً. لمّا كنّا في لندن عرفتُ كيف اعتني به، لمّا مقهى مدينة القاسم. كفّ المطر، ليس سوى قطرات تُسقطها أغصان شجرة الكينا باستجابتها لهبوب الريح، ودّ بدر يقترح عودتهما للعنبر لولا استطراد آدم. أبقوه رهن اعتقالهم في قبو مديرية أمن، أخذوه مُقيّداً، محكمة كرخ، لمثول أمام قاضي جنايات. وصلوا مبكرين، أدخلوه القفص المخصص، بعد حوالي ساعة حضر الضابطان اللذان شاركا الواقعة، جلسا في الصف الأوّل للمقاعد، صارا يتحدّثان همساً، يخالسان النظر صوبه. دخل القاضي، باشر عمله من فوره. المدعو آدم يوسف. نتيجة دراسته القانون وأصول المرافعات يعرف آدم ما الذي يعنيه احترام المتهم للمنصّة، غمغم ممتثلا بأدب. نعم سيّدي. ما الذي تقوله عن حادثة. تطلّع لورقة عنده، أكمل. مقهى مدينة القاسم. لا يتذكّر آدم التفاصيل الدقيقة وسط ظرف نفسي مُعقّد، نسي موجبات احترام منصّة. حضرته، خارج إرادته، أحداث المقهى إيّاها، ها هو عليوة يتلقّى طعنة نافذة، يتداعى، الدماء آخذة تنزف. تفاجأ بدر بتساؤل وجهه له آدم. لا أدري إن كنت تُصدّقني أم لا حُزمٍ ضوئيّة فضيّة بدأت تنبعث من عند الطرف الشرقي للأفق إيذانا بشروق الشمس. أصدّقك. لا علاقة لضخامة القامة بقسوة المشاعر أو رهافتها، العملاق الذي كان مُحتجزاً وراء قضبان القفص اغرورقت عيناه فجأة بعدما أطبقت الغصّة على حنجرته، هو حتّى لحظته تلك لا يعرف ما إذا كان عليوة

مات في الموقع أو أنّه أُسعف نُقل لمستشفىٍ ما، انفعالاته باحتدامها فيه، انهار آدم، نشج في البدء ثمّ بكى عاليا. يا آدم. خاطبه القاضي بعدما هيمن على جيشان مشاعره. أرجو المعذرة سيّدي. نحن نتفهّم الأساليب التي يلجأ إليها مُرتكبو الجرائم بقصد استدرار عطف القاضي، أنت تجاوزت الحدود. أنا تحت أمرك سيّدي. قالها كمن يمهّد لحديث لاحق، سايره القاضي. طيّب. عساكم تسمحون لي سيّدي القاضي أعرف مصير صديقي. رفع القاضي حاجبيه استنكاراً. ما علاقة مصير أيّ من أصدقائك بقضيتنا هذه. رقّ صوت آدم لدى مُناشدته. هو المدعو عليوة. أضاف موضّحاً. الرجل المصري الذي كان مُرافقاً لي. خنس القاضي، يظنّه آدم أعمل ذهنه قبل أنْ يعود لتقليب أوراق أمامه، رفع رأسه، قال مُخبّراً. المصري المدعو عليوة توفّي أثناء نقله للمستشفى جرّاء طعنتك النافذة له تلقّي آدم للخبر بالكيفيّة، سبق له، طوال زمن احتجازه في قبو مديريّة أمنهم، وضع احتمال وفاة عليوة في باله، كيفٍ لوعيه يستوعب فكرة أنّه من طعن عليوة. هل رفع صوته صارخاً عالياً. أنا لم. هل أشار بيده ناحية الضابطين في صفّ المقاعد الأماميّة. الظلام المهيمن على الجوار ما عاد. تناهى لهما صوت رجل الأمن عبد الواحد. يا آدم. تنبّها له يشير لهما بما يفيد ضرورة عودتهما للعنبر.

لا أعلم متى تتدهور صحّتي ثانية. الوقت ضحى من مطلع يناير، أشعة الشمس الصباحِية تتسلل خلل نوافذ الواجهة الشرقية لغرفة المعيشة، باعثة إحساساً موهوماً بالدفء، كانوا يلتفّون حول الطاولة،

استطرد جعفر. لأنّي لا أضمن ما الذي سيحدث لي لو داهمتني نوبة القرحة مع اشتداد البرد. استعجله فهد. الزبدة. لو عرفنا نستفيد من مثل فرصة نشر مقتطف مقالتي في مجلة استرالية عسانا نستطيع إيصال صوتنا لناسنا في الكويت ولو بعدٍ حين. سادت لحظات صمت يقترن تأمّلاً، أنهاها غالب متسائلاً. كيف. أجابه جعفر. نتفق على موضوع يتصل بسيرة أحدنا، أتولّى من جانبي صياغته الأدبية وتسليمه للملازم أيمن، لعل وعسى. حاججه بدر. لو أوضحنا هدفنا رفض ملازم أيمن فكرة نشره. إلّا إذا عرفنا كيف نكتب ضمن إطار إنساني عام. قال فهد. هذه مسؤوليّتك. التفت جعفرٍ لبدر. نبدأ بك. تفاجأ بدر. لماذا بي. لأنّي سأحاول أسرّب ملمحاً من حياتك ما قبل الأسر، فإن توفّرت لأخيك فرصة الاطلاع. قاطعه بدر. رهان غريب. لن نخسر شيئاً من محاولتنا. لأنّك تصرّ. رددها بدر بتسليم. أيام عنبر 7 في سجن بو غريب نشأت علاقة صداقة بيني وبين شاب أسود البشرة، طويل القامة من أهالي الفاو في البصرة يُدعى عبد الصاحب، يطلقون عليه لقب عنترة، ربّما لأنّه أسود البشرة، أو نتيجة شيوع صيته بعد إقدامه على إزهاق روح ضابط وحدته خنقاً بيديه، كنّا، عنترة وأنا، نتداول أحلامنا بصوت مسموع، في غالب الأحيان كانت أحلامنا متواضعة، حصول أيّ منّا على قطعة صابون، السماح لأيّ منّا بالاستحمام مرّة أسبوعيّاً من غير الالتزام بمدّة الخمس دقائق كحد أقصى، أنْ لا تكفّ الرياح عن الهبوب ليلاً، لأنّ سكون الهواء يضاعف الناموس. شردت عيناه برهةٍ. لا يحسّ واحدنا بقيمة الصديق إلّا بالابتعاد عنه، بعد شهرين أكملِ عامين على مفارقة عنترة، رغم وجودي الآن معكم في هذا البيت إلا

أنّي حين أخلو بي يحضرني وجهه وقامته الفارعة. أهل الفاو وأهل الكويت أبناء عمومة. أسمعني إيّاها مرّات عدّة، من بين ما قاله في معرض أحاديثه لي، حتّى منتصف القرن الماضي كان الكويتيون يصلون الفاو بأبوامهم لغرض تزودوهم بماء الشرب من شط العرب، بعض أهالي الفاو عملوا مع نواخذة كويتيين سافروا برفقتهم حتّى أقاصي الأرض، جدّه لأبيه رافق نوخذة من آل القطامي لزنجبار في أفريقيا، قال، تعود ملكيّة العديد من مزارع نخيل الفاو لآل الصباح وعائلات كويتيّة أخرى، العشرات من رجال البحر الكويتيين تزوّجوا نسوة فاويّات، إحدى قريباته تعيش في جزيرة فيلكا، تملّكه غضبه لما قُلت له عساكركم أخلوا جزيرة فيلكا من ناسها في الأيام الأولى للغزو، شرد ذهن بدر، لعلّه تحرّى ذكرياته، يحظى عنترة باحترام رجال أمن السجن، ربّما يخافون إثارة غضبه فيفتك بهم، وحده يمتلك صلاحية التجوال بعيداً عن بوابة العنبر، لمّا أصر يصحبني لمشى موازٍ للأسوار الشائكة التي تفصل منشآت السجن عن أراضٍ منبسطة خالية من البشر رجاه أحد رجال الأمن مُشيراً إلي، لا تذهب به بعيداً يا عنترة، أومأ له عنترة برأسه، أمرك، عادة ما يختار الطرف الأبعد لجدار العنبر حيث توجد ثلاث نخلات هرمات، نجلس هناك، الفاو غابات نخيل لا يحدّها البصر، كنّا ننام فراشين متقاربين، فجر يوم شتائي ماطر أيقظني عنترة، هل تُحبّ المشي تحت المطر، أضحكني سؤاله مثلما بعث في حنيناً شفيفاً، أحبّ، تعال، رجال الأمن لن يسمحوا لنا بمغادرة العنبر في غير وقت الفسحة، أطبق كفّه الضخمة على معصمي، تعال، حاذرنا مواقع أقدامنا وسط فرش سجناء يغطون نائمين، بلغنا البوّابة المغلقة من خارج، قرّب

عنترة فمه من البوّابة، همس بصوت واثق. افتح من فضلك، لم نسمع ردّاً، نقر بسلاميات أصابعه، مرّت ثوان سمعنا أحدهم يسأل بانزعاج مُنضبط، ماذا تريد يا عنترة، افتح، تردد رجل الأمن برهة فتح بعدها فرجة في البوابة، دفعني عنترة أمامه، استقبلت قطرات مطر أولى على وجهي، احتجّ رجل الأمن، لماذا تصحبه معك وسط هذا الجو الماطر، أشار عنترة نحو موقع النخلات، سنكون هناك، على مدى ساعة لم يتوقّف المطر عن الهطول، ولم يكف عنترة عن الإفضاء، ليلتنا تلك حدّثني عن ظروف ارتكابه جريمته، ليلة ماطرة أيضاً، مصادفة أنْ أكون جنديّاً مُكلّفاً ضمن إحدى وحدات مشاة تحاصر الفاو، سنة أخيرة من الحرب ضدّ إيران، أوامر القيادة تقضي بضرورة طرد العدو من الفاو بأي ثمن، كنّا نتخندق في منطقة الملاحات، أرض سبخة وعرة، خنادقنا تنز بالماء عندما يعلو مدّ خليج، ضابطنا سامرائي يكره وجوده هناك، اعتاد كلّما شعر بالضيق شتم الفاو، مكان قذر لا يستحق التضحيّة، نبّهته مرّة. أنا من أهالي الفاو سيّدي، سخر، صار كلما رآني في الجوار تعمّد رفع صوته شاتماً، ليلة إزهاقي روحه اشتدّ هبوب الريح مصحوبة بالمطر، تزامن مع قصف مدفعي من جانب القوّات الإيرانيّة، اللعنة على الفاو وأهل الفاو، ناشدته، يا سيّدي، اخرس يا غوريلا، الغوريلا أشرف منك، اخرس يا كلب، هجم عليّ رافعاً يده، تلقّيت صفعة أولى، أمسكت يده، رفسني بقوة بين فخذي، في لحظة يفقد الإنسان قدرته على وزن الأمور، أطبقت على رقبته، حاول الجنود داخل الخندق تخليصه من قبضتي دون جدوى. عندما سكت بدر تنبّه إلى أنّ رفاقه الثلاثة يلزمون صمتاً دالّاً مشاركة انفعالية، نبس جعفر، ما قلته أقرب لأن

يكون موضوع قصّة، سأله بدر مُحبطاً. تعني أنّه لا يصلح. يصلح يكتبه أخوك. استدرك. لكنّي سأبذل جهدي.

استدار أيمن بسيارته، سلك الطريق الرئيسيّة لمدينة الضباط، استرعى انتباهه النصب القائم عند زاوية الطريق. نتقدّم لجيشنا العظيم بالتهنئة في يوم عيده، الطلاء الأخضر للأحرف ما زال طريّاً، لعلّهم انتهوا من كتابته توّاً، كان الوقت عصر السادس من كانون الثاني، ما زال بعضهم يتشبّث ببقايا روح معنويّة زائفة، يجزم أيمن أنّه لن يُصادف أباه في البيت، هناك طقس احتفال سنوي اعتادوا يقيمونه داخل مؤسسات الجيش، أبوه آمر المعسكر الأهم في محيط العاصمة، وجد أمّه تتأهّب تغادر المنزل لزيارة إحداهن، خبّرت بحسّ مُفارقة عفوي، ستكون جارتنا لو سافرنا لبيروت اشترى زوجها شقّة باب بالباب في البناية ذاتها، قالت. بإمكاني البقاء معك مدّة نصف ساعة، أنفقت أمّه نصف ساعتها بالشكوى من حال أبيه، لم يعُد مثلما كان، صار انفعاليّاً سريع الغضب، يُصاب بالأرق غالب لياليه، تستيقظ فلا تراه في السرير، تبحث عنه، تجده، رغم برودة الليلٍ، يتخذ مقعداً في الحديقة، ما الذي يشغل بالك، لا شيء، تجده أحياناً داخل مكتبه واضعاً أذنه قرب سماعة راديو، ماذا تسمع، لا شيء، لا يريد إشراكي بالذي، قاطعها أيمن، ليس ما يدعوك للقلق، كيف، يكفيكما قلق أحدكما، ضحكت، نهضت، جارتي تنتظرني، لأنّه لا يريد يضيف لقلقها قلقاً يلزمه يستغل غيابها عن المنزل يأخذ مستلزمات شخصيّة يراها ضرورية ينقلها لبيت ثانٍ، كلاهما، أبوه

وأمّه، تتملّكهما قناعتهما، بأنّهما لو اضطرّا لمغادرة العراق على وجه سرعة غير معهودة سيكون أيمن رفقتهما، الأخير لديه قناعات لم يصرّح بها لأيّ منهما، هو لا يجد سبباً لمغادرة اضطراريّة، لا يجد ذاته مُتحققة مع أبويه، يجدها مُنجزة في بيت السنك، كلّ المؤشّرات تقول أحوال البلد آخذة تسوء، سفر أبويه، تخلّفه هنا لحين استقرار الأوضاع صيغة ما، ينهي مسألة ارتباطه الزوجي بهيا، ولا بأس بعدها يسافر رفقتها، يزور والديهِ حيث استقرّا، أقدّم لكما زوجتي، ردّ فعلهما بالمفاجأة لنٍ يدوم طويلاً، في غربة المهزومين لا سلطة لاحتجاج ينحو غضباً عارماً، ولا مكان لسؤال مفاده لماذا لم تمهلنا فرصة نزوّجك ابنة جاه ومال. سارع أيمن لغرفته، حقيبة واحدة لم تكن كافية لاستيعاب ما وقع اختياره عليه. نشرب الشاي مع أمّي، قالت له هيا وهي تساعده تنقل معه ما جاء به لغرفة آخر الممر، ودّ أيمن يُلبّي اقتراح هيا لولا أمور تشغل ذهنه، تعالي معي، أين، سوق الشورجة قبل حلول الليل، ضحكت هيا، ماذا تشتري، السوق مسافة دقائق، الشوارع، رغم مظاهر الاحتفال بعيد الجيش، كابية، وجوه المارّة تداري توقّعاً تجاه داهم غامض، حدس يرقى لمستوى اليقين لدى عامّة الناس التغيير آت لا محالة، ولا من يقرأ قادم الأحداث يُحدد طبيعة هذا التغيير. لأنّ أباه اتخذ قرار فرار استثنائي خارج لم يتريّث عند مسؤولية تخزين احتياطي مواد غذائيّة أساسيّة، ظنّ أيمن يرى سوق الشورجة مزدحماً بالمتسوقين، رأى قلّة من الناس مع ندرة سلع معروضة، أنت تعرفين ما يتوجّب نشتريه، تساءلته هيا، احتياجات بيت أهلك أمَ بيت التاجي، لا هذا ولا هذا، بدت حيرتها في وجهها، قال. احتياجات بيت السنك، حيرتها لم تزايلها بعد، لو نشبت

الحرب، حاجتنا لأساسيات البقاء أحياء، الأرز، الطحين، السكر، الشاي، الزيت. باعة السلع يعرضون قليل القليل، أو يدّعون عدم وجودها، لحين اطمئنان واحدهم لاستعداد المشتري لدفع ثمن مُغاير للمُعلن. وهما يركبان السيّارة قالت هيا ضاحكة. وفّرتَ على أبي إنفاقه لأشهر قادمة. تذكّر أيمن أمراً. نقصد إحدى صيدليات شارع السعدون نشتري مواد طبيّة لإسعافات أوليّة. قالت هيا. أنت جاد فعلاً. ضحك. جادٍ دائماً. استطردت. أعني بالانتقال لغرفتك في بيتنا. ردّ مشترطاً. عند نشوب الحرب. شرد ذهن هيا، بلغه صوتها مُشرّباً أسى. لا يعزيني أن تنشب الحرب لكي نكون معاً.

مُخالفاً نهجاً حرصنا نلتزم به طوال زمن علاقتنا اقتحم عليّ إبراهيم فرغلي مكتبي من غير تحديد موعد مُسبق، كان متأبّطاً مُغلّفاً، عساه لا يكون أحد أعداد مجلّته، اتخذ من المقعد المجاور مجلساً له، مولياً ظهره للواجهة الزجاجيّة المطلة على المقبرة إيّاها. أنت تحب جيرة القبور. لم أقل له. الموتى طيبون لا يقلقون راحة الأحياء. أشرت للمغلف. لعله العدد الأخير. عدد خاص لشهر فبراير بمناسبة عيدكم الوطني يليه عيد تحريركم. ما زلنا أوّل فبراير العربي مجلة شهرية لا جريدة يومية. واصل. أصرّ رئيس التحرير يُضمّن ملف قصص الأسرى الكويتيين. خامرني شعور بالإحباط. لأنّي لم أنجز نصّي كاملاً فاتتني فرصة المشاركة. خلته لم يصغ لما قلت، انشغل فضّ مغلّفه، مدّ يده بعدد مجلته. أنت شاركت. انشدهت. كيف. كنتَ ترسل لي المقاطع التي كتبتها، أجريت ما يشبه المونتاج على

مقاطع معينة، تشكّل لديّ نص مقبول. غالبني احتجاجي. لم ترجع لي أو تستشرني. لو رجعت لك استغرقنا وقتاً طويلاً بالأخذ والرد. أضاف. نصوص الملف كافّة تلامس قضيّة الأسرى الكويتيين من وجهة نظر ذويهم أو شهود عيان عرفوهم قبل وقوعهم في الأسر، وحده نصّك يلامس قضية الأسير من داخل، كأنك عشت الحالة لتكتب عنها، لمّا عرف رئيس التحرير بالكيفيّة التي كتبتَ بها نصّك أصرّ أنْ يكون فاتحة الملف. لا أدري هل يحقّ لي أشعر بالإنجاز. ستشعر بشيء من الانزعاج. لماذا. لأنّي خلال عملية مونتاج توليتها تجاوزت أحداثاً وشخصيّات عديدة حظيت باهتمامك. هل أملك أحتج، لكنّي أعود أسألني عن الجدوى وقد صار النص قيد التداول، تصفحت المجلة، صادفتني صفحة أولى ملف، واجهتني صورتي الشخصيّة إيّاها، انفعالي من عدمه، أطلق فرغلي ضحكة قصيرة. لم تعجبك صورتك. لم أعجبني كلّي. تحرّى كلماته. لم أخضع نصّك لأي تحريف. سكت ثانيتين. توليت اختيار مقاطع أو فقرات معينة وضعتها وراء بعضها. أشار لحاشية أسفل الصفحة، قرأت ما مفاده مختارات من نص طويل معدّ للنشر، سمعته. بدأتُ بتواجد بدر أمام بوابةٍ العنبر 7 وقت الفسحة واقتراب آدم منه، الأخ كويتي. ماذا أيضاً. اختزلت الحديث عن السجن عامّة. ماذا عن شخصيّات ملغاة. لم ألغ شيئاً. أضاف. هناك شخصيات تجاوزتها مؤقتاً. ما الذي تعنيه. أعني أنت صاحب النص، لك أن تتابعه كما تشاء أو تعيد كتابته. أصغيت له. عبرت على الأسماء المسبوقة بعبد، مع اهتمام بأخيك الأسير والسجين آدم وشخصية ثالثة ترد في سياق أحاديثهما، المصري عليوة. لم أخف انزعاجي.

قطّعتَ أوصال النص. تخفف من انفعالك أولاً، وفر نفسك لقراءة نصّك بالصيغة التي نشرناه بها ثمّ احكم. لم أوفّر نفسي للقراءة من توّي، كنت أحتاج لحظات تأمّل، نحن الآن أوائل شهر فبراير بعد أقلٍ من ثلاثة أسابيع نستكمل اثنتي عشرة سنة تحرير، جهود هيئات أوليتْ مسؤوليّات بحث في مصير أسرى ومفقودين اقتصرت على ماذا وانتهت لأين، مازال لدينا أكثر من ستمائة أسير وُثّق إلقاء القبض عليهم قبل أنْ يُنقلوا داخل أراضي العراق في الأيام القليلة السابقة للحرب الجويّة شتاء 1991، أنْ تتحرّى جدّيتك إزاء موضوعٍ ذي حساسيّة عالية يتصل بمصائر بشر، أن تُقيمِ جسورك وصولا لهدفك، ليس شأن ذاك الذي أحرق السفن، مجلّة العربي الآن، ملف موضوع أسرى كويتيين، التفاتة في الوقت الذي لم يضع كلّه بعد، بعد شهر أو شهرين يُعاد توزيع أوراق على طاولة دول عظمى، الكويت وكذلك العراق ليستا دولتين عُظميين، حجر الشطرنج ثمّ كش ملك. تلقي نظرة وراء زجاج الواجهة حيث المقبرةٍ مترامية المساحة، لو قيّض لعينيك تريان أبعد، تشارفان حدودا، المكان الآن رقعة شطرنج مترامية بقدر ما هي حيّة نابضة وحدات جيوش أمريكية وبريطانيّة وحلفاء آخرين أو لاحقين. عودةً لما قبل، استعداداً لحرب خليج سابقة قيل عنها ثانية أراد قادة النظام العراقي الاحتماء بدروع بشرية، حرب خليج يُعدّ لها الآن ما الذي سيحتمي به القادة إيّاهم، يُقال، والعهدة على مسؤولي الشأن الإنساني، أنت إن أمعنت بحثك في الأراضي العراقية وجدت مئات مقابر جماعية، أتذكّرني أشرت لذلك في سياق نصّي قبل تعديلات فرغلي، أمدّ يدي لنسخة المجلّة.

سحب لصدره نفساً عميقاً أحسّ كأنّه يأخذ حصّة من هواء الليل، تتملّكه سكينته عندما يكون وحده وسط الأرض الخلفية، رفاقه الثلاثة يخلدون لنومهم في الداخل أو ينفردون بأفكارهم، تطلّع للسماء، نجوم، هذه الليلة بالذات، تبدو دانية أكثر، مُنذ ما يقرب من أسبوع تنبّه إلى أنَّ برج المراقبة كفَّ عن مُشاغلة المكان بأنواره الكاشفة، شيء ما قيد الحدوث، لمّا يسود الصمت ليلاً ويصيخ الواحد أذنيه للأعلى يتناهى إليه أزيز خافت، لعلّها طائرات مراقبة تحلّق عالياً، أو طائرات عابرة تقوم بمهام غامضة، خلال استعداده لخوض حرب خليج ثانية تخلّى العراق عن اسراب طائرات حربية لصالح جاره الشرقي، قيل هرّب بعض طائراته للسودان، يضاف ندرة تحليق صنف طائرات نقل ركاب في الأجواء العراقية جرّاء حصار جوّي دولي، تطلّع صوب نوافذ غرفة معيشة البيت الآخر، لا شيء سوى نور خافت، الساعة جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل، ملازم أيمن آوى لفراشه، يظنه فهد يعرف شيئاً عمّا يحتمله الغد، بين آونة وأخرى يصله هديل الحمام الذي ضاعف أعشاشه فوق السطح، سمع سُعالاً خافتاً يصدر عن داخل المنزل، منذ يومين لم يغادر جعفر فراشه، لم يكد يتعافى قليلاً بعد تلقيه علاجات الحقن حتّى عاوده مرضه، يقول هو الشتاء، يخاله فهد اليأس بالدرجة الأولى، شرد ذهنه برهة اتخذ بعدها قراره. تأتي معي. سأله جعفر. إلى أين. إلى المزرعة. أطلق جعفر ضحكة واهنة. مزرعة كلمة كبيرة، سمّها حديقة هواة. البرد شديد في الخارج، لا وجود للبرد ربّما تُصادفك نسمات هواء مُنعشة. الوقت متأخّر. أنهى فهد احتجاجات جعفر بأنْ مدّ يده لذراعه. أنت تحتاج تستنشق هواء

كما لو أن وتيرة الأحداث آخذة تتسارع أسوأ فأسوأ، يتأمّل أيمن هواجس موجّهة لسلوك واهتمامات الناس إزاء ما مفاده التغيير آت حتماً، الحدث المهول رغم جهلهم بطبيعته قيد تحقق قريب. الحركة العامة بهذا الاستعداد، وحدها العاصمة بغداد، حيث التواجد العسكري المكثّف، يسودها هدوء ظاهر، باقي المحافظات العراقية، عدا المناطق الكرديّة ذات الاستقلال النسبي، نهج تفاعل أوضح، تمرّد الناس على السلطة بتجاهل وجودها مع حضور محسوس في الشارع لرجال أمنها وكبار مسؤوليها خلال ساعات النهار فإنْ حل الليل توارت السلطة بممثليها تاركة مواقع هيمنتها لأنماط عصابات نهب يشارك فيها بعض رجالِ أمنها، أو لمجموعات مدنيّة نظّمها السكان المحليّون بينهم دفاعاً عن حياتهم وممتلكاتهم. لم يطرأ تغيّر محسوس على روتين الحركة اليوميّة لمعسكر التاجي، لم يصدف لآمر المعسكر يطلب ملازم أيمن للمثول عنده. قبل أيام نشطت حركة بعض آليات المعسكر، رآهم يثبتون مدافع مضادة للطائرات فوق أسِطح مهاجع الجنود، تبادر له، هم يهدرون حياة جنودهم اعتباطاً، قلقه يشوبه توقعه، متى، يتحين فرص اختلائه هيا، يشركها هواجسه، فاجأته في لقائهما الأخير. هناك شيء هام. دفعت إليه بالحاسوب، يدريها تمتلك فرصة معرفة مُسبقة بأحداث خارجية مؤهلة تفعل هنا، تساءل. شيء يتصل باحتمال قيام الحرب. حدجته عاتبة. تتعجّل نشوب الحرب. تابعت. شيء يتصل بأسراك الكويتيين. سرّه توصيفها، أفادت أنّ رئيسها طلب منها تستعين بالإنترنت تتقصّى مواقف الإعلام الشعبي لدول جوار تتواجد على أراضيها حشود عسكريّة أجنبية، وهي تتابع ما نُشر في صحف

ومجلّات كويتية تريّثت عند مجلة العربي إيّاها، استعانت بقرص CD، فتحتْ جهاز الحاسوب، بدأت تتصفّح، هنا، ملف خاص لقصص عن أسرى الكويت في العراق، صورة كاتب نص سابق تتصدّر الملف، في حين خُصص أعلى الصفحة لتقديم موجز، معناه، استكملنا اثنتي عشرة سنة على تحرير الكويت ولا بارقة أمل بعودة أسرى كويتيين تجاوزت أعدادهم ستمائة. تبادل أيمن وهيا نظرات دهشة، هذا كثير، لأنّي مسؤول عن مجموعة تتألف من أربعة ظننت وجود بضع مجموعات، خمس أو ست، تطوّعت هيا بدأت تقرأ من النص الأوّل، بو غريب مع التحية، بلغ اندهاش أيمن أقصاه، يتذكّر تسلّمه مسؤوليتهم أبّان وصولهم، اثنان قدما من سجن بو غريب، أحدهما بدر، يسمع تفاصيل النص، يسمع صوت المعني بدر يروي ما حدث له، شخصيات أخرى معه، تفسير وحيد يقضي بوجود سجين أجنبي لعب دور الوسيط القريب من بدر، رافقه أشهر أو سنوات قبل أن يُطلق سراحه يغادر الأراضي العراقية يجد وسيلة اتصال بالكاتب. شرد ذهن أيمن. لو حدث الغزو الأجنبي، لو سقط النظام وحدثت فوضى متوقّعة. هيا باقية تصغي له باهتمام. ما الذي سيكون عليه مصير الأربعة.

أقرأ نصّي المنشور في مجلّة العربي للمرّة الثانية، أتساءل إنْ كان مؤهّلاً يلاقي صدى مماثلاً لسابقه، هل يحظى باهتمام خالد عادل فيكتب لي يستأذن إعادة نشره، أقول لنفسي، لو لم يخضع نص بو غريب لاختزال ظالم، لو تضمّن المقاطع الخاصّة بالمقابر الجماعية

والنهج الدوري للنظام العراقي تجاه ما تعارفوا عليه بتنظيف السجون، أعود أبرر لفرغلي اختزاله، إذ إنّ الملف مقصور على موضوع أسرى كويتيين مُغيبين، أعود أهيب بي آخذ بنصيحة فرغلي إيّاه استكمل النص بالكيفيّة التي أراها مناسبة تمشّياً مع إشارة تُفيد هذه مختارات من نصّ طويل مُعدٌ للنشر. يا آدم، وعدتك إنْ أتممتَ حكايتك مع صاحبنا عليوة. قاطعه آدم متألّماً. صاحبنا مات. كأنّ آدم لم يقاطعه تابع بدر. وعدتك أنقل قصّتك لأخي الكاتب عساك تقرأها مطبوعة في كتاب. استجاب آدم مُشترطاً. مع الحفاظ على الأسماء. مع الحفاظ. كنتُ داخل القفص في قاعة محكمة كرخ، استغرابي وقد بلغ حدّه الفاجع وأنا أسمع التهمة الموجّهة لي أنّي قاتل عليوة، لو اكتفوا قالوا أنت قاتل ضابطنا قبلت التهمة أو صدّقتها تحت بند فقدان الواحد قدرته على إعمال ذهنه بشكل منطقي أمام حادث جسيم، أبدى قاضيهم تفهّمه، نعذر لك إنكارك، غضب الواحد يُفقده صوابه، تراهم بصدد ماذا، أردت أدلي أقوالي، رفع قاضيهم يده، بعدين، قرر سماع شهادة الضابطين، نحن بالأساس ثلاثة ضبّاط رفاق عمل فرقة واحدة كنّا نسلك طريقنا بسيارتنا الجيب نحو معسكر الرشيد لحضور احتفالات ثورة السابع عشر من تموز، اقترح ثالثنا المغدور به نتوقّف نأخذ استراحة قصيرة في أحد مقاهي مدينة القاسم، هذا الأخ، حرص كلّ منهما أشار للقفص ممهّداً لاستطراده، كان يُجالس شخصاً قصير القامة، عرفنا بعد الواقعة أنّه مصري، فجأة علا صوت الشخص المصري، أنت حرامي، حاول الأخ إقناع صاحبه التزام الهدوء، قال نحن في بلاد غربة، لكنّ الآخر صار يصرخ، لن تخدعني يا غوريلّا، قال الأخ لا تتجاوز حدودك، ردّ الآخر، ما الذي

ستفعله يا طويل يا أهبل، أمسك هذا بياقة ذاك رفعه عن الأرض، الزم حدودك وإلاّ أدّبتك، ثم أفلت يده من ياقته، ركض المصري للسيارة عاد حاملاً سكيناً طويلة النصل في هذه اللحظة تدخّل ثالثنا المغدور به، طلب من المصري عدم التهور، المصري لم يمتثل، أصيب الأخ بحالة هياج عارمة، رأينا زبداً أبيض يتطاير من فمه، خلال وقت قياسي انتزع السكين من يد صاحبه المصري، تهدّج صوت أيّ من الضابطين، كانت الطعنة الأولى من نصيب رفيقنا، قبل أنْ يطعن صاحبه، واجبنا دعانا نتدخّل، بادر واحد منّا وجه ضربة بعقب مسدسه لمؤخرة رأسه، ماهي أقوالك، سأله القاضي، لم يجب آدم من فوره، الشهادة التي تقدّم بها الضابطان بدت وكأنّها مُحايدة، أقوالك، أنا لم أقبض سكيناً بيدي ولم أطعن أحداً، ليس ما يدعوك لأن تنكر، هي الحقيقة، كيف تثبتها، لا أعرف، هل لديك شهود، هناك نادل المقهى وبعض الحضور، وازن القاضي كلمات آدم، توصّل لقراره، رفع الجلسة لغرض إحضار شهود آخرين، أعادوا آدم لزنزانته في قبو مديرية الأمن، الأيام أسابيع والأسابيع أشهر، بعد ما يقرب من عام أحضروه مُقيداً لقاعة محكمة كرخ، وضعوه داخل القفص ذاته، الضابطان لم يحضرا، دخل القاضي القاعة، المدعو آدم، نعم سيّدي، تصفح القاضي أوراقاً أمامه، كنتَ طلبتَ سماع أقوال شهود آخرين، تطلّع إليه القاضي في عينيه، لا وجود لشهود، عاد تصفّح أوراقه، الضابطان اللذان حضرا الجلسة السابقة شهدا لصالحك، أشارا إلى أنّ صاحبك المصري هو الذي حاول مهاجمتك بسكين بما تسبب لك بحالة غضب أعمى، لكن غضب إنسان ما لا يشفع له يرتكب جريمتي قتل، رجع لأوراقه دقيقة أو يزيد، أخذاً بعين الرأفة،

حكمنا بالسجن خمس عشرة سنة. أكتفي من الكتابة بهذا القدر، يشرد ذهني وراء الزمان المكان الآن، على افتراض بقاء غالبيّة أسرى كويتيين أحياء موزّعين مجموعات صغيرة العدد على عشرات الأماكن كما أفادني أحد رجال استخباراتهم لمّا لقاء اسطنبول، قرّاء الشأن السياسي والعسكري يجزمون باقتراب ساعة صفر حددتها أميركا لبدء حربها على العراق، ماذا عن أسرانا اذا نشبت الحرب.

لدى دخوله عليهم تنبّه الأربعة إلى أنّ ملازم أيمن يحمل جهاز الحاسوب، حدسوا وجود جديد، بذلوا جهدهم يدارون استثارتهم. يوم الثلاثاء القادم تكملون سنتين هنا. عقّب فهد. الثلاثاء يُصادف يوم عيدنا الوطني. ابتسم ملازم أيمن. مناسبة عيدكم الوطني. ترك جملته مفتوحة. بادر وضع الحاسوب فوق الطاولة. تجدون شيئاً ذا علاقة. قبل انصرافه تنبّه لوجه جعفر، تساءل. عُدت تُعاني من القرحة. طمأنه جعفر. أزمة عابرة. هل تحتاج دواء. لدي ما يكفي. انصراف ملازم أيمن، بدأوا يتصفحون الحاسوب، صيحات احتفائهم فاقت حسّ المفاجأة عندهم، شيء من مجلة العربي، ملف يحوي نصوصاً عن أسرى كويتيين. هذا أخوك. رددها غالب بفرح، أعقبه جعفر. ها هو يحضر عندنا ثانية. شدههم عنوان النص بو غريب مع التحيّة، بدأ فهد يقرأ بصوت مسموع. يصف السجن بجمل قصيرة، الأجواء الشتائية أيام الحرب الجويّة أواخر يناير 1991، الحرب البريّة ما نشبت بعد، الفترة الصباحية لفسحة السجناء بدر يقف عند البوابة العملاقة للعنبر 7. رفع بدر يده في وجه فهد. اقرأ

علينا من غير تحريفات. عقد فهد حاجبيه مُحتجًا. أنا لم أُحرف. دفع الحاسوب لبدر. خُذ اقرأ أنت. تطلّع الأخير، قرأ قليلاً، أحسّ بعدها كما لو أنّ الأرض مادت به، مال بجسده قليلاً، أسنده غالب. هل هناك ما يسوء. كيف له عرف أنّي كنت في سجن بو غريب، وصلت لهناك أواخر شهر يناير، وضعوني عنبر 7. اجتهد غالب. لعل أحد السجناء ممن أطلق سراحهم. ليس من يعرفني بشكل شخصي عدا عبد الصاحب، الملقّب عنترة. اجتهد جعفر. لعلّ صاحبك عنترة غادر السجن خلال العامين الماضيين، توفرت له فرصة لقاء أخيك. غمغم بدر. ربّما. أعاد الحاسوب لفهد. واصل القراءة. انصاع فهد قرأ. بُهتوا للتفاصيل، هذا العملاق آدم، لم يبقِ إلّا أنْ يُسميه عنترة، دالّة أيّ من العملاقين على رجال الأمن، كلّ منهما ارتكب جريمة قتل ضابط عراقي، قال بدر منحى استنتاج. تأويل وحيد، توظيف أخي لخبرات التخاطر. تساءل غالب. ماذا تعني بالتخاطر. تستطيع تسميته علم التخاطب عن بُعد. هل تؤمن به. لا، لكن أخي قضى سنوات بدراسته ومحاولة ممارسته، وإلا من أين له يعرف تفاصيل تتصل بالليلة الأولى لوصولي سجن بو غريب، أنا لم أفصح بها لأيّ كان. قال غالب. حاول تتواصل معه ذهنيًا. كيف. قال جعفر. ذلك هو التخاطر. يصير خير. سادت برهة صمت، تساءل غالب. كيف حصل ملازم أيمن على عدد مجلة العربي لهذا الشهر. ردّ جعفر. فهد يتولى التوضيح. استغربه فهد. لماذا أنا. أنت الوحيد الذي يراه ليلياً. ليلته تلك لم يستطع بدر يخلد للنوم، قرأ النصّ وحده، هذه الملامسة الشفيفة لمشاعره، أحسّ بكمّ الحبّ الذي يكنّه أخوه له يضاهيه حضور طاغٍ للشعور بالفقدان، تذكّر كلمات قالها غالب،

حاول تتواصل معه ذهنيّاً، ما عرفه عن أخيه أيامهما هناك لكي توفّق تتصلٍ بثانٍ عن بُعد يجدر بك تكون خالصاً من داخلك، تمتلك ذهناً طوعاً إرادتك، هل تكون الإرادة خارج الذهن، لو بذل جهده خلص من داخله الآن، الذهن والإرادة كيف، خنس بضع ثوان، شاغلته أذناه، صار يسمع أزيز محركات طائرات تجوب أعالي سمائهم.

يوجد نوع راديو ترانزستور قادر يلتقط إذاعات بعيدة رغم التشويش. قالها أيمن مواصلاً قيادة سيّارته، استجابت هيا. تجده عند واحد من باعة الرصيف في محيط ساحة التحرير. أكّدتْ. لا يبيعه إلّا لمن يثق بهم. هل سيثق بنا. لا. الحل. نقصد ساحة التحرير، أحد زملاء أختي جنى يعمل خارج ساعات دراسته الجامعية بائعاً هناك. أكملت مشترطة. لو صادفناه حلّ الإشكال. الوقت ما قبلٍ غروبٍ شمس يوم جمعة، السماء غائمة جزئيّاً بعدما نثّت قليلاً ظهراً، الشوارع باقية مُبللة. جوّنا الآن يحيلني لأجواء مساءات موسكو الصيفيّة. ما زلتَ تحن لموسكو. من يجد نفسه مُضطرّاً يعيش هنا يحن لأي مكان في الذاكرة. أنتَ محظوظ، سافرت لبلدان عديدة، فيما يخصّني سفرة وحيدة لمكان وحيد عَمّان. سمّي البلدان التي تودّين السفر إليها، أعدك نُسافر لها معاً. بكلامك هذا ترفع سقف أحلامي. ترجّلهما من السيّارة، اقترابهما ساحة التحرير، لا يدري أيمن لماذا حضرته صورة الساحة الهاشميّة في عمّان، لماذا حال العراقيين بما وصلوا إليه، يبقى حفظه الله لا يني يردد عراق

السؤدد والمجد والمنجزات الحضاريّة، اعتاد يرى أسواق الأرصفة المحيطة بساحة التحرير مزدحمة مشترين أو متسكعين، رآها خالية إلّا من باعة قلائل، لم يُدار ألمه. بغداد آخذة تُقفر. ليس لدى الناس ما يُشجعها على الخروج للَشارع. هو القنوط العام. أهلاً بالطيبين. رحّب بهما زميل جنى بمرح باد. نحتاج لمذياع قادر يلتقط إذاعات بعيدة. سأبذل جهدي. غاب البائع دقائق، عاد بعدها لاهثاً جرّاء مشيه السريع، وجهه يحمل انطباعاً بالخيبة. يوجد مذياع واحد، ثمنه خمسمائة دولار أمريكي. استنكرته هيا. يتجاوز مليون دينار. حسم أيمن قراره. نشتريه. عودتهما، عاتبته هيا. تدفع مبلغاً طائلاً من أجل سماع أخبار حرب مُحتملة. في بالي أمنح الأربعة فرصة سماع المذياع أيضاً. شعّتْ عيناها استثارة، سمعته أكثر. من حقّهم أنْ يعرفوا بالذي يدور. لم تُخف قلقها. هل يُسمح لهم. أنا أسمح. أنت حبيبي. بلوغه بيت مدينة الضباط. عوّده أبوه يختلي به غرفة المكتب. حتى لا نثير خوف أمّك. لزم أيمن إصغاءه. تفيد كافّة المؤشرات باحتمال نشوب الحرب قبل نهاية الشهر القادم. هاجس النذير يتشبّع صوته. الأمر المؤسف. سكت برهة. السيد الرئيس حفظه الله عند قناعته أنّها جعجعة أمريكيّة جوفاء، ولا وجود لبلد تُدعى العراق إن لم يكن حفظه الله على رأسها، أمريكا تُدرك ذلك، فإن سوّلت لها نفسها ستكون هي الخاسر الأوّل والأخير. وضع تحت بصر أيمن ثلاثة جوازات سفر بدت جديدة، اختار واحداً دفعه لأيمن. للاطلاع فقط. رأى أيمن صورته الشخصية باللباس المدني، تنبّه لمهنته المكتوبة، صدرت عنه ضحكة استغراب خافتة. تاجر أقمشة. ضرورات الحيطة. قبل مغادرته ذكّره أبوه، في حالة ما إذا. لم يكمل

جملته، بدأ غيرها. يتوجّب عليك تترك عملك دون الرجوع لأحد، تتوجه لهنا رأساً. قبل انتصاف ليلته بقليل قال أيمن لفهد وهو يسلّمه المذياع. أستعيده منكم في وقت لاحق.

رنّ جرس هاتف المكتب. كلّ سنة وأنت طيّب. عادة المصريين يقولونها نمط تحيّة بمناسبة ومن دونها، رغم هذا جاريت مُحدّثي إبراهيم فرغلي. وأنت طيّب. تابعت متسائلاً. لماذا. اليوم 25 فبراير عيدكم الوطني. أجبته مضمناً ضيقاً. شكراً. لعلّه هدف يغيظني فعلاً، وجّه لي سؤالاً مفاده إنْ كنتُ لمستُ صدى لدى قُرّاء محليين إزاء نشر ملف قصص أسرى كويتيين. لماذا توجّه سؤالك لي. لأنّي لم أتنبّه لأحد أبدى رأيه سلباً أو إيجاباً. ولا أنا. أخلو لنفسي، يشرد ذهني، أتطلّع وراء زجاج نافذة مكتبي حيث آخر المقابر، هي حالنا، الإعلام العالمي ينشغل بالعد التنازلي الأمريكي لحرب ضدّ العراق، الغالبيّة من بيننا يُشاركون مُثارين بهذا الاهتمام العالمي، شيء ما يشبه التشفّي أو ردّ الصاع، إلى جانب كون بلدهم قاعدة انطلاق أساسية لعمليات عسكرية، ستكون كما هي العادة غير مسبوقة، يشرد ذهني أكثر أو أبعد، أعود أسألني أسرانا هناك، أوضاعهم الإنسانية كيف، لا وقت لأن أنشغل بنص يوافق الحالة ولا مكان لترف ثقافي يتطلّب تفرّغاً ذهنيّاً كاملاً، يا بدر، ما كتبته عنك حتّى الآن بصفتك نزيل سجن بو غريب محض خيال، آدم محض خيال، عليوة، عبد الجاسم، عبد السادة، كلّ هؤلاء وغيرهم لا وجود لهم في الواقع، أودّ يا بدر لو أكاشفك أقول لك، بألم يقترن شعوراً حادّاً بالذنب، ما كان يجدر

بي أسمح لك ترتكب فعلة المقاومة إيّاها، بعض مسؤولينا الذين كانوا مقيمين في الخارج سمّوها حماقة، يلزمني، وقتها، أنا أخوك الأكبر أحجر عليك حتى يحلّ التحرير قادماً عبر الحدود، آراء مُتعقّلين عديدين أفادوا ناصحين يُفترض بالباقين من الكويتيين في الداخل أنْ يسارعوا للمغادرة، ولا بأس لو نالوا سبعة أشهر استضافة رسمية أو شعبية، وإن لم تتوفّر لهم فرصتهم بالفرار للخارج لا جُناح عليهم من ملازمتهم منازلهم، إذ لا جدوى يتصدّى أيّ منهم لمحاربة جيش هائل العدد والعُدّة، في حين تعهّدت دولة عُظمى أولى، تُضاف دول مُساندةً، باجتثاث الاحتلال عنوة. كانت الساعة قاربت العاشرة صباحاً عندما استفزني رنين جرس الهاتف ثانية، اليوم، كما هو مفترض، عطلة رسميّة مُطلقة، أحتوي احتجاجي، التقط السماعة. نعم. صباحك الخير. ينفرج فمي خارج إرادتي بابتسامة ترحيب كبيرة، هو الدكتور غانم النجّار. قرأت قصّتك بو غريب مع التحية. هل أقولها عالياً، قارئ واحد بألف، قلت. عساها أرضتك. قال. اليوم عطلة، قال. إذا كان وقتك يسمح. جلسنا متقابلين حول طاولة صغيرة حملت العدد الأخير من مجلة العربي، أشار غانم النجار للمجلة. خطوة جريئة تُحسب لرئيس تحريرها. استطرد. قرأت قصص الملف مرتين، لا بأس بالمستوى العام، تستطيع تلمّس إخلاص الكتّاب لقضيتهم، فارق نصّك أنّه يرصد حياة أخيك الأسير داخل السجن، مع اختيارك لعنوان غير عدواني. وددت أقول من اجتهاد فرغلي. لن أسألك مصدر معلوماتك عن السجن من داخل. لا مصدرٍ. ضحك، أحيي فيك خيالك القصصي. سحب لصدره نفساً عميقاً. رغم قصر مُدّة بقائي في الأسر إلّا أنّي خبرت جوانب عدّة مما ورد في

سياق قصّتك. عاد أشار لعدد المجلة. لأنّه موضوع الأسرى. أبقى جملته مفتوحة. أردت اللقاء بك لغرض الاتفاق على صيغة مبادرة نتولّاها معاً. لا اعتراض. فهمت منه، هو بصدد إعداد ملف يرفعه لمسؤول كبير، الملف المعني يحوي معلومات موثوق من صحتها تتصل بقضيّة أسرانا، سألني إن كنت أتذكر تفاصيل لقائي بأحد رجال استخبارات عراقية في اسطنبول والاستعداد الذي أبداه للتعاون لو كنّا أمّنا له اللجوء السياسي، أجبته أتذكر، تمنّى عليّ أكتب عن لقائي ذاك بشكل مختصر، حاجحته. تدريهم آخر من يبالي. الحال هذه المرّة غيرها. تناول ملفّاً. حصيلة جهد السنة الأخيرة، هناك عشرات اتصالات هاتفية اضافة لمكاتبات مع جهات دولية تهتم بأمر الأسرى، العديد من كبار رجالات استخبارات النظام العراقي على استعداد للتعاون بهذا الخصوص إذا ضمنّا لهم فرص عيش كريم بعيداً عن نظامهم المتآكل من داخل والمستهدف على المدى القريب من خارج. ما الذي نحتاجه من جماعتنا تحديداً. تفويض أو صلاحية إبرام اتفاق مع الجهات الاستخباراتية المعنيةٍ على هامش ما هو رسمي، سيكون مكان اللقاء في اسطنبول أيضا. هل تجزم بموافقة جماعتنا. للأسف لا أطلق ضحكة خافتة. الوقت آخذ بالنفاد ولا مفرّ من المحاولة. ما المطلوب مني. تكون معي بصياغة خطاب طلب التفويض. معك. ترافقني لمقابلة مسؤولنا عساه يقتنع بوجهة نظرنا.

اليوم 25 فبراير. قالها فهد لدى جلوسه على طرف سرير جعفر، كان الوقت ما بعد ساعة الظهيرة، أجابه جعفر بصوت واهن. أدري.

ذكّره فهد. يومٍ عيدنا الوطني. ضمّن جعفر صوته عتباً دالّاً. عيدكم، أنّبه فهد مُردداً اسمه. جعفر. أطلق الأخير زفرة تسليم. قَدَرُ البعض منّا يعيش بدون ويموت بدون. أنت متشائم. من أين تتحقق لأيّ منّا إمكانيّة التفاؤل. أراد فهد حسم جدلهما على طريقته. تعال معي للمزرعة. ابتسم جعفر بمفارقة. مزرعة. تجاوز فهد مفارقة مُحدّثه. غالب وبدر خرجا لهناك. ما الهدف. عن لفهد يجيب. مراقبة السماء، أعداد متزايدة من الطائرات تحلّق عالياً. أودّ أكون معكم لكني مُرهق لدرجة. لم يوف جملته، بادره فهد. طلبت من ملازم أيمن يأتي بحقن المضاد الحيوي. عارضه جعفر. ليتك تطلب منه يأتي لهنا. خير. لي طلب خاص عنده. وصل ملازم أيمن يرافقه عريف ريسان قبل مغيب الشمس بقليل، رأى كلّاً من بدر وغالب وفهد في غرفة المعيشة. كان الوجوم مخيّماً عليهم، حثّ ملازم أيمن خطوه يلحقه عريف ريسان، وقفا مشدوهين أمام السرير، جعفر مسجى هناك ولا أثر للدماء في وجهه، عيناه وحدهما بحركتهما في محجريهما تؤكدان مواصلته الحياة، تبادل أيمن وريسان نظرات تشي بالفجيعة، همس ريسان وهو يهمّ يُغادر الغرفة. استدعي المسؤول الطبّي. نبس جعفر. لا أشار لهما بالجلوس على طرف السرير، استجاب أيمن جلس، قال. اشتدّ عليك مرضك. وافقه جعفر بإيماءة رأسه. يلزمنا اتخاذ إجراءات سريعة. همس جعفر، لا وقت لأي إجراء. لماذا ترفض العلاج. لماذا العلاج. حاججه أيمن. رفاقك حزانى جدّاً. شدهه ردّ جعفر بصوته الهابط. أنا أُحبهم أيضاً. تابع. لهذا أطلب منك. سكت فجأة، تنبّه له أيمن يُطبق جفنيه، لعلّه أراد مداراة دمعته. لا تأخذوني بعيداً عنهم. احتوى أيمن ردّ فعله. لن نأخذك بعيداً عنهم. مغادرة

ملازم أيمن وعريف ريسان، تعالت أصواتٍ الطيور في الخارج، موعد غروب الشمس، سارر جعفرٍ نفسه مُطبقاً جفنيه، أحتاج أرتاح قليلا.
حوالي الساعة العاشرة ليلاً أفاق جعفر، فتح عينيه، رآهم ثلاثتهم يحيطون سريره، ابتسم، أو خُيّل له، رأى المذياع الذي سلّمه لهم ملازم أيمن قبل أيام بين يدي فهد، رأى الأخير يُحرّك المؤشّر، سمع جعفر ما يشبه عصف ريح بعيدة، أو خُيّل له، انتبه للمذياع يرتفع عند أذن فهد كمن يهدف يُحدد وجهة المؤشّر، رأى عيني فهد تلتمعان بإنجازه، رآه ينحني على سريره يقرّب المذياع عند أذنه، عاد جعفرٍ سمع تواتر عصف ريح بعيدة، خَفتَ عصفها قليلاً، سمع صوتاً رجالياً يقول هنا إذاعة دولة الكويت، أو خُيّل له، أراد يقول كلاماً، لكنّها لحظة التلاشي. استجابة لطلب المرحوم. اختنقت كلمات ملازم أيمن بحنجرته، سكت برهة. ندفنه هنا. لا مكان لكلمات من جانب الثلاثة، تقدّمهم أيمن إلى أرضهم الخلفية، وقف عند درجات سلّم المطبخ، دار بعينيه على المكان، لعله حار أين يكون موقع القبر، من غير أن ينبس بكلمة توجّه فهدٍ لزاوية السور حيث وضع أدوات الزراعة، تناول مجرفة، اختار مكاناً يقع منتصف الأرض المزروعة بدأ يحفر، مشى بدر نحو موقع أدوات الزراعة، حذا غالب حذوه، انتهوا من تسجية جثمان جعفر داخل قبره قبل انبلاج الفجرِ بقليل، أهالوا ترابه عليه، وقفوا يتطلّعون لبعضهم برهة، فتح إثرها كلّ منهم ذراعيه لكلّ منهم، عظّمَ الله أجرك، حياة أيّ منهم باقية، وجد أيمن حاله ينضم لهم.

استيقظ ملازم أيمن على صوت حركة أحدهم في مطبخ منزله، تبادر له ليس سوى عريف ريسان، خطف نظرة لساعة معصمه، حادية عشرة قبل الظهر، تذكّر أنّ رجالاً عهدته صاروا ثلاثة، انقبض صدره. دخل عريف ريسان حاملاً كوب شاي، تنبّه أيمن لوجهه الحزين، لا حول ولا قوّة إلّا بالله. قبل انتهائه من شرب الشاي تناهى لسمعه هدير محرك سيارة تتوقّف أمام باب البيت، أعقبه محرك سيّارة أخرى، غمغم عريف ريسان قلقاً. الله يستر. تعالى رنين جرس الباب في اللحظة. لجنة تفتيشية، في بال أيمن يتصل به أحدهم من مكتب آمر المعسكر، مطلوب حضورك لمرافقة لجنة التفتيش، أمّا وهم يقفون على الباب، ارتدى ثيابه على عجل، عاد عريف ريسان مكفهر الوجه. دعوتهم للدخول عندنا لكنهم أصرّوا على التوجّه لبيت العهدة. كيف لأيمن يفكر بمنحى منطق يحتال به على ظرف داهم. ريسان يقف أمامه يتطلّع إليه منتظراً أمره. وجد نفسه يمشي نحو الباب، رآهم ثلاثة ضبّاط مُخابرات وعشرة جنود يتسلحون ببنادق كلاشنكوف، بادلهم أيمن تحيّة سريعة، أحد الضباط رتبة لواء، ثانيهم عقيد، ثالثهم نقيب، الأخير يحمل ملفاً، أسرع عريف ريسان فتح باب بيت العهدة، تسارعٍ أربعة جنود داخلين، تريّث رتبة لواء بضع ثوان، حثّ خطوه داخلا، تبعه الباقون، رغم كونه وراء الجميع شاهد أيمن أسراه الثلاثة يقفون مبهوتين وجوههم جرّاء جهد البارحة ذابلة، شاهد أحد الجنود يرفع المذياع حتّى تتسنّى للواء رؤيته، تساءل اللواء باستنكار يشوبه الغضب، ما هذا، برز أيمن من آخر الصف. لي سيّدي. غضب اللواء يكبرٍ في صوته، ما الذي جاء به لهنا. أنا سيّدي. أزمع اللواء يقول شيئا، مال عليه العقيد همس

له بأذنه، حرّك اللواء رأسه دلالة الاستيعاب، خاطب أيمن متوعداً. منصب أبيك لن يحميك من. لم يكمل جملته، غمغم أيمن. أنا تحت أمركم سيّدي. أشار اللواء للنقيب بدلالة يعرفها، سارع الأخير استلّ قيداً من حزامه، أدرك أيمن ما يدور، اقترب من النقيب مادّاً معصميه معاً، زجره النقيب. ظهرك. استدار أيمن جامعاً معصميه وراء ظهره، رفع اللواء صوته. أين المسؤول الثاني. التفت النقيب للعريف ريسان، أدار ريسان ظهره جامعاً معصميه معاً استعداداً لتلقّي القيد، الظرف بمضاعفاته، عاد أحد الجنود قادماً من ناحية المطبخ، وجّه خطابه للنقيب. هناك ما تتوجّب رؤيته سيّدي. حث النقيب خطوه، غاب دقيقة، عاد وجّه خطابه للواء هناك ما تتوجّب رؤيته سيّدي. بعد إطلالته على الأرض الخلفية أبدى اللواء استهجانه. ولا جنائن القصور. لدى تصفّحه الملف الذي عنده عرف النقيب بضرورة وجود أربعة أسرى كويتيين في حين رأى الماثلين ثلاثة. أين رابعكم. ردّ بدر. توفي البارحة. عاد اللواء وجّه سؤاله لأيمن. أين رابعهم. توفي البارحة سيّدي. تلفّت اللواء حواليه. أين ذهبتم بالجثمان. دفنّاه خارجاً سيّدي. بأمر من دفنته. خرس أيمن. كيف نصدّق أنّك دفنته، لعلّك هرّبته على أنْ تُهرّب الباقين بصفتهم موتى أيضا. خرس أيمن. اقترب العقيد من اللواء، همس له، أومأ الأخير برأسه دلالة تفهمه، قال. يلزمنا التأكّد من وجود جثّة. إنجازهم مهامهم، تسلّم النقيب وأربعة جنود مسؤولية الموقع بالأسرى الكويتيين الثلاثة، أن تتحوّل خلال وقت قياسي من ضابط يأمر فيُطاع إلى رهن اعتقال، الجنود الذين تولّوا أمر أيمن وريسان أمعنوا بإبداء احتقارهم، لعلّها مناسبة أنّ الشخصين ضابط وعريف. اركب يا الجحش. جلس أيمن

القرفصاء فوق سطيحة سيارتهم الجيب، صعد ريسان عنده، شعوره بالخزي تجاه عريفه، حضره وجه هيا، أحسّ هبوطاً حادّاً في صدره، عدا عن ردّ فعل أبيه لدى تلقّيه الخبر، ردّ فعل أمّه كذلك، طرأت له صورته باللباس المدني في جواز سفر بحوزة أبيه، تاجر أقمشة، مع اقتراب الجيب من بوابة سور المعسكر دارى أيمن وجهه لئلا يراه الحرس هناك، حضره سؤاله، أين آمر المعسكر العميد مجيد، لماذا لم يكن برفقة لجنة التفتيش، مشت بهما الجيب زهاء ساعتين، أخذوهما لمبنى مديرية الاستخبارات العسكرية الشعبة الخامسة الواقع على نهر دجلة في مدينة الكاظمية، قيل لهما، يُنظر بأمركما بمجرّد وصول أوراقكما، فَكّوا لهما قيودهماَ عند إيداع كلّ منهما زنزانته مُنفردة. النهارات شأن الليالي، ليس سوى الوساوس والقلق وخوف الآتي، من بين ما سمعه عن هذه المنشأة الأمنية أنّها تحتوي، في أحد أقسامها، على آلة عملاقة صناعة ألمانية شرقية تُدعى المثرمة، يُدخلون لها المغضوب عليه تُحيله عجينة يجري تصريفها لمياه نهر دجلة مباشرة تعتاش عليها أسماك ألفت الموقعٍ، يعرف أنّ الداخلٍ هنا بحكم المفقود ولا يعرف أيّ من ناسه خارجا مصيره. بقي منسيا هناك لعشرة أيام، أخذوه صباح يوم السبت 8 آذار لقاعة المحكمة الخاصة، أدخلوه القفص، تساءل مع نفسه إن كانوا يأتون بالعريف ريسان، لم يفعلوا، بانتصاف النهار اعتلى القاضي منصّته، قضى وقتاً يتصفّح أوراقاً، تفرّغ بعدها لأيمن. كيف أقدمت على تلويث شرفك العسكري بالمهانة الموصوفة، نكثت القسم الذي أدّيته يوم تخرّجك، ليست خيانة أمانة فقط، قمتٍ بأعمال وتصرفات تُخالف اللوائح المعمول بها والتي تعرفها تماماً، المدى الذي بلغته بالتخابر مع العدو،

أنت لم تجلب الدمار والعار لنفسك وحدك، لعلّك لا تدري أنّ أباك، وهو رجل محترم يتمتع بثقة القيادة تقدّم بطلب إحالة على التقاعد مُرفقاً كتاب اعتذار وبراءة منك. بعدما أنهى القاضي تأنيبه. ما هي أقوالك. وحدي مسؤول عن كلّ شيء سيّدي، لا علاقة لعريف ريسان بكل. نهره القاضي. القضاء العسكري يتولى توصيف دور شريكك. تصفّح أوراقه برهة، قال مخاطباً كاتب المنصّة. تُخصص جلسة يوم السبت 22 آذار للنطق بالحكم.

يتوجّب علينا أنْ نتحلّى بالصبر، نقولها لنا، الدكتور غانم النجار أو أنا، نجد عُذراً لأحدهم، جداول لقاءات كبار المسؤولين مزدحمة دائماً، انتهينا من إعداد ملفّنا أو دفاعنا بحقّ أسرانا المغيبين لدى النظام العراقي يوم الاثنين الثالث من مارس، حرصنا تضمينه وثائق تؤكد صحّة استنتاجاتنا حول وجودهم مجموعات قليلة العدد، حرص النظام إيّاه يحتجزها داخل أماكن لا تخطر على بال فرق صليب أحمر دولي أو لجان تفتيش تابعة للأمم المتحدة، ضمن محيط العاصمة بغداد أو في محافظات ذات أغلبية سنية، ضمّنا الملف نتائج اتصالاتنا برجال مخابرات من هناك لديهم استعدادهم الكامل للتعاون لقاء ضمانات يمكننا التفاوض بشأنها، لم يكف النجار أو أنا نجري اتصالاتنا بمكتب السيد المسؤول، حددوا لنا يوم الأحد 9 مارس الساعة العاشرة صباحاً. دخولنا غرفة مدير مكتب السيّد المسؤول، هبّ الرجل لاستقبالنا، مدّ يده مُصافحاً. حيّاكم الله، شاي أم قهوة. كانت الساعة العاشرة إلّا دقائق، لهجنا نشكر الرجل، قلنا

له. جئنا لمقابلة سعادته بناءً على موعد مُسبق. تطلّع الرجل في جدول عنده، أشار لمقاعد جلدية. حيّاكم استريحوا، سعادته لديه علم بالموعد، هو الآن اجتماع مع لجنة مختصّة عساه ينتهي خلال فترة وجيزة. فترتهم الوجيزة امتدت ساعتين، اتصل بعدها سعادته بمدير مكتبه، نظنّه سأله إنْ كان هناك من ينتظره، تلفّظ مدير المكتب أسماءنا، خنس لسماعة الهاتف برهة، لهج. حاضر. أقفل الخط، قال لنا. سعادته على علم بالموضوع وهو يرجوكم أن تتركوا الملف عندي لكي يطّلع عليه ويحدد لكم موعد لقاءٍ خاص. تبادلنا الدكتور غانم النجار وأنا نظرات مُحبطة أو ناقمة ضمناً، أودعنا الملف لدى السيد مدير المكتب، مرّت أربعة أيام من معاناة القلق والإحساس بسباق خاسر مع الوقت جرّاء اقترابِ ساعة حسم أمريكية عادوا اتصلوا بنا ظهر يوم الخميس التالي، يتمنّى سعادته حضورنا مكتبه تمام الساعة العاشرة والنصف صباح يوم الاحد 16 مارس، نحتفي، الدكتور غانم النجار وأنا أو نتشكك بجديّة أيّ مسؤول، يبقى الرهان على قوّة الحجّة بالملف المودع عندهم، مراعاتنا دقّة الوقت، دخولنا غرفة مديرِ المكتبِ المعني قبل العاشرة والنصف بدقائق، هبّ لاستقبالنا، أهلاً وسهلاً، مدّ يده مُصافحاً، أشار لمقاعد جلدية. شاي أم قهوة. جئنا بناءً على موعد حددتموه. انفرج فم الرجل بابتسامة إنجاز، أشار لباب جانبي موارب. سعادته موجود في مكتبه، دقائق حتى ينتهي من لقاء سفير دولة صديقة. تنفسنا، غانم النجّار وأنا صعداءنا، سعادته في الداخل ومقابلتنا له أمر حتمي، امتد زمن لقاء سفير دولة صديقة حتّى الثانية عشرة، وَفَدَ خلال زمن الانتظار ذاك ثلاثة أشخاص حدد لهم سعادته موعد الساعة الحادية عشرة والنصف، لمّا انفتح

البابِ الجانبي تمهيداً لخروج السفير وسعادته من ورائه، التفتَ إلينا. أهلاً وسهلاً. أردف. حيًا الله الدكتور غانم. اقترب شاهراً كفّه، لأنّه لا يعرفني لم يكلّف نفسه عناء مصافحتي، اكتفى أشار نحو بابه الجانبي. تفضّلوا. أدخلنا قاعة فارهة، وجّهنا للجلوس في ركن صوفا كائن عند واجهة زجاجية عريضة، جلسنا، النجار وأنا متقاربين، مشى سعادته لطاولة عنده، عاد حاضناً ملفّنا، جلس أمامنا. أهلاً وسهلاً. تعلّقت عيناه بوجه الدكتور النجار كمن يدعوه يبدأ حديثه، قضى الأخير بضع دقائق حديث، أبدى سعادته خلالها فضولاً لأن يسمع بما يؤكد لا اطلاعه على محتويات ملفّنا، بلوغ النجار فكرة منح تفويض استوقفته إشارة من يد سعادته. مهما بلغت مكانة المسؤول في مجال عمله يبقى في حقيقته موظّفاً يتلقّى أوامر من مسؤول أعلى. لم نفهم قصده، رغم هذا كان لزاما نصغي. ما أعرفه عنك يا صديقي، قالها ودودة لمرافقي، واصل. أنّك لست من ذوي الأسرى. احترنا بالقصد الذي يبيّته، واصل. لكنّك أحد أهمّ الشخصيات الوطنية التي تهتم بالشأن الإنساني عامّة. التفتَ إليّ كمن يستدرك. إلّا إذا كان الأخ من ذوي الأسرى. واتتني إجابتي من فوري. دوري الأساسي هو مساعدة الدكتور غانم. أومأت للملف. في جهده هذا، دارى النجار استغرابه من إجابتي، فاجأنا سعادته بأن سحب لصدره شهيقاً عميقاً أطلقه زفرة ارتياح. الحمد لله. قالها منحى استعداد مكاشفة. في هذه الحالة نستطيع نتحدّث بحريّة كاملة. لم نفهم قصده، استطرد. في العادة نكون حريصين جدّاً على مشاعر ذوي الأسرى حتّى لا نزيد حزنهم حزنا. لاذ بصمته وهلة. حقائق علم النفس تقضي بضرورة الإبقاء على شيء

من الأمل لدى الإنسان حتّى لا يستسلم لليأس المطلق. كيف لنا نفهم الهدف من وراء تقدمة سعادته، كرّس ثقته في صوته. مصادر معلوماتنا ذات المصداقية العالية تفيدنا أنّ أسرانا هم من تسلّمناهم بعد التحرير بالتعاون مع قيادة دول التحالف والصليب الأحمر الدولي، الآخرون، وهذا أمر واقع يلزمنا القبول به، شهداء أحياء عند ربّهم يُرزقون، وإلّا ما هو تفسيرنا لمرور أكثر من اثنتي عشرة سنة على التحرير ولم نسمع أخباراً موثوقة عن أسرى كويتيين لدى النظام العراقي الغاشم. نقّل نظراته بين وجهينا. مازلنا، بالتعاون مع الهيئات الدولية ذات الاختصاص، نبذل قصارى جهدنا للعثور على رفاتهم من أجل إعادة دفنهم في وطنهم باحتفال يليق بهم. ختم. ولا ننسى دخول عشرات المحتالين والنصابين ممن لم يتوانوا عن استغلال قضية أسرى وهميين لكي يبتزّوا السُذج من مواطنينا الطيبين. نهضنا من مجلسنا هادفين نغادر، لم يغفل المسؤول يشدّ على يدي هذه المرّة، لم يغفل الدكتور غانم النجار يلتقط ملفّه.

يتقبّل أيّ من الثلاثة، بدر، غالب، فهد، غرائبية أحداث يتعرّضون لها، يتوقّعون نتائج مترتّبة، لكنّ أموراً تخصّهم، ربّما تمسّهم وجدانيّاً، تبقى مثار تساؤلاتهم حتّى وإنْ كفّت أذهانهم تجد تفسيراً أو تأويلاً، هم، مُنذ المداهمة التفتيشية، لا يملكون سوى تأمّل حالهم، جماعة العسكر بعدما اعتقلوا كلّاً من ملازم أيمن وعريف ريسان، نبشوا قبر جعفر للتأكّد من وجود جثمانه دون أنْ يهدروا وقتهم بدفن حفرة القبر ثانية، اقتلعوا النبتات من جذورها،

دمروا المستطيلات المزروعة بالخضار الورقيّة، صادروا ما وقعت عليه أيديهم، قماش رسم، ألوان زيتية، أوراق، أقلام، غلاية ماء مع أكواب، أقفلوا أبواب غرف النوم. مكانكم هنا. أغلقوا باب المطبخ المؤدّي للأرض الخلفيّة، تركوهم ثلاثة أيام بلا جراية، صالة معيشة المنزل السجن باتساع مقبول، والوقت باتساع مترام. الموت محتوم. قالها غالب. لا بأس من موت الواحد جوعا. قال فهد. موت هادئ من غير ألم يُذكر. لماذا وقع اختيار الموت على جعفر. تساءل بدر، تابع. أو اختيار جعفر للموت في ذكرى عيدنا الوطني. اجتهد فهد. عتاب أو عقاب. لماذا اجتاحت عساكرهم المكان هنا في ذكرى يوم تحرير الكويت. لماذا هذا. أشار غالبٍ للسقف، أصاخوا سمعهم، دوي محركات طائرات يزداد وضوحا، يرابطون عند النوافذ المطلة على الأرض الخلفيّة يتطلّعون عبرها للخراب الذي أحدثه البعض، يتحينون ساعة شروق الشمس يصغون لأصوات مئات الطيور، يتحينون ساعة الغروب أيضاً، طيورهم وفيّة وإن لم يتوفّر لها طعامها، بدأت تقتات بقايا الأوراق والجذور الطرية، يوم الثاني من مارس دار المفتاح في قفل الباب الرئيسي دخل جنديّان. جرايتكم لثلاثة أيام. تجرأ بدر أشار نحو النافذة. قبر المرحوم بقي مفتوحا نخشى بدء تسرّب الرائحة. تطلّع فيه أحد الجنديين بفضول في حين تحرّك الثاني أطلّ عبر قضبان النافذة، لم ينبس بكلمة، غادر الاثنان، عادا بعد ساعة فتحا البابِ الجانبي للمطبخ. بإمكانكم دفن حفرتكم. قال فهد بصوت متهدّج وهو يهيل التراب. سبقنا منٍ غير أنٍ يتعرّض لمزيد مهانة. قال بدر. لن نبق على حالنا هذه أمداً طويلاً. تطلّع فيه غالب. هل تتوقّع أحداثاً جديدة. الأيام القليلة التي استمعنا فيها

للمذياع والأنباء عن استعداد أميركا ودول حليفة لمحاربة العراق. قال فهد. الحرب وحدها لا تكفي، يتوجّب عليهم اجتثاث الرأس. غمغم بدر. سيكون. انتهوا من إعادة القبر للحالة التي كان عليها، عن لفهد يقول بمنحى مُفارقة أليمة. ماذا لو جاء عساكر جُدد قالوا أنتم ثلاثة أين رابعكم. مرّ عليهم شهر داوموا خلاله على الإنصات للسماء أو للطيور، حوالي منتصف ليل الخميس الثالث من أبريل حوّمت طائرات عدّة في سماء المعسكر، رافقها إطلاقات مدافع مضادّة، دوى انفجار هائل اهتزت له جدران منزلهم، هل قامت الحرب، انبعث السؤال في أذهان الثلاثة، تراكضوا نحو السلّم، من فوق السطح شاهدوا ألسنة النيران تتصاعد من منشآت المعسكر، خلال ساعة الفجر الأولى رصدوا حركة متواترة في البيت الثاني، أعقبها صوت محرّك سيّارة آخذة تبتعد، عمّ بعدها صمت مُثير للقلق، عصر اليوم التالي سمعوا صوت محرّك سيّارة آخذة تقترب، توقّفت، دخل عليهم رجل يرتدي زيّاً مدنيّاً بأمرته ستة جنود ببنادق رشاشة، دسّ الرجل المدني يده في جيب صداره، أخرج قصاصة ورق، نقّل بصره بين الورقة وبين وجوههم، سألهم مستنكراً. لماذا أنتم ثلاثة. أردف بسؤال سريع. أين رابعكم. أجابه بدر. توفي، متى. قبل شهر. من الذي نقل جثته من هنا. دفناه وراء المنزل. احتدّ صوت الرجل. أريد رؤية قبره، مشى بدر نحو الباب الجانبي المؤدّي للأرض الخلفيّة، أشار الرجل لفهد وغالب بالتحرك أيضاً، لحق بهم رفقة جنوده الستة، بلوغهم المكان تفاجأ الرجل بكمٍ الطيور عندما تفاررت مُحلّقة في سماء المكان. من أين جاءت كل هذه الطيور. لم يجد من يجيب له سؤاله، في حين أشار بدر لمرتفع ترابي بسيط

نبتت فوقه براعم أعشاب طريّة. هذا قبر رابعنا. قال الرجل مُنقّلاً بصره على وجوه الثلاثة. يتوجّب نتأكّد مِن وجود جثّة. كما لو أنّ الأرض مادت بغتة، دوى الجوار مصحوباً بما يشبه الانفجار القوي لدى مرور ثلاث طائرات كادت أبدانها تلامس سطح المنزل بما يفوق سرعة الصوت، غارت دماء الجنود من وجوههم، بقي الرجل المدني رابط الجأش، وجّه أمره للأسرى الثلاثة. احفروا. قضوا ما يزيد على ساعة، حفروا بعمق يتجاوز المتر، همس فهد متسائلاً بعتب مرير. لو لم يطلب جعفر يُدفن هنا. كانوا وسط انشغالهم داخلٍ الحفرة لا يرون ما يدور خارجا، سمعوا صوت الرجل المدني زاجرا. ما الذي تقولونه. أجابه غالب دون أن يرفع رأسه. نقول بدأنا نشمّ الرائحة. تساقطت عندهم حفنة تراب، رفعوا رؤوسهم، رأوا الرجل المدني يقف عند حافّة الحفرة، استعان بيده مشيرا. وسّعوا مساحة الحفر من هنا. أنسحبَ وراء، رسخ في وعي الثلاثة أنّ حفرهم الأرض لم يعد يهدف للتأكّد من وجود جثمان جعفر، عادت الطائرات الثلاث خرقت حاجز الصوت ثانية، واصلوا الحفر ساعة أخرى، تساقطت عندهم حفنات تراب، تنبهوا لاقتراب ثلاثة من الجنود وقفوا عند الحافة، رأوا فوهات البنادق الرشاشة مصوّبة إليهم، أطل وجه الرجل المدني عليهم من وراء أكتاف الجنود، سمعوه يقول منحى اعتذار أو تبرير. نحن مأمورون مسؤولون ننفذ أوامر.

الحجز داخل زنزانة انفرادية يعني اجترار الواحد أفكاره، يعني مراجعته تفاصيل من حياته بمواقف مترتّبة، يتريّث عند أيامه في

موسكو، ساعاته مع هيا، مسؤولية ناتجة عن توريطه العريف ريسان، يدريه زنزانة قريبة، لكنها استحالة التواصل، عرف من قاضي المحكمة أنّ أباه تقدّم بطلب إحالة على التقاعد، ابنه مرّغ تاريخه العسكري المشرّف بالوحل ، ولا بأس يتبرأ منه إن كان ذلك ينجيه من العقاب، يتذكّر عهدة سابقة، كانوا أربعة، مات جعفر متأثّراً بنزيف داخلي، كيف لأيّ منهم يختار التسليم للموت. طفق أيمن يعدّ الأيام انتظاراً لحلول 22 آذار، مثوله أمام القاضي، سماع الحكم. الذي حدث أنّ أيمن لم يمثل، النظام العام للدولة أصيب بأسباب عطب كثيرة خلال أيام معدودة، مُنذ توجيه الرئيس الأمريكي يوم 18 آذار إنذاره للسيّد الرئيس يغادر العراق برفقة ولديه ضمن مُهلة 48 ساعة، مُنذ أوّل غارة جويّة استهدفت أحد قصور السيّد الرئيس، مع انتهاء المهلة في 20 آذار، قيام الحرب وتيرة متسارعة جويّة بريّة في الوقت نفسه، سقوط محافظة البصرة بأيدي الجيوش الغازية بعد مُحاصرة دامت 8 أيام، لتبدأ جيوش أميركا والدول المتحالفة معها زحفها شمالاً باتجاه بغداد وسط تفكك وحدات الجيش العراقي وترددها بالمواجهة، يوم 7 أبريل أغار طيران الدول المتحالفة على القصر الجمهوري مستخدماً قنابل ذكيّة موجّهة بالليزر، قيل أنّ الرئيس حفظه الله عرف بأمر الغارة قبل وقوعها، توجّه لمكان آمن، فجر 9 أبريل جاءهم من فتح أبواب زنازينهم، أنتم مُطلقو السراح بناءً على مكرمة من السيّد الرئيس قضت بفتح أبواب المعتقلات والسجون العراقيّة. تعانق أيمن وريسان، تفاجأ أيمن بانتحاب ريسان على صدره. كنتُ خائفاً عليك. خرجا معاً إلى الطريق، عرفا بدخول طلائع آليات الجيش الأمريكي ضواحي بغداد الجنوبيّة، لا وجود

لقطعات جيش عراقي ولا لرجال أمن، شاهدا جحافل بشريّة من فقراء بغداد تقتحم أبواب الوزارات والمؤسساتِ الرسميّة تنهب محتوياتها، أيمن وريسان يتابعان طريقهما نحو محلّة السنك، تساءل ريسان مستنكراً وهو يرى اقتحام الجماهير للمنشآت الحكوميّة. ينهبون بلدهم. أجابه أيمن. نكاية بنظامهم. وصولهما مفرق مسجد الخلّاني حوالي الساعة التاسعة صباحاً، قال أيمن. لا بُدّ من ذهابي لمدينة الضباط، هناك ما يُفترض بي القيام به، سأكون عندكم بأسرع وقت. بلوغه بيتهم في مدينة الضبّاط الساعة العاشرة، رأى أبويه يستعدّان للسفر بالسيارة، حضنه أبوه لصدره قبل أن ينتحب، هو على يقين مطلق ببراءة ابنه مما نسبوه إليه، هم أزمعوا يكيدون للأب ملوّحين في وجهه بورقة ولده، لكنّ الله سبحانه وتعالى بالمرصاد، للعميد ركن عبدالرزاق شرف إحالة نفسه على التقاعد مختاراً قبل أوان خزي النظام، لم يشأ يجادل أباه قناعاته، تحوّل أيمن لمعانقة أمّه التي بكت على صدره طويلاً. تأتي معنا. قالها أبوه، أجابه أيمن. لديّ بعض أمور أنتهي منها وألحق بكما. زوده أبوه كشفاً بالأماكن المحتملة لوجودهما، بدءاً سيكونان ضيوف أحد أبناء العمومة في الموصل ليوم أو يومين ومنها إلى سوريا، أماكن أخرى يعرفها أيمن، هذا جواز سفرك إضافة لمبلغ عشرين ألف دولار من باب الاحتياط، وهذه بطاقتك البنكيّة تستطيع استخدامها في أي بلد حول العالم، حرص على ملازمتهما لحين تحرّك سيارتهما، طائرات الدول المتحالفة تتخاطف سماء بغداد دون أنْ تقصف أهدافاً ما، هبّت رياح أبريل مُنعشة، لو كان الزمن غيره، صعد لغرفته ألقى نظرة أخيرة على موجوداتها. شوارع بغداد شبه مُقفرة، قاد سيارته باتجاه مسجد الخلّاني، وجد

هيا بانتظاره عند مدخل الزقاق. تأخّرت. رددتها ملتاعة قبل أنْ تفتح ذراعيها، بكت على صدره، يبدو أنّه يوم البكاء، أحسّ أيمن بانطباق حنجرته، انتحب بدوره، ريسان وجنى وأمّ هيا كانوا أمام باب البيت، قادوه للداخل، استقبلته لوحة القرد وحيد في صدر الصالة، نزّ طعم المرارة تحت لسانه، وسط أحداث عاصفة متسارعة بما لا يُصدّق يجدر بأيمن يعرف ماذا حلّ بالعهدة الثلاثة، التفت لريسان. أريد الذهاب لمعسكر التاجي. شُده ريسان لوهلة، تنبّه قال. معك. مسارعتهما يغادران لحقت بهما هيا. مُنتصف النهار، شوارع بغداد مازالت مُقفرة، صادفوا ناقلة جند أمريكية تتقدّمها جيب هَمَر، بدا على عساكر الأمريكان كمن يقومون بنزهة، واتتٍ أيمن فكرته لوّح لهم، ردّوا تحيّته، الطريق السريعة الصاعدة شمالاً مقفرة تماماً، حاذوا سيّاج معسكر التاجي، لا أثر للحياة هناك، البوابة الرئيسيّة المطلّة على الطريق السريعة مُشرعة، اجتازها أيمن بسيّارته، راحت عيناه صوب منشآت المعسكر، العنابر ومبنى الإدارة، رأى الدمار يعم الجوار، صوّب نظره للبيتين إيّاهما، رآهما قائمين، هل يحق له يطمئن، استغرب وجود قطيع أغنام بصحبة راعيه، خفف من سرعة سيّارته. السلام عليكم. عليكم السلام. أشار أيمن بامتداد ذراعه نحو البيتين، سأل الراعيٍ إن كان يعرف بوجود ناس في المكان. نفض الراعي رأسه نافيا، عاد أيمن تحرّك بسيّارته نحو موقع البيتين، حوّمت اسراب الطيور فوقهم، غمغمت هيا مندهشة. كثيرة. ردّ أبوها. طيورهم. تذكّر وضّح. الكويتيون يحسنون التعامل مع الطيور. رأوا باب بيت العهدة مُشرعاً، خطر لأيمن، جاءهم من نقلهم لمكان ثانٍ، دخل غرفة المعيشة تتبعه هيا ومن ورائها ريسان، تفاجأوا بفوضى

المكان، فرش مُبعثرة وقطع ملابس ملقاة على الأرض، قرّ في وعي أيمن، لم يأتهم من نقلهم لمكان ثان، تفقّد أبوابٍ الغرف، وجدها مُقفلة، مشى نحو مساحة الأرض ًالخلفية مروراً بالمطبخ، حوّمت مئات الطيور، بدأت تحطّ على سور التشوينة، تنبّه لآثار حفرة لم تُدفن تماماً، هنا مكان قبر جعفر، لكنّ محيط الحفرة أكبر، انحنى ريسان على الأرض بدأ يلتقط أغلفة طلقات كلاشنكوف، تهدّج صوته. قتلوهم. أفلت فم أيمن صرخة رافضة. لماذا القتل. جثا عند الحفرة، انتفض جسده، انحنت عليه هيا.

فصل أخير

وَرَدَ في سفرِ الأحوال أنّ الحزن سمة الكائن البشري، وَمَنْ أَحسنَ تداوله عرفَ كيف يُقيم صرح محبّة.

مؤلفات إسماعيل فهد إسماعيل

1 - البقعة الداكنة - مجموعة قصص 1965
2 - كانت السماء زرقاء - رواية 1970
3 - المستنقعات الضوئية- رواية 1971
4 - الحبل- رواية 1972
5 - الضفاف الأخرى - رواية 1973
6 - ملف الحادثة 67: رواية 1974
7 - الشيّاح: رواية 1975
8 - الأقفاص واللغة المشتركة: قصص 1976
9 - النيل يجري شمالا (البدايات): رواية 1977
10 - النيل يجري شمالا (النواطير): رواية 1978
11 - الطيور والأصدقاء: رواية 1979
12 - خطوة في الحلم: رواية 1980
13 - النّص: مسرحية 1981
14 - القصة العربية في الكويت: دراسة 1982
15 - الفعل والنقيض في أوديب سوفوكل: دراسة 1983
16 - الكلمة الفعل في مسرح سعدالله ونّوس: دراسة 1985
17 - النيل الطعم والرائحة: رواية 1989
18 - إحداثيات زمن العزلة: الشمس في برج الحوت
كتاب أول: رواية 1996
19 - إحداثيات زمن العزلة: الحياة وجه آخر
كتاب ثان: رواية 1996
20 - إحداثياتّ زمن العزلة: قيد الأشياء
كتاب ثالث: رواية 1996

21 - إحداثيات زمن العزلة: دوائر الاستحالة
كتاب رابع: رواية 1996

22 - إحداثيات زمن العزلة: ذاكرة الحضور
كتاب خامس: رواية 1996

23 - إحداثيات زمن العزلة: الأبابيليون
كتاب سادس: رواية 1996

24 - إحداثيات زمن العزلة: العصف
كتاب سابع: رواية 1996

25 - يحدث أمس: رواية 1997

26 - سماء نائية: رواية 1998

27 - بعيدا إلى هنا: رواية 1999

28 - الكائن الظل: رواية 2000

29 - مبدعون مغايرون: دراسة 2001

30 - علي السبتي شاعر في الهواء الطلق: دراسة 2003

31 - ما تعلمته الشجرة: مجتزأ من سيرة ليلى العثمان 2005

32 - للحدث بقية: مسرحية 2008

33 - ما لا يراه نائم: قصص 2009

34 - مسك: رواية 2010

35 - عندما رأسك في طريق واسمك في طريق أخرى: رواية 2011

36 - في حضرة العنقاء والخل الوفي: رواية 2012

37 - طيور التاجي: رواية. 2014

طيور التاجي

من أين لأيهم طاقته الشعوريّة التي تمدّه بقدرة مواصلة الانحباس داخل المكان في المنأى من كلّ ما له علاقة بالوطن والأهل عبر زمن مفتوح على أبديّته ولا يصادفه قنوط اليأس أو ردّات فعل نفسيّة تستحيل انعكاسات جسديّة. الآن هم أواخر شهر أكتوبر 2002، أكمل تواجدهم هنا سنة وثمانية أشهر، شاءت صُدفهم أن لا يعرفوا بعضهم البعض قبل بلوغهم موقعهم هذا. أتوا بهم معصوبي الأعين مقيدي الأيدي من خلاف حوالي منتصف ليل عيد وطني يمتّ لهم، ليتعارفوا بينهم بعد اطلاق سراح عيونهم. جعفر، بدر، غالب، فهد، تداولهم أسباب وضعهم داخل بيت في الطرف الأبعد لمعسكر يجهلون اسمه وموقعه، كما حال من حُكموا إقامة جبرية، بذلوا جهدهم يستنتجون أو يحدسون باحتمال ابرام صفقة أو عقد صلح يُنهي مصائب عالقة بين بلدين شقيقين بما فيها اطلاق سراحهم.

اسماعيل فهد اسماعيل


ISBN: 978-614-02-1117-9

info@novapluskw.com



منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com - www.nwf.com